

إِشَارَاتُ الْعَارِفِينَ

فِي

تَنْزِيمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

جميع حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

لشركة الوابل الصيب

للإنتاج والنشر والتوزيع

٧ شارع الجمهورية - عابدين - وسط القاهرة

١٠ شارع الإمام الدردير - خلف الجامع الأزهر

جمهورية مصر العربية

ت: ٠١٢٠٨٣٠٣٩٠١ (+٢٠٢)

٠١١٤٧٢٠٨١٧٣ (+٢٠٢)

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

رقم الإيداع: ٨٩٦٨ / ٢٠٢٣

الترقيم الدولي I.S.B.N.

٩٧٨-٩٧٧-٦٨٠٢-٦٦-٧

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

إشارات العارفين في تنزيه الأنبياء والمرسلين، خلدون

أمين الهيئتي القادري، تقديم د. علي جمعة، د. يسري

جبر، د. أحمد عمر هاشم

١- القاهرة: دار الوابل الصيب، ٢٠٢٣م.

تدمك: ٧-٦٦-٦٨٠٢-٩٧٧-٩٧٨

١- الشريعة الإسلامية.

٢- التفسير وعلومه.

٣- عصمة الأنبياء والمرسلين.

٤ - علم الكلام . باب النبوة.



الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا أمانته في أعناقنا

إِشَارَاتُ الْعَارِفِينَ فِي تَنْزِيهِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

تَأْلِيفُ
الشَّيْخِ خَلْدُونِ أَمِينِ الْهَيْتِيِّ الْقَادِسِيِّ

تَقْدِيمُ
أ. د. عَلِيِّ جَمْعَةِ
الدُّكْتُورِ يُسْرِي جَبْرِ الْحَسَنِيِّ
أ. د. أَحْمَدَ عُمَرَ هَاشِمٍ

تَقْرِيطُ
أ. د. عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ

قال الله تعالى: (والله يعلم ما كنتم
تعملون) اللهم اجعله علماً نافعا
العبد الفقير الى مولاه
علي الفردوسي
نور

تقريظ

الحمد لله الذي أنار دواجي الغسق بإرسال الأنبياء والمرسلين، وأفاض التحقيق على ألسنة المتقين، وطهر بالعلم قلوب العارفين، أحدهم حمداً أنال به درجة الصادقين، وأصلي وأسلم على أفضل البرية سيدنا محمد المرسل رحمة للعالمين، المبعوث بالحنيفية التي عصمتها مع إخوانه الأنبياء والمرسلين، فكانوا أنقى الخلق أجمعين، عليه وعليهم أزكى الصلاة وأسمى السلام في الأولين والآخرين، وعلى آله وعترته وأنصاره وأصحابه وأزواجه وذريته والتابعين.

أما بعد: فقد سرحتُ طرفَ النظرِ بإمعان الناظرين، في الكتاب المسمى "إشارات العارفين في تنزيه الأنبياء والمرسلين" الذي ألفه الأخ الكريم الفطين، فضيلة الشيخ خلدون أمين الهيتمي القادري في مصر المحمية التي دخلها وسكنها في الآمين، وعلى عجلة من أمري في قراءة جزء من هذا الكتاب الرصين، وجدته كتاباً حوى في بابه علماً مفيداً لناشدي الحق المبين، ونافعاً في مسأله التي تنزه الأنبياء والمرسلين عما أسيء فهمه في تفسير آيات كلام رب العالمين، وحرّي بهذا الكتاب أن ينتفع به العلماء وطلاب العلم وطالبي الحق من المثقفين.

وفق الله تعالى المؤلف لسعادة الدارين، وجعل عمله هذا عبادة مع الذين عبدوا الله

مخلصين له الدين.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه الفقير إلى ربه الغنيّ

أ.د. الشيخ عبدالرزاق بن عبدالرحمن السعديّ

٢٩ / شعبان / ١٤٤٤ هـ / ١٢ / آذار / ٢٠٢٣ م

عمان - الأردن

الإهداء

إلى حضرة التجليات، ومظهر الأسماء والصفات، الجامع لكل الكمال، من
اتصف بصفات الجمال والجلال، من تنزه عن المخلوقين في المثال، ينبوع المعارف
الربانية، وحيلة الأسرار الإلهية، غاية منتهى السالكين، ودليل كل حائر من
السالكين، سيدنا محمد ﷺ.

إلى نجوم الهدى، ومصابيح الدجى، أئمة الحضرات، نواب الحق ﷺ في
إيصال المعارف والتجليات، ساداتنا الأنبياء والمرسلين صلوات ربي وسلامه
عليهم أجمعين.

إلى من لهم عليّ عظيم الفضل والمنّة، وأخص منهم سلطان الأولياء
والصالحين، الغوث الرباني سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ.

وإلى شيخ مشايخنا قطب الأقطاب، الوارث المحمدي الشيخ محمد الحلاب ﷺ.

وإلى شيخي ومددي وأبي الروحي الشيخ حسين الحلاب ﷺ.

وإلى شيخي وسندي وأبي الروحي ومُجيزي الشيخ حسن الحلاب ﷺ.

وإلى مظهر النور الأحمدى، وصورة الهيكل المحمدي، العارف بالله الشيخ
علي الفروجي الجزائري.



وإلى سادتي العلماء الذين شرفوني بمطالعة الكتاب والتقديم عليه:

الشيخ الإمام، قدوة الأنام، من رفع الله به لواء الإسلام في زمن الفتن
وشيوخ الظلام، نور الدين، الشيخ الدكتور علي جمعة الأزهرى.

وإلى الولي الخفي، الوارث المحمدي، شيخنا الشيخ الدكتور يسري رشدي
السيد جبر الحسني.

وإلى الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم.

وإلى أخي وشقيق روعي الشيخ أحمد عبد العزيز الفلوجي القادري.

وإلى أبي وأمي وزوجتي وأبنائي وأخوتي وأحبابي، وجميع المتعلقين بصاحب
الجناب العالي ﷺ، وجميع المسلمين عسى أن تنالنا دعواتهم الصالحة.



مقدمة فضيلة الشيخ
الأستاذ الدكتور علي جمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه
وبعد؛

فبين أيدينا كتاب « إشارات العارفين في تنزيه الأنبياء والمرسلين » الذي
أورد فيه المؤلف أقوال العلماء والمفسرين في الآيات القرآنية التي تناولت العصمة
لأهل النبوة والرسالة وتنزيه مقامهم والرد على الشبهات التي أثارها المسيئون
لجناب النبوة والرسالة، وهذه المسألة أعني - العصمة - تعرض لها الكثير من
المصنفين مفردين لها التصانيف أو باحثين عنها أثناء مؤلفاتهم.

ف نجد مثلاً فخر الدين الرازي له كتاب «عصمة الأنبياء»، وكتاب أبي الحسن
البستي «تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء»، وكتاب الإمام السيوطي
«تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء»، وكذلك العديد من الرسائل الأكاديمية التي
تناولت المسألة.

بيد أن هذا المصنف تناول مؤلفه موضوع التنزيه والعصمة التي جاءت
في كتابات العارفين من أهل الله تعالى وردودهم على أهل الشبهات، وكيف
دحضوها وأثبتوا وجوب العصمة والتنزيه لهم.

وأوضح المؤلف فيه معنى العصمة، وأقوال العلماء في وجوب عصمة الأنبياء والمرسلين من الصغائر والكبائر، وساق فيه أقوال أهل العرفان وفهمهم وأدلتهم من الآيات القرآنية والسنة المشرفة.

وأتم الفائدة بذكر الأحاديث النبوية التي جاءت في المسألة واتخذها المغرضون للإساءة لمقام الأنبياء، والرد على الفهم غير اللائق عن مقام النبوة من أهل الشغب.

نسأل الله - سبحانه وتعالى- أن يشرح صدرنا وأن يفهمنا الفهم السليم وأن يفصح ألسنتنا بالمعروف، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسنات مؤلفه.
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

أ.د/علي جمعة

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف



مقدمة أ. د. يسري رشدي
السيد جبر الحسني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي اصطفى بني آدم من خلقه، واصطفى من بني آدم خاصتهم وأفضلهم، فاختصهم بالنبوة والرسالة ليكونوا قدوة لعباده، ودليلاً على صراطه المستقيم، موضحين سبل رشاده وإرشاده، ناصحين للناس، مشفقين عليهم، مبينين للخلق كيفية معرفة الحق والتحقق به، حتى يصير الناس هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل خلقه، وأصفى الأصفياء، وأتقى الأتقياء وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار وتابعيهم إلى يوم الدين.

أما بعد،

فمعلوم أن عصمة الأنبياء من أصول عقيدة المسلمين، ومعنى عصمتهم أن لا تخطر على بالهم المعصية، صغيرة أو كبيرة، فضلاً عن ارتكابها، وذلك قبل بعثتهم وبعد بعثتهم على حد سواء، وإنهم يتصفون بالصدق والأمانة مع كمال الذكاء والحكمة والفتانة، وإنهم لا يكتمون شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق، وأي خلل في اعتقاد ذلك فيهم مجتمعين أو منفردين من الشبهات القبيحة ستؤثر في قلب المؤمن، فيختل عنده توقيدهم والتأسي بهم.



ولما كان في القرآن الكريم آيات في حق الأنبياء قد تشبه على الناس في ظاهرها، وقد انساق كثير من المفسرين وراءها، بما انتشر وذاع عن طريق من أسلم من علماء اليهود والنصارى حيث جاؤوا بما توارثوه خطأ في حق الأنبياء من نسبة المعصية إليهم، وفعل ما لا يليق خصوصاً أن اليهود لا يعتقدون في الأنبياء العصمة، ووجدوا من ظواهر بعض الآيات ما يؤيدهم على ذلك، كقوله تعالى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، وقوله تعالى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]، وقوله تعالى ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ﴾ [يوسف: ٢٤]، وغيرها من الآيات. فنسبوا للأنبياء ما لا يليق بعصمتهم مما نسميه إجمالاً إسرائيليات، فاستقر في وجدان كثير من المسلمين في اعتقادهم ما لا يليق بالأنبياء والمرسلين.

فكان من الضرورة في زماننا هذا أن يكون هناك كتاب يجمع هذه الآيات القرآنية جميعها، ويبين أقوال المفسرين مما لا يليق في حقهم، وعرض أقوال من عصمه الله وحفظه من هذه الإسرائيليات ففهمها الفهم الصحيح الذي لا يتعارض مع كمال الأنبياء وعصمتهم.

وكثيراً ما ذكرت في دروسي وشروحي على كتب السنة وكذا تفسير القرآن ما يجب في مثل هذه النصوص بما يليق مع عصمتهم، وكنت أتمنى أن أجمع ذلك في مؤلف خاص، ولكن ضيق الوقت وكثرة المشاغل منعني من ذلك.

فحقق الله تعالى أمني بعدما طالعت ما كتبه وجمعه الابن البار والشيخ الفاضل خلدون الهيبي القادري في هذا الكتاب، وشرفت بمراجعته كلمة كلمة،

وقد استوعب بقدر الطاقة أقوال المفسرين التي لا تليق، مع نسبتها لقائلها، ثم الرد عليها وتوضيح معناها بما يزيل الشبهة من أقوال العلماء القدامى والمعاصرين.

فكان عملا يستحق التقدير والدراسة والتدريس لكل من له اهتمام بالنصح للمسلمين، وخصوصا العاملين في مجال الوعظ والإرشاد والخطابة، فجزاه الله خيرا على ما قدم نصحا للأنبياء والمرسلين بدفع الشبهات عن جنابهم المعظم، ونصحا للمسلمين بتصحيح عقائدهم، بعد ما تم الشغب بها والتشويش عليها من الجاهلين والتسرعين للتصدي للدعوة والإرشاد بغير علم وتجروء على النصوص القرآنية، فينشرون جهلهم وفساد عقائدهم على أنها العقيدة السليمة، فأضلوا المسلمين وصرفوهم عن توقير الأنبياء والتعلق بهم.

ولذلك أنصح كل مسلم على اقتنائه وقراءته، بل ودراسته دراسة متأنية، ويدرسه لغيره، فالدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، كما بينها الحبيب الأعظم ﷺ في الحديث المشهور الذي رواه مسلم في صحيحه. والله أسأل التوفيق والقبول والفلاح لمؤلفه ومراجعته ومطالعه وناشريه، وأن يكون في ميزان حسناتهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الفقير إلى مولاه

يسري رشدي السيد جبر الحسني

الصديقي الشافعي الأزهري

القاهرة ١٤ شعبان ١٤٤٣ هـ

١٧ مارس ٢٠٢٢ م.



مقدمة الأستاذ الدكتور

أحمد عمر هاشم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فقد طلب مني مؤلف هذا الكتاب أن أكتب كلمة في مقدمته، فأرجو من
الله عَلَّيْ: أن يجعل فيه النفع لمن يقرأه، ويتحقق بمقام الأدب مع الأنبياء والمرسلين،
وينزه مقامهم من كل شبهة وإن دقت، وأن يبارك في كاتبه، وأن يشفع فينا جميعا
خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام.

وبالله التوفيق.

أ. د أحمد عمر هاشم

عضو هيئة كبار العلماء

بالأزهر الشريف



مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي اصطفى من خلقه رسلا، فأرسلهم مبشرين ومنذرين، ورفع رايات مجدهم في الملأ الأعلى، لبيان شأنهم العظيم، فقال ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. فتجلى على الخليفة بصفات الجلال والجمال، فصار صورة من الكمال، وألبسه أنوار ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وأجلسه على عرش خلافته، ثم أسجد له الملائكة، فقال ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الإسراء: ٦١]. فتأدب الملك والملكوت معهم، وتواضع في حضرته، وأخذ عنهم، وصار رهن إشارتهم.

والصلاة والسلام على سر إيجادهم، ومصدر إمدادهم، وعلة السجود لآدمهم، سيدنا محمد ﷺ، نبهم من عالم الذر، والنور الذي انتقل في أصلاهم، فحماهم الله به من كل شر، أولهم في النشر، وقائدهم وإمامهم في الحشر.

اللهم صلّ عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، نواب الحق ﷻ في مملكته، الذين اصطفاهم على المخلوقين، فهم أطيب الخلق نسبا، وحسبا، وصورة، ونفسا، وروحا، وقلبا، وسرا، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]. ثم جعلهم خزائن علمه المكنون، بقوله ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ



الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴿٣٢﴾ [فاطر: ٣٢]، فأرسلهم لهداية الخلق إلى عبادة رب العالمين، وعصمهم من كل شيطان رجيم، فقال ﴿٣٣﴾: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فذل الشيطان لصولة الخطاب، وأيقن بالإعطاب، فقال معترفا بعجزه عن مجارة أهل المشاهدة والمسامرة والخطاب: ﴿لَا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ [الحجر: ٤٠].

أرسلهم وأمدّهم بالتمكين والنصر في جميع المنازل ﴿٥١﴾: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]. فاقتحموا ساحات المجاهدات، متمكنين على صهوة عاديات العبودية الحقة، متسلحين بسلاح الذل والافتقار، إقرارا لمولاهم بالفقر، وإظهارا في حضرته للضعف، فجازاهم من الترقى ما جاوز الضعف. فأيدهم بالمعجزات، وأشهدهم الأسرار والمخفيات، وأنطقهم بالغيبات، وسخر لهم الملائكة وسائر العلويات والسفليات. فقاموا بما كلفوا به على أحسن ما يكون، وضحوا من أجل ذلك بالنفس، والمال، والبنين. فجزاهم الله عنا، وعن جميع المسلمين الموحدين، من لدن سيدنا آدم عليه السلام، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها خير الجزاء.

أما بعد،

فيعتبر اتهام الأنبياء والمرسلين بالهوى، والخطأ، والذنوب، وتسليط الشيطان عليهم، من أخطر المواضيع التي تمس عقيدة المسلمين، حيث يتخذها البعض بوابة، يلجئون من خلالها إلى الطعن فيما جاء به المرسلون، ومن ثمّ الطعن بمن أرسلهم. وما ذلك إلا بالاستدلال بأقوال بعض المفسرين، الذين أوردوا في تفسيراتهم بعض الإسرائيليات، ولم يبينوا بطلانها، بل صارت سمة لبعض التفاسير.



والبعض الآخر تأثر بعقيدة من دخل الإسلام من اليهود والنصارى،
والذين كانوا يُجوزون الذنب على الأنبياء، باعتبارهم بشرا معتادا، فوقعوا في
المحذور ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فحُجبوا بالبشرية، ولم يدركوا سر
الخصوصية التي أثبتها الله ﷻ لهم.



ومما منَّ الله به عليّ أن جعلني أنشأ وأتربى في أكناف آل بيت النبي ﷺ،
وأرتع في رياض معارفهم، وأرتوي من سلسبيل علومهم وآدابهم. ففتحت ناظري
على طلعة بهية، تشع نورا وأسرارا نبوية. تمثلت في شيخي وأبي الروحي الوارث
المحمدي (الشيخ حسين الحلاب ﷺ) والذي أرضعني منذ نعومة أظفاري محبة
الصالحين والأنبياء والمرسلين، وتوقيرهم، والتأدب في حضرتهم، ومعرفة قدرهم،
وأنتهم أبواب الحضرة الإلهية، ونواب خير البرية، ومن أقواله: (الأنبياء هم أئمة
الحضرة الإلهية، وخلفاء الله في أرضه، وواسطة البلاغ عنه، وقلوبهم حضرات
التجليات، والأولياء على قدم الأنبياء، والقطب الغوث على قدم النبي ﷺ، ونهاية
درجات الولاية والصديقية هي بداية درجات النبوة، ولا يصل الولي إلى مقام
النبوة مهما ترقى في الدرجات، فالنبوة وهبة والولاية كسبية. وما دمنّا نتأدب مع
الأولياء، ونحبهم، ونوقرهم، فمن باب أولى التأدب مع الأنبياء والمرسلين، فليس
لهم حركة ولا سكون، ولا كلام ولا سكوت، إلا بما يوافق مراد الله ﷻ).

ومع ظهور أناس تبادوا في هذا الأمر، وجعلوه شغلهم الشاغل، فنشروا
القول بجواز الذنب على الأنبياء، وأنهم بشر مثلنا، ويجوز عليهم ما يجوز علينا،
مستدلين ببعض الآيات القرآنية، التي فسروها بما يوافق هواهم، لا بما يوافق
مقامات الأنبياء التي بينها الله ﷻ: في القرآن، وصنفوا الكتب في ذلك، وأنشأوا



المحطات التلفزيونية، والقنوات الإذاعية لنشر هذا الفكر السقيم. ولا غاية لهم، إلا الإساءة للأنبياء والمرسلين بحجج واهية، وتكفير من دافع عنهم، وتعلق بهم، ووقّرهم، وعزّزهم بحجة الغلو والإشراك. لكنّ ذلك كله كان مدحوضاً في نظري، لما كنت أسمعه من مشايخي، ومن تفسيرات العارفين بالله. وخاصة ما سمعته من شيخي ومددي، وأبي الثاني، العارف بالله الشيخ (حسن الحلاب رحمته الله).

ومع بحثي الشديد في أمهات الكتب التي توضح هذه الآيات، ومع سماعي لكثير من علماء المعمورة، الذين تصدوا للرد على تلك الشبهات، كانت نفسي تتوق إلى كتاب يرد على كل الاتهامات الباطلة، التي وردت في كتب التفسير، وما تبناه بعض العلماء. وقد قرأت بعض الكتب التي تصدت لهذا الأمر، مثل «تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء» لأبي الحسن السبتي، وكتاب «تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء» للأمام السيوطي، وكتاب «تنزيه الأنبياء» للشريف الرضي وغيرها. وجزاهم الله عنا كل خير على ما قاموا به من توضيح لبعض الآيات.

لكنها لم تشبع رغبتني في الدفاع على الجنب النبوي، ونصرته، وتنزيهه، لأنهم لم يتطرقوا إلى كل الآيات التي تخص هذا الموضوع. ولكنني كنت أريد إلى بحار المعارف النبوية، والأسرار الإلهية، والمتمثلة في شيخي حسن الحلاب رحمته الله، فأجد ضالتي، وأرتوي حتى النشوة. فأعرض عليه الآية تلوا الآية، وهو يبينها ويوضحها، حتى تصير للسامع كواضحة النهار، وأنا أدون ما أسمعه منه.

والذي ستقرأه في هذا الكتاب من تأويله لهذه الآيات، وبيان مقاصدها، خير دليل على علومه اللدنية، بل يجعلها آيات مدح وثناء في حق الأنبياء. فيقرأ القرآن



كانه سطر واحد، ويفسر الآيات بالآيات، وكأنه أحاط بعلوم وأسرار الشريعة والقرآن، وما ستتعجب منه عندما أخبرك أيها القارئ العزيز، إنّ الذي أتحدث عنه، وأذكر قطرة من فضائله، هو رجل أمّي، لم يتعلم ولم يمارس القراءة والكتابة، ولكن قد منّ الله عليه بقراءة القرآن الكريم وحفظه، وما هي إلا وراثة نبوية من جده المصطفى ﷺ، وعلوم لدنية، وأسرار تلقاها من والده القطب الغوث الشيخ محمد رمضان الحلاب رحمه الله.

وكنّت أتسلح بما يشرحه لي في الرد على بعض من يسيء إلى مقام النبوة في المجالس، من بعض من يدّعي العلم والثقافة، فأدحض حججهم وأدمغها. وبفضل الله، كان كثير منهم عندما يستمع لما أنقله من أقوال شيخي حسن الحلاب رحمه الله، يرجع عمّا يقول، ويعتقد الاعتقاد الصحيح بالأنبياء والمرسلين.

بعدها، استأذنت شيخي حسن الحلاب رحمه الله في تأليف كتاب يجمع بين دفتيه جميع الآيات القرآنية، التي اتخذها المسيئون ذريعة لإثارة الشبهات حول الأنبياء، والرد عليها بأقوال العارفين بالله، والعلماء الربانيين. فأذن لي بذلك، وجرى سريان سر الإذن، فجاءت البشارات. ففي اليوم الذي أذن لي في ذلك، وبدأت بجمع أقوال العلماء وتفسيراتهم، رأيت رؤيا منامية، ومضمونها أن سيدنا النبي ﷺ قد اختار عنوان هذا الكتاب وأخبرني به، وهو «إشارات العارفين في تنزيه الأنبياء والمرسلين»، واستيقظت ودونت العنوان، وقصصتها على شيخي، فقال إنما هي بشارة عظيمة، وتأيد ونظر من سيد الوجود ﷺ، ولا يوجد أفضل، ولا أكمل من هذا العنوان، وهذا جائزة عظيمة لما ستقوم به من الذود عن مقام النبوة، والنصرة لله ورسوله.



فبدأت متوكلا على الله ﷻ: بجمع الآيات التي تخص الموضوع، ومن ثم أقوال المفسرين التي لا تليق بمقام النبوة، وأقوال المفسرين والعارفين والأولياء الذين نزهوا مقام النبوة من كل شبهة وإن دقت. ولم أقتصر على علماء السلف وكتبهم، بل استشهدت بأقوال العلماء المعاصرين، وخصوصا في التفسير الذي يليق بمقام النبوة، فقد أعطاهم الله ﷻ من العلم والفقه، ما بينوا من خلاله التفسير الصحيح في تلك الآيات. ومنهم الشيخ الطاهر بن عاشور، والشيخ عبد الله الصديق الغماري والشيخ محمد متولي الشعراوي، والشيخ محمد بن علوي المالكي، ومفتي الديار العراقية الشيخ الدكتور رافع الرفاعي، والشيخ الإمام العلامة علي جمعة، وأخص بالذكر الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني، والذي لم يترك آية فيها متعلق شبهة على الأنبياء، إلا وتجدد يفسرها بتفسير يليق بمقام الأنبياء والمرسلين، وتوجت ذلك كله بأقوال مشايخي الشيخ حسن الحلاب، والشيخ حسين الحلاب - رضي الله عنهم أجمعين.

تنبيه:

أود أن أوضح بعض الأمور:

روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»^(١).

الأمر الأول: ما يهمني من أقوال المفسرين والعلماء، هو أقوالهم في تنزيه مقام الأنبياء والمرسلين، بغض النظر عن المدرسة التي ينتمون إليها.

(١) الترمذي (٢٦٨٧)، ابن ماجه (٤١٦٩).



الأمر الثاني: عند ذكرى لأقوال العلماء الكبار من السلف والخلف، فلا تظن أيها القارئ الحبيب أني أسيء لهم، أو أطعن في علمهم، حاشا لله، ولكن مقام الغيرة على مقام النبوة والرسالة وتنزيهه، هو الأهم، وهو غني عن تنزيهنا، والحق أحق أن يتبع. فعلى سبيل المثال، عندما تراني أذكر قول الإمام الطبري في التفسير الذي لا يليق بمقام النبوة، فلا يعني أني أطعن في علمه، فتراني أعدل إلى رأيه في آية أخرى، وأذكر قوله في التفسير الذي يليق بمقام النبوة في تلك الآية. وهكذا مع بقية المفسرين.

الأمر الثالث: لم أكتف في هذا الكتاب بذكر أقوال مشايخي في الرد على من أساء لمقام النبوة، بل أوردت أقوال العلماء من الخلف والسلف، وكل على حسب علمه، وما فتح الله عليه في رفع الشبهة عن الأنبياء. لأبين أن تعظيم الأنبياء، وتوقيرهم، والذود عنهم، هي عقيدة السلف والخلف. وتركت لك الخيار في أن تأخذ أي الأقوال شئت، ما دامت تليق بمقام النبوة.

الأمر الرابع: إني أشهد الله ﷻ: بأنني أحسن الظن بجميع علماء المسلمين من السلف، وأتمنى أن يكون ما وجد في كتبهم من التفسيرات المسيئة قد دُست عليهم. وإن لم تكن دُست عليهم، فنعتذر عنهم، بأنهم أوردوا ما أوردوا في كتبهم، من باب حفظ جميع مرويات العلم، وهم يعلمون أن عقيدة المسلمين بالأنبياء والمرسلين قائمة على تنزيههم من كل شبهة، ولكن جاء من استغل أقوالهم بشكل خاطئ. ونسأل الله أن يغفر لنا ولهم.

الأمر الخامس: لا تظن إذا ما قرأت ردي على أحد أقوال أئمة السلف بأنني أدعي الأعلمية عليهم، فما حالي وحالهم إلا كحال الهدهد مع سليمان عليه السلام عندما قال له: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] فالهدهد هو الهدهد، وسليمان هو سليمان.



خطة الكتاب

الفصل الأول:

١- التعريف بالعصمة لغة واصطلاحاً.

٢- أقوال العلماء في عصمة الأنبياء من الصغائر والكبائر.

٣- الأدلة والبراهين من الكتاب، والسنة، وأقوال العارفين بالله، بأنَّ الأنبياء معصومون من الكبائر، والصغائر، والهوى، والنفس، والشيطان.

الفصل الثاني: الآيات القرآنية:

وجمعت فيه الآيات القرآنية لكل نبي من الأنبياء في باب واحد، والمنهج الذي اتبعناه في عرض الآراء تمثل فيما يلي: فهناك نوعان من التفسير بخصوص ما يتعلق بتفسير الآيات القرآنية التي تُبرز الشخصية المحمدية المباركة، أو شخصية الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

فالنوع الأول يفسر النصوص القرآنية والحديثية استناداً إلى الحقيقة البشرية الكاملة لرسول الله ﷺ، مع ما يلحقها من الصفات النبوية العامة.

أما النوع الثاني من التفسير فقد أضاف على أصحاب المنهج الأول مفاهيم مبنية على التوسع في إدراك جوانب غير محصورة من الكمالات المحمدية

والكمالات الإضافية الذي يقتضيها ختم النبوة، وبرزت هذه المعاني نتيجة تذوق عرفاني ومفاهيم ألهمها الله تعالى العلماء العارفين ليظهروها للناس وليكحلوا بها عيون الأسفار.

لذلك جعلت كل بحث يتعلق بتفسير آية في نوعين من التفسير، فأذكر أولاً ما ذكره أصحاب المنهج الأول وأطلق عليه «التفسير الأولي»، ثم ألحقه بما ذكر أصحاب المنهج الثاني تحت عنوان «التفسير العرفاني».

وقدمت في الذكر من قدمه الله ﷺ: في الخلق والنبوة، وأخذ العهد، إذ بعثه آخرهم وذكره أولهم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، فبدأت الفصل بالآيات التي تعلقت بسيدنا محمد ﷺ.

الفصل الثالث: الأحاديث النبوية الشريفة:

إتماماً للفائدة، ذكرت في هذا الفصل بعض الأحاديث النبوية الشريفة، والتي اتخذها البعض ذريعة للإساءة لمقام الأنبياء، ومن تعلق بهم، وأحبهم، ومدحهم.



بشارة

لما انتهيت من الكتاب، رأيت في الرؤيا؛ أن الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى، والشيخ الدكتور علي جمعة، والشيخ الدكتور أحمد عمر هاشم، جاؤوا لزيارتنا في مدينتنا (هيت) في العراق، فقال لي الإمام الشعراوي رحمه الله: جئت لأبارك لك على إتمام هذا الكتاب المبارك، ولزيارة العارف بالله الشيخ حسن الحلاب، ثم سألني الشيخ علي جمعة حفظه الله وبارك في عمره وعمله، عن عنوان الكتاب، فقلت له: عنوان الكتاب «إشارات العارفين في تنزيه الأنبياء والمرسلين» وإنما أخبرني به رسول الله ﷺ في المنام، فتواجد الشيخ علي جمعة ﷺ وقال: وأنا من سأطلع عليه، وأشرف عليه، وأقدم له. وقال الشيخ أحمد عمر هاشم متواجدا: والله لكتاب وضع عنوانه رسول الله ﷺ، سيوضع له القبول في الأرض، إن شاء الله. فاستيقظت من هذه الرؤيا مسرورا بهذه البشارة العظيمة.

وأخيرا: لا كمال إلا لكتاب الله ﷻ، فما كان من خير وصواب في هذا الكتاب فمن الله ﷻ، وفضله، ومنه، وكرمه، وتوفيقه. ومن ثم ببركة سر الإمداد من حبيبي رسول الله ﷺ، ومن دعاء مشايخي، وأنظارهم، وأقوالهم، وخصوصاً شيخ مشايخنا الوارث المحمدي الشيخ محمد الحلاب ﷺ، وسيدي وشيخي حسين محمد الحلاب ﷺ، وسيدي وشيخي حسن محمد الحلاب ﷺ.



وتواصل فضل الله تعالى عليّ إذ أكرمني بعد أن أمنيّا تنسيق الكتاب أن أعرضه قبل الطباعة على الولي الخفي، مظهر النور الأحمدى، وصورة الهيكل المحمدى، سيدي الشيخ علي الفروجي الجزائري رضي الله عنه، وفرح بالكتاب، وأثنى عليه، ودعا لنا بالقبول، وأن يكون خالصا لله تعالى، وأن يجعله علما نافعا، وأكرمنا بالتوقيع على الكتاب، فجزاه الله عنا خير الجزاء، ورضي عنه.

وأقدم بالشكر لكل من ساعدني في إتمام هذا الكتاب، وخاصة لسادتي العلماء الأجلاء الذين اطلعوا على الكتاب وقدموا له وأبدوا ملاحظاتهم القيمة التي زادت الكتاب بهاء وجمالا، كما لا يفوتني أن أشكر أخي وشقيق روحي الشيخ أحمد عبد العزيز الفلوجي القادري على مساعدته لي في إظهار هذا الكتاب المبارك، ولكل من أبدى لي النصيح، والرأي، والدعاء، وكل من مد يد العون في إظهار هذا الكتاب من مراجعة وتدقيق وتنسيق، فأسال الله أن يجزيهم خير الجزاء. وما كان من نقص، أو تقصير، أو إساءة أدب، فمن نفسي، فأستغفر الله العظيم من جميع الذنوب، وأتوب إليه.

خلدون أمين

الهيتمي القادري

العراق-الأنبار-هيث



عصمة الأنبياء

قال الإمام جلال الدين السيوطي: «من المقطوع به أنَّ الأنبياء والرسل هم صفوة البشر، خلقهم الله تعالى على الفطرة السليمة، النقية عن الآفات الخلقية، وقد هيأ لهم الله ﷻ نشأة، أعدهم بها لتحمل أمانة دعوة الخلق إلى التوحيد والعمل الصالح، فهم مكلفون من الله ﷻ: بهداية الخلق بالبيان الواضح، وإقامة الحجة الدامغة، ومقارعة الخصوم، يزين ذلك عقل راجح، وفطنة راشدة تبهت عقول المعاندين، والمجادلين بالباطل»^(١).

فالعصمة من الصفات الواجبة في حق الرسل والأنبياء، اللازمة لمقام النبوة، وهي جماع خصال الخير التي تنوء بالنبي عن كبائر الذنوب، وتجنبه صغيرها المتعمد.

وقبل الكلام عن العصمة، وموقف الفرق منها، يحسن بنا بيان معنى العصمة لغة واصطلاحاً.

تعريف العصمة لغة:

العصمة في لغة العرب جاءت بمعنى الوقاية، والمنع، والحفظ. وقال ابن منظور: «العصمة في كلام العرب المنع، وعصمة الله عبده أن يعصمه مما يوبقه،

(١) جلال الدين السيوطي وآراؤه الاعتقادية، سعد خليفة ج ٢ ص ٣٦٤.



عصمه يعصمه عصما: منعه ووقاه. قال تعالى على لسان سيدنا نوح: ﴿قَالَ سَأُوَيِّ
إِلَى جَبَلٍ يَعْصِيُنِي مِنْ أَمْرِ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]
واعتصم فلان بالله إذا امتنع به. والعصمة: الحفظ، يقال: عصمته فاعصم،
واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية، وعصمه الطعام: منعه من الجوع،
وهذا طعام يعصم: أي يمنع من الجوع، واعتصم به واستعصم: امتنع وأبى.
قال الله عز وجل حكاية عن امرأة العزيز حين راودته عن نفسه: ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾
[يوسف: ٣٢]، وفي السنة المشرفة عن ابن عمر، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^(١).

تعريف العصمة في الاصطلاح:

قال الراغب: «عصمة الأنبياء-عليهم الصلاة والسلام- حفظهم بما خصوا
به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الأخلاق والفضائل، ثم بالنصرة وتثبيت
أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق»^(٢). وعرفها
صاحب كتاب «نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض» بأنها: «لطف من
الله تعالى، يحمل النبي على فعل الخير، ويزجره عن الشر، مع بقاء الاختيار تحقيقا
للابتلاء»^(٣).

(١) البخاري (٢٥)، مسلم (٣٥).

(٢) روح المعاني للألوسي ج ٦ ص ١٩٩.

(٣) نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض ج ٤ ص ٣٩.



وعرفها الشيخ أحمد الدردير رحمه الله تعالى: هي حفظ الله ﷻ: للأنبياء،
بواطنهم وظواهرهم من التلبس بمنهي عنه، ولو نهي كراهة، ولو في حال الصغر مع
بقاء الاختيار تحقيقا للابتلاء^(١). وقيل: (المراد بالعصمة الحفظ من صدور الذنب)^(٢).

اختلاف العلماء في عصمة النبي من الصغائر غير المستبحة:

واختلف العلماء في عصمة النبي من الصغائر غير المستبحة، فقال الإمام
الرازي رحمه الله تعالى: واعلم أن في العصمة مسائل:

المسألة الأولى: اختلف الناس في عصمة الأنبياء عليهم السلام، وضبط
القول فيه أن يقال: الاختلاف في هذا الباب، يرجع إلى أقسام أربعة:

أحدها: ما يقع في باب الاعتقاد، وثانيها: ما يقع في باب التبليغ، وثالثها: ما
يقع في باب الأحكام والفتيا، ورابعها: ما يقع في أفعالهم وسيرتهم. أما اعتقادهم
الكفر والضلال، فإن ذلك غير جائز عند أكثر الأمة. وقالت الفضيلية من
الخوارج: إنهم قد وقعت منهم الذنوب، والذنب عندهم كفر وشرك، فلا جرم
قالوا بوقوع الكفر منهم. وأجازت الإمامية عليهم إظهار الكفر على سبيل التقية.

أما النوع الثاني: وهو ما يتعلق بالتبليغ، فقد أجمعت الأمة على كونهم
معصومين عن الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ، وإلا لارتفع الوثوق
بالأداء. وانفقوا على أن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمدا، كما لا يجوز أيضا سهوا.
ومن الناس من جَوَّز ذلك سهوا، قالوا: لأن الاحتراز عنه غير ممكن.

(١) شرح الخريدة مع حاشية الصاوي للدردير ص ١٠٤.

(٢) روح المعاني للألوسي ج ٦ ص ١٩٩.





وأما النوع الثالث: وهو ما يتعلق بالفتيا، فأجمعوا على أنه لا يجوز خطأهم فيه على سبيل التعمد، وأما على سبيل السهو فجوز به بعضهم، وأباه آخرون. وأما النوع الرابع: وهو الذي يقع في أفعالهم، فقد اختلفت الأمة فيه على خمسة أقوال.

أحدها: قول من جَوَّز عليهم الكبائر على جهة العمد، وهو قول الحشوية. القول الثاني: قول من لا يجوز عليهم الكبائر، لكنه يجوز عليهم الصغائر على جهة العمد، إلا ما ينفر كالكذب والتطيف، وهذا قول أكثر المعتزلة. القول الثالث: أنه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا بكبيرة على جهة العمد ألبتة، بل على جهة التأويل، وهو قول الجبائي. القول الرابع: لا يجوز عليهم الكبيرة ولا الصغيرة، لا بالعمد ولا بالتأويل والخطأ. أما السهو والنسيان فجائز، ويُعاقبون عليه، لأن علومهم أكمل، وهو قول أبي إسحق إبراهيم بن سيار النظام^(١). القول الخامس: أنه لا يقع منهم الذنب، لا الكبيرة ولا الصغيرة، لا على سبيل القصد، ولا على سبيل السهو، ولا على سبيل التأويل والخطأ^(٢).

قال الإمام الرازي، والذي نقول به: إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون في زمان النبوة عن الكبائر والصغائر بالعمد، إلا ما على سبيل السهو^(٣).

قلت: وقد أجمع كبار علماء الأمة من السلف والخلف، على عصمتهم من الصغائر والكبائر، إلا من شذ، كما بين الإمام الرازي من المعتزلة والحشوية. ولقد

(١) من أئمة المعتزلة وله الفرقة النظامية، كتب في الفلسفة والاعتزال توفي ٢٣١ هجري.

(٢) التفسير الكبير للإمام الرازي ج ٣ ص ٤٤٥.

(٣) عصمة الأنبياء ص ٢٨.

قال بهذا القول ابن تيمية، ومن سار على نهجه، فجوّزوا على الأنبياء ارتكاب الصغائر. قال ابن تيمية: «إنَّ الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر»^(١).

ثم جاء بعد زمان ابن تيمية (رحمه الله) بمئات السنين أناس، واستخرجوا الآراء التي اختلف فيها ابن تيمية مع الجمهور، وجمعوها، واتخذوها مذهبا، وبدأوا يخطئون الأنبياء والمرسلين، ويعتبرونهم بشرا معتادا، ويجوّزون عليهم ما يجوز على البشر. حتى إنهم تجرّؤا على كبار علماء الأمة وأفذاذها؛ لأنهم نزهوا الأنبياء عن الصغائر والكبائر. فجاء عبد الرحمن البراك، وصنّف كتابا يخطئ فيه الإمام ابن حجر العسقلاني في أمور العقائد في شرحه على فتح الباري، ويقول: «هذا الذي ذهب إليه ابن حجر ليس قول أهل السنة، بل قول الأشاعرة»، ونسي هذا الرجل أنَّ الأشاعرة هم أهل السنة والجماعة، وهم أكثر من تسعين بالمائة من المسلمين. ولا غرابة في ذلك؛ إذ إنهم تجرّأوا على الأنبياء في كتبهم، فلا ضير عندهم في التهجم على كبار علماء الأمة، بل على ما تعتقده الأمة من عهد السلف إلى زماننا هذا. وهذا التجرؤ أدى في النهاية إلى تكفير الأمة وتبديعها.

قال عبد الرحمن البراك ردا على قول الحافظ ابن حجر العسقلاني: قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: قد استشكل وقوع الاستغفار من النبي ﷺ، وهو معصوم، والاستغفار يستدعي وقوع معصية.

وأجيب بعدة أجوبة: منها ما تقدم في تفسير الغين، ومنها قول ابن الجوزي: «هفوات الطباع البشرية لا يسلم منها أحد، والأنبياء وإن عُصموا من الكبائر، فلم يُعصَموا من الصغائر، كذا قال، وهو مفرع على خلاف المختار، والراجح

(١) الفتاوي ج ٤ ص ٣١٩.

عصمتهم من الصغائر أيضاً....^(١). انتهى كلام ابن حجر وترجيحه عصمة الأنبياء من الصغائر والكبائر.

قال البراك: قوله: «والراجع عصمتهم من الصغائر أيضاً»: في هذا الترجيح نظر، بل الراجع جواز وقوع الصغائر منهم، والسهو والنسيان من باب أولى؛ فهذا آدم عليه السلام، نسي وعصى، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وهذا نوح عليه السلام سأل ربه ما ليس له أن يسأله، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [٤٦] قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ [هود: ٤٦-٤٧] وهذا موسى عليه السلام، قتل نفساً لم يؤمر بقتلها فندم وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [١٦] [القصص: ١٦].

وإن كان هذا قبل الإرسال، فهو وارد على القائلين بالعصمة مطلقاً، وقد عاتب الله عز وجل نبيه في مواضع من القرآن، فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقال: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْرِخَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [عبس: ١].

والمقطوع به أنهم صلوات الله وسلامه عليهم معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى، ومن الإقرار على شيء من الذنوب أو الخطأ، ومعصومون من الذنوب

(١) أشار إليه البراك في تعليقات على المخالفات العقدية في فتح الباري (١١ / ١٠١) على حديث رقم ٦٣٠٧.



التي تنفّر عن دعوتهم. والمقتضي للاستغفار أعم من أن يكون ذنباً، بل قد يكون تقصيراً عما يطلب من الكمال، وقد يكون شعوراً بالتقصير وإن لم يكن، وهذا من الكمال. وبهذا يتحقق لهم كمال العبودية في سائر مقامات الدين. والله أعلم^(١).

قلت: وترى أيها القارئ الحبيب، كيف يجوزون الخطأ على الأنبياء، وكيف يستدلون بآيات لا تدل على ارتكابهم المعصية والذنوب. والرد على البراك وأمثاله، ممن تجرّؤوا على مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ما قاله سيدنا علي عليه السلام: إِذَا حَدَّثْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا، فَظَنُّوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَهْيَأُ وَأَهْدَى وَأَتَقَى^(٢)، أي ما يتفق مع هيئته؛ لقوله عليه السلام: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعَمٌ يُطْعِمُنِي، وَسَاقٍ يَسْقِينِي»^(٣)، و(أهدى) فهو عليه السلام الهادي المهدي عليه السلام ﴿وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، و(أتقى) وهو الذي يقول عن نفسه: «إِنَّ أَتَقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُم بِاللَّهِ أَنَا»^(٤)، وقوله عليه السلام: «قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتَقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبْرُكُكُمْ»^(٥).

ونحن ومن خلال هذا الكتاب، سنوضح ونبين التفسير الصحيح للآيات التي استشهد بها على جواز الذنب على الأنبياء، وبما قاله كبار علماء الأمة من السلف والخلف. وسنشرع في ذكر أقوال العلماء في إثبات العصمة للأنبياء من الصغائر، والكبائر، واتباع الشيطان قبل النبوة وبعدها.

(١) تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري ج ١١ ص ١٠١.

(٢) الأمالي في آثار الصحابة للحافظ الصنعاني ج ١ ص ١٥، الأسماء والصفات للبيهقي ج ٢ ص ٧٢.

(٣) البخاري (١٩٦٣).

(٤) البخاري (٢٠).

(٥) البخاري (٧٣٦٧).



قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «إنَّ مذهب السلف يقول بعصمة الأنبياء من كل صغيرة وكبيرة، قال ابن حجر: إنَّ السلف قد اختلفوا فيما عدا ذلك كله من الصغائر، فذهب جماعة من أهل النظر إلى عصمتهم منها مطلقا، وأولوا الأحاديث والآيات الواردة في ذلك بضروب من التأويل. ومن جملة ذلك، أنَّ الصادر عنهم إما أن يكون بتأويل من بعضهم، أو بسهو، أو بإذن»^(١).

وقال ابن العربي في أحكام القرآن: «قد بينا في السالف في كتابنا هذا، وفي غير موضع عصمة الأنبياء - صلوات الله عليهم - من الذنوب، وحققنا القول فيما نسب إليهم من ذلك، وعهدنا إليكم عهدا لن تجدوا له ردا، أنَّ أحدا لا ينبغي أن يذكر نبيا إلا بما ذكره الله، لا يزيد عليه، فإن أخبارهم مروية، وأحاديثهم منقولة بزياداتٍ، تولاها أحد رجلين: إما غبي عن مقدارهم، وإما بدعي لا رأي له في برهم ووقارهم، فيدس تحت المقال المطلق الدواهي، ولا يراعي الأدلة ولا النواهي؛ وكذلك قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، أي أصدقها على أحد التأويلات، وهي كثيرة بينهاها في «أمالي أنوار الفجر».

فهذا محمد ﷺ ما عصى قط ربه، لا في حال الجاهلية ولا بعدها، تكرمة من الله وتفضلا وجلالا، أحله به المحل الجليل الرفيع، ليصلح أن يقعد معه على كرسيه للفصل بين الخلق في القضاء يوم الحق. وما زالت الأسباب الكريمة، والوسائل السليمة، تحيط به من جميع جوانبه، والطرائف النجبية تشتمل على جملة ضرائبه، والقرناء الأفراد يحيون له، والأصحاب الأجداد ينتقون له من كل طاهر الجيب، سالم عن العيب، بريء من الريب، يأخذونه عن العزلة، وينقلونه عن

(١) فتح الباري ج ٤ ص ٤١١.



الوحدة، فلا ينتقل إلا من كرامةٍ إلى كرامةٍ، ولا يتنزل إلا منازل السلامة، حتى تجيء بالحبي نقابا، أكرم الخلق سليقة وأصحابا. وكانت عصمته من الله فضلا لا استحقاقا؛ إذ لا يستحق عليه شيئا رحمة لا مصلحة، كما تقوله القدريّة للخلق، بل مجرد كرامةٍ له ورحمةٍ به، وتفضّل عليه، واصطفاءً له، فلم يقع قط لا في ذنبٍ صغير - حاشا لله - ولا كبير، ولا وقع في أمر يتعلق به لأجله نقص، ولا تعيير^(١).

قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: اختلف العلماء في هذا الباب، هل وقع من الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - صغائر من الذنوب، يؤخذون بها ويُعابثون عليها، أم لا؟ بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص، إجماعاً عند القاضي أبي بكر، وعند الأستاذ أبي إسحاق أن ذلك مقتضى دليل المعجزة، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم. فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين: تقع الصغائر منهم.

وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: «إنهم معصومون من الصغائر كلها، كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأننا أمرنا باتباعهم في أفعالهم، وآثارهم، وسيرهم، أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة. فلو جوّزنا عليهم الصغائر، لم يمكن الاقتداء بهم؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة، أو الحظر، أو المعصية. ولا يصح أن يؤمر المرء بامثال أمر لعله معصية، لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين».

(١) أحكام القرآن لابن العربي ج ٣ ص ٥٧٦



قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني رحمه الله تعالى: واختلفوا في الصغائر، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة^(١).

قال الإمام تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى في «جمع الجوامع»: «الأنبياء معصومون، لا يدر عنهم ذنب، ولو صغيراً سهواً، وفقاً للأستاذ أي أبي إسحاق الإسفرايني، والشهرستاني أي عبد الكريم الشهرستاني صاحب كتاب «الملل والنحل»، وعياض أي القاضي عياض، والشيخ الإمام أي والده أبي الحسن السبكي^(٢)».

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمته الله: «الأنبياء فُطروا على نور المعرفة، وجُبلت أرواحهم على توحيد صانع الوجود، وإثبات وجود واجب الوجود»^(٣).

قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: الأنبياء لهم العصمة من الشيطان، ظاهراً وباطناً، وهم محفوظون من الله في جميع حركاتهم؛ وذلك لأن الله قد نصبهم للناس، ولهم المناجاة الإلهية. فالأنبياء المرسلون معصومون من المباح أن يفعلوه من أجل نفوسهم؛ لأنهم يُشرعون بأفعالهم وأقوالهم. فإذا فعلوا مباحاً يأتونه للتشريع ليقتدي بهم، ويُعرفون الأتباع عين الحكم الإلهي فيه، فهو واجب عليهم؛ ليبينوا للناس ما أنزل إليهم، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

(١) الجامع لإحكام القرآن ج ١ ص ٣٠٨.

(٢) جمع الجوامع ص ٦١

(٣) بهجة الاسرار ومعدن الانوار في مناقب الباز الاشهب الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٧٩



قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس الله سره: «إن الأنبياء عليهم السلام معصومون من كل حركة، أو سكون، أو قول، أو فعل، ينقص مقامهم الأكمل. وذلك لدوام عكوفهم في حضرة الله تعالى الخاصة، فتارة يشهدونه سبحانه وتعالى، وتارة يشهدون أنه يراهم ولا يرونه، ولا يخرجون أبداً عن شهود هذين الأمرين. ومن كان مقامه كذلك، لا يتصور في حقه مخالفة قط، وإنما هي مخالفة صورية.

قال أئمة الأصول رحمهم الله تعالى: «الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم معصومون، لا يصدر منهم ذنب، ولو صغيرة سهواً، ولا يجوز عليهم الخطأ في دين الله قطعاً، وفقاً للأستاذ أبي إسحق الاسفرايني، وأبي الفتح الشهرستاني، والقاضي عياض، والشيخ تقي الدين السبكي، وغيرهم»^(١).

ثم قال الشيخ الشعراني قدس الله سره: «وقال الشيخ أبو طاهر القزويني في الباب الخامس والثلاثين من كتاب «سراج العقول»: يجب تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن كل ما يتبادر لأفهامنا من ذكر خطاياهم؛ لأنه لا ذوق لنا فيها، وإن الله اصطفى الأنبياء في سابق علمه للنبوة وأداء الرسالة، ورشحهم لذلك في مبادئ أمورهم، وحماهم من مكاييد الشيطان، وصفى سرائرهم من الكدورات، وشرح صدورهم بنوره، وزينهم بالأخلاق الجميلة، وطهرهم عن الرجس والرذائل»^(٢).

ثم نقل الشعراني قدس الله سره عن الشيخ عبد العزيز الدريني قدس الله سره قوله: «لا يجوز قطعاً نسبة الأنبياء عليهم السلام إلى الذنوب، على حد ما نتعقله نحن. وإنما سماها الله تعالى في حقهم معصية وخطيئة؛ ذلك لأن مقامهم

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الاكابر ص ٢٣١

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الاكابر ص ٢٣٢





الأرفع، لا ذوق لولي فيه ولو ارتفعت درجته، فضلا عن غيره من أمثالنا؛ وذلك لأنهم معصومون من الوقوع في ذنوبنا، وغاية خطاياهم إنما هو مثل نظرة إلى المباح، أو لفظة رائحتها رعونة ومكروه، وباطنها علم وصلاح»^(١).

قال الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى في «المواقف»: «وكل ما ورد من الظواهر في الكتب المنزلة، والإخبارات النبوية، مما يُعطي ظاهره نسبة الأنبياء إلى المعصية، فليس هو من المعصية حقيقةً في شيء. وإنما ذلك بحسب مقاماتهم السامية، وبحسب ما عرفوه، هم دون غيرهم من جلال الربوبية. فإن قيل: فلم أطلق الحق عليهم اسم المعصية؟ قلنا: يصح أن يكون خطابه لهم بذلك؛ لكونهم لما صدر منهم ما صورته غير الطاعة نسيانا، كما في قصة آدم عليه السلام ونحوها، أو يكون الحق تعالى أمرهم في بواطنهم بما يخالف الظاهر، كما في قصة يوسف مع إخوته، وقصة الخضر، وموسى عليهم السلام، ونحو ذلك. فاستعظموا ذلك، وحدثوا أنفسهم أنهم أذنبوا ببادئ الرأي، فخاطبهم الحق تعالى بحسب حديثهم أنفسهم، فإن الوحي غالبا يتبع حديث نفوس الأنبياء، أو يكون الحق تعالى أطلق عليهم اسم المعصية بحسب كون ذلك الأمر غير طاعة، في الظاهر.....».

وإن قيل: قد أخبر الله تعالى في كتبه، وأخبر رسله الصادقون، أن الأنبياء كانوا يبيكون، ويتضرعون، ويتوبون، ويعترفون، ويستغفرون مما صدر منهم. قلنا: إنما ذلك لكمال معرفتهم بقدر الربوبية، وما يجب لها من الإعظام والإجلال. فهم يشاهدون حسناتهم سيئات، إذا نسبوها لما تستحقه الألوهية، فكيف إذا ظهر منهم ما صورته غير صورة طاعة؟! فعبودية الأنبياء كاملة في معناها، لا يشوبها

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر ص ٢٣٢.

نقص. فالأنبياء هم العبيد الخالص، وهذه العبودية الخاصة بالأنبياء، هي التي سد بابها، وختم بمحمد ﷺ^(١).

وقال في موضع آخر: «وأما معصية الصورة لا الحقيقة، وهو ما سماه الله تعالى معصية في حق الأنبياء، وسموه هم كذلك؛ أدبا لكمال معرفتهم بالله، وعلو مرتبتهم على من سواه عليهم الصلاة والسلام. ولو صدر من غيرهم ما جرى عليه اسم المعصية شرعا، ولا خاف فاعله عقوبة عليه أصلا، مثل الأكل من الشجرة ناسيا، والناسي لا يدخل تحت حد العاصي، فإنه الفاعل التارك بقصد المخالفة. وقد قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، ومثل كذبات الخليل عليه السلام، وهي قوله لسارة: «إنها أختي»، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]. وهذه معاريض فيها مندوحة عن الكذب ونحو هذا مما خافوه وبكوا منه^(٢).

وقال في موضع آخر في «المواقف»: «إياك أن تسمع لخرافات القصّاص، والمؤرخين، ومن قلدهم من بعض المفسرين، المولعين بنقل أمثال هذا عن أهل الكتاب. فإن مقام النبوة أعلى من أن يتكلم فيه برأي أو قياس، وأعز أن يدرك لغير نبي. فما علم العلماء من مقام النبوة الاسم إلا علم الناس من النجوم عند ظهورها في الماء. فالحذر الحذر من الخوض في النبوة والأنبياء مطلقا، فالله يعصمنا وإياكم من الزلل في القول والعمل^(٣).

(١) المواقف ج ١ ص ٢٢٧، الموقف السابع عشر بعد المائة.

(٢) المواقف ج ١ ص ٤٤١، الموقف الثالث والثلاثون بعد المئتين.

(٣) المواقف ج ١ ص ٢٤٧، الموقف السابع والأربعون بعد المئتين.



وقال الشيخ أحمد المرزوقي في «عقيدة العوام»:

أرسل أنبياء ذوي فطانة	بالصدق والتبليغ والأمانة
وجائز في حقهم من عرض	بغير نقص كخفيف المرض
عصمتهم كسائر الملائكة	واجبة وفاضلوا الملائكة

وقال الشيخ أحمد الدردير في «الخريدة البهية» في علم العقيدة:

وصف جميع الرسل بالأمانة	والصدق والتبليغ والفطانة
ويستحيل ضدها عليهم	وجائز كأكل في حقهم
إرسالهم تفضل ورحمة	للعالمين جل مولى النعمة

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: إِنَّ الأنبياء معصومون من الإشراف قبل النبوة باتفاق علمائنا. وإنما اختلفوا في عصمتهم من نوع الذنوب الفواحش، التي لا تختلف الشرائع في كونها فواحش. وبقطع النظر عن التنافي بين اعتبار الفعل فاحشة، وبين الخلو عن وجود شريعة قبل النبوة، فإن المحققين من أصحابنا نزّهوه عن ذلك، والمعتزلة منعوا ذلك بناء على اعتبار دليل العقل كافياً في قبح الفواحش، على إرسال كلامهم في ضابط دلالة العقل. ولم يختلف أصحابنا، أن نبينا ﷺ لم يصدر منه ما ينافي أصول الدين قبل رسالته، ولم يزل علمائنا يجعلون ما تواتر من حال استقامته، ونزاهته عن الرذائل قبل نبوءته، دليلاً من جملة الأدلة على رسالته، بل قد شافه القرآن به المشركين، بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، ولأنه لم يؤثر أن المشركين أفحموا النبي ﷺ فيما أنكر عليهم من مساوي أفعالهم بأن يقولوا فقد كنت تفعل ذلك معنا^(١).

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٠٠.



قال الشيخ الدكتور رافع الرفاعي مفتي الديار العراقية: علم العقيدة أو أصول الدين، يهتم بدراسة ثلاثة محاور؛ الإلهيات - النبوات - السمعيات. فعلم الإلهيات يختص بما يجب في حقه تعالى، وما يستحيل بحقه، وما يجوز. وعلم النبوات يختص بما يستحيل في حقهم، وما يجب، وما يجوز. ومن أصل عقيدة المسلم، أن لا يقدر في كمالات سيدنا محمد ﷺ، وكمالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالتبعية؛ لأن هذا الأمر يؤدي إلى الهلاك. فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الصغائر والكبائر قبل النبوة وبعدها. وعلى الإنسان، إذا ما تكلم عن الأنبياء جميعاً، أن لا يغادر موضوع العصمة ومقتضياتها طرفة عين؛ لأنه إذا غادرها، سيعاملهم معاملة البشر العادي، فيقع في المحذور. وإذا ما رأينا في خطاب الله ﷻ مع أنبيائه، ما يوهم بارتكاب الذنب، فهو من باب حسنات الأبرار، سيئات المقربين. وكما قال مولانا الإمام محمد الباقر عليه السلام: «كل ما ورد في القرآن الكريم، مما يشير إلى منقصة في رسول الله ﷺ، فهو محمول على قاعدة (إياك أعني، واسمعي يا جارة).

وقال الشيخ يسري جبر الحسني في شرح «الخريدة»: «وصف جميع الرسل؛ بالأمانة، والصدق، والتبليغ، والفتانة. ومجموع هذه الأربعة، هي العصمة، أي محفوظون في أفعالهم، وأقوالهم، وقلوبهم، من فعل ما لا يليق قبل البعثة وبعدها؛ لأن الله أرسلهم لنقتدي بهم، ونهتدي بأقوالهم وأفعالهم. فلو صح منهم وقوع الحرام، لأمرنا باتباع هذا الحرام، وهذا محال أن يضللنا الله على أيديهم، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام. والأفعال للاقتداء، والأقوال للهداية، فيستحيل أن يقولوا خلاف الهداية، وأن يفعلوا خلاف الطاعة. إذًا، العصمة؛ الصدق، والأمانة، والتبليغ، والفتانة).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: الأنبياء معصومون من الصغائر، والكبائر، واتباع الهوى، والشيطان، قبل النبوة وبعدها. فهم عباد الله المخلصين، الذين اصطفاهم من المخلوقين، ليكونوا رسلا إلى خلقه. وإساءة الأدب معهم يؤدي إلى إساءة الأدب مع من أرسلهم عز وجل. وكيف يجوز البعض عليهم الخطأ والذنب، ولقد عصمهم الله من الشيطان، بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢) [الحجر: ٤٢]. ولقد عصمهم من الهم السوء بقوله ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. ثم إني لأتعجب ممن يقول إن الشيطان أثر على الأنبياء وقام بإغوائهم وهو الذي اعترف بنص الكتاب العزيز بأنه لا يستطيع أن يغويهم فقال الله عز وجل قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]. والأنبياء عليهم السلام لا يقولون قولا ولا يفعلون فعلا إلا بأمر الله، فكيف نتهمهم بالذنب قال الله عز وجل: ﴿لَا يَسْقُوتُ لَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) [الأنبياء: ٢٧].

قال شيخنا الشيخ حسين الحلاب رحمته الله: إياكم والانسحاق مع ما يقوله البعض ممن انتسبوا للعلم، الذين تجرؤا على مقام الأنبياء والمرسلين ورموهم بما لا يليق بهم من ارتكاب المعاصي والذنوب، ففي هذا القول خطر عظيم يؤدي إلى تقديم الحجة على طبق من ذهب لأعداء الدين كي يطعنوا في الدين وتعاليمه من خلال الطعن بمن بعثهم الله لتبليغ الدين، وتحت ذريعة إنهم بشر ويجوز عليهم ما يجوز على البشر العادي من ارتكاب المعاصي، والوقوع تحت تأثير وسوسة الشيطان وغيرها مما أثاروه في كتبهم ودروسهم، والحقيقة أن وصف الأنبياء بالبشرية المعتادة إنما هي نزعة يهودية



نصرانية قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وتغافلوا عن الآيات التي تحدثت عن اصطفائهم واختصاصهم من الله تعالى. فكيف يكون للشيطان سبيل إلى قلوب الأنبياء وقلوبهم موضع تجليات الحق عز وجل، وقلوبهم لا تغفل عن ذكر الله عز وجل، فاحذروا مثل هؤلاء الذين يتهمون الأنبياء ولا يعرفون مقامات الأنبياء والمرسلين وحذروا الناس من آرائهم غيرة الله ورسوله.

قلت: وفيما ذكرناه من أقوال العلماء الربانيين الكفاية للباحث عن الحقيقة، وسنضيف إلى ما قالوه الأدلة النقلية والعقلية على عصمة الأنبياء عليهم السلام.

الأدلة على عصمتهم واصطفائهم من القرآن الكريم:

١- قال الله: ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالِ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [٣٣-٣٤].

٢- قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [٤٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٣- قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]. فالنبوة ذاتية وليست مكتسبة، والنبى من عالم الأزل مختار ومصطفى، وهو نبى معصوم من لحظة ولادته، ومن رماه بالذنب فهو يشكك في اختيار الحق ﷻ. وهذا يؤدي إلى الكفر.

٤- قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٨١].



[آل عمران: ٨١]، فلقد أثبت الله ﷻ: نبوتهم، وأخذ العهد عليهم في عالم الأرواح، قبل أن يبعثهم في عالم الأشباح.

وبعد ما قلناه من الأدلة، نقول: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منبئون وعارفون بالله منذ ولادتهم، ودليلنا ما أخبر الباري عز وجل به في كتابه العزيز:

١. سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ

عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١]، أي آتيناه النبوة والحكمة مذ كان صغيراً، لذلك لم يسجد لصنم ولم يعبد إلا الله.

قال مجاهد (هديناه صغيراً)^(١)، وقال الرازي: (قال الضحاك حين كان في صلب آدم حين أخذ الله ميثاق النبيين)^(٢). وقال المظهري «معناه من قبل البلوغ حين خرج من السرب وهو صغير حين قال إني وجهت، يعني أعطيناه النبوة صغيراً، كما قال ليحيى آتيناه الحكم صبياً أو المعنى قبل استنبائه، وكُنَّا بِهِ أي بإبراهيم عالمين إنه أهل للهداية والنبوة حيث كان مبدأ تعيينه صفة العلم والهداية من صفات الله تعالى». ^(٣)

وقال نجم الدين الأَسدي: «شرفناه بنور الخُلة ومن قبل خلقه؛ لأن اتخاذ الله إياه خليلاً كان في الأزل، فإن الكلام الأزلي ناطق ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي: بأهليته للخلة، واستحقاقه للرشد والهداية؛ لأننا خلقناه مستعداً للهداية والكرامة، ألا يعلم من خلق». ^(٤)

(١) تفسير مجاهد ج ١ ص ٤٧٢.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير للرازي ج ٢٢ ص ١٥٢.

(٣) تفسير المظهري ج ٦ ص ٢٠٢.

(٤) التأويلات النجمية ج ٢ ص ٤٩٩.

٢. سيدنا إسماعيل عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئَ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَأَتَّىٰ بِفَؤُوقِ خَطْمَيْكَ فَالْمُتَمَرِّغُ فِي حَبْلٍ عَلَىٰ عُنُقٍ ۚ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ خُنْزِيرًا غَرَّابًا وَفُلًا مَّخْضُومًا فَذُكِّيهِ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُ رَدِيعُ رِجْلٍ ۚ﴾ [الصافات: ١٠٢].

قال سيدي الشيخ حسن الحلاب رحمته الله المتأمل في خطاب سيدنا إبراهيم عليه السلام لسيدنا إسماعيل عليه السلام وقوله: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، هذا خطاب لشخص عارف بالأمور وبمصدرها، وما ستؤول إليه، وما هو إلا نظر نبي عارف بالله، يعلم أن الأمر صادر من رب إبراهيم، وما عليهم إلا السمع والطاعة، لذلك قال: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ فالعاقل لا يسلم نفسه للذبح بسبب رؤيا، إلا إن كان نبيا، ويعلم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى.

٣. سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. وهذا نص صريح أن الله تعالى أوحى لسيدنا يوسف عليه السلام، وهو صبي في البئر.

٤. قال الله عز وجل: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] وهو الذي قال في حقه أيضا ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] وكل ذلك يدل على نبوته واصطفائه، فهل من يُصنع برعاية الله وحفظه يُذنب أو يجهل؟ كلا والله، بل إن الله ببركته ولأجله أوحى إلى أمه فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

٥. قال الله عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] فسيدنا سليمان عليه السلام، لو لم يكن نبيا في صغره، لما رد حكم نبي الله

داود عليه السلام وسيدنا داود أخذ بحكمه، والله تعالى قال: **﴿عَجَلْ﴾** **﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ﴾** ثم قال: **﴿وَكَلَّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾**. وهذا دليل على نبوته وهو صغير.

٦. سيدنا عيسى عليه السلام: **﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾** [٢٩] **﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾** [٣٠] [مريم: ٢٩ - ٣٠]. وهذا أوضح النصوص وأبينها على ما نقول، فسيدنا عيسى، وبعد أيام من ولادته، قال إنه نبي، وآتاه الله كتابا، فما بالك بسيدنا محمد عليه السلام؟!.

٧. سيدنا يحيى عليه السلام: **﴿يَتَّخِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَّءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾** [١٢] [مريم: ١٢].

٨. سيدنا محمد عليه السلام قال الله تعالى في حقه: **﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾** [الطور: ٤٨]، والذي بعث محمدا بالحق، إنها آية فيها الرد على كل من سوّلت له نفسه أن يصف النبي عليه السلام بالذنب، والمعصية، والضلال، وحاشاه. بل لقد عصمه في كل شيء، ظاهرا وباطنا:

أ- فقد عصمه الله عليه السلام: في الأقوال، فقال: **﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾** [النجم: ٣].

ب- عصمه الله عليه السلام: في البيان، فقال: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [النحل: ٤٤].

ت- عصمه الله عليه السلام: في القضاء، فقال: **﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾** [النساء: ٦٥].

ث - عصمه الله ﷺ: في البلاغ، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ج - عصمه الله ﷺ: في كل أموره وأحواله، فقال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣-٤].

الأدلة على عصمتهم من السنة المشرفة

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: «كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَا فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَيَّ فِيهِ فَقَالَ أَكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»^(١). وعن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الخير قال قلت يا رسول الله متى كنت نبيا؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»^(٢)، وما حدث في ولادته ﷺ، ثم حادثة شق الصدر، وغيرها كثير. وكل هذا يدل على أنهم أنبياء، معصومون منذ ولادتهم.

الأدلة العقلية على عصمتهم

١. لو كان النبي غير معصوم، لانتفى الوثوق بقوله، فلا يطاع، ولا يُقبل

منه قول.

(١) أبو داود (٣٦٤٦)، الطبراني (١٤٢٦٤)، أبو شيبة (٢٦٤٢٨).

(٢) احمد (٢٠٥٩٦).

٢. لو جاز عليه الخطأ مع لزوم اتباعه عقلا، كان الأمر باتباعه قبيحا، بحكم العقل.

٣. لو جاز على النبي الخطأ، لاحتاج إلى من يسدده، وذلك المسدد؛ إما أن يكون معصوما، فهو المطلوب؛ لأنه هو النبي في الحقيقة. وإما أن لا يكون معصوما، فيحتاج إلى مسدد آخر، وهلم جرا.

٤. إن النبي أسوة وقدوة، فلو صدر منه الكذب والمعصية، لاقتدى به الناس، وانتفت فائدة البعثة والنبوة.

٥. النبي هادٍ وحافظ للشرع، وحجة الله على الخلق، فلو جاز عليه الكذب والخطأ، لأدى ذلك إلى التضليل.

٦. أنه لو صدرت المعصية من الأنبياء، لكانوا مستحقين للعذاب، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وكانوا مستحقين لللعن، لقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]. وأجمعت الأمة على أن أحدا من الأنبياء، لم يكن مستحقا للعن ولا للعذاب، فثبت أنه ما صدرت المعصية عنه.

٧. قال ﷺ: في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، والإمام من يؤتم به، فأوجب على كل الناس أن يأتموا به. فلو صدر الذنب عنه، لوجب عليهم أن يأتموا به في ذلك الذنب، وذلك يفضي إلى التناقض.

٨. عاش النبي ﷺ في قريش أربعين سنة قبل البعثة، ولم يعرفوا عنه كذبا، ولا معصية قط. ولو عرفوا عليه شيء من خوارم المروءة، لعبروه، وشهروا به بعد



الدعوة، لذلك خاطبهم في القرآن قائلا: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾
[يونس: ١٦]. فالذي نقول به بعد ما سبق من الأدلة: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعْصُومُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا، مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ، وَالهَوَى وَاتِّبَاعِ النَّفْسِ، وَالشَّيْطَانِ.

تنبيهات إضافية:

نريد أن نقرر بعض الأمور، قبل أن نشرع في بيان تفسير بعض الآيات، التي تتعلق بتنزيه الأنبياء والمرسلين، عما نسبته إليهم بعض المفسرين، من اتهامهم باتباع الهوى، وارتكابهم للذنوب والمعاصي:

١. بعد أن ثبت بالدليل القاطع، أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعْصُومُونَ مِنَ الصَّغَائِرِ، وَالْكِبَائِرِ، وَالْخَوَاطِرِ، وَاتِّبَاعِ النَّفْسِ وَالهَوَى، وَالشَّيْطَانِ، فيجب على من يريد أن يتعرض للآيات التي في ظاهرها شبهة الوقوع بالذنب، أن ينظر إلى مقامهم العالي، وما حباهم الله تعالى به من رفيع المنزلة، والاصطفاء، والاختصاص، وما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز من آيات المدح والثناء، فقال في حق آدم ونوح عليهما السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال في حق إدريس عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [٥٦] وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا [٥٧]، وقال في حق إسماعيل عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [٥٤]، وقال في حق إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام: ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [٤٥] إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنَا الدَّارَ [٤٦] وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا



لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٤٧﴾ [ص: ٤٥-٤٧]. وقال في حق بقية الأنبياء: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٦] وقال في حق سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ﴿٢﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٣﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٥﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٦﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٧﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٨﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٩﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿١٠﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١١﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١٢﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٥﴾ عِنْدَ هَا جَنَّةِ الْمَأْوَىٰ ﴿١٦﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٧﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٨﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ١-١٨]. وقال ﷺ: ﴿بِئْسَ الْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ١-٤] وغيرها كثير فالقرآن كله مدح لسيدنا محمد ﷺ.

٢- أسجد الله تعالى الملائكة الكرام المعصومين من الذنوب الذين: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] أمرهم أن يسجدوا لآدم فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] إظهارا لمكانته عليهم ومنزلته لدى مولا ه.



فبعد ذكر ما سبق من الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال العلماء والأولياء والعارفين، فقد تبين لنا شيء من منزلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند مولاهم وعند أهل الملكوت الأعلى، فهم أهل الحضرة الذين تحققوا بمقام الإحسان. ومن المعلوم أنَّ الإحسان أحد مقامات الدين الثلاث كما عرفه النبي ﷺ « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »^(١). وهذا مقام وصل إليه أولياء هذه الأمة، فما بالك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم يعبدون الله مع مقام المشاهدة المستمر، فلا يغفلون عن ربهم طرفة عين، ويشهدونه ناظرا حاضرا معهم، فليت شعري كيف يغفل عن مولاه من هذا مقامه؟! فما بالك باتهامهم بارتكاب الذنوب والمعاصي.

إذن: يجب علينا التأدب مع رسل الملك الجبار ﷻ، فالتأدب مع المرسل هو تأدب مع المرسل على الحقيقة. ولا تلتفت أيها الحبيب إلى ما خاطب الله ﷻ به أنبيائه ورسله، فهو الرب الذي يخاطب من شاء من عباده بما يشاء من الألفاظ، والعبارات، والكيفيات. ولا يجب أن نفهم أنَّ في آيات العتاب وغيرها نزول مرتبة، وتنقيصا للأنبياء والمرسلين من قبل مولاهم، بل على العكس تماما، فكل خطاب صدر من الملك لخاصته، إنَّما هو ترقٍ في حقهم، وزيادة في رفعتهم لديه ولدى العالمين. فكل ما صدر من الحبيب محبوب. لذلك يجب على المسلم أن يتأدب مع رسل الله وخاصته، وأهل حضرته، وأن يخرج ما يتوهم منه أنه شُبّه ذنب عن حقيقته، خصوصا وأن لغتنا العربية هي لغة المجاز.

(١) البخاري (٥٠)، مسلم (١)، أبو داود (٤٦٩٥)، الترمذي (٢٦١٠)، النسائي (٤٩٩٠)، ابن ماجه (٦٣).

وبعد أن قررنا هذا، نشرع بأذن الله تعالى في بيان الآيات القرآنية، التي وردت بحق الأنبياء والمرسلين، والتي أخطأ في تفسيرها بعض المفسرين، ونسبوا إلى الأنبياء ما لا يليق بحقهم.





الفصل الثاني
الآيات القرآنية



سورة البقرة

الآية الأولى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ
الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]

التفسير الأولي:

قال الطبري وبعض أهل التفسير رحمهم الله تعالى: عن محمد بن كعب قال،
قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري ما فعل أبوي؟»، فنزلت: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ
أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾^(١).



قال أبو حاتم رحمه الله تعالى في تفسيره: عن محمد بن كعب القرظي قال،
قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري ما فعل أبوي؟ ليت شعري ما فعل أبوي؟ ليت
شعري ما فعل أبوي؟» ثلاثاً، فنزلت: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا
تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾^(٢)، فما ذكرهما حتى توفاه الله^(٣).



(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ج ٢ ص ٥٥٨

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ج ١ ص ٢١٧

قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: عن محمد بن كعب القرظي قال: كان النبي ﷺ يسأل عن أبيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَحَبِّ الْجَحِيمِ﴾^(١)



التفسير العرفاني:

قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ بفتح التاء ﴿عَنْ أَحَبِّ الْجَحِيمِ﴾، فيه وجهان؛ الأول معناه: أهملهم، وأرح خاطرك وسرك من قبلهم، فيما نفعل بهم من الهدى أو الضلال. والوجه الآخر: على طريق الوعيد، أي ما نفعل بهم من العذاب، والضيق، والنكال، شفاء لصدرك، فنتقم منهم، مقابلة ما ضيقوا به صدرك بما قالوه وفعلوه. ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(١٧) [الحجر: ٩٧]، وقد قرئ ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ بضم التاء، أي عليك التبليغ، وما عليك سؤال: هل أجابوك أم لا، فيكون مزيد درجة، وراحة للنبي ﷺ يوم القيامة على سائر الرسل؛ لقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، فأخبره الله تعالى أنه غير داخل في هذا الجمع، وهذا من زيادة الإكرام له ﷺ^(٢).



(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي بحر العلوم ج ١ ص ٨٩.

(٢) كتاب رحمة الرحمن في تفسير وإشارات القرآن من كلام الشيخ ابن عربي، تأليف محمود غراب، وبهامشه كتاب ايجاز البيان في الترجمة عن القرآن للشيخ الأكبر ابن عربي، ج ١ ص ١٨٩

قال الإمام الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: أي أن رسول الله ﷺ ليس مسئولا عن الذين سيلقون بأنفسهم في النار والعذاب. وإنه ليس مسئولا عن هداهم، وإنما عليه البلاغ. وقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) **إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** (٤) [الشعراء: ٣-٤]. فلو أرادنا الله ﷻ: أن نؤمن قسرا وقهرا، ما استطاع واحد من الخلق أن يكفر، ولكنه تبارك وتعالى يريد أن نأتيه بقلوب تحبه، وليس بقلوب مقهورة على الإيذان. وإن الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختارين، أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا. وليس لرسول أن يرغم الناس على الإيذان بالقهر؛ لأن الله لو أراد لقهر كل خلقه. أما أصحاب الجحيم فهم أهل النار. والحق سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن رسوله ﷺ، أنه لا يجب أن يشغل قلبه بالذين كفروا؛ لأنه قد أئذرهم. وهذا ما عليه، وهذه مهمته التي كلفه الله بها^(١).

قلت: وهذا الذي ذكره الإمام الشعراوي هو ما عليه أغلب أهل التفسير.



قال الشيخ الدكتور علي جمعة حفظه الله تعالى: «والأمة اختلفت في أبي النبي ﷺ، فبعضهم يرى نجاة أبي النبي ﷺ، وألف فيها الإمام السيوطي تسع رسائل. والبعض الآخر يرى أنهم ناجون بموجب أهل الفترة، وبعضهم يرى أن الأبوين غير ناجين؛ لأنهم ماتوا في فترة الشرك. ونحن من حينا لرسول الله ﷺ نقول بنجاتهما. فإذا أدخل الله ﷻ: السيد عبد الله والسيدة أمنة عليهما السلام الجنة، فهل ستعترض أيها القائل بعدم النجاة، وتنزعج من هذا الأمر؟!».

(١) تفسير الشعراوي ج ١ ص ٥٥٩



قال شيخنا الشيخ حسين الحلاب رحمته الله: «والدا النبي ﷺ من أهل الجنة، بل في أعلى مقامات الجنة، فهما من ولدا الرحمة المهداة. ونقول بصحة الأحاديث التي وردت في أن الله تعالى أحيا والدي النبي ﷺ وآمنا به، فهما من حملا نور النبوة في أصلاهم، وهم يعلمون أن هذا النور هو نور سيد الخلق. ونقول إن كل أجداد النبي ﷺ إلى آدم عليه السلام مسلمون وموحدون».



قلت: ومن يتتبع السياق الذي جاءت به هذه الآية، سيجد أن الآيات التي جاءت قبلها وبعدها، تتكلم عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وعن أقوالهم وادعاءاتهم. وكيف أن الله أنعم عليهم بأمور كثيرة، ولكنهم أصروا على الكفر، ولا أعلم ما المناسبة للمفسرين الذين فسروا هذه الآية، فحملوها على كفر والدي النبي ﷺ.

وبما أنه ﷺ الرحمة المرسلة للعالمين، كما قال الله ﻋَﻠَﻴْهِ: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٧]، وقال هو ﷺ: **« إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهِدَاةٌ »** ^(١)، فلاجل ذلك كان ﷺ حريصاً على أن يدخل جميع الناس إلى الإسلام، ولا يصيبهم عذاب الجحيم. وتجلت هذه الرحمة في دعائه لأهل الطوائف، حينما ضربوه وأدموه ﷺ. وقوله **«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»** ^(٢)، فهو ﷺ الرؤوف الرحيم. وقوله تعالى: **﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾** إنما هو تطيباً لخاطر النبي ﷺ، وإزالة الحزن من قلب حبيبه ﷺ، فكأنه يخاطبه بقوله: بلغ ما أنزل إليك يا حبيبي، **﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾** [فاطر: ٢٣] ولا تشغل قلبك بمن كذب وعصى.

(١) الدارمي: ١٥

(٢) البخاري (٣٤٧٧)

الرد على القائلين بعدم نجاة والدي النبي ﷺ:

ذكر الإمام السيوطي في «الحاوي للفتاوي» في رسالته «مسلك الحنفا في والدي المصطفى» والتي أورد فيها الأدلة والبراهين على نجاتهما، فقال ما نصه: «الحكم في أبوي النبي ﷺ أنها ناجيان، وليسا في النار. صرح بذلك جمع من العلماء، وهُم في تقرير ذلك مسالك؛ المسلك الأول، أنها ماتا قبل البعثة، ولا تعذيب قبلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقد أطبقت أئمتنا الأشاعرة من أهل الكلام والأصول، والشافعية من الفقهاء، على أن من مات ولم تبلغه الدعوة يموت ناجياً^(١).

ورد الإمام السيوطي على الحديث الذي استشهد به الإمام الطبري في تفسير الآية بقوله: «فحديث «ليت شعري ما فعل أبوي؟» فنزلت الآية، لم يُخرج في شيء من كُتب الحديث المعتمدة، وإنما ذكر في بعض التفاسير بسندٍ منقطعٍ لا يُحتج به، ولا يُعول عليه». انتهى^(٢).

وها نحن سنورد الأدلة على نجاتهما وأنها من السعداء ومن أهل الجنة:

الأدلة من القرآن الكريم

١. قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فوقع جملة (كنا معذبين) في سياق النفي يفيد العموم، و(حتى) تفيد انتهاء الغاية، أي إلى أن نبعث رسولاً، وهذا نص صريح على أن الله تعالى لا يؤاخذ الأمم إلا بعد

(١) الحاوي للفتاوي للسيوطي ج ٢ ص ٢٤٤.

(٢) الحاوي للفتاوي للسيوطي ج ٢ ص ٢٧٠.

إرشادهم وتعليمهم من خلال إرسال الرسل فيهم مبشرين ومنذرين. قال ابن القيم: «إن الله لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه»^(١).

٢. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا إِنَّا لَوَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]. (لو) حرف امتناع لامتناع، فامتنع الجواب لامتناع الشرط، أي امتنع العذاب قبل إرسال الرسل إلى الخلق لإرشادهم وإقامة الحجة عليهم.

قال الرازي في تفسيره: «المراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذرا لهم، فأما الآن وقد أرسلناك، وبيننا على لسانك ما عليهم وما لهم، فلا حجة لهم البتة، بل الحجة عليهم»^(٢).

٣. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ [٢٠٨] ﴿ذِكْرٌ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩] أي ما أهلكنا من قرية ممن ذكرنا من قبلكم إلا بعد أن أرسلنا لهم المرسلين، فنستدل بهذا النص على رد قول القائلين إن أهل الفترة معذبون، فإنهم يرمون الله تعالى بالظلم وهم لا يشعرون. فحاشا لله أن يعذب القرى، دون أن يبعث فيهم المرسلين.

٤. قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ج ٤ ص ٢٦٩.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بمفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٢ ص ١١٦.



فأهل الكتاب مؤخذون ومحاسبون؛ لأن الله تعالى قد بعث فيهم الأنبياء والمرسلين، وأنزل إليهم الكتاب، وأقام عليهم الحجة، فأنذرهم وبشرهم، وعرفوا أوصاف سيدنا محمد ﷺ فهو لاء يُحاسبون على كفرهم وعنادهم. وإن كان الأمر كذلك فأهل الفترة لا يؤخذون لعدم إرسال الرسل إليهم.

٥. قوله تعالى: ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦] المراد بالقوم العرب، أي لتنذر العرب الذين لم يأتهم نذير قبلك يحذرهم من عبادة الأوثان والإشراك بالله. والآن وبعد أن أرسلناك إليهم وأنزلنا معك النور المبين فقد أقمنا الحجة عليهم، فمن آمن بك واتبعك نجي، ومن كفر فله عذاب عظيم.

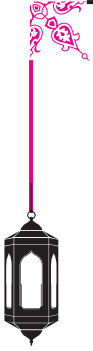
٦. قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم قَبْلَكَ مِّن

نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ [سبأ: ٤٤]، أي ما جاءهم كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم رسول قبل سيدنا محمد ﷺ.

٧. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ

رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]. يذكر الملائكة المجرمين بالحجة التي أقامها الله عليهم، وهي إرسال الرسل وإنزال الكتب، فأقروا بذلك فوجب العذاب.

فالتأمل لجميع الآيات السابقة وغيرها كثيرة في كتاب الله العزيز، يجد أن العذاب يحق على من لم يتبع الرسل. وهذا هو العدل الإلهي، ولا يظلم ربك أحداً. أما الأمم التي لم يأتها رسول من أهل الفترة، وكما قال السيوطي أنفاً، فإنها ناجية بإذن الله ورحمته.





٨. قوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]. دلت هذه الآية الكريمة على نجاة والدي المصطفى ﷺ؛ لأن المحققين من أهل التفسير قالوا بأن آبائه ﷺ مسلمون موحدون بل من الأبرار وأصحاب المقام العالي. قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: «ومما يدل أيضا على أن أحدا من آباء محمد عليه السلام ما كان من المشركين». وقوله عليه السلام: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات». وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، وذلك يوجب أن يقال: إن أحدا من أجداده ما كان من المشركين^(١).

وقال القرطبي في تفسيره: «قال ابن عباس: أي في أصلاب الآباء، آدم ونوح وإبراهيم، حتى أخرجه نيا»^(٢). وقال البغوي في التفسير: «قال عطاء عن ابن عباس: أراد تقلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي، حتى أخرجك في هذه الأمة»^(٣).

الأدلة من السنة النبوية:

١. عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ - إِنَّا لَقُعُودٌ بِفَنَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ -: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا، وَاخْتَارَ الْعُلَى مِنْهَا فَأَسْكَنَهَا مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ خَلَقَ الْخَلْقَ فَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ، وَاخْتَارَ مِنْ

(١) مفاتيح الغيب المعروف بمفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٣ ص ٣٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٣ ص ١٤٤.

(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن ج ٦ ص ١٣٤.



العَرَبِ مُضَرٍّ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرٍّ قُرَيْشًا، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا مِنْ خِيَارٍ إِلَى خِيَارٍ، فَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَيُحِبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَ الْعَرَبَ فَيُبْغِضِي أَبْغَضَهُمْ»^(١). فما زال ﷺ ينتقل من أصلاب الخيرين إلى أرحام الطاهرات حتى ولد، والاصطفاء لا يكون إلا للأخيار من الخلق، فقد فضلهم الله تعالى على بقية خلقه حين اصطفاهم، وهذا الاصطفاء مبني على كمال العلم والحكمة الإلهية، فلا يقع الاصطفاء والاجتباء من قبل الحق تعالى على من كفر وتكبر، بل يكون للموحدين المنكسرين لمولاهم، فهم خيرة الخلق وهذا يدل على خيرية والديه ﷺ.

٢. عَنِ الْمُطَلِّبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَلَغَهُ بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَصَعِدَ الْمَنْبَرُ، فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَجَعَلَهُمْ قَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا، وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا»^(٢).

٣. عن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي

(١) الطبراني في الكبير (١٣٦٥٠)، البيهقي في شعب الإيمان (١٣٣٠)، السيوطي في الجامع الكبير (٤٦٣١).

(٢) أحمد (١٧٨٨)، دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ١٧٠، مسند ابن أبي شيبة (٩١٩)، الطبراني (٦٧٥).

كِנَانَةُ قُرَيْشًا وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(١). أباؤه وأجداده موحدون على دين سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

٤. عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، قَالَ: بَلَغَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ كِنْدَةَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ: الْعَبَّاسُ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، إِذَا قَدِمَا الْمَدِينَةَ لِيَأْمَنَا بِذَلِكَ، وَأَنَا لَنْ نَنْتَفِيَ مِنْ آبَائِنَا، نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ». قَالَ: «وَخَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، بْنُ هَاشِمٍ، بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ، ابْنِ قُصَيٍّ، بْنُ كِلَابٍ، بْنُ مُرَّةَ، بْنُ كَعْبٍ، بْنُ لُؤَيٍّ، بْنُ غَالِبٍ، بْنُ فِهْرٍ، ابْنِ مَالِكٍ، بْنُ النَّضْرِ، بْنُ كِنَانَةَ، بْنُ خُزَيْمَةَ، بْنُ مُدْرِكَةَ، ابْنِ إِيَّاسَ، ابْنِ مُضَرَ، ابْنِ نِزَارٍ. وَمَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِرْقَتَيْنِ إِلَّا جَعَلَنِي اللَّهُ فِي خَيْرِهِمَا. فَأَخْرَجْتُ مِنْ بَيْنِ أَبَوَيْنِ، فَلَمْ يُصِبنِي شَيْءٌ مِنْ عَهْرِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَخَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى أَبِي وَأُمِّي، فَأَنَا خَيْرُكُمْ نَفْسًا، وَخَيْرُكُمْ أَبًا»^(٢). ودلالة النص في قوله ﷺ (وخيركم أبا) تدل على أن أباؤه مسلمون موحدون غير مشركين.

الأدلة من كتب السير والشمال

١. ذكر الإمام القسطلاني في «المواهب اللدنية»: «عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ لقد جاءكم رسول من أنفسكم - بفتح الفاء - وقال: أنا أنفسكم نسبا وطهرا وحسبا، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا من نكاح»^(٣).

(١) الترمذي (٣٦٠٥)

(٢) دلائل النبوة ج ١ ص ١٧٤، السيوطي في الجامع الكبير (٨٤٦٦).

(٣) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ج ١ ص ٥٧.



٢. عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما خرج عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه، مر به على كاهنة من تباله متهودة قد قرأت الكتب، يقال لها: فاطمة بنت مر الخثعمية، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله، ورجت أن تحمل بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم-، فقال لها: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، ثم خرج به عبد المطلب، حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا- فزوجه ابنته أمنة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا. فزعموا: أنه دخل عليها حين ملكها مكانه، فوقع عليها يوم الإثنين أيام منى، في شعب أبي طالب عند الجمرة، فحملت برسول الله ﷺ، ثم خرج من عندها، فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال لها: مالك لا تعرضين عليّ اليوم ما عرضت بالأمس، فقالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة، إنما أردت أن يكون النور فيّ فأبى الله، إلا أن يجعله حيث شاء. ولما حملت آمنه برسول الله ﷺ ظهر لحملة عجائب، ووجد لا يجاده غرائب^(١).

فكيف لصلب ورحم حملا هذا النور الطاهر المطهر المطهر الذي طهر الله به الأكوان وأخرجها من الظلمات إلى النور أن يكون كافرا نجسا.

٣. قال القاضي عياض في «الشفاء»: «عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ، كانت رُوحه نُورا بين يدي الله تعالى، قبل أن يخلق آدم بألفي عام، يُسبحُ ذلك النور، وتُسبحُ الملائكةُ بتسبيحه. فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه. فقال رسول الله ﷺ: «فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصباب

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ج ١ ص ٧٢، وابن سعد في الطبقات ج ١ ص ٧٧.

الكريمة، والأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من أبي، لم يلتقيا على سفاح قط»^(١).

٤. في حديث ابن إسحاق: أنَّ أمنة كانت تحدث: أنها أتيت حين حملت به ﷺ فقبل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، وقالت: ما شعرت بأني حملت به، ولا وجدت له ثقلاً، ولا وحماً، كما تجد النساء، إلا أني أنكرت رفع حيضتي، وأتاني آت، وأنا بين النائمة واليقظة، فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام، ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني، فقال لي: قولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمداً. وفي رواية غير ابن إسحاق: وعلقى عليه هذه التيممة، قالت فانتبهت وعند رأسي صحيفة من ذهب مكتوب فيها هذه الأبيات:

أعيذه بالواحد	من شر كل حاسد
وكل خلق رائد	من قائم وقاعد
عن السبيل حائد	على الفساد جاهد
من نافث أو عاقد	وكل خلق مارد
ياخذ بالمرصد	في طرق الموارد ^(٢)

ونستدل بهذا الأثر على أن أمه كانت موحدة عارفة بربها ﷺ.

٥. وروى أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها، قالت: شهدت أمنة أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت بها، ومحمد ﷺ غلام يفع، له خمس سنين عند رأسها، فنظرت إلى وجهه، ثم قالت:

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ج ١ ص ١٨٣.

(٢) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ج ١ ص ٧٦.



بارك الله فيك من غلام	يأبن الذي من حومة الحمام
نجا بعون الملك المنعم	فودي غداة الضرب بالسهم
بمائة من إبل سوام	إن صح ما أبصرت في المنام
فأنت مبعوث إلى الأنعام	من عند ذي الجلال والإكرام
تبعث في الحل وفي الحرام	تبعث في التحقيق والإسلام
دين أبيك البر إبراهيم	فالله أنهاك عن الأصنام
ألا تواليها مع الأقوام	

ثم قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة وذكرى
باق، وقد تركت خيرا، وولدت طهرا، ثم ماتت^(١).

قلت: وفي هذا دليل على صحة اعتقادها، بل ودليل على ولايتها، وصلاحتها
رضي الله عنها.

٦. عن ابن عباسٍ. أَنَّ أَمَةَ بِنْتَ وَهْبٍ قَالَتْ: لَقَدْ عَلِقْتُ بِهِ. تَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ، فَمَا وَجَدْتُ لَهُ مُشَقَّةً حَتَّى وَضَعْتُهُ. فَلَمَّا فَصَلَ مِنِّي خَرَجَ مَعَهُ نُورٌ أَضَاءَ لَهُ مَا بَيْنَ
الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ. ثُمَّ وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ مُعْتَمِدًا عَلَى يَدَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ
فَقَبَضَهَا، وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَقَعَ جَائِئًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَى
السَّمَاءِ، وَخَرَجَ مَعَهُ نُورٌ أَضَاءَ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ وَأَسْوَاقُهَا، حَتَّى رَأَيْتُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ
بُصْرَى. قَالَ: وَأَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ الْكَلَابِيُّ. أَخْبَرَنَا هَمَامُ بْنُ يَحْيَى عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ أُمَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: لَمَّا وَلَدْتُهُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أَضَاءَ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ.^(٢)

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني ج ١ ص ١٠٢.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٨٠.



قلت: لعمرى أن امرأة قد كشف الله لها عن بصيرتها، حتى رأت قصور الشام وأسواقها، ما هي إلا من الأولياء الكُمل ومن أهل الفتح الكبير. كيف لا، ومن جعله الله تعالى سببا لفتوحات الأنبياء والأولياء، محمول بين أحشائها رضي الله عنها. قال القسطلاني: أنه لما وقع إلى الأرض، وقع مقبوضة أصابع يده، مشيراً بالسبابة كالمسبح بها.

٧. روى عن عثمان بن أبي العاصي عن أمه أم عثمان الثقفية، واسمها فاطمة بنت عبد الله، قالت: لما حضرت ولادة رسول الله ﷺ رأيت البيت حين وقع، قد امتلأ نورا، ورأيت النجوم تدنو، حتى ظننت أنها ستقع عليّ.

وعن العرباض بن سارية. أن رسول الله ﷺ قال: «إني عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأخبركم عن ذلك، إني دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت». وكذلك أمهات الأنبياء يرين، وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورا أضاء له قصور الشام^(١).

قلت: وبعد ما ذكرنا من الأدلة من كتاب الله عز وجل، ومن سنة نبيه ﷺ، وأقوال كبار علماء الأمة ومفسريها، فلم يبق لذي عقل ولب، إلا الإقرار بنجاة والدي النبي ﷺ، وأنهم من الأصفياء الأخيار، ونتقرب بحبهم، والترضي عنهم، إلى الله تعالى. ولا سيما، أن في هذا الأمر سعادة وفرحاً لرسول الله ﷺ، وليحذر الذين يريدون أن يتجرؤوا على والدي النبي ﷺ من أن يصيبهم عذاب عظيم. ولقد حذرنا الله عز وجل من أذية رسول الله ﷺ فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ج ١ ص ٧٨، تهذيب الخصائص الكبرى للسيوطي ص ٤٥.

أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [الأحزاب: ٥٣]، ولعمري أَنَّ صلباً استقر به هذا النور، وبطناً حملت بالنور الذي أضاء الأكوان بوجوده، أنى يعذب؟! فلا أمان لأحد إذا لم يأمن والدا النبي ﷺ. وقد سار الكبار من سلف الأمة إلى التأدب مع النبي ﷺ، وخصوصاً في هذه المسألة، فيذكر أَنَّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أُتِيَ بِكَاتِبٍ يُحْطُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَانَ مُسْلِمًا، وَكَانَ أَبُوهُ كَافِرًا نَصْرَانِيًّا أَوْ غَيْرُهُ، فَقَالَ عُمَرُ لِلَّذِي جَاءَ بِهِ: لَوْ كُنْتُ جِئْتُ بِهِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، قَالَ: فَقَالَ الْكَاتِبُ: مَا ضَرَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُفْرَ أَبِيهِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: «وَقَدْ جَعَلْتُهُ مَثَلًا؟ لَا تَحْطُ بَيْنَ يَدَيَّ بِقَلَمٍ أَبَدًا»^(١).

فهذا شأن العارفين في التعامل مع من أساء إلى والدي النبي ﷺ، فما عقوبة أقوام تسهر الليالي والأيام، لجمع الأدلة والبراهين، وتعقد الندوات والمحاضرات في إثبات كفر والدي النبي ﷺ، وحاشاهما. فوالله إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَعَلَى خَطَأٍ عَظِيمٍ، وَنَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَبْصُرَ الْحَقِيقَةَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ يَفِرُ الْمَرْءُ فِيهِ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَبَنِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّهِ. وَيَقِفُ النَّبِيُّ ﷺ لِلشَّفَاعَةِ، فَمَاذَا سَيَقُولُونَ لَهُ إِذَا سَأَلَهُمْ عَنْ اتِّهَامِ وَالِدَيْهِ بِالْكَفْرِ؟؟؟!. وَاللَّهُ تَعَالَى قَالَ لَهُ رَفَعًا لِسَانِهِ، وَتَطْيِيبًا لَخَاطَرِهِ، وَإِنْزَالًا لِلْسُرُورِ عَلَى قَلْبِهِ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]. فهل سيرضى سيدنا محمد ﷺ أَنْ يَدْخُلَ وَالِدَاهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا النَّارَ؟!، كَلَّا وَحَاشَا أَنْ يَرْضَى بِهَذَا.



(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لابي نعيم ج ٥ ص ٢٨٣.

الآية الثانية:

﴿قُلْ إِنِّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: «قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ولئن اتبعت يا محمد، هوى هؤلاء اليهود والنصارى فيما يرضيهم عنك، من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم، من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتضت عليك من نبئهم في هذه السورة - ما لك من الله من ولي يعني بذلك: ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به، ولا نصير ينصرك من الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك، إن أحل بك ذلك ربك»^(١).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري جامع البيان ج ٢ ص ٥٦٣.

وقال ابن عثيمين رحمه الله تعالى في تفسيره: قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ؛ أو لكل من يتأتى خطابه؛ ولكن الأقرب أنه للرسول ﷺ^(١).



التفسير العرفاني:

قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُرَادُ أَمْتُهُ مِمَّنْ يَجُوزُ أَنْ يَتَّبِعَ هَوَاهُ فَيَصِيرَ بِاتِّبَاعِهِ ظَالِمًا، وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَكُونُ بِهِ ظَالِمًا، فَهُوَ مُحْمُولٌ عَلَى إِرَادَةِ أَمْتِهِ لِعِصْمَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَطَعْنَا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ مِنْهُ، وَخُوطِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْظِيمًا لِلْأَمْرِ، وَلِأَنَّهُ الْمُنَزَّلُ عَلَيْهِ^(٢).



قال الثعالبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال تعالى لنبيه: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فهذا شرط خوطب به النبي ﷺ والأدب أن يقال: خوطب به ﷺ، والمراد أُمته لوجود عصمته ﷺ. وكذلك الجواب في سائر ما أشبه هذا المعنى من الآيات، وقد أجاب عياض عن الآيات الواردة في القرآن مما يوهم ظاهره إشكالا، فقال رحمه الله: اعلم - وفقنا الله وإياك -، أنه عليه السلام لا يصح، ولا يجوز عليه ألا يبلغ، ولا

(١) تفسير العثيمين الفاتحة والبقرة ج ٢ ص ٢٩.

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٦٢.

أن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك، ولا أن يتقول على الله ما لا يجب أو يفترى عليه، أو يضل، أو يختم على قلبه، أو يطيع الكافرين، لكن الله أمره بالمكاشفة والبيان في البلاغ للمخالفين»^(١).



وقال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وهذا الإنذار الشديد، والوعيد، والتهديد، وإن كان موجهاً إلى النبي ﷺ الذي عصمه الله من الزيغ والزلل، وأيده بالكرامة، هو في الحقيقة خطاب للناس كافة في شخص النبي ﷺ. وقد جرى العرف في خطاب الملوك، أن يقال للملك: إذا فعلت كذا كانت العاقبة كذا، ويراد إذا فعلته دولتك أو أمتك. والكلام هنا جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتي بعده أن يصدع بالحق، ويتنصر له، ولا يبالى بمن خالفه مهما قوي حزبه واشتد أمره. فمن عرف الحق، وعرف أن الله ولي أمره وناصره، لا يخاف في تأييده لوم اللائمين، ولا إنكار المعاندين»^(٢).



وقال الخازن رحمه الله تعالى في تفسيره: «ولئن اتبعت أهواءهم، خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته. والمعنى: إياكم أخطب، ولكم أؤدب وأنهى. فقد علمتم أن محمداً ﷺ قد جاءكم بالحق والصدق، وقد عصمته، فلا تتبعوا أنتم أهواء الكافرين»^(٣).

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ج ١ ص ٣٠٩.

(٢) تفسير المراغي ج ١ ص ٢٠٤، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ج ١ ص ١٦١.

(٣) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل ج ١ ص ٧٤.

قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «إنَّ المراد بهذا الخطاب، وجميع العتاب الذي عاتب الله به نبيه ﷺ غيره من الأمة، وذلك لفتوته ﷺ، فتحمل صولة الخطاب عن أمته. فالخطاب له، والمراد به غيره»^(١).



قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس الله سره: «إنَّ الحق ﷺ: أدب الأمة بخطاب نبيها لتبالغ باستعمال ذلك الأدب نيل مأمولها، فخطب الرسول، والمراد من أرسل إليه بالحث عليه»^(٢).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «هذا الخطاب وغيره مما تضمن الارتياح والشك، والنهي عن الكفر، إنما هو موجه لمن دخل الإسلام حديثاً في زمن النبي ﷺ، ولم يتمكن الإيمان في قلبه، فالله ﷻ يقول لهم على لسان نبيه: ولا تكن يا من دخلت الإسلام حديثاً في شك ولا ارتياح، بعد الذي جاءك من العلم واليقين، أن هذا النبي، وما جاء به حق من الله ﷻ، والخطاب مستمر إلى جميع أمته من بعده».



قلت: الأنبياء والمرسلون هم واسطة البلاغ، ومن بلاغة القرآن وإعجازه التنوع في أسلوب الخطاب، فتارة يأمر الله تعالى الرسل بالبلاغ بقوله: **(قل، أو**

(١) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٢٠٧.

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر ج ١ ص ٢٤٧.



بلغ، أو أمر، وهكذا)، وتارة يكون الخطاب موجه إلى العباد بالأمر والنهي: (لا تقربوا، ولا تقتلوا، ولا تشركوا، وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة، وهكذا) وهذا الأسلوب موجه إلى العباد على لسان النبي، وتارة يكون الخطاب مع الرسول والمراد به أمته. وهذا إذا ما تتبعناه، نجده في الآيات التي فيها نهي عن الشرك ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، والكفر ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٥]، وذلك لحكمة نوه إليها العارفون بالله، فقال الشيخ محيي الدين بن عربي رحمته الله: «والحكمة في ذلك مقابلة لإعراض الكافرين عن استماع ما جاء الرسول ﷺ، فأعرض الحق ﷻ: عنهم في الخطاب مقابلة إعراض بإعراض، مع كونهم هم المراد بذلك الخطاب، فأسمعهم في غيرهم عقوبة لهم، واستهانة بأمرهم»^(١).

ويُعرف الخطاب الموجه للنبي والمراد به الأمة بالقرائن كقوله تعالى ﴿بَنَاتِهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم يطلق زوجاته، وهذه قرينة تدل على أن الخطاب موجه للأمة والنبي واسطة البلاغ.

فيجب على من يقرأ القرآن أو يفسره، أن ينزه الأنبياء من الشرك، والكفر، وطاعة المنافقين، والهوى، والشيطان، لأن الله نزههم عن ذلك.



(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر ج ١ ص ٢٤٧.

الآية الثالثة:

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: « قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: اعلم يا محمد، أنَّ الحقَّ ما أعلمك ربك وأتاك من عنده، لا ما يقول لك اليهود والنصارى. وهذا خبر من الله تعالى ذكره خبر لنبيه عليه السلام: عن أنَّ القبلة التي وجهه نحوها، هي القبلة الحق التي كان عليها إبراهيم خليل الرحمن، ومن بعده من أنبياء الله عز وجل. يقول تعالى ذكره له: فاعمل بالحق الذي أتاك من ربك يا محمد، ولا تكونن من الممترين. ويعني بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، أي: فلا تكونن من الشاكين في أنَّ القبلة التي وجهتك نحوها، قبله إبراهيم خليلي عليه السلام، وقبله الأنبياء غيره»^(١).



قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكّر فيه وتأمل، حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكير فيه لا محالة، دافع للشك، موصل لليقين»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٣ ص ١٩٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ١ ص ٧٢.

قلت: النبي ﷺ عنده حق اليقين، فلا يجوز نسبة الشك له بحال من الأحوال، وسنين التفسير الذي يليق بمقامه ﷺ.



التفسير العرفاني:

قال ابن عطية رحمه الله تعالى في تفسيره: «والصواب في معنى الآية، أنها مخاطبة للنبي ﷺ، والمراد بها سواء، من كل من يمكن أن يشك أو يعارض، وقال قوم: الكلام بمنزلة قولك: إن كنت ابني فبرّني»^(١).



قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وليس المراد به نهي الرسول ﷺ عن الشك فيه، لأنه غير متوقع منه، وليس بقصد واختيار. أما تحقيق الأمر، وإنه بحيث لا يشك فيه ناظر، هو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ»^(٢).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ تحذير الأمة، وهذه عادة القرآن في كل تحذير مهم؛ ليكون خطاب النبي ﷺ بمثل ذلك، وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى، وأولاهم بكرامته، دليلاً على أن من وقع في مثل ذلك من الأمة، قد حقت عليه كلمة العذاب، وليس له من النجاة باب.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٣ ص ١٤٢.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ١ ص ١١٢.

ويجوز أن يكون الخطاب في قوله: من ربك؟ وقوله: فلا تكونن، خطابا لغير معين من كل من يصلح له الخطاب»^(١).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «إِنَّ مَا قَالَهُ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ مِنْ أَنَّ الْخُطَابَ مُوجَّهٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِهِ فِي نَهْيِ اللَّهِ ﻋَﻠَيْكَ: لَهُ عَنِ الشَّكِّ فِي أَمْرِ الْقِبْلَةِ، بِأَنَّهَا قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، مُرَدُّودٌ وَمُخَالَفٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ. فَاللَّهُ ﻋَﻠَيْكَ: أَمْرُهُ أَنْ يَتَوَجَّهَ بِالصَّلَاةِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، الَّذِي يَحْنُ إِلَيْهِ قَلْبُ النَّبِيِّ ﷺ، لِذَلِكَ قَالَ: ﴿قَدْ زَرَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فالله يسارع في هوى نبيه ﷺ، ويوجهه إلى القبلة التي كان يطلبها في قلبه، وأنتم تقولون إنه شك في أنها قبلة إبراهيم ﷺ. والله ﻋَﻠَيْكَ: يقول في نفس الآية: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وأنتم تقولون إن الله نهاه أن يشك في أمر القبلة، فأخرجتموه بقولكم هذا من أولى العلم وحاشاه ﷺ. وكما قلنا سابقا، إنَّ هذا الخطاب وغيره مما تضمنه الارتباب، والشك، والنهي عن الكفر، إنما هو موجه لمن دخل الإسلام حديثا في زمن النبي ﷺ، ولم يتمكن الإيمان في قلبه، وإلى جميع الأمة من بعده».



قلت: وهذا ما أجمع عليه المفسرون، أن الخطاب له ﷺ، والمراد أمته، ولقد

(١) التحرير والتنوير ج ٢ ص ٤١.

قرر علماء الأصول إذا ما توجه الخطاب للنبي ﷺ ووجدت القرينة على أنه للأمة فهو يفيد العموم، لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١] والنبي ﷺ لم يطلق نساءه، وهكذا هو الأمر في هذه الآية، فيكون المعنى لا يكن أحد منكم من الممترين.

أما قول السعدي: «بل تفكر فيه وتأمل، حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكير فيه لا محالة، دافع للشك، موصل لليقين» مردود، لأن النبي ﷺ هو علم يقين العلماء الربانيين، وعين يقين الخلفاء الراشدين، وحق يقين الأنبياء والمرسلين، فمنه يُستمدُّ اليقين، وقول السعدي كان سيصير مقبولا لو قال: هذا التفكير مطلوب من العلماء والأمة، لا أن يترك الأمر موجه للنبي ﷺ.



الآية الرابعة:

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

[البقرة: ٢٧٢].

التفسير الأول:

قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ هذا الكلام متصل بذكر الصدقات، فكأنه بيّن فيه جواز الصدقة على المشركين. روى سعيد بن جبير مرسلاً عن النبي ﷺ في سبب نزول هذه الآية، إن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة. فلما كثر فقراء المسلمين، قال رسول الله: «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم»، فنزلت هذه الآية، مبيحة للصدقة على من ليس

من دين الإسلام. وذكر النقاش، أَنَّ النبي أتي بصدقاتٍ، فجاءه يهودي، فقال: أعطني. فقال النبي «ليس لك من صدقة المسلمين شيء». فذهب اليهودي غير بعيدٍ، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾، فدعاه رسول الله ﷺ فأعطاه^(١).



التفسير العرفاني:

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «إن في الآية مسائل: في بيان سبب النزول وجوه؛ الرواية الأولى، إِنَّ هذه الآية نزلت حين جاءت قتيلة أم أسماء بنت أبي بكر إليها تسألها، وكذلك جدتها وهما مشركان، أتيا أسماء يسألانها شيئا، فقالت: لا أعطيكما حتى أستأمر رسول الله ﷺ، فإنكما لستم على ديني، فاستأمرته في ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتصدق عليهما. والرواية الثانية، كان أناس من الأنصار لهم قرابة من قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم، ويقولون ما لم تسلموا لا نعطيكم شيئا، فنزلت هذه الآية. وظاهر قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ خطاب مع النبي ﷺ، ولكن المراد به هو وأمته، ألا تراه قال: ﴿إِنْ تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧١] وهذا خطاب عام، ثم قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ وهو في الظاهر خاص، ثم قال بعده: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وهذا عام فيفهم من عموم ما قبل الآية، وعموم ما بعدها، عمومها أيضا^(٢).



(١) تفسر القرطبي ج ٣ ص ٣٣٧

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٧ ص ٦٥، التحرير والتنوير لابن عاشور ج ٣ ص ٧٠.

قال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وفي هذا تسلية للنبي ﷺ لئلا يضيق صدره كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦) [الكهف:٦] أي فلا يضرنك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم، فأنت لم تبعث ملزما ولا جبارا، فتكون مقصرا إن لم يؤمنوا، بل بعثت معلما وهاديا، بالدعوة وحسن الأسوة^(١).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «والخطاب في ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ ظاهره أنه خطاب للرسول على الوجه الأول الذي ذكرناه في معاد ضمير هداهم. ويجوز أن يكون خطابا لمن يسمع على الوجه الآتي في الضمير، إذا اعتبرنا ما ذكرناه في سبب النزول، أي: ليس عليك أيها المتردد في إعطاء قريبك. وعلى في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ للاستعلاء المجازي، أي طلب فعل على وجه الوجوب. والمعنى: ليس ذلك بواجب على الرسول، فلا يحزن على عدم حصول هداهم؛ لأنه أدى واجب التبليغ، أو المعنى: ليس ذلك بواجب عليكم أيها المعالجون لإسلامهم بالحرمان من الإنفاق، حتى تسعوا إلى هداهم بطرق الإلجاء»^(٢).



قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي يجب أن تنتبه يا محمد، إنا أرسلناك للناس لتبلغهم، فمن شاء فليطع، ومن شاء فليعص. فلا تجهد نفسك،

(١) تفسير المراغي ج ١ ص ٢٠٣

(٢) التحرير والتنوير ج ٣ ص ٧٠.

وتظن أننا أرسلناك عليهم لترغمهم على أن يؤمنوا، فتكلف نفسك أمرا ما كلفك الله به: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. والحق يقول أيضا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢] وفي آية أخرى يقول: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].



قلت: لم يُعرف عن سيدنا محمد ﷺ أنه منع سائلا قط، مهما كان دينه وقومه وعرقه، غنيا أو فقيرا، صغيرا أو كبيرا. وهذه من الصفات الملازمة له ﷺ قبل النبوة وبعدها؛ لذلك قال الله تعالى في حقه: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] أي وجدك تعول الأكوان فأغناك، فكان ﷺ لا يرد سائلا أبدا، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. فمن غير اللائق في حقه أن نقول إن النبي ﷺ منع الصدقة عن أحد مهما كان دينه، بحجة أنه منعهم الصدقة كي يدخلوا في الإسلام. بل على العكس، فإن فعل هذا الأمر سينفرهم عن الإسلام. والذي ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه يعطي الناس تأليفا لقلوبهم، بل كان يأمر من يسأله عن التصدق على الكافر أن يعطيه. والدليل على ذلك ما ورد في صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ، إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُدَّتْهُمْ مَعَ أَبِيهَا، فَاسْتَفْتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِيهَا»^(١).

(١) البخاري (٣١٨٣)

ولذلك إذا تتبعنا أسباب النزول، نجد أنها نزلت في غير النبي ﷺ، والخطاب له والمراد به أمته، والحديث الذي رواه الطبري في تفسيره عن سعيد بن جبير فقد قال عنه ابن العربي في أحكام القرآن: حديث باطل^(١).

والوجه الآخر لتفسير هذه الآية، أن فيها من التطيب لقلبه ﷺ الشيء العظيم، أي إنك يا حبيبي قد قمت بالتبليغ عنا على أكمل وجه، فأنت أكمل الرسل بلاغا، وأفضلهم بيانا، فلا تحزن لصدهم عن دين الله.



(١) أحكام القرآن ج ١ ص ٢٣٧.

سورة آل عمران

الآية الخامسة:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٢٨]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لَأَنَّهُ لَمَّا أَصَابَهُ بِأَحَدٍ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ كَأَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْهُدَى، أَوْ مِنَ الْإِنَابَةِ إِلَى الْحَقِّ: «كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ؟!!». وَعَنْ أَنَسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أَحَدٍ، وَكَسَرَتْ رِبَاعِيَّتَهُ، وَشَجَّ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ وَجْهِهِ الدَّمَ وَيَقُولُ: «كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ خَضَبُوا نَبِيَّهُمْ بِالدَّمِ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ!!» فَأَنْزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) وقال آخرون: بَلْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ لَأَنَّهُ دَعَا عَلَى قَوْمٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عَلَى أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) قَالَ: وَهَذَا هُمُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ أَبَا سَفْيَانَ، اللَّهُمَّ الْعَنِ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ الْعَنِ صَفْوَانَ بْنَ أُمِيَّةٍ»، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٧ ص ١٩٤، بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ١ ص ٢٤٥.



قلت: ولقد استدل بعض العلماء في ما ورد من سبب نزول هذه الآية كما ذكر أنفا، واحتجوا بها على أن النبي ﷺ بشر كسائر البشر، يجوز عليه ما يجوز عليهم، ونفوا عنه كثيرا من الخصائص التي أثبتها الله ﷻ له في الكتاب والسنة ومن هؤلاء:

قال صدر الدين الدمشقي رحمه الله تعالى: «وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «يا بني عبد مناف، لا أملك لكم من الله شيئا، يا صفية يا عمة رسول الله ﷺ لا أملك لك من الله شيئا، يا عباس عم رسول الله، لا أملك لك من الله شيئا». وفي الصحيح أيضا عن النبي ﷺ: «لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، أو شاة لها يعار، أو رقاغ تحفق، فيقول: أغني اغني، فأقول: قد أبلغتك، لا أملك لك من الله من شيء». فإذا كان سيد الخلق يقول لأخص الناس به: لا أملك لكم من الله من شيء، فما الظن بغيره؟!»^(١).



قال عبد الرؤوف عثمان رحمه الله تعالى: والآيات القرآنية تثبت بشرية الرسول ﷺ في مواقف كثيرة؛ قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(١٢٨) فهذه الآية توضح أنه بشر لم يخرج عن نطاق البشرية، وكما أن الرسول لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، فهو من باب أولى لا يملك لغيره الضر والنفع، أو الهداية والصلاح، بل كل ذلك بيد الله وحده»^(٢).

(١) شرح العقيدة الطحاوية ج ١ ص ٢١٣

(٢) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ج ١ ص ١٧

وسنرد على هذه الأقوال جميعها، بعد أن نورد بعض التفسير التي تليق بمقامه ﷺ.



التفسير العرفاني:

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «وجملة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ معترضة بين المتعاطفات، والخطاب للنبي ﷺ، فيجوز أن تحمل على صريح لفظها، فيكون المعنى نفي أن يكون للنبي، أي لقتاله الكفار بجيشه من المسلمين، تأثير في حصول النصر يوم بدر، فإن المسلمين كانوا في قلة من كل جانب من جوانب القتال، أي فالنصر حصل بمحض فضل الله على المسلمين، وهذا من معنى قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

ويجوز أن تحمل الجملة على أنها كناية عن صرف النبي عليه الصلاة والسلام عن الاشتغال بشأن ما صنع الله بالذين كفروا، من قطع طرفهم، وكتبهم، أو توبة عليهم، أو تعذيب لهم، أي فذلك موكول إلينا نحققه متى أردنا، ويتخلف متى أردنا على حسب ما تقتضيه حكمتنا، وذلك كالاعتذار عن تخلف نصر المسلمين يوم أحد. فلفظ الأمر بمعنى شأن المشركين. والتعريف فيه عوض عن المضاف إليه، أي ليس لك من أمرهم اهتمام ﴿لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ووضعت هذه الجملة بين المتعاطفات؛ ليظهر أن المراد من الأمر هو الأمر الدائر بين هذه الأحوال الأربعة من أحوال المشركين، أي ليس لك من أمر هذه الأحوال الأربعة شيء، ولكنه موكول إلى الله، هو أعلم بما سيصرون إليه. وجعل هذه الجملة قبل قوله:

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ استثناس للنبي صلى الله عليه وسلم، إذ قدم ما يدل على الانتقام منهم لأجله، ثم أردف بما يدل على العفو عنهم، ثم أردف بما يدل على عقابهم. ففي بعض هذه الأحوال إرضاء له من جانب الانتصار له، وفي بعضها إرضاء له من جانب تطويعهم له. ولأجل هذا المقصد، عاد الكلام إلى بقية عقوبات المشركين بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾^(١).



قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «والغريب أن يفهم البعض من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أنها ضد رسول الله، وقدح في شخصه، وليس الأمر كذلك؛ لأنه ربه تبارك وتعالى يريد أن يتحمل عنه ما يمكن أن يفسد العلاقة بينه وبين قومه، وكأنه يقول لهم: لا تغضبوا من محمد، فالأمر عندي أنا. وشبهنا هذا الموقف بالخدام الذي فعل شيئاً، فيأتي سيده ليدافع عنه، فيقول: أنا الذي أمرته^(٢)».



قلت: من الواضح إنَّ في استغراب الشيخ الشعراوي، من الذين استغلوا هذه الآية للاستدلال على آرائهم السقيمة في إثبات البشرية المعتادة، والقدح برسول الله ﷺ دليلاً على فهمهم المغلوط.



(١) التحرير والتنوير ج ٤ ص ٨٠-٧٩.

(٢) تفسير الشعراوي ج ١٤ ص ٨٧٢٥



قال الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «نحن نرى إنَّ في الآية الكريمة من المدح لسيدنا محمد ﷺ الشيء العظيم، وبيان منزلته عند ربه. فلما حزن النبي ﷺ على التمثيل بجسد عمه الحمزة ؓ، واستشهاد سبعين صحابياً في معركة أحد، حزن حزنا شديدا. وبدأ النبي ﷺ بالتفكير في كيفية الانتصار على الكفار في الأيام المقبلة، فغار الله تعالى على قلب حبيبه من أن يصيبه الحزن على أصحابه، وقال له: يا حبيبي ليس لك من أمر عقوبتهم شيء، فلا تحزن، ولا تشغل قلبك بهم، ودع أمرهم لي، فانا ناصرك، وناصر المؤمنين. فإن تبث عليهم وهديتهم للإسلام، فهذا ما يفرحك، ويدخل السرور على قلبك. وإن هزمتهم وعاقبتهم، فقد انتصرت لك وللمؤمنين. ففرح النبي ﷺ بهذه الآية فرحا شديدا.



قلت: وما أروع هذا التفسير الذي يثلج القلب ويفرح الروح؛ لأن فيه من المدح للنبي ﷺ الشيء الكثير. وما ذلك إلا لأن المفسر ممن تعلق بالنبي ﷺ، وعرف فواضله وخصائصه، ففسر على ما يليق بها.



مناقشة أقوال أهل القول الأول:

مما يردُّ على الطبري فيما أورده من سبب نزول هذه الآية، أنَّ النبي ﷺ قال: «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن صفوان بن أمية»، إن الحديث رواه الإمام الترمذي، وقال عنه هذا حديث حسن غريب يستغرب من حديث عمر بن حمزة. والحديث يعارض ما ورد في القرآن الكريم





القطعي الثبوت والدلالة، حيث وصف الله ﷻ نبيه ﷺ بصفات الكمال الظاهرة والباطنة، فقال ﷻ: ﴿وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال سبحانه وتعالى ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٠٧]

[الأنبياء: ١٠٧]، فهل يكون من هذه صفاته في القرآن الكريم لعاناً، حتى ولو على من آذاه؟! والحديث يعارض أيضاً ما هو أصح منه في السنة النبوية، من أن النبي ﷺ لم يكن **فحاشاً**، ولا لعاناً. روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّابًا، وَلَا فَحَّاشًا، وَلَا لَعَانًا، كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ: «مَا لَهُ تَرَبَّ جِسْنَهُ»^(١). وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اذْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لَعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»^(٢). وعن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِصَدِيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَانًا»^(٣). وأخرج البيهقي في الشعب عن النبي ﷺ قال: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لَعَانًا وَلَكِنِّي بُعِثْتُ دَاعِيًا وَرَحْمَةً، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(٤). وذكر القاضي عياض في كتابه «الشفاء»: «أَنَّ سَيِّدَنَا عُمَرَ قَالَ لَهُ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدْ دَعَا نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وَلَوْ دَعَوْتَ عَلَيْنَا مِثْلَهَا لَهْلَكْنَا مِنْ عِنْدِ آخِرِنَا، فَقَدْ وُطِئَ ظَهْرُكَ، وَأُدْمِيَ وَجْهُكَ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُكَ، فَأَيَّيْتَ أَنْ تَقُولَ إِلَّا خَيْرًا، فَقُلْتَ: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

(١) البخاري (٦٠٣١).

(٢) مسلم (٢٥٩٩).

(٣) مسلم (٢٥٩٧).

(٤) البيهقي في الشعب (١٤٤٦).



وبقي أن نذكر المعنى اللغوي لكلمة اللعن، وبعدها ستتيقن أن هذا لم يكن من خلقه ﷺ.



فاللعن في اللغة كما في «لسان العرب»: «الإبعاد والطرْد من الخير، وقيل: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء»^(١)، وفي «تهذيب اللغة»: «قال الليث: اللعن التعذيب. قال: واللعين المشتوم المسبوب، ولعنه الله أي عذبه. قال: واللعنة في القرآن العذاب. وقال غيره: اللعن الطرد والإبعاد. ومن أبعد الله لم تلحقه رحمته، وخلد في العذاب»^(٢).

ثم أنه لو صح الحديث الذي ذكره الطبري، لثبت اللعن على هؤلاء الثلاثة، ولم يدخلوا في الإسلام؛ لأن دعاء النبي ﷺ مستجاب. ولقد ثبت بصحيح السنة والسير، أن النبي ﷺ ما أخبر عن أحد من أهل النار إلا ومات على الكفر. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَجَمْعُ قُرَيْشٍ فِي مَجَالِسِهِمْ، إِذْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي، أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جُزُورِ آلِ فُلَانٍ، فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلَاهَا، فَيَجِيءُ بِهِ، ثُمَّ يُمِهُلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ. فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ؟ وَثَبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا، فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ. فَاَنْطَلَقَ مُنْطَلِقًا إِلَى فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ - وَهِيَ جُوزِيَّةٌ -، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَثَبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا حَتَّى أَلْقَتْهُ عَنْهُ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسْبُحُهُمْ. فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) لسان العرب لابن منظور ج ١٣ ص ٣٨٧.

(٢) تهذيب اللغة ج ٢ ص ٢٤٠.



وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ»، ثُمَّ سَمَى: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ وَعُمَارَةَ بْنَ الْوَلِيدِ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صَرَعَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ، قَلِيبَ بَدْرٍ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَتَّبَعَ أَصْحَابَ الْقَلِيبِ لَعْنَةً»^(١). وحاشا للنبي ﷺ أن يلعن أحدا، وهو يعلم أنه سيسلم، ويكون من أهل الجنة، كيف وأن الله تعالى أطلع على أهل الجنة وأسمائهم، وأهل النار وأسمائهم. ومن المعلوم، أن الثلاثة الذين ذكروا بالحديث، قد أسلموا، وحسن إسلامهم.



والرد على صدر الدين الدمشقي فيما أورده من إثباته أن النبي لا يملك لنفسه ولا لغيره النفع من وجوه:

الوجه الأول: استدلاله بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ استدلال خاطئ، وفي المعاني التي ذكرها الطاهر بن عاشور والشيخ الشعراوي الرد على كلامه.

الوجه الثاني: استدلاله بحديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا صَفِيَّةَ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ عَم رَسُولِ اللَّهِ،

(١) البخاري (٥٢٠)، مسلم (١٠٧)، النسائي (٣٠٧)، احمد (٣٧٢٢).

لا أملك لك من الله شيئاً»^(١). وهذا استدلال خاطيء؛ لأن الحديث لا يدل على ما قاله صدر الدين الدمشقي، فالنبي ﷺ قال الحديث حينما أمره الله تعالى أن يبلغ عشيرته بالدعوة، وينذرهم العذاب الأليم إن لم يؤمنوا به. قال تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ولما دعاهم، قال هذا الحديث. والمعنى يتضح بتقدير محذوف، وهذا ما يُعرف عند الأصوليين بـ(دلالة الاقتضاء) فيكون المعنى: يا عمي العباس، يا عمتي صفية، إني لا أغني عنكم من الله شيئاً إن لم تؤمنوا بي، ولكن إذا أمتم بي واتبعتموني، فتنفعوني بشفاعتي وبقرابتي، لأنكم من أهل بيتي.

الوجه الثالث: استدلال الدمشقي بحديث عن النبي ﷺ: «لَا أُفِينُ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شاةً لَهَا ثَغَاءٌ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمَمةٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ أَوْ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ»^(٢). ومن المعلوم إن أحاديث الشفاعة لأهل الكبائر لا تعد ولا تحصى في كتب الحديث الشريف، ولا تعارض في الأحاديث. وهذا الحديث أتى بصيغة الزجر والتحذير الشديد منه ﷺ من الغلول، وليس معناه نفي الشفاعة عنه ﷺ، كما استدل به الدمشقي.



(١) صحيح البخاري (٢٧٩٢).

(٢) صحيح البخاري (٣١١١).



أما الرد على عبد الرؤوف عثمان فيما ادعاه من بشرية النبي المعتادة، وأنه لا ينفع نفسه، فضلاً عن غيره، مستدلاً بهذه الآية، وكأنه بقوله هذا قد أنكر الكثير من الآيات والأحاديث النبوية التي أثبتت للنبي ﷺ الشفاعة في الدنيا والآخرة، والتي تشمل الشفاعة العظمى التي سيتفع بها كل المخلوقات، والشفاعة لأهل الكبائر من أمته في القيامة. وأيضاً ينكر ما جاء من انتفاع المذنبين من استغفاره ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، فهو باب الحضرة الإلهية وإمامها، من جاءها من غيره لا يدخل.

قال الشيخ محمد بن علوي المالكي مفتي الحرم المكي رداً على من يصفون النبي ﷺ بالبشرية المعتادة: الأنبياء بشر ولكن: يظن بعض الناس إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يساؤون غيرهم من البشر في كل أحوالهم وأعراضهم، وهذا خطأ واضح، وجعل فاضح، ترده الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة. وهم، وإن كانوا يشتركون مع جميع بني آدم في حقيقة الأصل التي هي... البشرية من قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، إلا أنهم يختلفون عنهم في كثير من الصفات والعوارض. وإلا، فما هي مزيته؟! وكيف تظهر ثمرة اصطفتهم على غيرهم، واجتباؤهم على من سواهم؟!

وسنذكر في هذا المبحث شيئاً من صفاتهم في الدنيا، وخصائصهم في البرزخ التي ثبتت لهم بنص الكتاب والسنة.

الأنبياء سادة البشر:

الأنبياء هم الصفوة المختارة من عباد الله، شرفهم الله بالنبوة، وأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه، يبلغونهم أوامر الله وَعَجَلًا، ويحذرونهم غضبه وعقابه، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة. وقد اقتضت حكمة الله أن يكونوا من البشر، ليتمكن الناس من الاجتماع بهم، والأخذ عنهم، والاتباع لهم في سلوكهم وأخلاقهم. والبشرية هي عين إعجازهم، فهم بشر من جنس البشر، لكنهم متميزون عنهم بما لا يلحقهم به أحد. ومن هنا كانت ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها، هي نظرة جاهلية شركية.

فمن ذلك قول قوم نوح في حقه فيما حكاه الله عنهم إذ قال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]. ومن ذلك قول قوم موسى وعيسى في حقهما عليهما السلام، فيما حكاه الله عنهم إذ قال: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. ومن ذلك قول أصحاب ثمود له، فيما حكاه الله عنه بقوله: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. ومن ذلك قول أصحاب الأيكة لنبیهم شعيب فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥] وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]

ومن ذلك قول المشركين في حق سيدنا محمد وَعَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد رؤوه بعين البشرية المجردة، فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

صفات الأنبياء:

والأنبياء صلوات الله عليهم، وإن كانوا من البشر، يأكلون، ويشربون، ويصحبون، ويمرضون، وينكحون النساء، ويمشون في الأسواق، وتعترهم العوارض التي تمر على البشر، من ضعف، وشيخوخة، وموت، إلا أنهم يمتازون بخصائص، ويتصفون بأوصاف عظيمة جليلة، هي بالنسبة لهم من ألزم اللوازم، ومن أهم الضروريات. وهذه الصفات نلخصها فيما يلي: (الصدق، التبليغ، الأمانة، الفطنة، السلامة من العيوب المنفرة، العصمة). وليس هذا محل تفصيل هذه الصفات، فقد تكفلت بها كتب التوحيد. وسنذكر هنا بعض الصفات التي يتميز بها سيد الأنبياء ﷺ عن عامة البشر.

بعض خصائص سيد الأنبياء ﷺ

ومن تلك الخصائص:

١- يرى من خلفه كما يرى من أمامه: أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هَلْ تَرَوْنَ قِبَلَتِي هَا هُنَا فَوَاللَّهِ مَا يَخْفَى عَلَيَّ خُشُوعُكُمْ وَلَا رُكُوعُكُمْ إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي»^(١). وأخرج مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي إِمَامُكُمْ فَلَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ وَلَا بِالْقِيَامِ وَلَا بِالْإِنْصِرَافِ فَإِنِّي أَرَاكُمْ أَمَامِي وَمِنْ خَلْفِي»^(٢). وأخرج عبد الرزاق في جامعه، والحاكم، وأبو نعيم، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى مَا وَرَائِي كَمَا أَنْظُرُ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيَّ فَسَوُّوا صُفُوفَكُمْ وَأَحْسِنُوا رُكُوعَكُمْ

(١) صحيح البخاري (٤١٩).

(٢) صحيح مسلم (٩٨٩).

وَسُجُودَكُمْ^(١). وأخرج أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أراكم من وراء ظهري».

٢- يرى ما لا نرى، ويسمع ما لا نسمع: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَيْطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحِحتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ وَلَحَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ^(٢)»^(٣).

قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «إننا نعتقد اعتقاداً جازماً، أن الله ﷻ: هو النافع والضار، المحيي والمميت، والهادي والمضل، ولا يحدث شيء في الأكوان إلا بإرادته. ولكن قد يعطي الله تعالى لخواص عباده بعض هذه الصفات، فتكون من الله مصدراً، وفي العبد مظهراً، فالهادي هو الله، ولكن إذا ما أُطلقت على العبد، فهي مظهر، وهكذا في بقية الصفات. ونقول لمن يقول أن النبي ﷺ لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، فكيف أصبحت مسلماً؟! ومن الذي علمك كيف تعبد ربك؟!، وتقرأ القرآن؟! أليس بواسطة رسول الله ﷺ الذي جاءنا بالدين والقرآن الكريم؟! ألم تنتفع منه؛ إذ كان سبباً لنجاتك من النار، وعذاب الملك الجبار؟! فالله تعالى أظهر معجزات وخصائص الأنبياء، وجميعنا نقول هي من الله مصدراً، وفي الأنبياء والأولياء مظهراً».



(١) مسند الإمام أحمد (٨٣٧١).

(٢) سنن الترمذي (٢٤٨٢).

(٣) مفاهيم يجب أن تصحح ج ١ ص ١٤٣.

سورة النساء

الآية السادسة:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ
لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

التفسير الأولي:

قال مقاتل رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «قال الله - عز وجل - لنبيه ﷺ: ما أصابك من حسنة، يعني الفتح والغنيمة يوم بدر فمن الله، وما أصابك من سيئة، يعني البلاء من العدو، والشدة من العيش يوم أحد، فمن نفسك، يعني فبذنبك، يعني ترك المركز. وفي مصحف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب: «فبذنبك وأنا كتبتها عليك»^(١).



قلت: أي ذنب كان للنبي المعصوم ﷺ في بدر، حتى يقول هؤلاء المفسرون أن المصيبة كانت بذنب النبي ﷺ. وكأنهم استمدوا تفسيراتهم من عقيدة بني إسرائيل بأنبيائهم، وبالإسرائيليات التي دخلت عليهم ممن أسلم من أهل الكتاب. ونقل عقيدتهم في عدم تنزيه الأنبياء والمرسلين، واعتبارهم بشراً عادياً، وهذا مما لا يليق بحق النبي ﷺ.

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ١ ص ٣٩١، تفسير عبد الرزاق ج ١ ص ٤٨٨، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٨ ص ٥٥٨.

التفسير العرفاني:

قال الزجاج رحمه الله تعالى: «فذا خطاب للنبي ﷺ يراد به الخلق. ومخاطبة النبي ﷺ قد تكون للناس جميعاً؛ لأنه عليه السلام لسانهم. والدليل على ذلك قوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِئَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فنادى النبي ﷺ وحده، وصار الخطاب شاملاً له ولسائر أمته. ﴿مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾ أي ما أصبتم من غنيمة، أو أتاكم من خصب، فمن تفضل الله. ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ أي من جذب، أو غلبة في حرب، ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أي أصابكم ذلك بما كسبتم، كما قال الله جلّ وعز: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «ما أصابك من حسنة يوم بدر فمن الله، وما أصابك من سيئة يوم أحد فمن نفسك، أي بذنب أصحابك، يعني بتركهم المركز»^(٢).



قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ أَمْتُهُ. أَيُّ مَا أَصَابَكُمْ يَا مَعْشَرَ النَّاسِ مِنْ خَصْبٍ وَاتْسَاعِ زَرْقٍ، فَمِنْ تَفَضُّلِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ جَدْبٍ وَضِيقِ رِزْقٍ، فَمِنْ أَنْفُسِكُمْ، أَيُّ مِنْ أَجْلِ ذُنُوبِكُمْ، وَقَعَ ذَلِكَ بِكُمْ»^(٣).

(١) معاني القرآن واعرابه ج ٢ ص ٧٩.

(٢) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٣٢٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٨٥.



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «فقال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ ووجه الخطاب للرسول؛ لأنه المبلغ عن الله، ولأن هذا الجواب لإبطال ما نسبته الضالون إليه، من كونه مصدر السيئات التي تصيبهم. وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ عطف على قوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ للرد على قولهم: السيئة من عند محمد، أي أنك بعثت مبلغا شريعة وهاديا، ولست مؤثرا في الحوادث، ولا تدل مقارنة الحوادث المؤلمة على عدم صدق الرسالة»^(١).



الآية السابعة:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ۝١٠٧﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٧]

التفسير الأولي:

قال مقاتل رحمه الله تعالى في تفسيره: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وذلك أن يهوديا يسمى زيد بن السمين، كان استودع طعمة بن أبيرق

(١) التحرير والتنوير ج ٥ ص ١٣٤.



الأنصاري من الأوس من بني ظفر بن الحارث درعا من حديد، ثم إنَّ زيدا اليهودي طلب درعه، فجحده طعمة، فقال زيد لقومه: قد ذكر لي إنَّ الدرع عنده، فانطلقوا حتى نلتمس داره، فاجتمعوا ليلا، فأتوا داره. فلما سمع جلبة القوم، أحس قلبه أنَّ القوم إنما جاءوا من أجل الدرع، فرمى به في دار أبي مليك، فدخل القوم داره، فلم يجدوا الدرع. فاجتمع الناس، ثم إنَّ طعمة اطلع في دار أبي مليك، فقال: هذا درع في دار أبي مليك، فلا أدري: هي لكم أم لا؟ فأخذوا الدرع، ثم إنَّ قوم طعمة قتادة بن النعمان وأصحابه - قالوا: انطلقوا بنا إلى النبي ﷺ فلنبرئ صاحبنا، ونقول: إنهم أتونا ليلا ففضحونا، ولم يكن معهم رسول من قبلك أن يبرئوا صاحبنا، لتقطع ألسنة الناس عنا بما قذفونا به. ونخبره أنها وجدت في دار أبي مليك. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه فصدق النبي ﷺ طعمة وأبرأه من ذلك، وهو يرى أنهم قد صدقوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ لم نزله باطلا عبثا لغير شيء، ﴿لِتَحْكُمَ﴾ يعني لكي تحكم بين الناس بما أراك الله، يعني بما علمك الله في كتابه، ﴿وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ يعني طعمة، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ يا محمد عن جدالك عن طعمة، حين كذبت عنه، فأبرأته من السرقة. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).



قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ يقول: ولا تكن لمن خان مسلما أو معاهدا في نفسه أو ماله خصيما تخاصم عنه، وتدفع عنه من طالبه بحقه الذي خان فيه. ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ يا محمد، وسله أن

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ١ ص ٤٠٥.

يصفح لك عن عقوبة ذنبك في خاصمتك عن الخائن من خان مالا لغيره ﴿إِن﴾
 اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١﴾ يقول: إِنَّ اللَّهَ لم يزل يصفح عن ذنوب عباده المؤمنين، بتركه
 عقوبتهم عليها إذا استغفروه منها ﴿رَحِيمًا﴾ بهم. فافعل ذلك أنت يا محمد، يغفر
 الله لك ما سلف من خصومتك عن هذا الخائن»^(١).



قلت: لا نختلف مع مقاتل والطبري في سبب النزول، ولكن نختلف مع
 تعبیر مقاتل الخاطيء حين قال: حين كذبت، وحاشاه عليه السلام. وربما قصد بـ(كذبت)
 أي أخطأت على غير عمد في لغة قريش، وحاشاه من ذلك أيضا. ونختلف أيضا
 مع الطبري حين نسب الذنب للمعصوم عليه السلام. وسنرد بأقوال المفسرين بما يليق
 بمقامه عليه السلام.



التفسير العرفاني:

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال الطاعنون في عصمة
 الأنبياء عليهم السلام: دلت هذه الآية على صدور الذنب من الرسول عليه
 الصلاة والسلام، فإنه لولا أَنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يخاصم
 لأجل الخائن، ويذب عنه، وإلا لما ورد النهي عنه.

والجواب: أَنَّ النهي عن الشيء، لا يقتضي كون المنهي فاعلا للمنهي عنه،
 بل ثبت في الرواية: أَنَّ قوم طعمة لما التمسوا من الرسول عليه الصلاة والسلام

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٩ ص ١٧٦



أن يذب عن طعمة، وأن يلحق السرقة باليهودي، توقف وانتظر الوحي، فنزلت هذه الآية. وكان الغرض من هذا النهي، تنبيه النبي عليه الصلاة والسلام على أن طعمة كذاب، وأن اليهودي بريء عن ذلك الجرم. قوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ﴾^(١) يحتمل أن يكون المراد: واستغفر الله لأولئك الذين يذبون عن طعمة، ويريدون أن يظهروا براءته عن السرقة»^(١).



قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: وقوله: ﴿وَلَا تُجَدِّدْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ والخطاب للنبي ﷺ، والمراد منه الذين كانوا يفعلونه من المسلمين دونه، لوجهين؛ أحدهما، أنه تعالى أبان ذلك بما ذكره بعد بقوله ﴿هَآئِئْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ١٠٩]. والآخر، أن النبي ﷺ كان حكماً فيما بينهم، ولذلك كان يعتذر إليه، ولا يعتذر هو إلى غيره، فدل على أن القصد لغيره»^(٢).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وعن عمر رضي الله عنه: لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله، فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه ﷺ، ولكن ليجتهد رأيه، لأن الرأي من رسول الله ﷺ كان مصيباً، لأن الله كان يريه إياه»^(٣).



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١١ ص ٢١٢

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٥ ص ٣٧٧

(٣) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ١ ص ٥٦١

قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «قال ﴿بِمَا أَرْنَكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل بما رأيت، وهذا يدل على أنه يحكم بما يوحي به إليه، لا فيما يراه برأيه»^(١).



قال البقلي: «تفضل على الناس بإنزال كتابه على نبيه ﷺ وأعطاه فهم خطابه، وكشف لآرائه العلية ﷺ حقائق حكيمته الأزلية السابقة بمراده من عبودية عباده ووقوع صلاحهم من بيانه ﷺ موافقا لرضى الله ﷻ، وهذا معنى قوله «لتحكم بين الناس بما أراك الله» من أسرار، وفي قلبك من أنوار، فبنور الله يعرف خطاب الله، فيحكم به بين الخلق ليتبين الرشد من الغي، قال عليه الصلاة والسلام (ألا إني أتيت القرآن ومثليه معه)، قال سهل: بما أراك الله أي بما علمك من الحكمة في القرآن والشريعة»^(٢).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «جاء في الرواية الصحيحة أن قتادة قال: فأتيت رسول الله، فقال لي «عَمَدَتِ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذَكَرَ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَلَا بَيِّنَةٍ». وأشاعوا في الناس أن المسروق في دار أبي مليك، أو دار اليهودي. فما لبث أن نزلت هذه الآية، وأطلع الله رسوله على جليلة الأمر، معجزة له، حتى لا يطمع أحد في أن يروج على الرسول باطلا. هذا هو الصحيح في سوق هذا الخبر. وفي بعض روايات الطبري سوق القصة ببعض مخالفة لما ذكرته: وأن بني ظفر سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

(١) الفتوحات المكية ج ٥ ص ١٠١.

(٢) عرائس البيان ج ١ ص ٢٧٢.



يجادل عن أصحابهم، كي لا يفتضحوا ويبرأ اليهودي، وأن رسول الله هم بذلك، فنزلت الآية. وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ لام اليهودي وبرأ المتهم. وهذه الرواية واهية، وهذه الزيادة خطأ بين من أهل القصص دون علم، ولا تبصر بمعاني القرآن. والظاهر أن صدر الآية تمهيد للتلويح إلى القصة، فهو غير مختص بها، إذ ليس في ذلك الكلام ما يلوح إليها، ولكن مبدأ التلويح إلى القصة من قوله: ﴿وَلَا تُجَدِّلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾. وقوله: ﴿بِمَا أَرْنَكَ اللَّهُ﴾ الباء للآلة جعل ما أراه الله إياه بمنزلة آلة للحكم؛ لأنه وسيلة إلى مصادفة العدل والحق ونفي الجور؛ إذ لا يحتمل علم الله الخطأ. والرؤية في قوله: ﴿أَرْنَكَ اللَّهُ﴾ عرفانية، وحقيقتها الرؤية البصرية، فأطلقت على ما يدرك بوجه اليقين؛ لمشابهة الشيء المشاهد. والرؤية البصرية تنصب مفعولا واحدا، فإذا أدخلت عليها همزة التعدية نصبت مفعولين، كما هنا. وقد حذف المفعول الثاني؛ لأنه ضمير الموصول، فأغنى عنه الموصول، وهو حذف كثير، والتقدير: بما أراكه الله.



قلت: تبين من ما مضى، أن النبي ﷺ ما دافع عن طعمة بن أبيرق، ولا تكلم عنه. ولقد صار هذا الأمر جليا بعد ما ذكرناه من أقوال المفسرين في سبب النزول، والتفسير الصحيح. وهناك قرائن واضحة من الآية تدل على أن النبي ﷺ لم يدافع عن السارق، ولم يحكم له، ولم يذنب، ولم يكذب عنه، وحاشاه. قال تعالى في الآية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنُحْكِمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥) وفي هذه الآية دليل على عصمة النبي ﷺ في جميع أحكامه؛ لأنه يحكم بما أراه الله ﷻ.



ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ هو خطاب لقوم طعمة بن أبيرق، ولكل قاضٍ يأتي بعد النبي ﷺ إلى قيام الساعة.

والرواية الصحيحة التي رواها الإمام الترمذي فيها أنَّ قتادة قال: فأتيت رسول الله، فقال لي « عَمَدَتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذَكَرَ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَلَا بَيِّنَةٍ »^(١). والواضح من هذا الحديث، أنَّ المشرع الحكيم ﷺ طلب البينة على ادعاء اليهودي، ولم يدافع عنه. وفي هذا تعليم للقضاة بعدم قبول الادعاء إلا ببينة.

وهناك وجه آخر لتفسير هذه الآية: أي استمر على ما أنت عليه من عدم نصرتك للخائنين، واستمر بنصرتك للمظلومين، خصوصاً وأنه ﷺ كان ملجأً للضعفاء والمظلومين قبل النبوة وبعدها.



ويرد على قول مقاتل والطبري اللذان نسبا الكذب والذنب للنبي ﷺ مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٦) كما قال الإمام الرازي: أي واستغفر الله لأولئك الذين يذبون عن طعمة، ويريدون أن يظهرُوا براءته عن السرقة، ثم كيف سولت لكم أنفسكم أن تصفوا الصادق المصدوق، الذي ما عُرف عنه الكذب قط، لا في الجاهلية ولا في الإسلام.

وأتمنى أن يكون هذا الكلام مدسوساً على تفسير مقاتل، لأن مثله لا يتصور أن يتكلم بهذا الكلام. والنبي ﷺ معصوم من الذنب قبل النبوة، فما بالك

(١) الترمذي (٣٠٣٦).



بأن يظلم ويذنب بعد النبوة، ولقد غفر الله تعالى لأولئك القوم بسبب استغفاره ﷺ لهم. ثم إن الله ﷻ: قد بين أن النبي ﷺ قد حكم بالحق بتوفيق الله وفضله، ولم يحكم كما أراد هؤلاء القوم، وذلك في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، أي ولولا فضل الله عليك بتوفيقك في أمورك وأحكامك كلها، ورحمته، أي وعصمته لك عن الخطأ بالنبوة والرسالة، لهمت طائفة منهم أن يضلوك، ليقعوك في الخطأ، وحاشاه. وسأذكر بعض تفسيرات العارفين بالله هذه الآية الكريمة ومنها تتعرف على بعض الكمالات التي خص الله تعالى بها نبيه ﷺ:

قال إسماعيل حقي رحمه الله تعالى: «وعلم نبينا عليه السلام القرآن وأسرار الألوهية كما قال وعلمك ما لم تكن تعلم»^(١).

وقال الخازن رحمه الله تعالى: «علمك من علم الغيب ما لم تكن تعلم، وقيل معناه وعلمك من خفيات الأمور وأطلعك على ضمائر القلوب وعلمك من أحوال المنافقين وكيدهم ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً»^(٢).

وقال الرازي رحمه الله تعالى: «وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مِنْ أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ، فَكَذَلِكَ يُعَلِّمُكَ مِنْ حِيلِ الْمُنَافِقِينَ وَوُجُوهِ كَيْدِهِمْ مَا تَقْدِرُ بِهِ عَلَى الْإِحْتِرَازِ عَنْ وَجُوهِ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، ثُمَّ قَالَ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا»^(٣).

(١) روح البيان: ج ٩ ص ٢٨٩.

(٢) تفسير الخازن: ج ١ ص ٤٢٦.

(٣) التفسير الكبير: ج ١١ ص ٢١٧.



قال العلامة الألوسي رحمه الله تعالى: «وَعَلَّمَكَ بِأَنْوَاعِ الْوَحْيِ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَيُّ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تَعْلَمَهُ مِنْ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ وَضُمَائِرِ الصُّدُورِ، وَمِنْ جَمَلَتِهَا وَجُوهِ إِبْطَالِ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، أَوْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَأَحْكَامِ الشَّرْعِ كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، أَوْ مِنْ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ، أَوْ مِنْ أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ أَوْ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرَ.

ومن الناس من فسر الموصول بأسرار الكتاب والحكمة، أي إنه سبحانه أنزل عليك ذلك وأطلعك على أسرارهِ وأوقفك على حقائقهِ فتكون الجملة الثانية كالتممة للجملة الأولى، واستظهر في البحر العموم. وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا لَا تَحْوِيهِ عِبَارَةٌ وَلَا تَحِيطُ بِهِ إِشَارَةٌ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّبُوءَةُ الْعَامَّةُ وَالرَّئِيسَةُ التَّامَّةُ وَالشَّفَاعَةُ الْعَظْمَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)

وقال العلامة الألوسي في موضع آخر: «وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مِنْ عِلْمِ عَوَاقِبِ الْخَلْقِ وَعِلْمِ مَا كَانَ وَمَا سَيَكُونُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا، حَيْثُ جَعَلَكَ أَهْلًا لِمَقَامِ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى وَمَنْ عَلَيْكَ بِمَا لَا يَحِيطُ بِهِ سِوَى نِطَاقِ الْوُجُودِ»^(٢).

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾^(١٠٧) فهو خطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) روح المعاني: ج ٣ ص ١٣٩.

(٢) روح المعاني: ج ٣ ص ١٥٢.

سورة المائدة

الآية الثامنة:

﴿وَأَن أٰحْكَمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن
يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقوله ﷻ:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]

التفسير الأولي:

قال الرازي وبعض المفسرين رحمهم الله تعالى: «قال أهل العلم: هذه الآية تدل على أن الخطأ والنسيان جائزان على الرسول؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والتعمد في مثل هذا غير جائز على الرسول، فلم يبق إلا الخطأ والنسيان»^(١).



قلت: لم تدل الآية على جواز الخطأ على النبي ﷺ، وهذا ما سيبينه سبب النزول وأقوال المفسرين فيما يلي:

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٢ ص ٣٧٤، الباب في علوم الكتاب ج ٧ ص ٣٧٣، غرائب القرآن ورغائب الفرقان المعروف بتفسير النيسابوري ج ٣ ص ٦٠١

التفسير العرفاني:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وابن صوريا وشأس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت إنا أحبار يهود، وأشرافهم، وساداتهم، وإننا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك، فأبى رسول الله ﷺ، فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١).



قال أبو زهرة رحمه الله تعالى في تفسيره: «هذا أمر موجه للنبي ﷺ وهو موجه إلى الأمة الإسلامية، ولعل توجيه الخطاب للنبي ﷺ وهو المعصوم الذي يوحى إليه، ليكون تحذيرا لغيره؛ إذ غيره أولى أن يغره الغرور، وتفتنه الفتن، من شهوات مسيطرة، وأهواء متحكمة، وبذلك يكون الخطاب لجميع المخاطبين بالقرآن الكريم في كل العصور، ومختلف الدهور؛ لأنه إذا كان النبي عليه السلام يجب أن يحذر من أن يفتن، فلا ينفذ أحكام الإسلام في الحكم بين الناس، فغيره الحذر عليه أوجب، وأشد إلزاما»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٠ ص ٣٩٣.

(٢) زهرة التفاسير ج ٤ ص ٢٢٣٢.



قلت: تبين مما مضى أنَّ النبي ﷺ لم يوافق اليهود على ما جاؤوا به، فهو المعصوم في كل أحواله. فالخطاب له والمقصود به جميع الأمة من بعده، من الحُكَّام والقضاة وغيرهم. والمعنى أن احكموا بما أنزلت إليكم من القرآن على لسان نبيكم، وما بيَّنه من السنة، ولا تتبعوا أهواء المنافقين والضالين فتضلوا، واحذروا أن يفتنوكم بأفكارهم، ونظرياتهم، وقوانينهم، عما أنزلته عليكم من الكتاب والسنة.



الآية التاسعة:

﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

[المائدة: ٦٧]

التفسير الأولي:

قال النيسابوري رحمه الله تعالى في تفسيره: «إن لم تبلغ رسالته، فما بلغت رسالته. فما وجه صحته؟ فالجواب، أن هذا جار على طريق التهديد. والمراد: إن لم تبلغ منها أدنى شيء، فأنت كمن لم يبلغ شيئاً؛ لأن أداء بعضها ليس أولى من أداء البعض الآخر. كما أن من لم يؤمن ببعضها، كان كمن لم يؤمن بأكملها. أو المراد: إن لم تفعل، فلك ما يوجه كتمان الوحي كله، فوضع السبب موضع المسبب. ويعضده ما روي أنه ﷺ قال: «بعثني الله برسالاته وضقت بها ذرعاً فأوحى الله إلي إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك وضمن لي العصمة ففويت»^(١).

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ٢ ص ٦١٧.

قلت: حاشا لرسول ﷺ أن يضيق ذرعا من تبليغ الرسالة، أو خشية من الناس، وحاشاه أن يهَمَّ بكتمان شيء مما أنزل إليه، حتى نقول إن الخطاب موجه إليه، وهو تهديد بعدم كتمان شيء مما أنزل إليه، وسنين التفسير الذي يليق بمقامه ﷺ.



التفسير العرفاني:

قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «هذا تأديبٌ لحملة العلم من أمته ألا يكتُموا شيئاً من أمر شريعته، وقد علم الله تعالى من أمر نبيه أنه لا يكتُم شيئاً من وحيه. وفي صحيح مسلم عن مسروق عن عائشة أنها قالت: «وَمَنْ رَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَمَ شَيْئاً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَغْطَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَاللَّهُ يَقُولُ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ»^(١)»^(٢).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «إنَّ موضع هذه الآية في هذه السورة معضل، فإن سورة المائدة من آخر السور نزولاً، إن لم تكن آخرها نزولاً. وقد بلغ رسول الله ﷺ الشريعة، وجميع ما أنزل إليه إلى يوم نزولها. فلو أنَّ هذه الآية نزلت في أول مدة البعثة، لقلنا هي تثبيت للرسول، وتخفيف لأعباء الوحي عنه، كما أنزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٤)»

(١) صحيح مسلم (٤٥٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٦ ص ٢٤٢.

[الحجر: ٩٤]، وقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] - إلى قوله -
﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] الآيات. فأما وهذه
السورة من أواخر السور نزولا، وقد أدى رسول الله الرسالة، وأكمل الدين.
فليس في الحال ما يقتضي أن يؤمر بتبليغ، فنحن إذن بين احتمالين؛ أحدهما، أن
تكون هذه الآية نزلت بسبب خاص، اقتضى إعادة تثبيت الرسول على تبليغ شيء
مما يثقل عليه تبليغه. وثانيهما، أن تكون هذه الآية نزلت من قبل نزول هذه السورة،
وهو الذي تواطأت عليه الأخبار في سبب نزولها. فأما هذا الاحتمال الثاني، فلا
ينبغي اعتباره؛ لاقتضائه أن تكون هذه الآية بقيت سنين غير ملحقة بسورة،
ولا جائز أن تكون مقروءة بمفردها. وبذلك تندحض جميع الأخبار الواردة في
أسباب النزول، التي تذكر حوادث كلها حصلت في أزمان قبل زمن نزول هذه
السورة. وقد ذكر الفخر عشرة أقوال في ذلك، وذكر الطبري خبرين آخرين،
فصارت اثني عشر قولاً. فتعين التعويل على الاحتمال الأول، إما أن يكون سبب
نزولها قضية مما جرى ذكره في هذه السورة، فهي على وتيرة قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا
الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، فكما كانت
تلك الآية في وصف حال المنافقين تليت بهذه الآية لوصف حال أهل الكتاب.
والفريقان متظاهران على الرسول ﷺ: فريق مجاهر، وفريق مستتر. فعاد الخطاب
لرسول ثانية بتثبيت قلبه، وشرح صدره، بأن يدوم على تبليغ الشريعة، ويجهد في
ذلك، ولا يكثرث بالطاعنين من أهل الكتاب والكفار، إذ كان نزول هذه السورة

في آخر مدة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله دائم على عصمته من أعدائه، وهم الذين هون أمرهم في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾ فهم المعنيون من الناس في هذه الآية، فالمأمور بتبليغه بعض خاص من القرآن. ولذلك، أعيد افتتاح الخطاب له بوصف الرسول، المشعر بمنتهى شرفه؛ إذ كان واسطة بين الله وخلقه، والمذكر له بالإعراض عمن سوى من أرسله.



قال الإمام الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وكيف يقول الحق لرسوله: ﴿بَلِّغْ﴾ وهو يعلم أنَّ مهمة الرسول هي البلاغ؟ لقد أراد سبحانه بذلك إخبار الناس، أنه إن أبلغهم بما يكره بعضهم، فهو يبلغ التزاما بأمر الله، فهو لا يقول من عنده، ذلك أنَّ الرسول عليه البلاغ، فإن أبلغ أحدا ما يكدره، فليس له مصلحة في ذلك. ويورد سبحانه ذلك، حتى إذا بلغ الرسول حكما من الأحكام، فعليهم أن يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من الله، وسبحانه يعلم أنَّ رسوله لا يكتفم البلاغ، ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر، فهو سبحانه حين يخاطبهم بشيء قد يكرهونه، فهو بلاغ من الله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي إنه إن لم يفعل، ولو في جزئية يسيرة من المنهج، فهذا معناه أنَّ البلاغ ناقص، والله يريد أن يكون البلاغ كاملا بالدين المتكامل. إنَّ التركيبة الإيمانية تقتضي أن يأتي القول بهذه الطريقة، حتى ينسجم البلاغ بشكل كامل؛ فقد نزل المنهج بكليته، ويجب أن يطبق بكليته من أجل أن ينصلح الكون، وحتى لا تفسد حركة الإنسان في الكون. فقد أنزل

سبحانه المنهج وأحكمه ليسير العالم على حسب تصميمه له دون أن يختل. ولذلك يقول الحق: ﴿وَأَن لَّزَقَفَعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ﴾. وبذلك يعطي الحق رسوله المناعة الكاملة. فلم يأت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لخير الناس^(١).



قلت: يعلم الحق ﷻ أن سيدنا محمداً ﷺ لا يكتف شيئا مما أمر بتبليغه؛ إذ هو الأمين على وحي السماء. وخاطبه بهذا الخطاب، تنبيها للسامع على صدقه في كل ما يقول، وأن جميع ما ينطق به، ويبلغكم به، إنما هو مما أمره الله تعالى به. والمتبع للسياق الذي جاءت به الآية، يجد أن الآية التي سبقت هذه الآية تتكلم عن أهل الكتاب، وكيف أنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم. قال الله: ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]. والآية جاءت بعدها تحدثت من أن نجاتهم تكمن في إبلاغ الناس ما أنزل إليهم في أمر هذا النبي واتباعه. قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

وفي الآية وجه آخر للتفسير، كما قال القرطبي، تأديباً لجميع العلماء والدعاة من بعده، وحثهم على الاستمرار في تبليغ الدعوة، وأن لا يكتفوا العلم.



(١) تفسير الشعراوي ج ٦ ص ٣٢٨٦

سورة الأنعام

الآية العاشرة:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقوله عز وجل:

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥].

وقوله عز وجل:

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ عَائِدَةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه الآلهة والأنداد، فتكون من الهالكين^(١).

قال عبد السلام بن برجان رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ حذره - عز وجل - من موافقة الشرك؛ وإن كان على الإسلام قائماً^(٢).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٥ ص ٢١٨

(٢) تفسير ابن برجان ج ٢ ص ٢٠٦.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «إنَّ ظاهر الخطاب، وإن كان مع الرسول، إلا أنَّ المراد منه غيره. وهذا كما أنك إذا عاتبت إنساناً أساء عبده إلى عبدك، فتقول له: لو فعلت مرة أخرى مثل هذا الفعل، لعاقبتك عليه عقاباً شديداً، فكان الغرض منه لا يميل إلى مخاطبتهم ومتابعتهم أحد من الأمة»^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تنفيراً لغيره من الشرك، وإلاَّ فهو مبرأً منه عليه الصلاة والسلام»^(٢). وقال أيضاً: ولا تكونن من المشركين بشهود شيء من السَّوى، فإن كل شيء هالك، أي معدوم في الماضي، والحال، والاستقبال»^(٣).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أو يقال: وأمرت أن أكون من المسلمين، إلى ها هنا أمر النبي ﷺ أن يقول ذلك للكفار»^(٤).



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢ ص ٤٢١.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٢ ص ٣٣٨.

(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٥ ص ٤٤٩.

(٤) السمرقندي بحر العلوم ج ٢ ص ١٣٥.

قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «والحكمة في ذلك مقابلة لإعراض الكافرين عن استماع ما جاء به الرسول ﷺ، فلذلك أعرض الحق ﷻ عنهم في الخطاب مقابلة إعراض بإعراض، مع كونهم هم المراد بذلك الخطاب، فأسمعهم في غيرهم عقوبة لهم، واستهانة بأمرهم»^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «النبى ﷺ هو أول من أسلم، وهو مقيم وجهه لله قبل نزول هذه الآية، فالمخاطب بهذه الآية المكلف».

قلت: فالخطاب موجه للنبي ﷺ، والمراد به الأمة.

وله وجه آخر: أي استمر على ما أنت عليه من مجانبتك للمشركين، واستمرار دعوتك لترك الشرك، وعبادة الواحد الأحد، حيث إنه تعالى نهاه عما هو متلبس بتركه، حتى قبل البعثة، فما بالك بعدها، فيكون المعنى: استمر على ما أنت فيه من تجنب ما هم عليه من الشرك.



الآية الحادية عشرة:

﴿وَإِنْ كَانَ كِبُرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ [الأنعام: ٣٥]

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر ج ١ ص ٢٤٧.

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره إنَّ الذين يكذبونك من هؤلاء الكفار يا محمد، فيحزنك تكذيبهم إياك، لو أشاء أن أجمعهم على استقامة من الدين، وصواب من محجة الإسلام، حتى تكون كلمة جميعكم واحدة، وملتكم وملتهم واحدة، لجمعتهم على ذلك، ولم يكن بعيداً عليّ، لأنني القادر على ذلك بلطفي، ولكني لم أفعل ذلك لسابق علمي في خلقي، ونافذ قضائي فيهم، من قبل أن أخلقهم، وأصور أجسامهم. فلا تكونن يا محمد، من الجاهلين»^(١).



قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني تجزع في مواطن الصبر، فتصير بالأسف والتحسر، مقارباً لأحوال الجاهلين»^(٢).



قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «فلا تكونن من الجاهلين بالحرص على ما لا يكون، والجزع في مواطن الصبر، فإن ذلك من دأب الجهلة»^(٣).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١١ ص ٣٣٩.

(٢) تفسير النكت والعيون للماوردي ج ٢ ص ١٠٧.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ج ٢ ص ١٦٠.

قلت: لقد جانب المفسرون الصواب بقولهم: إنَّ الخطاب مقصود به سيدنا النبي ﷺ، فالنبي لم يكن من الجاهلين، ولم يقارب من أحوالهم، ووجب عليهم التزام الأدب، واختيار ما يناسب من الألفاظ، وسنرد على هذه الأقوال ونبين التفسير الذي يليق بمقامه عليه الصلاة والسلام.



التفسير العرفاني:

قال النيسابوري رحمه الله تعالى في تفسيره: «والنهي في حقه ﷺ هو نهى الامتناع عن الكينونة، أي خلق في الأزل ممتنعا عن الجهل، بواسطة كلمة لا تكن، كما أنه خلق مستعدا للكمال بكلمة «كن»^(١).



قال الإمام الشعراوي رحمه الله تعالى: «وقد يقول قائل: كيف يخاطب الله رسوله، فيقول له: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ونقول: إنَّ الحق حين يقول لرسوله ذلك، فهو يقولها لا من مظنة أن يفعلها الرسول؛ فالرسول معصوم من الجهل، ولكن هو قول فيه تنزيه للرسول، عن أن يكون في مثل هذا الصنف من الجاهلين»^(٢).



(١) غرائب التفسير ودرغائب التأويل للنيسابوري ج ٣ ص ٧٣.

(٢) تفسير الشعراوي ج ٦ ص ٣٦٠٢.

قلت: الخطابُ للنبي ﷺ والمرادُ الأمة، لأنه واسطة البلاغ، وهو ﷺ أبعد ما يكون عن هذا الوصف، أي لا تكن يا من وضحت لك هذه الحقائق من أن الله تعالى خلق الخلق، وجعلهم مختارين، فمنهم من يختار الكفر على الإيمان. ومهما رأى من المعجزات التي أتى بها الأنبياء فلا يؤمن؛ لأنه من أهل النار. ولو شاء الله تعالى لجمعهم على الهدى، وقهرهم على الإيمان، لكنه جعل الناس مختارين، ويحاسبهم على اختيارهم، فأحذر أيها الإنسان أن تعترض على حكم الله، وتكن من الجاهلين. وكان من المفترض أن يختار المفسرون ألفاظاً تليق بمقامه ﷺ ولا ينسبون الجهل إليه، أو مقاربتة للجهل، فالكلام هنا عن أعرف الخلق بالله ﷺ وأعلمهم به.



الآية الثانية عشرة:

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]

التفسير الأولي:

قال البغوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: خزائن رزقه، فأعطيكم ما تريدون، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فأخبركم بما غاب مما مضى وما سيكون، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ قال ذلك؛ لأن الملك يقدر

على ما لا يقدر عليه الآدمي، ويشاهد ما لا يشاهده الآدمي، يريد: لا أقول لكم شيئاً من ذلك، فتذكرون قولي، وتجدون أمري»^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي لا أدعى ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله، وهي قسمه بين الخلق وأرزاقه، وعلم الغيب، وأني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى، وأفضله، وأقربه منزلة منه. أي لم ادع إلهية ولا ملكية، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة، حتى تستبعدوا دعواي، وتستكرونها. وإنما أدعي ما كان مثله لكثير من البشر، وهو النبوة»^(٢).



قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره نقلاً عن الجبائي: «قال الجبائي: الآية دالة على أن الملك أفضل من الأنبياء، لأن معنى الكلام: لا أدعي منزلة فوق منزلتي، ولولا أن الملك أفضل، وإلا، لم يصح ذلك»^(٣).



قال محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسيره: «والله تعالى في هذه السورة الكريمة أمره ﷺ أن يعلن للناس أنه لا يعلم الغيب، وذلك في قوله تعالى:

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن ج ٢ ص ١٢٥.

(٢) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٢٥.

(٣) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٢ ص ٥٣٧.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا

مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. ولذا لما رميت عائشة - رضي الله عنها - بالإفك، لم يعلم، أهي بريئة

أم لا، حتى أخبره الله تعالى بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦] ^(١).



قلت: والخلاصة فيما مضى من الأقوال: إنَّ قسماً من المفسرين حملوا الآية على عدم علمه بالغيب مطلقاً، ولم يقيدوه بما علّمه ربه. والقسم الآخر جعل الملائكة أفضل من الأنبياء والمرسلين، وسنرد على جميع هذه الأقوال بإذن الله بما ذكره بعض المفسرين، الذين ينزهون المقام المحمدي من أي نقص وشبهة، وبما قاله العارفون بالله في هذه الآية.



التفسير العرفاني:

قال الزجاج رحمه الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ

الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ هذا متصل بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

[الأنعام: ٣٧]. فأعلمهم النبي ﷺ، أنه لا يملك خزائن الله التي بها يرزق ويُعطي،

وأنه لا يعلم الغيب، فيخبرهم بما غاب عنه ممّا مضى، وما سيّكون إلا بوحي من

الله جلّ وعزّ. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي الملك يشاهد من أمور الله عزّ وجلّ،

ما لا يشاهده البشر، فأعلمهم أنه يتبع الوحي فقال: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج ١ ص ٤٨١.



ما أنبأتكم به من غيب فيما مضى، وفيما سيكون فهو بوحى من الله. فأما الإنباء بما مضى، فأخبار بقصص الأمم السالفة، والأخبار بما سيكون كقوله: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢-٤]. فوجد من ذلك ما أنبأ به، ونحو قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فاجتهدوا في قتله، فلم يصلوا إلى ذلك. وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨] وما يروى من الأخبار عنه بما يكون أكثر من أن يُحصى^(١).



قال إسماعيل حقي في تفسيره: «لا أقول لكم عندي خزائن الله، أي: لا أدعى أن خزائن مقدوراته تعالى مفوضة إليّ أتصرف فيها كيف أشاء استقلالاً واستدعاء حتى تقترحوا عليّ تنزيل الآيات أو إنزال العذاب أو قلب الجبال ذهباً أو غير ذلك مما لا يليق بشأني».

ثم قال: «أمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يكلم الكفار على قدر عقولهم، فقال قل لا أقول لكم عندي خزائن الله على أنها عندي»

ثم قال: «ولا أعلم الغيب، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يخبر عما مضى وعما سيكون بإعلام الحق، وقد قال عليه السلام ليلة المعراج (قطرت في حلقي قطرة علمت ما كان وما سيكون) فمن قال إن نبي الله لا يعلم الغيب فقد أخطأ فيما أصاب، ولا أقول لكم إني ملك، وإن كنت قد عبرت عن مقام الملك حين قلت لجبرائيل تقدم فقال لو دنوت أنملة لا حرقت»

(١) معاني القرآن واعرابه للزجاج ٢ ص ٢٥٠.



ثم قال: «إن اتبع إلا ما يوحى إليّ، يعنى لا أخبركم عن مقاماتي وأحوالي مما لي مع الله، وقد لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، إلا عما يوحى إليّ أن أخبركم، وكيف أخبركم عما أعمى الله بصائركم عنه، وأنا به بصير فلا يستوي الأعمى والبصير»^(١)



قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وهو بذلك ﷺ ينفي عن نفسه أي صفة من صفات الألوهية؛ لأن الخزائن الكونية هي في يد الله، وكذلك ينفي عن نفسه علم الغيب. ولقائل أن يقول: ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التي كان يجربنا بها سيدنا رسول الله ﷺ، وهي أحداث مستقبلية؟ ونقول: إن ذلك ليس علما الغيب، ولكن الرسول ﷺ مُعَلَّمٌ غيب، أي أن ربنا سبحانه وتعالى قد علمه. ومثال ذلك قول القرآن الكريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَيْهِمْ يَكْفُلْ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، إن الحق سبحانه هو الذي علّم رسوله ﷺ تلك الأخبار التي كانت من أنباء الغيب، ويحسم الحق هذه المسألة عندما يقول: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [آل عمران: ٦٤]، «إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا» [الجن: ٢٦-٢٧]. فسبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب، ولا يطلع أحدا من خلقه على الغيب، إلا الرسول الذي يرتضيه الله، ليخبره ببعض من الغيب. إذن فالرسول معلم غيب، وليس عالم غيب. والشيء الثالث، وهو أنه ليس ملكا، فهل يعني ذلك أن الملك أرفع من النبي؟ لا، ولكنهم قالوا له:

(١) روح البيان ج ٣ ص ٣٣-٣٥.

إنما يمشي في الأسواق، ويتكسب العيش بالعمل، والمملك لا يفعل ذلك. ولكن الرسول بالطبع أرقى منزلة من المملك؛ لأنه يقوم بهداية الإنس والجن، ويتبع ما يوحى إليه ملك الملوك، وهو الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: يبين النبي ﷺ أن كل ما أوتي من النعم التي لا نهاية له كنعمة النبوة والرسالة، وإخباره بالغيب، ليس من ذاته، ولكن من الله إليه. ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ من نفسي، ولكن الله أعطاني خزائن السموات والأرض، وجعلني رحمة للعالمين، ويدي مفاتيح خزائن الأرض، ومفاتيح الجنة، والتصريف، والشفاعة، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ بذاتي، ولكن الله علمني الغيب، فأخبرتكم به، ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فتعلمت الغيب بوحى ربي، فهو الذي أعلمني، وإنه مع عظم ما أوتيته ﷺ فهو بشر رسول وليس ملكا، لتتم به الأسوة.



قلت: وما أروع كلام الدكتور يسري جبر في هذا التفسير، الذي أظهر فيه خصائص النبوة، وفضل الله تعالى على سيدنا محمد ﷺ، وبيان لما أوتيته من النعم والمقامات العالية. والمتتبع لسياق الآيات في سورة الأنعام، سيجد أن السورة بدأت بالحديث عن نعم الله تعالى على المخلوقين، فبين لهم نعمة الإيجاد من العدم، ونعمة الإمداد بعد الإيجاد، ثم بين أن الظالمين مهما تأتتهم من آيات ربهم، فهم معرضون. وإذا أرسل إليهم بشرا رسولا، قالوا إنما نريد ملك، وهكذا هم في

(١) تفسير الشعراوي ج ٦ ص ٣٦٤٠.



تكذيب مستمر واستهزاء دائم بالرسول، ثم إن الله تعالى أخبر حبيبه ومصطفاه بهؤلاء المستهزئين بالرسول، وبالعذاب الذي حل بهم، ثم أعلمه الله تعالى إن أهل الكتاب أعلم الناس به ﷺ ويعرفونه حق المعرفة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠]، ولكنهم مستمرين على كفرهم وتكذيبهم للأنبياء، ثم إن الله طيب خاطر النبي ﷺ، وهو الصادق الأمين، وإنه لم يكذب فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَاعَتْهُمُ أَنْفُسُهُمْ فَجَادُوا﴾ [الأنعام: ٣٣]، وأخبره إن هؤلاء القوم قد كذبوا الرسول قبلك، وهم يعلمون صدقك فيما تقول، لكنهم يكذبون آيات الله في كل زمان. ولما لم يجدوا حيلة لتكذيبه ﷺ، أخذوا يطلبون منه ﷺ الآيات والمعجزات، مما طلة منهم وعنادا، كما طلبوا ممن كان قبله من الأنبياء والمرسلين ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، فأنذرهم يا أفضل الرسل ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٩]، والمعنى سيتضح بتقدير محذوف، وهذا على مفهوم (دلالة الاقتضاء) عند الأصوليين، فيكون المعنى: وقل لهم إن خزائن السموات والأرض بيد الله تعالى، وقد جعلني متصرفا بها على وفق مراده، فقال ﷺ: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ فَيَنِينَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي»^(١)، ولا أعلم الغيب المطلق، ولكنني أعلم الغيبات التي أطلعني عليها ربي، مما أخبرتكم به من أخبار الأمم

(١) البخاري (٢٩٧٧) حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب فبينما أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت بيدي) قال أبو هريرة ووقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تتشلقونها. مسلم (٦) النسائي (٣٠٨٧) أحمد (٧٥٨٥).



السابقة، وأخبار الأمم اللاحقة، لذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَيْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وما كنت فيهم وأخبرتهم بهذه الأخبار، وبقصة مريم والمسيح. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] وفي قوله (وما كنت لديهم) من التكريم له ﷺ ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، فإنه يخبر عن أقوام قبله بآلاف السنين، ويتكلمون بلغة غير لغته، وهو يروي قصتهم بأدق التفاصيل، حتى أنه حكى قصة سيدنا يوسف ﷺ وما فيها من تفاصيل ومنامات، وكذا قصص غيره من الأنبياء بإعلام ربه ومولاه له، فقال له: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] فأخبرتكم بعلامات الساعة الصغرى والكبرى، وأحوال القيامة وأحداثها، حتى ذهاب أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [١٦] إِلَّا مَنْ أَرَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] ومن أَرْضَى عند الله من حبيبه ومصطفاه ﷺ. وقال النبي ﷺ مبيناً ذلك عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمًا، فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أَحَدِ صَلَاتِهِ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْبَرِ، فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْأَنْ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَافَسُوا فِيهَا»^(١). فهذا هو ﷺ

(١) البخاري (١٣٤٤)، مسلم (٢٢٩٦).



يذكر خصائصه من تمليكه للخزائن، وشفاعته لأمته، ونظره للحوض من مكانه، وإطلاعه على ما غاب عنا، ثم يقول لمن سيأتي، ويتهم المسلمين بالشرك والغلو إذا ما تحدثوا عن خصائصه، فيقول ﷺ: «وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا». وهذا قسم من النبي ﷺ، المطلع على الغيب والحوض، أن أمته لا تشرك بالله.

وفي قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ يُرد على قول الزمخشري والجبائي الذين استدلوا من هذه الآية على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وهذا استدلال خاطئ، وقد بين علماء أهل السنة والجماعة على مر العصور خطأ هذا المعتقد في كتبهم، ويمكن لمن يريد التوسع مراجعتها، ولت شعري أين كان جبريل والملائكة عندما كان الحبيب مع حبيبه، وأين وقف جبريل حين صار الحبيب ﷺ قاب قوسين أو أدنى، وكيف وقد أم الملائكة جميعا في البيت المعمور، وفيهم سيدنا جبريل عليه السلام وسائر الملائكة، وهل إذا أرسل الملك إلى نائبه ووزيره كتابا مع أحد موظفيه، قلنا إن الموظف أعلى درجة من النائب؟ إن هذا لشيء عجاب. ألم يقرؤوا قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَدُمُّ أُنْبِيُّهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُهُونَ﴾ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴿[البقرة: ٣٣-٣٤].

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠] أي أتبع ما يوحى إليّ، فلا تقولوا بشرا مثلنا، وتنكروا الخصوصية. وهذا ما وقع فيه البعض ممن ينكر الخصوصية والمقام العالي، فأنت يأمن تنكر الخصوصية، لو رأيت الملك مرة واحد، لذهب عقلك، وقد تموت من ساعتك.



وانتبه: إن الله تعالى قد ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي هل يستوي الأعمى الذي ينكر الخصوصية، ويتهم النبي بالبشرية المعتادة، مع صاحب البصيرة الذي أطلعه الله تعالى على شيء من حقيقته ﷺ، كبار الصحابة الذين ما أمعنوا النظر إليه، وفنوا في محبته ﷺ، وكذا أولياء الله الصالحين في كل زمان، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في ما أعطاني الله تعالى من الفضائل والخصائص، التي ذكرها الله في كتابه العزيز.

الآية الثالثة عشرة:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «عن خباب قال جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا النبي ﷺ قاعدا مع بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، في أناس من الضعفاء من المؤمنين. فلما رأوهم حوله حقروهم، فأتوه فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعباء، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا، فاقعد معهم إن شئت، قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتابا. قال: فدعا بالصحيفة، ودعا عليا ليكتب.



قال: ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]، ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَائِبَتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناه وهو يقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكننا نقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا»^(١).



قال ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى في تفسيره: «عن الربيع بن أنس قال: كان رجال يستبقون إلى مجلس رسول الله ﷺ منهم بلال، وصهيب، وسلمان. قال: فيجيء أشراف قومه وساداتهم، وقد أخذ هؤلاء المجلس، فيجلسون ناحية، فقالوا: صهيب رومي، وسلمان فارسي، وبلال حبشي، يجلسون عنده، ونحن نجىء فنجلس ناحية، حتى ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ: إنا سادة قومك وأشرافهم، فلو أدنيتنا منك إذا جئنا، قال: فهم أن يفعل، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ﴾ يعني: سلمان وأصحابه»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١١ ص ٣٧٦

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ج ٤ ص ١٢٩٧ تحرير والتنوير ج ٧ ص ٢٤٦.

قلت: لم يخطئ الإمام الطبري وابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية، ولكن من غير الصواب أن نقول: أن النبي ﷺ وافق على طلب كفار قريش وهم أن يكتب كتابا، ونزلت الآية. فهذا لا يليق به ﷺ، وسنين ذلك.



التفسير العرفاني:

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «ووقع في «سنن» ابن ماجه عن خباب أن قائل ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وأن ذلك سبب نزول الآية، وقال ابن عطية: هو بعيد؛ لأن الآية مكية وعيينة والأقرع، إنما وفدا مع وفد بني تميم بالمدينة سنة الوفود.» اهـ.

قلت: ولعل ذلك وقع منهما، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية التي نزلت في نظير اقتراحهما.

وذكر الواحدي في «أسباب النزول»: «أن هذه الآية نزلت في حياة أبي طالب. فعن عكرمة قال: جاء عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، في أشراف بني عبد مناف إلى أبي طالب، فقالوا: لو أن ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا، وعبيدنا، وعتقنا، كان أعظم من صدورنا، وأطمع له عندنا، وأرجى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له. فأتى أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فحدثه بالذي كلموه، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك، حتى ننظر ما الذي يريدون، وإلام يصيرون من قولهم، فأنزل الله هذه الآية. فلما نزلت أقبل عمر يعتذر»^(١).

(١) التحرير والتنوير ج ٧ ص ٢٤٦.



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «طلب كفار قريش من النبي ﷺ أن يكون لهم مجلسا خاصا، وأن لا يجلسوا مع فقراء المسلمين، فأرسلوا أبا طالب إلى النبي ﷺ، فقال له: لو ابتعدت عن فقراء المسلمين، لجلس معك كبار قريش، ولسمعوا منك؛ لأنهم لا يجلسون معك طالما تجلس مع الفقراء، فنزلت هذه الآيات، وبيئت أن هؤلاء الكفار لا يؤمنون؛ لأن قلوبهم مُلئت كبرا على الناس والله تعالى قال: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، فلا تتصور أنك لو وافقت على طلبهم سوف يؤمنون، فلن يؤمنوا في كل الأحوال؛ لأن العيب فيهم، وليس في جلوسك للفقراء.



قلت: لا تدل الآية الكريمة على أن النبي ﷺ وافق على مطلب الكافرين، وهم بذلك. فالنبي ﷺ أعلى وأجل من أن يطرد أصحابه الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم معه، والذين افتدوه بأرواحهم وأهليهم، فيطردهم لأجل كفار قريش، وهو يعلم أن سادة قريش الذين طلبوا هذا الطلب لن يؤمنوا به، ولن يتبعوه. ثم إن النبي ﷺ هو الذي قصَّ على قومه قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم، حيث قال: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ وَلَكَئِنْ أَرَدْتُمْ قَوْمًا بِجَهْلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٍ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ قَالُوا لَنُؤْتِيَنَّكَ آيَاتِنَا فَاعْبُدْنَا فَنَنَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود: ٢٩-٣٠] فكيف يحكي عن سيدنا نوح عليه السلام امتناعه عن طرد الذين آمنوا، مخافة من الله ﷻ؟، ويقوم هو ﷺ بهذا الفعل؟!.

بل إن المتمعن في هذه الآية، يجد فيها من بيان منزلة الصحابة الكرام عند ربهم الشيء العظيم. فلما طلبوا منه ﷺ هذا الطلب، لم يوافق النبي ﷺ على ذلك،



وتولى الله تعالى الدفاع عن أصحاب النبي ﷺ، فأنزل هذه الآية، إخبارا القريش أن هؤلاء الذين ترونها مستضعفين وفقراء، هم أعظم جاها ومكانة عندي، ولذلك أكرمتهم بمجالسة حبيبي، ومصاحبتهم، وحرمتكم من هذا الفضل، فلا يجالس إمام الحضرة إلا أهل الخصوص.

وقد دافع الله تعالى عن أصحاب حبيبه محمد ﷺ في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وبنفس سياق هذه الآية، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٣]. انظر كيف دافع الله تعالى عن الصحابة الكرام بعد وصف الكفار لهم، بأنهم سفهاء، وحاشاهم، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وفي آية أخرى أيضا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨]، فرد الله تعالى على عبد الله بن سلول، الذي وصف النبي ﷺ وصحابته بالأذلاء، وحاشاهم، وبين أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. وهذا لم يحصل لصحابة أي نبي من الأنبياء، في أن يتولى الله تعالى الدفاع عنهم بنفسه في القرآن. وما هذا إلا إكراما لسيدنا محمد ﷺ.

أما الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن سعد، قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هَذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أَسْمِيَهُمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ



بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»^(١). فلمَ نظن برسوله ﷺ السوء؟؟!! وإنه أراد أن يطرد أصحابه، إنَّ هذا شيء عجاب!!!، بل ما وقع في قلبه لا يعلمه إلا الله ﷻ، ونحن لعلنا بأخلاقه ﷺ نقول قد يكون الذي وقع في قلب رسول الله ﷺ طلبه من الله ﷻ: أن يُنزل وحيا يرد فيه على هؤلاء، حتى يعلموا أنه لا يجالس إلا من أراد الله مجالسته، فهو لا يتكلم، ولا يفعل فعلا إلا بأمر مولاه. وأجاب الله ﷻ: حبيب، فأنزل قرآنا يدافع فيه عن أصحابه.

وفي الآية وجه آخر من التفسير: وهو أنَّ الخطاب موجه له ﷺ، والمراد به أمته، والدعاة من بعده، فيحثهم الله تعالى على مجالسة الفقراء والمساكين، وعدم التكبر عليهم، والابتعاد عنهم، إكراما للأغنياء، وأهل السلطة.



الآية الرابعة عشرة:

﴿وإن تطع أكثرَ من في الأرضِ يضلُّوكَ عن سبيلِ اللَّهِ إن يتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإن همَّ إِلَّا يخْرُصُونَ﴾ [١١٦: الأنعام]

التفسير الأولي:

قال أبو بكر الجزائري رحمه الله: واعلم يا رسولنا أنك ﴿وإن تطع أكثرَ من في الأرضِ يضلُّوكَ عن سبيلِ اللَّهِ﴾ أي لو أنك تسمع لهم وتأخذ بآرائهم وتستجيب لاقتراحاتهم لأضلوك قطعاً عن سبيل الله، والعلة أن أكثرهم لا بصيرة

(١) مسلم (٢٤١٣).



له ولا علم حق لديه وكل ما يقولونه هو هوى نفس، ووسواس شيطان. إنهم ما يتبعون إلا أقوال الظن وما هم فيما يقولون إلا خارصون كاذبون. وحسبك علم ربك بهم فإنه تعالى هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين^(١).

قال السعدي رحمه الله في تفسيره: يقول تعالى، لنبية محمد صلى الله عليه وسلم، محذرا عن طاعة أكثر الناس: ﴿وَأَنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم، وعلومهم. فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسوء الطريق^(٢).

التفسير العرفاني:

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسيره: وَالْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وَجِيءَ مَعَ فِعْلِ الشَّرْطِ بِحَرْفِ (إِنْ) الَّذِي الْأَصْلُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ فِي الشَّرْطِ النَّادِرِ الْوُقُوعِ، أَوْ الْمُتَمَنِّعِ إِذَا كَانَ ذِكْرُهُ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ كَمَا يُفْرَضُ الْمُحَالُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أَيْسُوا مِنْ ارْتِدَادِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا أَنْبَأَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١] الْآيَةَ، جَعَلُوا يُلْقُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الشُّبُهَةَ وَالشُّكُوكَ فِي أَحْكَامِ دِينِهِمْ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى عَقِبَ هَذَا: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ

(١) أيسر التفاسير للجزائري ج ٢ ص ١٠٩.

(٢) تفسير السعدي ج ١ ص ٢٧٠.



﴿١٢١﴾ [الأنعام: ١٢١]. وَقَدْ رَوَى الطَّبْرِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةَ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: «يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا عَنِ الشَّاةِ إِذَا مَاتَتْ مَنْ قَتَلَهَا (يُرِيدُونَ أَكْلَ الشَّاةِ إِذَا مَاتَتْ حَتْفَ أَنْفِهَا دُونَ ذَبْحٍ) - قَالَ - اللَّهُ قَتَلَهَا - فَتَزْعُمُ أَنَّ مَا قَتَلْتَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ حَلَالٌ وَمَا قَتَلَ الْكَلْبُ وَالصَّقْرُ حَلَالٌ وَمَا قَتَلَهُ اللَّهُ حَرَامٌ» فَوَقَعَ فِي نَفْسِ نَاسٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَفِي «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ»، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «أَتَى أَنَاسُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا كُلُّ مَا نَقْتُلُ وَلَا نَأْكُلُ مَا يَقْتُلُ اللَّهُ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] الْآيَةَ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. فَمِنْ هَذَا وَنَحْوِهِ حَذَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَثَبَّتَهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا^(١).

قلت: كما قلنا سابقاً في شبيهات هذه الآية، تخرج على قاعدة (إياك أعني واسمعي يا جارة) فالخطاب له ﷺ والمراد أمته؛ لأنه واسطة التبليغ، وإلا حاشا لرسول الله ﷺ أن يطيع غير مولاه، وإن يلتفت إلى سواه.



(١) التحرير والتنوير ج ٨ ص ٢٤.



سورة الأعراف

الآية الخامسة عشرة:

﴿كَتَبُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) [الأعراف: ٢]

التفسير الأولي:

قال مجاهد والطبري رحمهما الله تعالى في تفسيره: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ يَعْنِي: شَكًّا مِّنْهُ^(١).

قال مقاتل ابن سليمان رحمه الله في تفسيره: «فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ يَعْنِي النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَجٌ مِّنْهُ يَقُولُ فَلَا يَكُنْ فِي قَلْبِكَ شَكٌّ مِنَ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ لَتُنذِرَ بِهِ»^(٢).

تفسير السعدي رحمه الله تعالى: «يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم مبينا له عظمة القرآن: ﴿كَتَبُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكما مفصلا ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]»^(٣).

(١) تفسير مجاهد ص ٣٣٣. تفسير الطبري ج ١٢ ص ٢٩٦.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ج ٢ ص ٢٩.

(٣) تفسير السعدي ص ٢٨٣.



قلت: حاشا لرسول الله ﷺ أن يشك في أن هذا القرآن من الله تعالى، أو تقع الشبهة في قلبه، ولا أعلم كيف سوغ هؤلاء المفسرين نسبة الشك إلى الإنسان الكامل الذي كان نبيا وآدم بين الروح والجسد، وسنرد على هذه التفاسير بتفسير العارفين بالله.

التفسير العرفاني:

قال القشيري في تفسيره: « كتاب الأحاب تحفة الوقت، وشفاء لمقاساة ألم البعد، وهو لداء الضنى مزيل، ولشفاء الشكّ مقيل، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ولم يقل: في قلبك فإن قلبه - عليه السلام - في محل الشهود، ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (١٧) [الحجر: ٩٧] وكذلك قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]. وقال للمصطفى صلوات الله عليه: ﴿الَّذِي شَرَحَ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) [الشرح: ١]. فإن القلب في محل الشهود، وهو أبدا بدوام أنس القرب، قال صلى الله عليه وسلم: «**تنام عيني ولا ينام قلبي**»، وقال: «**أسألك لذة النظر**» وصاحب اللذة لا يكون له حرج» (١).

قال الرازي رحمه الله في تفسيره: «الْحَرْجُ الضِّيقُ وَالْمَعْنَى: لَا يَضِيقُ صَدْرُكَ بِسَبَبِ أَنْ يُكَذِّبُوكَ فِي التَّبْلِغِ» (٢).

قال البغوي رحمه الله في تفسيره: «فَالْخُطَابُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّةُ» (٣).

(١) لطائف الإشارات ج ١ ص ٥١٩.

(٢) التفسير الكبير ج ١٤ ص ١٩٥.

(٣) تفسير البغوي ج ٢ ص ١٨٠.



قال العلامة الألوسي رحمه الله في تفسيره: «كِتَابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرْجٌ مِنْهُ، أَي: ضيق من حمله فلا تسعه لعظمته فتتلاشى بالفناء والوحدة والاستغراق في عين الجمع، لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، أَي: ليمكنك الإنذار والتذكير إذ بالاستغراق لا ترى إلا الحق فلا يتأتى منك ذلك»^(١).

قلت: الخطاب في هذه الآية من باب (إياك أعني واسمعي يا جارة) فالخطاب له ﷺ والمراد أمته، لأن قرينة العصمة تبعد عنه شبهة الشك في القرآن وأنه منزل من عند الله تعالى، كيف يشك وهو الذي خاطبه مولاه بقوله ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ومعلوم أن من معاني فعل الأمر (التكوين) فبمجرد قوله تعالى لحبيبه ﷺ (بلغ) صار النبي ﷺ المبلغ عن ربه في جميع الحضرات، وأعطى التبليغ لجميع الخلق باختلاف ألسنتهم، وصار متحققا متمكنا مما أمر بتبليغه، فلا مجال للشك إليه أبدا.

وهناك دليل آخر في قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) [الشرح: ١] و(لم) أداة جزم ونفي وقلب، بمعنى أنها تقلب زمن المضارع إلى الماضي، أي أنت مشروح الصدر من وقت نشأتك، فكيف يتسرب الضيق والشك والشبهة لقلب شرحه الله تعالى؟.

ومعنى (الخرج) في اللغة: الضيق، ويطلق على (الشك) مجازا، ولا وجه للصيرورة إلى المعنى المجازي في الآية مع إمكان المعنى اللغوي الحقيقي فيها، إذ الأخذ بالمعنى الحقيقي للكلمة هو الأصل ولا يعدل عنه إلا لقرينة مانعة من الأخذ به، فما بالك والمعنى في هذه الآية يحتم الأخذ بالحقيقة، لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- معصوم من الشك على أي من الوجهين المذكورين في أن القرآن

(١) روح المعاني ج ٤ ص ٣٣٧.

من عند الله أو في عدم لزوم الإنذار به.

وعلى معنى (الضيق) فالمراد فلا يكن في صدرك ضيق من مخافة تكذيبك فيقعوا في الهلاك الدنيوي والعذاب الآخروي، وهذا الضيق إنما يحصل له ﷺ لأنه الرحمة التي أرسلت للعالمين، ومن مظاهر هذه الرحمة الخوف على الخلق من الكفر ودخول النار، وعلى هذا التفسير صارت الآية مدحا للحبيب ﷺ وهذا هو المراد من آيات القرآن.



الآية السادسة عشرة:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]

التفسير الأولي:

قال الماوردي وبعض المفسرين رحمهم الله تعالى: «قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أملك القدرة عليهما من غير مانع ولا صاد. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يملكني إياه، فأملكه بمشيئته. ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ فيه ثلاثة أقاويل؛ أحدها، لاستكثر من العمل الصالح، قاله الحسن، وابن جريج. والثاني، لأعددت من السنة المخصصة للسنة المجدة، قاله الفراء. والثالث، وهو شاذ: لا شريت في الرخص، وبعت في الغلاء»^(١).

(١) تفسير الماوردي ج ٢ ص ٢٨٥، تفسير ابن أبي حاتم ج ٥ ص ١٦٢٩.



قال الزمخشري رحمه الله تعالى: «ولو كنت أعلم الغيب، لكانت حالي على خلاف ما هي عليه، ومن استكثر الخير، واستغزار المنافع، واجتناب السوء والمضار، حتى لا يمسنني شيء منها. ولم أكن غالباً مرة، ومغلوباً أخرى في الحروب، ورابحاً وخاسراً في التجارات، ومصيباً مخطئاً في التدابير، إن أنا إلا عبد أرسلت نذيراً وبشيراً، وما من شأنى أنى أعلم الغيب لقوم يؤمنون. يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً، لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهما»^(١).



قلت: نحن مع المفسرين أن النافع والضار، وعالم الغيب هو الله ﷻ، ولا يشاركه أحد في ذلك، لكنه تعالى أعطى من شاء من عباده النفع والضرر، وأطلع من شاء على الغيب، وهذا ما ثبت في الكتاب والسنة وما سنيته، ولكنهم جعلوها على إطلاقها، ولم يبينوا ذلك، فأتى من يتصيد مثل هذه الأمور، كي ينتقص من مقامات الأنبياء، وجعلوها عقيدة يعتقدون بها، ومن هؤلاء:

محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله تعالى: قال رسول الله ﷺ فيما أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، فانظر كيف قال سيد البشر وصفوة الله من خلقه بأمر ربه: أنه لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، وكذلك قال فيما صح عنه: «يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً»^(٢).



(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ١٨٥.

(٢) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ج ١ ص ١١٢.



قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى: «فهو عبد لله، ومقتضى عبوديته أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، وليس له حق في الربوبية إطلاقاً، بل هو عبد محتاج إلى الله، مفتقر له يسأله، ويدعوه، ويرجوه، ويخافه، بل إنَّ الله أمره أن يعلن، وأن يبلغ بلاغاً خاصاً، بأنه لا يملك شيئاً من هذه الأمور»^(١).



قال سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: «وقد خاطب الله في هذه الآية سيد الأنبياء، فأمره بأن يخبر الناس بخبره، حتى يقيس به الناس غيره، فإذا كان هو لا يقدر على شيء ولا يعلم الغيب، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولو كان يعلم الغيب لعرف عواقب الأمور، فإذا عرف عن أمر أنه يؤول إلى نجاح أقدم إليه، وأقبل عليه، وإذا عرف أنه لا خير فيه، أمسك عنه وزهد فيه»^(٢).



قال عبد الرؤوف عثمان رحمه الله تعالى: «وكما أنَّ الرسول لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فهو من باب أولى لا يملك لغيره الضر والنفع، أو الهداية والصلاح، بل كل ذلك بيد الله وحده»^(٣).



(١) شرح عقيدة الواسطية للعثيمين ج ١ ص ٤٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ج ١ ص ١٠٦.

(٣) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ج ١ ص ١٧.



التفسير العرفاني:

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «لما رجع عليه الصلاة والسلام من غزوة بني المصطلق، جاءت ريح في الطريق، ففرت الدواب منها، فأخبر النبي ﷺ بموت رفاعة بالمدينة، وكان فيه غيظ للمنافقين. وقال: انظروا أين ناقتي، فقال عبد الله بن أبي مع قومه ألا تعجبون من هذا الرجل، يخبر عن موت رجل بالمدينة، ولا يعرف أين ناقتة. فقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ نَاسًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا كَيْت وَكَيْت، وَنَاقَتِي فِي هَذَا الشَّعْبِ قَدْ تَعْلَقَ زِمَامُهَا بِشَجَرَةٍ**»، فوجدها على ما قال، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(١).



قلت: وفي تفسير الإمام الرازي رحمه الله الرد الكافي على الذين فسروا الآية على هواهم، ونفوا عن النبي ﷺ أَنَّ الله أطلععه على الغيب وأخبر به. فلما أنكر المنافقون معرفته بالناقة، غضب النبي ﷺ، وأخبرهم بمكان الناقة، وأخبرهم أنه مُعلم من ربه عز وجل.



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا، أي بذاتي. والنافع والضار هو الله، يجري النفع والضر على يديه، ثم قال: ﴿**إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ وقد شاء الله أن جعلني رحمة للعالمين، وجعلني أول شافع وأول مشفع، وجعل مفاتيح الجنة بيدي، وأضر بمن عصاني فأقاتله، وقد يقتل على الكفر فيدخل النار، لأنه عصاني وكفري. والذي تمسك في قوله:

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٥ ص ٤٢٥.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وتوقف، كالذي أخذ بقوله تعالى: قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ وَبَنَى عَلَيْهَا أَحْكَامَهُ، فتوضيح الآية في الاستثناء الذي بعده.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ﴾ أي لو كنت أعلم الغيب بنفسى، لتجنب الأقدار التي فيها صعوبة، ولكن الله تعالى أعلمه، ورضي بقدر الله تعالى عليه، وأنا أخبر بما يوحى إلي من نذارة وبشارة.



قلت: صار واضحًا للقارئ من تفسيرات الدكتور يسري جبر، التي أوردناها إلى الآن، والتي سنوردها فيما بعد معرفته بمقامات الأنبياء، فلا يفسر إلا بما يليق بتلك المقامات، فجزاه الله خير الجزاء.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: المتبع للسياق الذي جاءت به الآية، يجد أن المشركين قد سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة، وهي من الأمور الغيبية التي لا يظهرها لعباده، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسُهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] وكانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أخبار من مضى من الأمم ويحييهم إجابة الناظر المشاهد، لكن لما سألوه عن أمر لا يمكن إظهاره للمخلوقات أمره الله تعالى أن يقول ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيفٌ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]

أي الأمر الذي سألتهموني عنه من الغيب، الذي لا يعلمه إلا الله، وما أخبرتكم من الغيوبات، كانت بتعليم الله لي.



قلت: وانظر إلى أقوال العارفين بالله، وبمقامات الأنبياء عليهم السلام، كيف أن الله أجرى على ألسنتهم الجواهر والدرر في بيان خصوصية سيد البشر في كل آية من آيات القرآن الكريم. وفي هذه الآية إشارة تدحض ما يدعون وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وهو استثناء متصل، أي إلا ما شاء الله تمكينني منه، فإني أملكه.

والآن نرد على بعض ما ذكرناه من أقوال المفسرين، الذين فسروا بما لا يليق بمقامه ﷺ. فقولهم أن النبي ﷺ لا ينفع نفسه، فضلاً عن غيره، فهذا مردود بالكتاب والسنة. ونكتفي بتفسير الدكتور يسري الذي ذكرناه أنفاً، فقد رد عليهم رداً دامغاً.



قلت: ويرد على الزرخشري بقوله: «مصيباً ومخطئاً في التدابير»، فالنبي ﷺ مصيب وموفق في كل أقواله، وأفعاله، وأحواله، قبل النبوة وبعدها. عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أكتب كل شيء سمعته ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضى، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فاوماً بإصبعه إلى فيه فقال: «أكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»^(١)، فكيف يخطئ من لا يخرج من فمه إلا حق.

(١) سبق تخريجه.



أما محمد بن إسماعيل الصنعاني، فلقد استدل بالآية على أنه لا ينفع ولا يضر، واستدل بقوله: **«يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً»**، وهذا الحديث لا يدل على أنه لا ينفع ولا يضر؛ لأنه لو طالع سبب الحديث، لعلم أنّ النبي ﷺ قاله عندما أمره الله تعالى أن ينذر عشيرته الأقربين، فقال هذا القول في حديث طويل، ومعناه: يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً إن لم تؤمني بي، وإن أمتي بي، فأنا أنفعك، وأنفع كل من آمن بي بشفاعتي ونسبي، ولذلك نفعها إيمانها. وقال لها: **«أنت سيدة نساء العالمين»**، وبشرها بالجنة، هي وزوجها وأولادها. عن مسروق، قال: أخبرني عائشة قالت: كنا عند رسول الله ﷺ، جميعاً ما تغادر منا واحدة، فجاءت فاطمة تمشي، ولا والله أن تخطئ مشيتها مشية رسول الله ﷺ، حتى انتهت إليه فقال: **«مرحبا بابنتي»** فأقعدها عن يمينه أو عن يساره، ثم سارها بشيء فبكت بكاء شديداً، ثم سارها بشيء فضحكت. فلما قام رسول الله ﷺ قلت لها: «خصك رسول الله ﷺ من بيننا بالسرار، وأنت تبكين، أخبريني ما قال لك، قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره. فلما توفي رسول الله ﷺ قلت لها: أسألك بالذي لي عليك من الحق، ما سارك به رسول الله ﷺ؟ فقالت: أما الآن، فنعم. سارني المرة الأولى، فقال: **«إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل عام مرة، وإنه عارضني به العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري»** فبكيت، ثم قال لي: **«يا فاطمة، ألا ترضين أنك سيدة نساء هذه الأمة، أو سيدة نساء العالمين»**، فضحكت ^(١). فلقد نفعها إيمانها وقرابتها من رسول الله ﷺ.

(١) النسائي في السنن الكبرى (٧٠٤١).



وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تزعمون أن قرابتي لا تنفع قومي، والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة»^(١). وأخرج البيهقي عن أبي هريرة، قال: كَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ تَحْتَ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا شَيْءٌ، فَقَالَ لَهَا: سَتَعْلَمِينَ وَاللَّهِ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُكَ قَرَابَتُكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُغْضَبًا فَقَالَ: «مَا بَالُ رِجَالٍ يَزْعُمُونَ أَنَّ قَرَابَتِي لَا تَنْفَعُ، وَأَنِّي لَتَرْجُو شَفَاعَتِي صَدِيٌّ وَسَلَهَبٌ» قَالَ: فَسَأَلْتُ أَبَا عُبَيْدٍ عَنْ صَدِيِّ وَسَلَهَبٍ قَالَ: حَيَّانِ مِنَ الْيَمَنِ^(٢).

وأما ردنا على سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في قوله: «لو كان يعلم الغيب لعرف عواقب الأمور»، إن ما بيناه سابقا من أن الله أعلمه بعواقب الأمور، وبما سيحدث إلى قيام الساعة، وأعلمه عن أحداث القيامة، وما سيحدث فيها، حتى دخول الناس الجنة والنار، فيه الرد الكافي عليه وعلى مذهبه. وإتماما للفائدة، ولدحض هذا القول، استشهد على ذلك بحديث آخر للنبي ﷺ، يخبر به عن نفسه بأن الله علمه كل شيء. فلقد روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي اللَّيْلَةُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ قَالَ أَحْسَبُهُ قَالَ فِي الْمَنَامِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيْمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ أَوْ قَالَ فِي نَحْرِي فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ قَالَ يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي

(١) أحمد (١١٣٤٥).

(٢) البيهقي في البعث والنشور (٨).



فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فِي الْكَفَّارَاتِ وَالْكَفَّارَاتُ الْمُكْتُ فِي الْمَسَاجِدِ
بَعْدَ الصَّلَوَاتِ وَالْمُشْيِ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ وَإِسْبَاحُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ وَمَنْ
فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيْوَمَ وَلَدْنَهُ أُمُّهُ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ
إِذَا صَلَّيْتَ فَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ
وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ قَالَ وَالِدَرَجَاتُ إِفْشَاءُ السَّلَامِ
وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ^(١). وفي رواية: «فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٢)، وفي رواية: «فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ»^(٣)، فليتأمل في
قوله: «فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، وفي قوله: «فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ»، وفي قوله: «فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ».

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال:
«أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَلَّى الْعِدَّةَ ثُمَّ جَلَسَ حَتَّى إِذَا
كَانَ مِنَ الضُّحَى ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ مَكَانَهُ حَتَّى
صَلَّى الْأَوَّلَى وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ كُلَّ ذَلِكَ لَا يَتَكَلَّمُ حَتَّى صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ثُمَّ قَامَ
إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ النَّاسُ لِأَبِي بَكْرٍ أَلَا تَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَأْنُهُ
صَنَعَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ يَصْنَعْهُ قَطُّ قَالَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ نَعَمْ عَرِضَ عَلَيَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَمْرِ
الدُّنْيَا وَأَمْرِ الْآخِرَةِ فَجُمِعَ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ بِصَعِيدٍ وَاحِدٍ فَفَطَعَ النَّاسُ بِذَلِكَ
حَتَّى انْطَلَقُوا إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْعَرَقُ يَكَادُ يُلْجِمُهُمْ فَقَالُوا يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو
الْبَشَرِ وَأَنْتَ اصْطَفَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ قَالَ قَدْ لَقِيتُ مِثْلَ الَّذِي لَقِيتُمْ

(١) سنن الترمذي (٣٢٣٣).

(٢) سنن الترمذي (٣٢٣٤).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٥).



انْطَلِقُوا إِلَى أَبِيكُمْ بَعْدَ أَيِّكُمْ إِلَى نُوحٍ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ
عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ قَالَ فَيَنْطَلِقُونَ إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ
فَأَنْتَ اصْطَفَاكَ اللَّهُ وَاسْتَجَابَ لَكَ فِي دُعَائِكَ وَلَمْ يَدْعُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ
ذِيَّارًا فَيَقُولُ لَيْسَ ذَاكُمْ عِنْدِي انْطَلِقُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
اتَّخَذَهُ خَلِيلًا فَيَنْطَلِقُونَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَيْسَ ذَاكُمْ عِنْدِي وَلَكِنْ انْطَلِقُوا إِلَى
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَلَّمَهُ تَكْلِيمًا فَيَقُولُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ
ذَاكُمْ عِنْدِي وَلَكِنْ انْطَلِقُوا إِلَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فَإِنَّهُ يُرَى الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي
الْمُوتَى بِإِذْنِ اللَّهِ فَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ ذَاكُمْ عِنْدِي وَلَكِنْ انْطَلِقُوا إِلَى سَيِّدِ
وَلَدِ آدَمَ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَنَشَّقُ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ انْطَلِقُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فَيَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فَيَنْطَلِقُ فَيَأْتِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ
فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ قَالَ فَيَنْطَلِقُ بِهِ جِبْرِيلُ فَيَخِرُّ سَاجِدًا قَدَرِ
جُمُعَةٍ وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ وَقُلْ يُسْمِعُ وَاشْفَعُ تُشَفِّعُ قَالَ فَيَرْفَعُ
رَأْسَهُ فَإِذَا نَظَرَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَرَّ سَاجِدًا قَدَرِ جُمُعَةٍ أُخْرَى فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعُ وَاشْفَعُ تُشَفِّعُ قَالَ فَيَذْهَبُ لِيَقَعَ سَاجِدًا فَيَأْخُذُ جِبْرِيلُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ بِضَبْعَيْنِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ مِنَ الدُّعَاءِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى بَشَرٍ
قَطُّ فَيَقُولُ أَيُّ رَبِّ خَلَقْتَنِي سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ وَأَوَّلُ مَنْ تَنَشَّقُ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ حَتَّى إِنَّهُ لَيَرِدُ عَلَى الْخَوْضِ أَكْثَرُ مِمَّا يَبْنِي صَنْعَاءَ وَأَيْلَةَ ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا
الصَّادِّقِينَ فَيَشْفَعُونَ ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا الْأَنْبِيَاءَ قَالَ فَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ وَالنَّبِيُّ
وَمَعَهُ الْحُمْسَةُ وَالسِّتَّةُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا الشُّهَدَاءَ فَيَشْفَعُونَ لِمَنْ
أَرَادُوا قَالَ فَإِذَا فَعَلَتِ الشُّهَدَاءُ ذَلِكَ قَالَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ



أَدْخِلُوا جَنَّتِي مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا قَالَ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَالَ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ انظُرُوا فِي النَّارِ هَلْ تَلْقَوْنَ مِنْ أَحَدٍ عَمِلَ خَيْرًا قَطُّ قَالَ فَيَجِدُونَ فِي النَّارِ رَجُلًا يَقُولُ لَهُ هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ يَقُولُ لَا غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُسَامِحُ النَّاسَ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَسْمِعُوا الْعَبْدِي كِاسْمَاحِهِ إِلَى عِبِيدِي ثُمَّ يُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ رَجُلًا يَقُولُ لَهُ هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ يَقُولُ لَا غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَمَرْتُ وَلَدِي إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي بِالنَّارِ ثُمَّ اطْحَنُونِي حَتَّى إِذَا كُنْتُ مِثْلَ الْكُحْلِ فَادْهَبُوا بِي إِلَى الْبَحْرِ فَادْرُونِي فِي الرِّيحِ فَوَاللَّهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ لَمْ فَعَلْتَ ذَلِكَ قَالَ مِنْ مَخَافَتِكَ قَالَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ انظُرْ إِلَى مُلْكٍ أَعْظَمَ مَلِكٍ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَهُ وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهِ قَالَ يَقُولُ لَمْ تَسْخَرْ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ قَالَ وَذَاكَ الَّذِي ضَحِكْتُ مِنْهُ مِنَ الضُّحَى»^(١).

ففي كلام رسول الله ﷺ الجواب الكافي لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، بل تأمل معي فيما ورد في هذا الحديث، كي نعلم كمال نبينا ﷺ: قوله ﷺ: «نعم عرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا، وأمر الآخرة» فقد أطلعه الله ﷻ على ما هو كائن إلى يوم القيامة.

وقوله ﷺ: «فيقول عيسى عليه السلام: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم، فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، انطلقوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فيشفع لكم إلى ربكم عز وجل». وفي هذا رد على الذين ينكرون إضافة لفظ السيادة قبل ذكر اسمه ﷺ، فهذا روح الله وكلمته تأدب معه ﷺ، ولم يناده باسمه الصريح؛ لأنهم يعرفون قدره ومنزلته عند ربه.

(١) الإمام أحمد (١٥).

وقوله ﷺ: «يفتح الله عز وجل عليه من الدعاء شيئاً لم يفتحه على بشر قط» فتجليات الحق ﷻ: وإمداداته مستمرة له حتى في ذلك المقام.

وقوله ﷺ: «فيقول: أي رب، خلقتني سيد ولد آدم، ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض الأنبياء» فهذا هو عليه الصلاة والسلام يذكر نعم الله ﷻ: له ويثبتها، لكي نتعلم منها، ونلتزم الأدب في حضرته، وعند ذكره.

وروى الإمام البخاري عن حذيفة رضي الله عنه، قال: «لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطْبَةً، مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ»، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهَلَهُ مَنْ جَهَلَهُ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيتُ، فَأَعْرِفُ مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَأَهُ فَعَرَفَهُ^(١).

وروى الطبراني في «المعجم» عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل قد رفع لي الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كأنها أنظر إلى كفي هذه؛ جليان من الله جللاه لنبيه كما جلا للنبيين من قبله»^(٢). فهذا ردنا على من يتناول على مقامه العالي، ويحاول أن يطمس شيئاً من فضائله، ولكن حاشا لله أن يحجب الغربال الممزق ضوء الشمس في وضوح النهار.

أما الرد على عبد الرؤوف عثمان في قوله: «لا يملك لغيره الضر والنفع، أو الهداية والصلاح» فلقد أثبتنا فيما مضى نفعه ﷺ لغيره بإذن الله، أما قوله: «الهداية أو الصلاح» فهذا القول يخالف ما أثبتته الله في كتابه قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا

(١) البخاري (٦٦٠٥).

(٢) الطبراني في المعجم الكبير (١٤١١٢).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ الْآيَاتِ ۚ وَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

﴿٣٥﴾ [الأعراف: ٣٥] فالله أثبت في كتابه العزيز الإصلاح للرسول، وأنت تنفي ما أثبتته الله ﷻ: العزيز، ثم أنت يا عبد الرؤوف عثمان، وكل من يقول بقولك، من كان السبب بصلاحك واستقامتك، ومن كان سبب في قراءتك للقرآن؟! فما صلحت الدنيا والآخرة إلا به ﷻ؛ لأنه الرحمة للعالمين. وأنت تنفي عنه الهداية التي أثبتها الله تعالى له ﷻ بنص القرآن فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].



الآية السابعة عشرة:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]

التفسير الأولي:

قال مقاتل رحمه الله تعالى في تفسيره: «خذ ما أعطوك من الصدقة، وأمر بالعرف، يعني بالمعروف، وأعرض عن الجاهلين، يعني أبا جهل حين جهل على النبي ﷺ، قوله: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ يعني وأما يفتنك من الشيطان فتنة في أمر أبي جهل، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] بالاستعاذة ﴿عَلِيمٌ﴾^(١).



(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٢ ص ٨٢.

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١١٩) [الأعراف: ١٩٩] قال رسول الله ﷺ: «فكيف بالغضب يا رب؟» قال: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠) [الأعراف: ٢٠٠]



قال مكي بن أبي طالب القيرواني رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي وإما يلقين الشيطان يا محمد في نفسك وسوسة، من العزيمة على مجازاة المسيء بإساءته، فاستجر بالله، واعتصم به من عمل الشيطان. ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لاستعاذتك واستجارتك به. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما ألقى الشيطان في نفسك من نزعاته. هذا قول السدي. وقال ابن زيد: هو الغضب»^(١).



التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية، وقالوا: لولا أنه يجوز من الرسول الإقدام على المعصية أو الذنب، وإلا لم يقل له: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ والجواب عنه من وجوه:

الأول: إن حاصل هذا الكلام أنه تعالى قال له: إِنَّ حَصَلَ فِي قَلْبِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ، كما أنه تعالى قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ولم يدل

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ج ١٠ ص ٦٥٢٧.

ذلك على أنه أشرك. وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولم يدل ذلك على أنه حصل فيها آلهة.

الثاني: هب أنا سلمنا أن الشيطان يوسوس للرسول عليه السلام، إلا أن هذا لا يقدح في عصمته. إنما القادح في عصمته لو قبل الرسول وسوسته، والآية لا تدل على ذلك. عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من إنسان إلا ومعه شيطان»، قالوا: وأنت يا رسول الله قال: «وأنا، ولكنه أسلم بعون الله، فلقد أتاني فأخذت بحلقه، ولولا دعوة سليمان، لأصبح في المسجد طريحا». والراجح هذا الخطاب، وإن خص الله به الرسول، إلا أنه تأديب عام لجميع المكلفين؛ لأن الاستعاذة بالله على السبيل الذي ذكرناه، لطف مانع من تأثير وساوس الشيطان، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ [النحل: ٩٨-٩٩]، إذا ثبت بالنص أن هذه الاستعاذة أثرا في دفع نزع الشيطان، وجبت المواظبة عليها في أكثر الأحوال»^(١).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «وجيء في هذا الشرط بـ(إن) التي الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط، ترفيعا لقدر النبي ﷺ. فإن نزع الشيطان له إنما يفرض، كما يفرض المحال، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٣١)»

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٥ ص ٤٣٦.

[الأعراف: ٢٠١]، فجاء في ذلك الشرط بحرف (إذا) التي الأصل فيها الجزم بوقوع الشرط، أو بغلبة وقوعه. و (ما) زائدة بعد حرف الشرط، لتوكيد الربط بين الشرط وجوابه، وليست لتحقيق حصول الشرط، فإنها تزداد كثيرا بعد (إن)، دون أن تكون دالة على الجزم بوقوع فعل الشرط^(١).



قلت: لا يجوز بحال من الأحوال القول بأن الخطاب مقصود به النبي ﷺ، وهذا الكلام مرجوح بنصوص القرآن الكريم، التي تنص على عدم قدرة الشيطان من التقرب والوسوسة لعباد الله الصالحين، فما بالك بسيد الأولين والآخرين؟! وهذا الخطاب جاء توجيهها لأمتهم ﷺ، في صورة الخطاب له، لأنه واسطة البلاغ.



(١) التحرير والتنوير ج ٢٤ ص ٢٩٧.

سورة الأنفال

الآية الثامنة عشرة:

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثَخِّفَ فِي الْأَرْضِ ۚ
تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[الأنفال: ٦٧].

التفسير الأولي:

قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون، وأنه قد يكون خطأ، ولكن لا يقرون عليه»^(١).



قال الطبراني رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما كان لنبي أن يحتبس كافراً قدر عليه، وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للممن.

وإنما قال الله جل ثناؤه ذلك لنبيه محمد ﷺ، يعرفه أن قتل المشركين الذين أسرههم ﷺ يوم بدر، ثم فادى بهم. كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم»^(٢).



(١) تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٣ ص ٦٦.

(٢) تفسير الطبراني ج ١٤ ص ٥٨.

قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وهذا نزل في أسرى بدر، حين استقر رأي النبي ﷺ فيهم بعد مشاورة أصحابه على الفداء بالمال، كل أسير بأربعة آلاف درهم، فأنكر الله تعالى ذلك عليه، وأنه ما كان له أن يفادي الأسرى»^(١).



قال السعدي رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم بدر، إذ أسروا المشركين، وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال، قتلهم واستئصالهم. فقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأأنفال: ٦٧] أي ما ينبغي، ولا يليق به، إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، ويسعوا لإخماد دينه، وألا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم، وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المتقتضية لإبادتهم، وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصوله، فالأوفق أن لا يؤسروا»^(٢).



قلت: لم تدل الآية على ما قاله المفسرون أنفاً، من أن النبي ﷺ اجتهد وأخطأ، أو جانب الصواب، ولم يعاتب الله نبيه ﷺ ولم يُنكر عليه؛ لأنه معصوم، ولا يرتكب الخطأ، وسنبين التفسير الصحيح فيما يلي:

(١) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٢ ص ٣٣٢.

(٢) تفسير السعدي ج ١ ص ٣٢٦، تفسير المنتصر الكتاني ج ٥ ص ٢٩١، بحر العلوم المعروف

بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٣١، كتاب المواقف عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار ج ٣

التفسير العرفاني:

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «تمسك الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية. الجواب أن نقول: إن ظاهر قوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] أن هذا الخطاب، إنما كان مع الصحابة، لإجماع المسلمين على أنه عليه الصلاة والسلام ما كان مأموراً أن يباشر قتل الكفار بنفسه. وإذا كان هذا الخطاب مختصاً بالصحابة، فهم لما تركوا القتل، وأقدموا على الأسر، كان الذنب صادراً منهم، لا من الرسول ﷺ. ونقل أن الصحابة لما هزموا الكفار، وقتلوا منهم جمعا عظيما، والكفار فروا، ذهب الصحابة خلفهم، وتباعدها عن الرسول، وأسروا أولئك الأقوام. ولم يعلم الرسول بإقدامهم على الأسر، إلا بعد رجوع الصحابة إلى حضرته، وهو عليه السلام ما أسر، وما أمر بالأسر، فزال هذا السؤال»^(١).



قال ابن عطية رحمه الله تعالى في تفسيره: «هذه الآية تتضمن عندي معاتبة من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ. والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان، ولهم هو الإخبار، ولذلك استمر الخطاب ب (تُرِيدُونَ)، والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب»^(٢).

(١) مفاتيح الغيب المعروف بمفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٥ ص ٥٠٨.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٢ ص ٥٥١.



قال الشيخ المحدث عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى: «لا خطأ في تصرف النبي ﷺ؛ لأنه مال إلى الأوفق بطبعه، وهو التيسير، وترك التفسير، ثم ترتب على ذلك خير كثير... والحاصل: أن ما مال إليه النبي ﷺ ترتب عليه ثلاثة أمور؛ الأول، موافقة الكتاب السابق بذلك. الثاني، إسلام كثير من الأسرى الذين دفعوا الفداء. الثالث، إحلال الغنائم. فعمل ترتب عليه هذه النتائج العظيمة، لا يكون خطأ أبداً، وبالله التوفيق»^(١).



قال الشيخ الإمام علي جمعة حفظه الله تعالى ورعاه: «النبي ﷺ عالي الشأن، عظيم الجاه، ولا يجوز أن نظن من فهم بعض الآيات أن النبي يخطئ في بعض أمور الدنيا، كما فهم البعض من هذه الآية، والآية لا يوجد فيها عتاب للنبي ﷺ. والحاصل أن بعض الصحابة الكرام رضي الله عنهم من أهل بدر، وقد سبقت كلمة الله فيهم، وأنه مغفور لهم، وأنهم من أهل الجنة، فبعضهم سار خلف فلول العدو الهاربة، فأسروا منهم أسرى ابتغاء الفداء، والله ﷻ: يُعَلِّمُنَا أَنْ نَحْصِلَ عَلَى الْأَسْرِ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ وَالنِّزَالِ، فنزلت هذه الآية تعليماً للصحابة الكرام، أن لا يأسروا من فر من المشركين بعد انتهاء المعركة، ثم عفا عنهم للعفو الأول. فأين العتاب على النبي ﷺ، فالنص واضح، وليس فيه عتاب».



(١) موسوعة العلامة المحدث عبد الله بن الصديق الغماري ج الثالث عشر ص ٦٢.

قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «ما كان لنبي قبلك أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض، لأنه في شرع من قبلنا الأسير يقتل، تريدون عرض الدنيا يامن فرحتم بالفداء، فاللوم على بعض الصحابة الذين فرحوا بأخذ المال، واعتبروه عوضاً عن أموالهم التي أخذها الكفار عندما هاجروا إلى المدينة. وليس العتاب موجه للنبي ﷺ؛ لأنه عُرِضت عليه جبال مكة أن تصبح ذهباً فرفضها. واختيار النبي ﷺ وافق الشرع قبل أن ينزل التشريع، لقوله تعالى ﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] أي بحل الغنائم والفداء لكم دون سابق الأمم. ولو أخطأ النبي ﷺ لقال الله ﷻ: ردوا الفداء، واقتلوا الأسرى، لكنه أقره، وصار شرعاً إلى يومنا هذا».



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «لم يخطئ النبي ﷺ، لا في هذا الحكم ولا في غيره؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يحكم إلا بما أمره الله تعالى. وقد أحل الله تعالى الغنائم لنبيه ﷺ، عن جابر بن عبد الله، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَإِنَّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ»^(١). ومعنى قول الله ﷻ: ﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ﴾ أي أن الله تعالى قد كتب في علمه أن الغنائم حلال للنبي ﷺ ولأُمَّته، وقد أطلع نبيه على هذا الأمر، ولذلك وافق النبي ﷺ على رأي من قال نأخذ الفداء من الصحابة، لذلك قال الله ﷻ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

(١) البخاري (٤٣٨)، مسلم (٥٢١).

قلت: وفي هذه التفاسير الرد الشافي الكافي على قول من قال أن النبي ﷺ اجتهد وأخطأ، أو جانب الصواب، وأن الله تعالى قد عاتبه.

ويرد على كلام البيضاوي في قوله: «والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون، وأنه قد يكون خطأ، ولكن لا يقرون عليه»، بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يخطئون بأحكامهم، واجتهاداتهم بما أثبتته الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري في كتابه «دلالة القرآن المبين على أن النبي ﷺ أفضل العالمين» في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ويؤخذ منه أن النبي ﷺ لا يخطئ، وإلا لما وجب التسليم لحكمه تسليماً مطلقاً، فلاية ترد قول الذين شذّوا بتجويز الخطأ عليه. وأشار التاج السبكي في «جمع الجوامع» إلى ردّ هذا القول الشاذ، بقوله: «والصواب أن اجتهاده عليه السلام لا يخطئ»^(١).



(١) موسوعة العلامة المحدث عبد الله بن الصديق الغماري ج ٩ ص ٥٣.

سورة التوبة

الآية التاسعة عشرة:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى وبعض المفسرين: «وهذا عتاب من الله تعالى ذكره، عاتب به نبيه ﷺ في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم من المنافقين. يقول جل ثناؤه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك من قبل أن تعلم صدقه من كذبه. أخبرنا موسى بن مروان، قال: سألت مورقا عن قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ قال: عاتبه ربه»^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها، ومعناه: أخطأت، وبئس ما فعلت. و﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو»^(٢).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١١ ص ٤٧٧، ابن أبي حاتم ج ٦ ص ١٨٠٥.

(٢) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٢٧٤.

قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ أي سامحك، وغفر لك ما أجريت^(١).



قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى: قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾^(٢) فهو قد أذن لهم اجتهداً منه ﷺ، يظن أن المصلحة في ذلك، ولكن المصلحة في غير هذا. فالمصلحة أن يتأنى حتى يعلم الذين صدقوا، ويعلم الكاذبين^(٣).



قلت: نرى مما سبق، أن بعض المفسرين قد قالوا بما لا يليق بمقامه ﷺ، من نسبة الذنب له ﷺ، أو أنه فعل خلاف الأولى وخلاف المصلحة. وكل هذه الأقوال مردودة؛ لأنه المعصوم، الذي لا يفعل إلا ما أمره مولاه به، ولا ينطق عن الهوى. وسنبين التفسير الذي يليق بمقامه ﷺ:

التفسير العرفاني:

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ احتج بعضهم بهذه الآية على صدور الذنب عن الرسول من وجهين؛ الأول، أنه تعالى قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ والعفو يستدعي سابقة الذنب. والثاني، أنه تعالى قال: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ وهذا استفهام بمعنى الإنكار، فدل هذا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ١ ص ٣٣٨.

(٢) شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين ج ١ ص ٥٧٣.

على أنَّ ذلك الإذن كان معصية وذنباً. قال قتادة وعمرو بن ميمون: اثنان فعلهما الرسول، لم يؤمر بشيء فيهما؛ إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسارى، فعاتبه الله كما تسمعون.

والجواب عن الأول: لا نسلم أنَّ قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾^(١) يوجب الذنب، ولم لا يجوز أن يقال: إنَّ ذلك يدل على مبالغة الله في تعظيمه وتوقيره، كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً عنده، عفا الله عنك ما صنعت في أمري، ورضي الله عنك، ما جوابك عن كلامي؟ وعافاك الله ما عرفت حقي. فلا يكون غرضه من هذا الكلام، إلا مزيد التبجيل والتعظيم.

والجواب عن الثاني أن نقول: لا يجوز أن يقال المراد بقوله: ﴿لَمْ أَذْنَبْ لَهُمْ﴾ الإنكار؛ لأننا نقول إما أن يكون صدر عن الرسول ذنب في هذه الواقعة، أو لم يصدر عنه ذنب. فإن قلنا إنه ما صدر عنه ذنب، امتنع على هذا التقدير أن يكون قوله: ﴿لَمْ أَذْنَبْ لَهُمْ﴾ إنكار عليه. وإن قلنا أنه كان قد صدر عنه ذنب، فقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ يدل على حصول العفو عنه. وبعد حصول العفو عنه يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه، فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال أنَّ قوله: ﴿لَمْ أَذْنَبْ لَهُمْ﴾ يدل على كون الرسول مذنباً، وهذا جواب شاف قاطع^(١).



قال ابن عطية رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ استفتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزك الله، ولم يكن منه ﷺ ذنب يعفى عنه؛ لأن

(١) مفاتيح الغيب المعروف بمفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٦ ص ٥٧.

صورة الاستنفار قبول الإعذار مصروفة إلى اجتهاده. وأما قوله: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ فهي على معنى التقرير^(١).



قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: «قال نفطويه: ذهب ناس إلى أن النبي ﷺ معاتب بهذه الآية، وحاشاه من ذلك، بل كان خيراً. فلما أذن لهم، أعلمه الله تعالى أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن لهم»^(٢).



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره في «الفتوحات»: «وقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ فقدّم البشرى قبل العتاب، وهذه الآية عندنا بشرى خاصة ما فيها عتاب، بل هو استفهام لمن أنصف وأعطى أهل العلم حقهم»^(٣). فمن أحبه الله لن تضره الذنوب، ولا قدحت في منزلته، بل بشره فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ فقدّم العفو قبل السؤال عندنا، وقبل العتاب عند غيرنا، لتعرف العناية الإلهية بأحبابه، لا ذنب لمحبوب، ولا حسنة لمحب عند نفسه^(٤). وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾ إنما هو استفهام، مثل قوله: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ [المائدة: ١١٦]، كأنه يقول: أفعلت هذا حتى يتبين لك الذين صدقوا؟ لهذا جاء العفو ابتداءً، ليتنبه العالم بالله أنه ما أراد التوبيخ الذي يظنه من لا علم له بالحقائق»^(٥).

(١) ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٣ ص ٣٨.

(٢) الشفا بتعرف حقوق المصطفى ج ١ ص ٢١.

(٣) الفتوحات المكية ج ١ ص ٥٩٢.

(٤) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٥٣٨، طبعة دار الكتب العلمية.

(٥) الفتوحات المكية ج ٧ ص ٣٤٤، طبعة دار الكتب العلمية.



وقال في موضع آخر من «الفتوحات»: «فقدم المغفرة على الذنب، وليس بذنب عنده، وإنما ذكره لتعرف العناية الإلهية بأحبابه، لا ذنب لمحبوب، ولا حسنة لمحب عند نفسه»^(١).



قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى: «قال الشيخ محيي الدين ابن عربي: إنَّ ذلك سؤال عن العلة، لا سؤال توبيخ؛ لأنَّ العفو قد تقدم. وقوله: ﴿حَقٌّ يَتَبَيَّنُ لَكَ﴾ إنما هو استفهام تقرير، وكأنه يقول: أفعلت يا محمد ذلك، حتى يتبين لك الذين صدقوا؟ فإما أن يقول نعم أو لا، فإنَّ العفو والتوبيخ لا يجتمعان»^(٢).



قال صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى: «لما سبقت الاضطوائية له قبل وقوع المعاملات، سبق منه بالعفو له قبل الزلات، خاطبه الله تعالى بعفو وتلطف، حتى لا يفني في رؤية جلاله من حدة الحياء والاحتشام، ولا يكون إلا لمن كان معرفته؛ ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه».

ولي نكتة من عجيب الخطاب: إنَّ لفظ المسامحة والأنس جرى على فعل الماضي، لا على فعل المستقبل، وكلامه تعالى أزلي: أي عفا عنك في الأزل، قبل وجود العمل، ففرح فؤاده بعفوه السابق له، ثم استعمل الانبساط معه بموضع

(١) الفتوحات المكية ج ٥ ص ٢٤٦.

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر ج ١ ص ٢٤٨.



الاستفهام من الأمر، بوصف الاستثناس والبسط. ولو قال: إِنَّ اللَّهَ يَعْفُو عَنْكَ، لكان مستوحشاً في موقع الخطاب؛ لأن المرجو ليس كالمدرَك^(١).



قال الشيخ عبد العزيز الدباغ رحمته الله: « إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَعْفُو، وَأَنْ يَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ، وَأَنْ يَعَاشِرَ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ، وَيُدْفِعَ بِهَا، حَتَّى قَالَ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوهُ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فكانت هذه عادته مع الخلق. فلما جاءه أهل النفاق، واستأذنوه في التخلف، وذكروا أَعذارهم، أذن لهم في التخلف، وهو يعلم نفاقهم، للرحمة التي فيه. ولما أمره به من المعاشرة بالتّي هي أحسن، وحضه عليها في غير ما آية، فسلك معهم مسلك الظاهر، ثم تحدث في باطنه بنزول آية تفضّحهم. وإنما منعه هو من أن يباشر فضيحتهم للرحمة التي فيه، ووصية الله له، فتحدث في باطنه بفضيحتهم على وجه يبين كونها من الله لا منه، للحياء الذي فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كُنْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فأحب أن تنزل الآية في صورة العتاب له، لتكون أبعد عن التهمة، وأدخل في محض النصيحة، وأزجر لهم عن الاشتغال بالنفاق مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة أخرى. فإن الله تعالى هو وكيله على من ينافقه، وخصيمه، وحجيجه، فتضمنت صورة هذا العتاب مصالح شتى، وفي الباطن لا عتاب، وإنما ناب الحبيب عن حبيبه في المخاصمة، لا غير.

(١) تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٢ ص ٢١.



ثم قال: ولا ينبغي لأحد أن يظن بالنبي ﷺ أنه كان لا يعلم الصادق من الكاذب من المعتذرين، وكيف يخفى ذلك عليه، والمفتوح عليه في هذا الزمان يعلم الصادق والكاذب منهم في ذلك الزمان، وأهل الفتح أجمعون، إنما نالوا ما نالوا بمحبته صلى الله عليه وسلم، فسقوا بمقدار شعرة من نوره ﷺ^(١).



قال الشيخ المحدث عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى: «قول الزمخشري: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها، ومعناه: أخطأت، وبئس ما فعلت. والحقيقة: أنه لا جناية ولا خطأ لسبب واضح، هو أنَّ الجناية أو الذنب، أو المعصية، مخالفة النهي، ولم يسبق من الله نهي عن الإذن للمنافقين. والنبي ﷺ إذن لهم اجتهدا منه، فكيف تنسب إليه جناية؟! بل لو فرض أنه اخطأ، لكان مثابا على اجتهداده، غير مؤاخذ بخطاه، وهو ﷺ لم يخطأ؛ لأنه سلك ما هو أوفق لخلقه من التيسير على أصحابه، والميل إلى ستر حالهم، وتفويض أمرهم إلى الله تعالى»^(٢).



قال الشيخ رافع الرفاعي حفظه الله تعالى ورعاه مفتي الديار العراقية: «من قال إنَّ العفو لا يكون إلا عن ذنب، فهذا بعيد عن اللغة ومدلولاتها. فقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ فيها أكثر من إشارة، فنقول: إنَّ في هذا القول تلميح من الله ﷻ لنبيه ﷺ؛ لأن في إذن النبي ﷺ لهم رفعا للإثم عنهم، فدل المعنى على

(١) الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز ج ١ ص ٣٦٦.

(٢) بدع التفاسير ص ٥٦.



أن هؤلاء لا يستحقون إكرامك يا حبيبي. ولهذا القول معنى ثان: فهناك عطايا ومنح ربانية مثل: العفو - المغفرة - التجاوز - التوبة وغيرها. وما من عطية ربانية إلا أعطيت لرسول الله ﷺ على كمالها، فالعفو أُعطي لرسول الله على كماله، فقال له: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾، والمغفرة أُعطيت لرسول الله ﷺ على كمالها، فقال له: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، والصلاة أُعطيت لرسول الله ﷺ على كمالها، فقال له: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وهكذا في بقية الآيات. فليحذر من يفهم من هذه الآيات إنها آيات عتاب، فلا عتاب لرسول الله ﷺ في القرآن.



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ أسلوب خبري، وليس إنشائيًا، بمعنى: أخفى الله عنك حكمة الإذن لهم، وقد أراد ألا يخرجوا معكم، وإلا زادوكم خبالًا، وأوضعوا فيكم الفتنة، بل أراد الله سبحانه وتعالى عدم خروجهم ليحرمهم من فضيلة الخروج مع رسوله ﷺ. ولذا قال سبحانه: ﴿كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] وإنما قيل ذلك بإرادة الله لحرمانهم فضل الخروج، ولدفع ضرر خروجهم مع المسلمين، فيوقعوا بهم الفتنة. وبالتالي يكون ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ أي أخفى عنك حكمة الإذن لهم، مع إرادته أن تأذن لهم؛ لأجل أن يبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين. وكلمة عفا تأتي بمعنى العفو عن الذنب، وبمعنى السكوت عن الشيء، أو إزالة الأثر، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَاهَلْ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ

تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ [المائدة: ١٥] أي يسكت عن كثير مما أخفيتموه. وكذلك تقول: عفا الأثر، أي زال واختفى. والخلاصة أن النبي ﷺ اجتهد وأصاب بالإذن لهم، وإن ذلك الإذن وافق الحكمة والمصلحة، ووافق إرادة الله، فلا خطأ ولا عتاب، بل تأييد وتوفيق من الله ﷻ: لنبيه ﷺ.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «من الخطأ أن نقول إن الله تعالى عاتب نبيه ﷺ؛ لأنه فعل ذنبا وجانب الصواب، فلا ينطق النبي ﷺ إلا بما يرضي الله ﷻ، ولا يفعل إلا ما أمره الله به، وإذن النبي ﷺ للمنافقين هو عين ما أراده الله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [التوبة: ٤٧]. وواضح من الآية الكريمة أن الله ﷻ: هو الذي كره انبعاثهم؛ لأن في خروجهم مع المسلمين مضرة وشر. فكيف نقول قد أخطأ النبي ﷺ وحاشاه؟ وقوله ﷻ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ما هو إلا إظهار لكرامته ومنزلته عند ربه، وتنبيهنا لنا أنه المعصوم المحفوظ من الذنب والزلل.

قلت: وبعد ما أوردناه من أقوال المفسرين والعارفين بالله، تبين أن ما قاله بعض المفسرين مما لا يليق بمقامه مردود، وبعيد عن الأدب الذي أمرنا الله ﷻ به في التأدب مع أنبيائه وأوليائه، وخاصة وخصوصاً سيدنا محمد ﷺ.



الآية العشرون:

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

التفسير الأولي:

قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: «هذا خطاب من الله لنبيه يقول: إن كنت يا محمد، في شك مما أنزلنا إليك، وفيه وجهان؛ أحدهما، في شك أنك رسول. الثاني، في شك أنك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل. ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] فيه وجهان؛ أحدهما، أنه أراد مَنْ منهم مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، قاله ابن زيد. الثاني، أنه عنى أهل الصدق والتقوى منهم»^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ بمعنى الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً، وخيل لك الشيطان خبالاً منه تقديراً، فسأل الذين يقرءون الكتاب. والمعنى: أن الله عز وجل قدم ذكر بني إسرائيل، وهم يقرءون الكتاب، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم، لأن أمر رسول الله ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن، وصحة نبوة محمد عليه السلام، ويبالغ في

(١) تفسير النكت والعيون للماوردي ج ٢ ص ٤٥٠.



ذلك، فقال: فإن وقع لك شك فرضا وتقديرا، وسبيل من خالجه شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإماتها، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلتها، وإما بمقارنة العلماء المنبهين على الحق. فسل علماء أهل الكتاب، يعنى: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك، ثم قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة، أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله، أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك، والتكذيب بآيات الله. ويجوز أن يكون على طريقة التهيج والإلهاب، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ (٨٦)، ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ﴾ [الفصص: ٨٧] ولزيادة الثبوت والعصمة، ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لا أشك ولا أسأل، بل أشهد أنه الحق»^(١).



قال المراغي رحمه الله تعالى وبعض المفسرين: «﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ المراد بالكتاب جنسه، أي الكتب السالفة كالطورا والإنجيل، أي: فإن كنت أيها الرسول في شك مما قلناه في تلك الشواهد، من قصة هود، ونوح، وموسى، وغيرهم، فرضا وتقديرا، فاسأل الذين يقرءون كتب الأنبياء، كاليهود والنصارى، فإنهم يعلمون إن ما أنزلناه إليك حق، لا يستطيعون إنكاره»^(٢).



(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٣٧٠.

(٢) تفسير المراغي ج ١١ ص ١٥٤، تفسير السعدي ج ١ ص ٢٧٢.



قلت: لقد جانب الماوردي الصواب في تفسيره حين نسب الشك للنبي ﷺ، سواء كان في نبوته، أو أنه مكتوب عندهم في كتبهم، فكيف لمن هو نبي وآدم بين الروح والجسد، أن يشك في تبليغ الله له. وكذلك الزمخشري، والمراغي، والسعدي، حين فرضوا الشك فرضاً وتقديراً، فحاشاه ﷺ مما نسبوا إليه، وسنرد على تفسيراتهم، وسنذكر التفسير الذي يليق بمقامه ﷺ.

التفسير العرفاني:

قال مقاتل رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «إن كنت في شك يا محمد مما أنزلنا إليك، فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، عبد الله بن سلام وأصحابه. فقال النبي ﷺ عند ذلك: «لا أشك ولا أسأل بعد، أشهد أنه الحق من عند الله»^(١).



قال الثعالبي رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «كان الناس على عهد رسول الله ﷺ قالوا: آمنا بالله بلسانهم، ومنهم كافر مكذب، لا يرى إلا أن ما جاء به باطل، أو شك في الأمر لا يدري كيف هو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فخطب الله هذا الصنف من الناس، فقال: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد ﷺ، فسئل الأكابر من علماء أهل الكتاب، مثل عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري، وأشباههم، فيشهدوا

(١) تفسير مقاتل ج ٢ ص ٢٤٨، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٥ ص ٢٠٠.

على صدقه، ولم يرد المعاندين منهم»^(١).



قال الزجاج رحمه الله تعالى: وتأويل: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فإن ما خوطب به ﷺ فهو خطاب لأمتيه، فكأنه بمنزلة (فلا تشكوا ولا ترتابوا)^(٢). وقال أيضاً: «هذه آية قد كثر سؤال الناس عنها، وخوضهم فيها جداً، وفي السورة ما يدل على بيانها، وكشف حقيقتها: والمعنى أن الله - جلَّ وعزَّ خاطب النبي ﷺ، وذلك الخطاب شامل للخلق. فالمعنى: إن كنتم في شك فاسألوا. والدليل على ذلك قوله في آخر السورة: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]. فأعلم الله ﷻ: أن نبيه ﷺ ليس في شك، وأمره أن يتلو عليهم ذلك. ويروى عن الحسن أنه قال: لم يسأل ولم يشك، فهذا بين جداً. والدليل على أن المخاطبة للنبي مخاطبة للناس قوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]. فقال (طَلَقْتُمُ) ولفظ أول الخطاب للنبي ﷺ وحده، فهذا أحسن الأقوال، وفيها قولان آخران؛ ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ﴾، كما تقول للرجل: إن كنت أبي، فتعطف عليّ، أي إن كنت أبي، فواجب أن تتعطف عليّ، ليس أنه شك في أنه أبوه. وفيها وجه ثالث، أن تكون إن في معنى ما، فيكون المعنى ما كنت في شك مما أنزلنا إليك، فاسأل الذين يقرؤون،

(١) تفسير الثعالبي ج ٥ ص ١٤٩، بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ١٣٢، مفاتيح

الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٧ ص ٢٩٩، الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ٢٨٢، تفسير

ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٧، تفسير روح المعاني الألوسي ج ٦ ص ١٧٨.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ج ٢ ص ٣١٥.

أي لسنا نأمرك لأنك شك، ولكن لتزداد، كما قال إبراهيم: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فالزيادة في الثبوت ليست مما يطل صحة القصد^(١).



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «معلوم أنه ﷺ ليس في شك، والمقصود من هو شك من الناس. وكما قيل: إياك أعني، واسمعي يا جارة»^(٢).



قال الشيخ المحذث عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى: «فإن كنت في شك على سبيل الفرض والتقدير، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، وهم علماء اليهود، لأن أمرك مكتوب عندهم في كتبهم، وهو يعرفونك كما يعرفون أبنائهم. والآية لا تقتضي وقوع الشك منه ﷺ؛ لأن حرف إن، لا يفيد حصول شرطه، بل يفيد الشرط في حصوله. ولهذا يدخل على المستحيل كما في هذه الآية، وهي مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] ومن المعلوم بالضرورة، إن وقوع الشك أو الشرك منه ﷺ محال، والخطاب موجه للنبي ﷺ، والمراد أمته. وقيل الخطاب لأي سامع ممن يجوز عليه الشك، وهذا كقول العرب: إذا عز أخوك فهن»^(٣).



(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ج ٣ ص ٣٢.

(٢) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٢٠٦.

(٣) بدع التفاسير ص ٦٤.



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «الآية تحتل معنيين، لا يستقيم ما سواهما؛ أولهما، أن تبقى الظرفية التي دلت عليها في على حقيقتها، ويكون الشك قد أطلق وأريد به أصحابه، أي فإن كنت في قوم أهل شك مما أنزلنا إليك، أي يشكون في وقوع هذه القصص، كما يقال: دخل في الفتنة، أي في أهلها. ويكون معنى: ﴿فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، فاسأل أهل الكتاب سؤال تقرير وإشهاد، عن صفة تلك الأخبار، يخبروا بمثل ما أخبرتهم به، فيزول الشك من نفوس أهل الشك؛ إذ لا يحتمل تواطؤك مع أهل الكتاب على صفة واحدة لتلك الأخبار. فالمقصود من الآية إقامة الحجة على المشركين، بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قطعاً لمعذرتهم. وثانيهما، أن تكون (في) للظرفية المجازية، كالتي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ [هود: ١٠٩]، ويكون سوق هذه المحاوراة إلى النبي صلى الله عليه وسلم على طريقة التعريض، لقصد أن يسمع ذلك المشركون، فيكون استقرار حاصل المحاوراة في نفوسهم أمكن مما لو ألقى إليهم مواجهة. وهذه طريقة في الإلقاء التعريضي، يسلكها الحكماء وأصحاب الأخلاق، متى كان توجيه الكلام إلى الذي يقصد به مظنة نفور، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، أو كان في ذلك الإلقاء رفق بالذي يقصد سوق الكلام إليه، كما في قصة الخصم من اللذين اختصما إلى داود المذكورة في سورة ص. وكلا الاحتمالين يلاقي قوله: ﴿فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فإنه يقتضي أن المسئول عنه مما لا يكتمه أهل الكتاب، وأنهم يشهدون به، وإنما يستقيم ذلك في القصص الموافقة لما في كتبهم، فإنهم لا يتخرجون من إعلانها، والشهادة بها.

وغير هذين الاحتمالين، يعكر عليه بعض ما في الآية، ويقتضي أنَّ المخاطب النبي صلى الله عليه وسلم، لمكان قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾. وليس المراد بضمائر الخطاب كل من يصح أن يخاطب، لأن قوله: ﴿مِمَّا أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ﴾ يناكد ذلك إلا بتعسف. وإنما تكون جملة: ﴿فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ جواباً للشرط، باعتبار ما تفيده مادة السؤال، من كونهم يجيبون بما يزيل الشك. فبذلك يلتئم التلازم بين الشرط والجواب، كما دلت عليه جملة: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [يونس: ٩٤]^(١).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: كيف لعالم أن ينسب الشك للنبي صلى الله عليه وسلم، حتى وإن كان على سبيل الفرض، فالآية واضحة بأنها مخاطبة للأمة في زمانه، وأيضاً فيها إقامة الحجة على أهل الكتاب، وأنه مكتوب عندهم ولم يؤمنوا به، وتثبيت للذين دخلوا في الإسلام.



قلت: مما مضى، تبين الوجه الصحيح لتفسير هذه الآية، وجزى الله الإمام الزجاج خيراً، على ما بينه في أكثر من معنى، وكلها تليق بمقامه صلى الله عليه وسلم. وفيها رد قاطع على من اتهم النبي بالشك، ولو فرضاً أو احتمالاً.



(١) التحرير والتنوير ج ١١ ص ٢٨٤.



الآية الحادية والعشرون:

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ

الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ يا محمد، من دون معبودك وخالقك، شيئاً لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرّك في دين ولا دنيا، يعني بذلك الآلهة والأصنام. يقول: لا تعبدوها راجياً نفعها أو خائفاً ضرّها، فإنها لا تنفع ولا تضر، ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ ذلك، فدعوته من دون الله ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾»^(١).



قال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي ولا تدع أيها الرسول غيره تعالى دعاء عبادة، لا على سبيل الاستقلال، ولا على سبيل الاشتراك، بوساطة الشفعاء- ما لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرّك إن تركت دعاءه، ولا إن دعوت غيره. ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ أي فإن فعلت هذا، ودعوت غيره، كنت في هذه الحال من الذين ظلموا أنفسهم، ولا ظلم لها أكبر من الشرك بالله تعالى، فدعاؤه وحده أعظم العبادات، ودعاء غيره شرك وظلم للنفس، لإضافة التصرف إلى ما لا يصدر منه، فهو وضع للشيء في غير موضعه»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٥ ص ٢١٨.

(٢) تفسير المراغي ج ١١ ص ١٦٣.



قال الزحيلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي لا تدع ولا تعبد أيها الرسول متجاوزا الله تعالى، ما لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة إن دعوته، ولا يضرك أصلا إن تركت دعاءه. فإن فعلت هذا، وعبدت ودعوت غير الله، كنت حينئذ من الظالمين نفسك؛ لأنه لا ظلم أكبر من الشرك بالله تعالى، ومن الظلم وضع العبادة في غير موضعها»^(١).



التفسير العرفاني:

قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: ولا تدع أيها الإنسان المكلف العاقل، ولا تعبد من دون الله وَعَلَيْكَ: أحدا، فإن فعلت أيها الإنسان المكلف، فإنك من الظالمين، فالخطاب ليس للنبي ﷺ.



قلت: العجب ممن يخاطب النبي ﷺ في تفسيره بهذا الخطاب، ويجعله المقصود، بل ويصرح باسمه الشريف، وأنه يجب أن لا يعبد الأصنام ولا يدعوها، فإنها لا تنفع ولا تضر!!!!!! وصدق الله تعالى في قوله: **﴿أَمْرٌ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾** [المؤمنون: ٦٩]، فهو لاء القوم في توجيه الآية للنبي ﷺ، وجعله هو المقصود بها، كأنهم لم يعرفوا رسولهم. فهو ﷺ الذي لم يسجد لصنم قط، لا هو ولا آباؤه، ولم يرتكب معصية لا قبل النبوة ولا بعدها، والذي قال عن نفسه: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»، والذي شهد شق الصدر الشريف، ولم

(١) التفسير المنير للزحيلي ج ١١ ص ٢٨٢.

يخف ولم يستغرب، ثم أرسله الله تعالى هاديا للخلائق إلى عبادة رب العباد، وبعد هذا وذاك، تقولون له بكل جرأة: «يا محمد، لا تدع من دون معبودك شيئاً، فإن الأصنام لا تنفع ولا تضر» ولم تصرفوا الخطاب للأمة، إن هذا خطأ كبير. وتفسير الآية واضح، وكل الآيات التي فيها هكذا خطابات، هي للأمة من خلال شخص النبي ﷺ؛ لأنه واسطة البلاغ.



سورة هود

الآية الثانية والعشرون:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]

التفسير الأولي:

قال مقاتل بن سليمان رحمه الله تعالى في تفسيره: «وذلك أن كفار قريش، قالوا للنبي ﷺ في يونس: ائت بقرآن غير هذا، ليس فيه ترك عبادة آلهتنا ولا عيبتها، أو بدله، أنت من تلقاء نفسك، فهم النبي ﷺ ألا يسمعهم عيبتها، رجاء أن يتبعوه، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ يعني ترك ما أنزل إليك من أمر الآلهة، ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ في البلاغ»^(١).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وذلك أن كفار مكة قالوا: كيف لا ينزل الله إليه ملكا، أو يكون له كنز، وطلبوا منه بأن لا يعيب آهتهم، فهم النبي ﷺ بأن يترك عيبتها، رجاء أن يتبعوه، فنزل: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ يعني ترك ما أنزل إليك من أمر الآلهة، ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ في البلاغ، ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ﴾ يعني المال، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يعينه ويصدقه،

(١) تفسير مقاتل ج ٢ ص ٢٧٣.

فأمر بأن لا يترك تبليغ الرسالة بقولهم، وقال: قل يا محمد، إنما أنت نذير، يعني إنما عليك تبليغ الرسالة والتخويف. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(١).



قال مأمون حموش رحمه الله تعالى في تفسيره: «في هذه الآيات خطابٌ من الله ﷻ: لنبيه ﷺ: فلعلك - يا محمد - تارك بلاغ بعض ما يوحى إليك، وضائق صدرك ببعض هذا الوحي الذي أمرت بتبليغه، مخافة أن يقولوا: أين المال أو الكنز الذي أنزل معه، أو الملك الذي جاء مصداقاً له من الله بأنه رسول؟ فاعلم أنه إنما أنت نذير لقومك، والله القيم على الأمور والتدبير. أم يقولون لك - يا محمد - افتريت هذا القرآن، فقل: الله يتحداكم بأن تأتوا بعشر سور مثله، مستعينين بمن شئتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن أخفقوا وعجزوا، فاعلموا - أيها المؤمنون - وازدادوا إيماناً أن هذا القرآن منزل من الله بعلمه، وهو الإله الواحد، لا شريك له، فهل أنتم حقاً مسلمون»^(٢).



التفسير العرفاني:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «اقترحوا عليه أن يأتي بكتاب ليس فيه سب أهتهم، وبين الله - سبحانه - له ألا يترك تبليغ ما أنزل عليه، لأجل كراحتهم، ولا يبدل ما يوحى إليه. قوله ﷻ: ﴿وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ١٤٠.

(٢) التفسير المأمون على منهج التفسير الصحيح ج ٤ ص ٢٢.



أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١﴾ وهذا على وجه الاستبعاد، أي لا يكون منك ترك ما أوحى إليك، ولا يضيق صدرك بما يبدو من الغيب. ومن شرح الله بالتوحيد صدره، ونور بشهود التقدير سره، متى يلحقه ضيق صدر، أو استكراه أمر، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي أنت بالإرسال منصوب، وأحكام التقدير عليك مجراة^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى وبعض المفسرين: سبب هذه الآيات إن كفار قريش قالوا: يا محمد، لو تركت سب آلهتنا، وتسفيه آبائنا، لجالسناك واتبعناك. وقالوا: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، ونحو هذا من الأقوال. فخاطب الله تعالى نبيه ﷺ على هذه الصورة من المخاطبة، ووقفه بها توقيفا، رادا على أقوالهم ومبطلا لها، وليس المعنى أنه ﷺ هم بشيء من ذلك فزجر عنه، فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أوحى إليه، ولا ضاق صدره، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم، وأفعالهم، وبعدهم عن الإيمان. أي عليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح، وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم، ولا مبال بسفهمهم واستهزائهم. فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت، لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرا. ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد السيادة والجواد الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث، قلت: سائد وجائد، ونحوه^(٢).



(١) تفسير القشيري ج ٢ ص ١٢٧.

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٢، تفسير ابن عطية ج ٣ ص ١٥٤.

قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول الحق جلّ جلاله لنبيه ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ فلا تبلغه وهو ما فيه تشديد على المشركين، مخافة ردهم واستهزائهم به. ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه. فالعصمة مانعة من ذلك. فالرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يترك شيئاً من الوحي إلا بلغه، ولكن الحق تعالى شجعه، وحرّضه على التبليغ في المستقبل. ولو قبل بالإنكار»^(١).

قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «في هذا الآية طيب الله تعالى قلب نبيه ﷺ، لأنه حزن بسبب إعراض قومه عنه، وقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ والله ﷻ: قد أنزل عليه كنزاً، وهو القرآن الكريم، وأرسل معه ملكاً وهو جبريل، ولكنهم لم يروه، وكذبوا بالكنز الذي أوتيته. فضيق صدره من صدود المنكرين الكفار وتعنتهم، لا من القرآن وما أنزل إليه».



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «إِنَّ مَا يَقُولُهُ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَمَّ أَنْ لَا يَعِيبَ آلَهُمْ، حَتَّى يَرْضُوا عَنْهُ، وَطَمَعَا فِي إِيْمَانِهِمْ، مُرَدُّدٌ بِنَصِّ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، فَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْلَمَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ وَالْيَهُودَ لَنْ يَرْضُوا عَنْهُ أَبَدًا ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَعَمْرُ أَبِي طَالِبٍ: «يَا عَمُّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ»^(٢). فكيف يتصور إنسان مسلم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَمَّ أَنْ يَكْتُمَ بَعْضَ الْأَمْرِ، إِرْضَاءً لِلْكَفَّارِ، وَطَمَعًا فِي إِيْمَانِهِمْ، أَلَمْ

(١) البحر المديد ج ٢ ص ٥١٥.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٦.



يعلموا أَنَّ الأنبياء لا يخافون إلا الله، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، وانظر إلى قول سيدنا نوح عليه السلام ﴿وَأْتَلِ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، ثم إن الله قد أطلع نبيه ﷺ على الجنة وأهلها والنار وأهلها، فكيف يتصور أنه يترك بعض ما أنزل إليه، طمعا في إيمان من أطلعه الله تعالى أنهم من أهل النار. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ، فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟» فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقُصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقُصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: فَنِيمَ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: «فَرَّغْتُ رُبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»^(١).



قلت: كما أصلنا سابقاً، إن كل هذه الخطابات يجب أن تفسر بما يليق بمقام النبوة والرسالة، وقول المفسرين أن النبي ﷺ هم أن يكتفوا شيئاً، ولا يبلغه،

(١) الترمذي (٢١٤١).

استرضاءً للكافرين، فهذا قول باطل ومردود. وضيق الصدر الذي في الآية كان بسبب أنه ﷺ كان يضيق صدره لإعراض قومه، وكفرهم بما جاءهم به، وهو يحذرهم من عذاب الجحيم، وهو الرحمة المهداة الذي كان حريصاً على إسلام جميع من في الأرض، ويضيق صدره من الحجج التي يخلقونها، حتى لا يؤمنوا، وهم يعلمون أنه صادق في دعوته، والله تعالى يخبر الناس على لسان حبيبه، أنه ما كتم شيئاً مما أوحىته إليه، وبشر المؤمنين بالجنة، وأنذر الكافرين النار التي وقودها الناس والحجارة، فخاطبه خطاب الرضى والحنان، وقال: إن أنت إلا نذير، فلا تتعب نفسك، ولا تحزن قلبك جراء إعراضهم.



الآية الثالثة والعشرون:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]

التفسير الأولي:

قال المظهري في تفسيره: «ما كنت تعلمها أنت، ولا قومك من قبل هذا، أي جاهلاً أنت وقومك بها»^(١).



قلت: وقد أخطأ المظهري في قوله: «جاهلاً أنت وقومك بها»، فما هكذا تخاطب الأنبياء والرسل، وسنرد على قوله فيما يلي:

(١) التفسير المظهري ج ٥ ص ٩٣.

التفسير العرفاني:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «أعلمناك بهذه الجملة، وأنبأناك بهذه القصص، لما خصصناك من غير أن تتعلمه من شخص، أو من قراءة كتاب، فإن قابلك قومك بالتكذيب فاصبر، فعن قريب تنقلب هذه الأمور»^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «تلك القصة، أو خبر نوح عليه السلام، هي من أنباء الغيب، أي بعض أخبار الغيب ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ لا طريق إلى معرفتها إلا الوحي، ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ الوقت، لولا إيجأنا إليك بها، فهي من دلائل نبوتك، لأنك لم تغب عنهم، ولم تخالط غيرهم، فتعين أنه من عند الله. فإن كذبوك فاصبر، ﴿إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ وأنت أعظمهم. فالعاقبة لك في الدنيا بالنصر والعز، وفي الآخرة بالرفيق الأعلى. أو فاصبر على مشاق التبليغ مع أذية قومك، كما صبر نوح عليه السلام. ﴿إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة»^(٢).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: في هذه الآية إثبات لنبوة النبي ﷺ؛ لأنه من أمة أُمّية، ولم يطالعوا الكتب السابقة، ولم يمارس القراءة والكتابة، ويحدثهم بأخبار من مضى وهم من غير العرب، ففيها دليل على

(١) القشيري ج ٢ ص ١٤٠.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٢ ص ٥٣٤.

أنه نبي يوحى إليه، خصوصاً وأن الأمم السابقة كانت في عصور مختلفة، وأماكن متباينة، ويتكلمون غير العربية، فلا سبيل لمعرفة ذلك إلا بالوحي.



قلت: من المعلوم أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، ونشأ في أمة أمية، لا تقرأ ولا تكتب، ولم ينزل فيهم كتاب سماوي سابق، ولم يعهدوا عليه أن مارس القراءة والكتابة من قبل، وبعث إليهم، وأخبرهم بأخبار من مضى، وفي كل القرآن إذ قال الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفَلَمْهُمْ آيُهُمْ يَكْفُلْ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] وقوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] وقوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]. فالآيات السابقة ليس كما فهمها المظهري انتقاصاً في حقه ﷺ، بل على العكس، ففيها أن صاحب المقام المحمود، قد أطلعه الله تعالى على الغيوب الماضية، والحالية، والمستقبلية. وإلا، كيف يُحدث عن أقوام سبقوه بآلاف السنين، ويتحدثون بغير لغته، ويروي عنهم أدق التفاصيل، فما هو إلا دليل على أن الله هو الذي علّمه ما لم يعلم، ولا يوصف من علّمه الله أنه كان يجهل الأمور، فوالله ما جهلها، ولكن ما تكلم بها إلا بعد أن حان وقت تبليغها، كيف يجهلها، وقد نبئ آدم بين الروح والجسد.



الآية الرابعة والعشرون:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
 آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ نَصِيْبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ [هود: ١٠٩]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلا تك في شك، يا محمد، مما يعبد هؤلاء المشركون من قومك من الآلهة والأصنام، أنه ضلال وباطل، وأنه بالله شرك ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يقول: إلا كعبادة آبائهم من قبل عبادتهم لها. يخبر تعالى ذكره أنهم لم يعبدوا ما عبدوا من الأوثان، إلا اتباعا منهم منهاج آبائهم، واقتفاء منهم آثارهم في عبادتها، لا عن أمر الله إياهم بذلك، ولا بحجة تبينوها توجب عليهم عبادتها»^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في «الكشاف» والبيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم، لما أصاب أمثالهم قبلهم، تسلية لرسول الله ﷺ، وعدة بالانتقام منهم، ووعيداً لهم، ثم قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ﴾ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم، فسينزل بهم مثله»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٥ ص ٤٩١.

(٢) الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٤٣١، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ج ٣ ص ١٥٠.

قال الرازي وابن كثير رحمهما الله تعالى في تفسيرهما: «اعلم أنه تعالى لما شرح أقاصيص عبدة الأوثان، ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء، شرح للرسول عليه الصلاة والسلام أحوال الكفار من قومه، فقال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ والمعنى: فلا تك في شك من حال ما يعبدون في أنها لا تضر ولا تنفع. قال تعالى: فلا تك في مرية منه أنه الحق من ربك، ففيه قولان؛ الأول، فلا تك في مرية من صحة هذا الدين، ومن كون القرآن نازلاً من عند الله تعالى، فكان متعلقاً بما تقدم من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾. الثاني: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ من أن موعد الكافر النار، أو قرئ مِرْيَةٍ بضم الميم^(١).



قلت: جانب المفسرون الصواب في نسبة الشك للنبي ﷺ في قول نسبوه إليه، سواء كان الشك بأحوال الكافرين وسوء عاقبتهم. والأعجب من ذلك قولهم بأنه ﷺ شك في نزول القرآن من عند الله، أو من صحة هذا الدين، فهذا قول باطل، وغير صحيح. وسنبين التفسير الذي يليق بمقامه فيما يلي:

التفسير العرفاني:

قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أَيُّ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِكُلِّ مَنْ شَكَّ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَإِنَّمَا يَعْبُدُونَهَا كَمَا كَانَ آبَاؤُهُمْ يَفْعَلُونَ تَقْلِيدًا هُمْ^(٢).



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٨ ص ٤٠٤، تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ١٠٣.

قال أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: القرآن حق من عند الله عز وجل، فلا تكونوا أيها المؤمنون في شك من ذلك»^(١).



قال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي فلا تكن أيها المكلف في شك من أمر هذا القرآن، أنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، آتيا من ربك وخالقك الذي يريك بما تكمل به فطرتك، ويوصلك إلى سعادتك في دنياك وآخرتك. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٧) أي ولكن أكثر الناس لا يؤمنون هذا الإيمان الكامل. أما المشركون منهم، فلاستكبار زعمائهم ورؤسائهم، وتقليد مرؤوسيههم وعامتهم لهم. وأما أهل الكتاب، فلتحريفهم دين أنبيائهم، وابتداعهم فيه»^(٢).



قال محمد المكي الناصري رحمه الله تعالى في تفسيره: «والنهي عن الشك الوارد هنا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَتُولَاءُ﴾ وإن كان في ظاهره موجها للرسول عليه الصلاة والسلام، فإنه موجه في الحقيقة إلى غيره من أفراد المدعويين والمكلفين، الذين يتصور في حقهم وجود الشك. والمطلوب منهم الوصول إلى اليقين، لتمييز الحق من الباطل، نظير قوله تعالى في آية سابقة وجه

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ج ٥ ص ٣٣٦٧.

(٢) تفسير المراغي ج ١٢ ص ١٩.

ففيها الخطاب إلى الرسول، والخطاب في الحقيقة موجه إلى بقية الناس ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]،
والنبي لم يشك، ولم يسأل^(١).



قلت: واضح لكل ذي عقل وعلم، أن الخطاب في هذه الآية للأمة عن طريق النبي ﷺ، وكما قلنا دائما أنه واسطة البلاغ، وإن كان الخطاب موجه للنبي ﷺ، ولكن لوجود القرائن العقلية والعقلية التي لا عد لها، فيُصرف الخطاب إلى الأمة، ولكل شاك في زمانه وفي كل زمان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكيف يتصور أن النبي ﷺ يشك في أمر ربه، أو في هذا الدين، أو في نزول القرآن. وما بيناه من أقوال المفسرين، فيه الكفاية إن شاء الله.



(١) التيسير في أحاديث التفسير ج ٣ ص ١٥٣.

سورة يوسف

الآية الخامسة والعشرون:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]

التفسير الأولي:

قال الزخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيجائنا إليك من الغافلين عنه، أي من الجاهلين به»^(١).



قال الواحدي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وما كنت من قبل أن يوحى إليك إلا من الغافلين»^(٢).



قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «والمعنى أنه وجدك غافلا عما يراد بك من أمر النبوة»^(٣).



قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ

(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٤٤٠.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ج ١ ص ٥٣٨.

(٣) فتح القدير ج ٥ ص ٥٥٨.

الْغَفْلِيك ﴿٣﴾ أي ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا^(١).



قال أبو الحسن السبتي رحمه الله تعالى: «والدليل على أن ضلال الأنبياء غفلة لا جهل قوله تعالى لنبينا عليه السلام ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] يعني غافلا عن الشريعة لا تدري كيفية العبادة، فهذا لها بالامر والنهي، ثم قال له ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِيك﴾ ﴿٣﴾. والجاهل لا يسمى غافلا حقيقة، لقيام الجهل به، فصح أن ضلال الأنبياء عليهم السلام غفلة لا جهل»^(٢).



قلت: أساء من رمى النبي ﷺ بالجهل إساءة فاحشة، فوالله ما جهل ربه، ولا جهل الإيمان، ولا جهل أحوال من قبله. وسنرد على هذه الأقوال، وكان الأجدر بهم التأدب بالألفاظ مع حضرة الحبيب الأعظم ﷺ.

التفسير العرفاني:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي إنك لم تصل إلى معرفتها بكذك وجهدك، ولا بطلبك وجدك، بل هذه مواهب لا مكاسب، فبعطائنا وجدتها لا بعنائك، وبفضلنا لا بتعلمك، وبتلطفنا لا بتكلفك، وبنا لا بك»^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ١ ص ٣٩٣.

(٢) تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء ج ١ ص ١١٣.

(٣) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٢ ص ١٦٧.



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «الغفلة انتفاء العلم، لعدم توجه الذهن إلى المعلوم. والمعنى المقصود من الغفلة ظاهر. ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة، للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كل من لم ينتفع بالقرآن، فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون، على تفاوت مراتبهم في العلم. ومفهوم ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ مقصود منه التعريض بالمشركين المعرضين عن هدى القرآن. قال النبي ﷺ «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَّا فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(١) أي المشركين الذين مثلهم، كمثل من لا يرفع رأسه لينظر^(٢).



قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: والمقصود بالغفلة هنا أنه ﷺ كان أمياً، ولم يعرف عنه أحد قبل نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر، وكل ما عرف عنه فقط هو الصفات الخلقية العالية من صدق وأمانة؛ وهي صفات مطلوبة في المبلغ عن الله؛ فما دام لم يكذب من قبل على بشر، فكيف يكذب وهو

(١) صحيح مسلم (٦٠٩٣).

(٢) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ج ١٢

يبلغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض؟! إِنَّ الكذب أمر مستبعد تماما في رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها. والغافل: هو الذي لا يعلم لا عن جهل، أو قصور عقل، ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله، أو أن يكون المقصود بقوله:

﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

أي: أنك يا محمد، لم تكن ممن يعرفون قصة يوسف؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب، ولم تجلس إلى معلم يروي لك تلك القصة، ولم تجمع بعضا من أطراف القصة من هنا أو هناك، بل أنت لم تتلق الوحي بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة: اسألوه عن أبناء يعقوب وإخوة يوسف؛ لماذا خرجوا من الشام، وذهبوا إلى مصر؟. وكان ضربا من الإعجاز، أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالي بكل تفاصيل القصة، كدليل عملي على أن معلم محمد صلى الله عليه وسلم هو الله، وأنه سبحانه هو من أوحى بها إليه^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «هذه الآيات لإثبات الوحي، وإن كنت من قبله لمن الغافلين عن هذه الأمم ولغاتهم، فعلمناك وعرفناك ما كان من أحوالهم، وليس المعنى غافلا عن ربه كما فهمها البعض، بل غافلا عما سوى الله، وغافلا عن مقامك عندي، لكمال فنائك في المشاهدة، و غافلا عما أعددت لك، وخصصتك به، وفضلتك على سائر الورى إنسا وجنا».



(١) تفسير وخواطر الشعراوي ج ١١ ص ٦٨٣٦.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «النبى ﷺ لم يغفل عن ربه طرفه عين، لا قبل النبوة ولا بعدها، ولم يجهل حاله كما ادعى البعض، بل هو يعلم أنه نبى وآدم بين الروح والجسد، ويعلم بنبوته قبل بعثته في سن الأربعين، والغفلة في هذه الآية مدح في حقه، أي غافلا عن الخلق لانشغاله بالحق وكمال فناءه بالحق، ولا يلتفت إلى المخلوقات إلا إذا أمره الخالق لتعليمهم وإرشادهم، ولا يلتفت إلا إذا سئل عن أمر من أخبار الأمم الماضية، فعند إذ، ينزل الوحي ليخبره بما مضى، وبأدق التفاصيل، كي يعجز الكفار، ويثبت نبوته ﷺ، ويقيم الحجة على من سأله.



قلت: وفي تفسير العارفين غاية الباحث عن الحقيقة التي تليق بمقامه ﷺ، فتراهم يُنزهون النبى ﷺ، وما نُسب إليه بشتى العبارات والإشارات، لأنهم عارفون بربهم وبمقام نبيهم ﷺ.

وكان من الأدب أن يتقى الزمخشري (رحمه الله) الألفاظ وهو يتحدث عن أعلم الخلق بالله ﷻ ولا يصفه (بالجهل) وحاشاه، والله تعالى أدب المسلمين بقوله ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] فهذا رسول الله ﷺ وليس أحد الناس حتى تصفه بهذه الكلمة.

أما الرد على الواحدى والشوكاني والسعدي رحمهم الله تعالى، فما كان النبى ﷺ غافلا عما سيكون قبل النبوة ولا بعدها، والأدلة في ذلك كثير، وسيأتى البحث الخاص بهذا الأمر في تفسير قوله تعالى ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ



وَلَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ [الشورى: ٥٢]، فهو الذي يعلم نبوته وآدم بين الروح والجسد، وهو الذي شق صدره الشريف، ورأى الملكين وسمع حديثهم، وهو الذي أخبره بحيرى الراهب أنه نبي هذه الأمة، وهو الذي كانت تسلم عليه الأحجار قبل البعثة، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»^(١) وغيرها من الأدلة كثير. أما الشيخ أبو الحسن السبتي، فجزاه الله خيرا أن صنف كتابا يدافع فيه عن الأنبياء بعنوان «تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء»، لكنه أراد أن ينزه النبي ﷺ عن الضلال والجهل، ولكنه وصفه بالغفلة، وهذا لا يصح.

وأخيرا نقول: إن النبي ﷺ قد علمه الله تعالى كل شيء، وهو الشاهد على كل شيء، ولم يغفل عن شيء، لكنه مستغرق في مشاهدة تجليات الحق، فلا يلتفت إلى الأكوان، إلا إذا سُئِلَ عن شيء، فتتوجه روحه الشريفة إلى ما تريد معرفته فتعلمه في اللحظة، ويكون التبليغ عن طريق الوحي؛ لأن هذه سنة الله تعالى مع خلقه أن يرسل إليهم الأنبياء، وبلغون ما نزل إليهم عن طريق الوحي. وإلا فروحانيته مطلعة على كل شيء، من العرش إلى الفرش، بل ما فوق العرش، وكل ما يطلق عليه عالم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].



سورة الإسراء

الآية السادسة والعشرون:

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: يقول تعالى ذكره: هذا الذي بينا لك يا محمد من الأخلاق الجميلة التي أمرناك بجميلها، ونهيناك عن قبيحها ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ يقول: من الحكمة التي أوحيناها إليك في كتابنا هذا. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَنُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ يقول: ولا تجعل مع الله شريكا في عبادتك، فتلقى في جهنم ملوما تلومك نفسك وعارفوك من الناس (مدحورا) يقول: مبعدا مقصيا في النار، ولكن أخلص العبادة لله الواحد القهار، فتنجو من عذابه^(١).



التفسير العرفاني:

قال ابن كثير رحمه الله تعالى وبعض المفسرين: «خاطب النبي ﷺ في هذه الآيات والمراد منه الأمة، فتلقى في جهنم ملوما مدحورا، مطرودا مبعدا من كل خير»^(٢).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٧ ص ٤٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٧٧، معالم التنزيل في تفسير القرآن ج ٣ ص ١٣٤.

قلت: وقد فصلنا فيما مضى أنَّ كل هذه الخطابات موجهة للأمة عن طريق النبي ﷺ؛ لأنه واسطة البلاغ، ولا يُتصور في حقه الكفر، والشرك، والشك، إلى غيرها من هذه الأمور.



الآية السابعة والعشرون:

﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلاً ۗ﴾ (٧٣) ﴿ولولا أن تبئنك لقد كدت تركن إلیهم شيئاً قليلاً ۗ﴾ (٧٤) ﴿إذا لأذقنك ضعف الحيوة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ۗ﴾ (٧٥) [الإسراء: ٧٣-٧٥].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى وبعض المفسرين: «عن قتادة ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْنَنَكَ﴾ ذكر لنا أنَّ قريشا خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح، يكلمونه، ويفخمونه، ويسودونه، ويقاربونه، وكان في قولهم أن قالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيدنا وابن سيدنا، فما زالوا يكلمونه حتى كاد أن يقارفهم، ثم منعه الله وعصمه من ذلك، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْنَنَكَ﴾ لقد كدت تركن إلیهم شيئاً قليلاً». وعن مجاهد قال: قالوا له: ائت آلهتنا فأمسسها، فذلك قوله: ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾. قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْنَنَكَ﴾ يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركون من الفتنة ﴿لَقَدْ كَدْتَ تَرَكْنَ إلیهم شيئاً قَلِيلاً﴾ يقول: لقد كدت تميل إلیهم، وتطمئن شيئاً



قليلا، وذلك ما كان ﷺ هم به من أن يفعل بعض الذي كانوا سألوه فعله. القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِذَا لَازَقْتَكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾. يقول تعالى ذكره: لو ركنت إلى هؤلاء المشركين يا محمد شيئا قليلا، فيما سألوك، إذن لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات. وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك عن ابن عباس قوله: ﴿إِذَا لَازَقْتَكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ يعني ضعف عذاب الدنيا والآخرة^(١).



قال الثعلبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «فقال سعيد بن جبیر: كان النبي ﷺ يستلم الحجر الأسود فممنعته قريش، وقالوا: لا ندعك حتى تلم بأهتنا، فحدث نفسه، وقال: «ما عليّ أن ألم بها، والله يعلم إني لها كاره بعد أن يدعونني أستلم الحجر»، فأنزل الله عز وجل هذه الآية»^(٢).



قال ابن حزم الأندلسي الظاهري رحمه الله تعالى: وقال تعالى ﴿وَلَوْلَا أَنْ نَبْنِيَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ فنص تعالى على أنه لولا أن ثبت نبيه ﷺ بالتوفيق، لركن إليهم. فإنما يثبت رسول الله ﷺ حين ثبته الله عز وجل، لا قبل ذلك. ولو لم يعطه التثبيت وخذله، لركن إليهم وضل، واستحق العذاب

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٧ ص ٥٠٧، بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٣٢٣.

(٢) تفسير الثعلبي المسمى الكشف والبيان عن تفسير القرآن ج ٦ ص ١١٧.

على ذلك ضعف الحياة وضعف الممات. فتبا لكل مخذول يظن في نفسه الخسيسة، أنه مستغن عما افتقر إليه محمد ﷺ من توفيق الله وتبتيته، وإنه قد استوفى من الهدى ما لا مزيد عليه، وإنه ليس عند ربه أفضل مما أعطاه بعد ولا أكثر^(١).



قلت: حاشا لرسول الله ﷺ أن يهمل بما لا يرضي الله ﷻ، وأن يوافق المشركين إلى ما يلتمسوه منه من ذكر آلهتهم بخير، وغيرها من الأمور التي فيها تنازل عن حق الله تعالى، وسنين أقوال المفسرين بما يليق بمقامه ﷺ.



التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل»^(٢).



قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «ظاهر الخطاب للنبي ﷺ وباطنه أخبار عن ثقيف. والمعنى: أي كادوا يخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم، فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً، كما تقول لرجل: كدت تقتل نفسك، أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت، ذكره المهدوي. وقيل ما كان منه هم بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضل الله عليك، لكان منك ميلٌ إلى موافقتهم، ولكن تم فضل الله

(١) الفصل في الملل والنحل ج ٣ ص ٢٤.

(٢) التفسير الكبير ج ٢٣ ص ٢٣٧.

عليك، فلم تفعل. ذكره القشيري. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريف للأمة؛ لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه»^(١).



قال ابن جزري رحمه الله تعالى في تفسيره: «لولا تدل على امتناع شيء لوجود غيره، فدلّت هنا على امتناع مقارنة النبي ﷺ الركون إليهم، لأجل تثبيت الله له وعصمته، وكدت تقتضي نفي الركون، لأن معنى كاد فلان يفعل كذا، أي أنه لم يفعله، فانتفى الركون إليهم ومقاربتة، فليس في ذلك نقص من جانب النبي ﷺ، لأن التثبيت منعه من مقارنة الركون»^(٢).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «ولولا أن ثبتناك على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك، لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً من الركون، الذي هو أدنى ميل، أي لولا أن عصمتناك، لقاربت أن تميل إليهم لقوة خدعهم، وشدة احتيالهم، لكن عصمتنا منعتك من المقاربة. وهو صريح في أنه - عليه الصلاة والسلام - ما هم بإجابتهم، مع قوة الداعي إليها، ولا قارب ذلك. وهو دليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه، قاله البيضاوي. وفيه رد على ابن عطية، حيث قال: قيل إنه هم بموافقتهم، لكن كان ذلك خطرة، والصواب عدم ذلك؛ لأن التثبيت والعصمة مانع من ذلك».

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٣٠٠.

(٢) تفسير ابن جزري المسمى التسهيل لعلوم التنزيل ج ١ ص ٤٥٢.



وقد أجاد القشيري رحمه الله تعالى في ذلك، ونصه: «ضربنا عليك سرادقات العصمة، وأويناك في كنف الرعاية، وحفظناك عن خطر اتباع هواك، فالزلزل منك محال، والافتراء في نعتك غير موهوم، ولو جنحت لحظةً إلى جانب الخلاف لتضاعفت عليك شدائد البلاء، لكمال قدرك وعلو شأنك. فإن كل من هو أعلى درجةً فذنبه - لو حصل - أشد تأثيراً»^(١).



قلت: وفي كلام المفسرين أعلاه ما يشفي غليل المحبين لسيدنا محمد ﷺ، لما فيه من التنزيه والرد على من اتهم النبي ﷺ بالركون، ومطاوعة المشركين فيما طلبوه منه. فما ركن النبي ﷺ ولو الشيء القليل، وما فتنوه، وما وجدوا عليه سبيلاً، لأنه ثابت بتثبوت الله ﷻ: له، وعصمته وحفظه من كل شيء.



(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٢٢١.

سورة الكهف

الآية الثامنة والعشرون:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يَريُدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: يا محمد ﴿وَأَصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿نَفْسَكَ مَعَ﴾ أصحابك ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ﴾ بذكرهم إياه بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والدعاء، والأعمال الصالحة، من الصلوات المفروضة وغيرها ﴿يَريُدُونَ﴾ بفعلهم ذلك ﴿وَجْهَهُ﴾ لا يريدون عرضاً من عرض الدنيا^(١).



قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «والمراد نهي الرسول ﷺ أن يزدري بفقراء المؤمنين، وتعلو عينه عن رثاة زعيم، طموحا إلى طراوة زي الأغنياء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حال من الكاف في المشهورة ومن المستكن في الفعل في غيرها. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ من جعلنا قلبه غافلا ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ كأمية بن خلف في دعائك إلى طرد الفقراء عن مجلسك لصناديد قريش»^(٢).

(١) تفسير الطبري ج ١٥ ص ٥.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٣ ص ٢٧٩.



قال مأمون هموش رحمه الله تعالى في تفسيره: «في هذه الآيات أمر الله تعالى رسوله ﷺ بتلاوة كتابه، وإحكام الصلاة به، فإنه لا مُغَيِّرَ لما أُوْعِدَ بكلماته، ولا ملجأَ منه إلا إليه. وكذلك أمره بالصبر في الحياة مع المؤمنين المستضعفين، الذين يرجون رحمته تعالى، ويخشون عذابه، وعدم الافتتان بأهل الزينة والمتاع ممن أتبع هواه، وكان أمره باطلاً»^(١).



قلت: في التفسير أعلاه إساءة واضحة لحضرة النبي ﷺ ومقامه العالي، فالخطاب موجه للنبي وهو غير مقصود به، وحاشاه ﷺ أن يفتتن بأهل الزينة والمتاع، وحاشاه أن يطبع الغافلين، وهو أعلم الخلق لله. وسنين فيما يلي التفسير الذي يليق بمقامه ﷺ.

التفسير العرفاني:

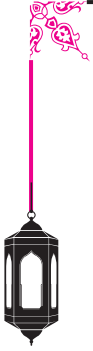
قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي تنزين بمَجَالَسَةٍ هَوُلاءِ الرُّؤَسَاءِ، الَّذِينَ اقْتَرَحُوا إِبْعَادَ الْفُقَرَاءِ مِنْ مَجْلِسِكَ، وَلَمْ يُرِدِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ نَهَاَهُ عَنْ أَنْ يَفْعَلَهُ»^(٢).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: قال: «﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ولم يقل «قلبك»، لأن قلبه كان مع الحق، فأمره بصحبتهم جهرا بجهر، واستخلص قلبه

(١) التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون ج ٤ ص ٥٧٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ٣٩٠.



لنفسه سرا بسر. ويقال ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فكشف قناعهم، وأظهر صفتهم، وشهرهم بعد ما كان قد سترهم، وأنشدوا:

كشفنا لك القناع وقلنا نعم وهتكنا لك المستورا

ويقال: لما زالت التهم، سلمت لهم هذه الإرادة، وتحرروا عن إرادة كل مخلوق، وعن محبة كل مخلوق. ويقال: لما تقاصر لسانهم عن سؤال هذه الجملة، مراعاة منهم لهية الرسول ﷺ، وحرمة باب الحق - سبحانه - أمره بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وبقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لا ترفع بصرك عنهم، ولا تقلع عنهم نظرك. ويقال لما نظروا بقلوبهم إلى الله، أمر رسوله - عليه السلام - ألا يرفع بصره عنهم، وهذا جزاء في العاجل. والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم، ذريعة لهم إلينا، وخلفا عما يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا، فلا تقطع اليوم عنهم نظرك، فإننا لا نمنع غدا نظرهم عنا^(١).



قال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في تفسيره: «فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل، فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾. ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائع، قد فرط فيه. وفسر بالإسراف، أي قد أفرط بالإهلاك. وفسر بالخلاف للحق. وكلها أقوال متقاربة. والمقصود: أن الله سبحانه وتعالى

(١) تفسير القشيري ج ٢ ص ٣٩١.

نهي عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه، وقدوته، ومتبوعه. فإن وجده كذلك، فليبعد منه. وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره، فليستمسك بغرزه»^(١).

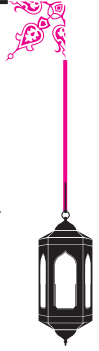


قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: أي لا تأخذكم في الله لومة لائم. وكان سبب هذه الآية، أن زعماء الكفار من المشركين، كالأقرع بن حابس وأمثاله، قالوا: ما يمنعنا من مجالسة محمد إلا مجالسته هؤلاء الأعبد، يريدون بلائاً وخباب بن الأرت وغيرهما، فكبر عليهم أن يجمعهم والأعبد مجلس واحد، فأنزل الله هذه الآية، غيرة لمقام العبودية والفقر، أن يستهضم بصفة عز وتأله ظهر في غير محله. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا جالس هؤلاء الأعبد وأمثالهم، لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يقومون من عنده، ولو أطالوا الجلوس. وكان يقول ﷺ: إن الله أمرني أن أحبس نفسي معهم، فكان إذا أطالوا الجلوس معه يشير إليهم بعض الصحابة، مثل أبي بكر وغيره أن يقوموا حتى يتسرح رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض شؤونه. فهذا من غيرة الله لعبده الفقير المنكسر، وهو من أعظم دليل على شرف العبودية، والإقامة عليها، وهو المقام الذي ندعو له الناس. واعلم وفقك الله تعالى، أن الله سبحانه يغار لعبده المنكسر الفقير، أشد مما يغار لنفسه»^(٢).



(١) التفسير القيم ج ١ ص ٣٦٥.

(٢) الفتوحات المكية ج ٦ ص ٥٢٩.



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: وفي الآية حثٌ للمسلم على صحبة الفقراء والمكث معهم، وفي صحبتهم أسرار كبيرة، ومواهب غزيرة، إذ بصحبتهم يكتسب الفقير آداب الطريق، وبصحبتهم يقع التهذيب والتأديب، حتى يتأهل لحضرة التقريب، وبصحبتهم تدوم حياة الطريق، ويصل العبد إلى معالم التحقيق، وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضي الله عنه:

مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا صُحْبَةُ الْفُقَرَا هُمُ السَّلَاطِينُ وَالسَّادَاتُ وَالْأُمَرَا
فَاصْحَبْهُمْ وَتَأَدَّبْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَخَلْ حَظَّكَ مَهْمَا قَدَمُوكَ وَرَا^(١)

قلت: في كلام العارفين الترياق الشافي في الرد على من لم يوقر المقام المحمدي، ونسب له جواز الهم بموافقة المشركين، ومتابعة أهل المتاع والغفلة، وأنه ﷺ هم بطرد الضعفاء والفقراء من مجلسه. وقد توسعنا في الرد في الآية الحادية عشر فراجعها، وانظر إلى كلام الذين تعلقوا بالحبيب الأعظم، فأمدهم بالعلوم والفهوم، فبينوا شيئاً من حقيقته ومقامه في هذه الآية، وبينوا ما للفقراء من الأولياء والأصفياء، من منزلة عظيمة عند خالقهم، وهم المستورون وأهل الخفاء، فأراد الله تعالى أن يظهر شأنهم، ليتعرف عليهم من يريد الوصول إليه ﷺ، فيصحبهم، ويتعلم منهم آداب الحضرة. نضيف إلى ما ذكرناه من أقوال العارفين بالله في تفسير هذه الآية قولاً آخر للعارف بالله صدر الدين البقلي، وفيه بيان لعلو الحقيقة المحمدية وعلو مقام الفقراء العارفين بالله.



(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٢٦٤.



قال صدر الدين البقلي قدس الله سره في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ هذا تسلية لنبيه ﷺ، فإنه كان بقلبه في الملكوت، وبروحه في الجبروت، وبسره في مشاهدة القدم، وبعقله في أنوار غيبه، مشتاقاً إلى الحق، لا يصبر في الدنيا بأن يكون مع الخلق بالصورة، وكان يريد أن يطير إلى منازل قاب قوسين كل وقت. لما رأى بين القوسين بغير الكونين، مشاهدة الجلال والجمال. فقال سبحانه: أحبس نفسك مع هؤلاء الفقراء العاشقين بجمالي المشتاقين إلى جلالي، الذين في جميع الأوقات يسألون عن لقاء وجهي الكريم، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة إلى عالم وصلتي، حتى يكونوا متسللين بصحبتك عن مقام الوصال. فإن رؤيتك لهم رؤية ذلك الجمال، فتكون معهم موافقاً، وسرك وعقلك وروحك وقلبك عندي. فإنها مواضع تجلي كبريائي، وأسرار عزتي، ولا يطيق الكون أن يكون في جوار قلبك، فإن قلبك معادن أسرار العليين، ومزار الكروبيين، وهو عرش تجلي القدم، ومعادن عيون الكرم، ولا يليق به مصاحبة أهل العدم. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ فإنهم ينظرون بعينك إليّ إذا كانت عينك في طلب مشاهدتي في مرآة أفعالي من الخلق والخلقة. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ بأن يواسيك برؤية الأكوان والحدثان؛ لزيادة العرفان، فإن الوسائط في الحقيقة تورث الغفلة عنا، وهو سبحانه شغل قلوب الخلق بخلقه عن خلقه، وحجبهم برؤية الخلقة عن مشاهدة الحقيقة. فمن غافل سبب غفلته الجنة، ومن غافل سبب غفلته خوف النار، ومن غافل سبب غفلته استكبار العبودية، ومن غافل سبب غفلته رؤية الأعواض، ومن غافل سبب غفلته رؤية الكرامات، ومن غافل سبب غفلته المجاهدات، ومن



غافل سبب غفلته العيش الهنيء في الدنيا، وأدق الغفلة السكون بها وجد من الحق، والوقوف مع مقام الحظ، فالكل محجوبون عن مشاهدة الأزل صرفاً: أي لا تكن مثل هؤلاء الواقفين على مقاماتهم، المحجوبين بحظوظهم من أحوالهم.

قال ذو النون: «أمر الله تعالى الأغنياء بمخالطة الفقراء، والصبر معهم، والاستئناس بهم». وقال عمرو المكي: «صحبة الصالحين والفقراء الصادقين عيش أهل الجنة، يتقلب من الرضا إلى اليقين، ومن اليقين إلى الرضا»^(١).



(١) عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٢ ص ٤٢١.

سورة الحج

الآية التاسعة والعشرون:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢]

التفسير الأولي:

قال مقاتل رحمه الله تعالى وبعض المفسرين: وذلك أن النبي ﷺ كان يقرأ في الصلاة عند مقام إبراهيم ﷺ فنعس، فقال: أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرائق العلى، عندها الشفاعة ترتجى. فلما سمع كفار مكة أن لأهتهم شفاعة فرحوا، ثم رجع النبي ﷺ فقال: اللات والعزى

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذْ أَسْمَتُ ذِيئِزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم: ١٩-٢٢]. فذلك قوله - سبحانه -: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ على لسان محمد ﷺ، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ من الباطل الذي يلقي الشيطان على لسان محمد ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١).



قال يحيى بن سلام رحمه الله تعالى في تفسيره: «وزاد على رواية مقاتل والزجاج فقال: فلما انصرف قالوا: قد ذكر محمد أهتنا. فقال النبي: والله ما كذلك

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٣ ص ١٣٢، معاني القرآن واعرابه للزجاج ٣ ص ٤٣٤.

نزلت علي. فنزل عليه جبريل، فأخبره النبي، فقال: والله ما هكذا علمتك، وما جئت بها هكذا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾^(١).



قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «أتى جبرائيل النبي ﷺ، فقال: يا محمد، ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله، وقلت ما لم يقل لك، فحزن رسول الله ﷺ عند ذلك، وخاف من الله خوفا كبيرا، فأنزل الله تبارك وتعالى عليه، وكان به رحيمًا، يعزيه ويخفض عليه الأمر، ويخبره أنه لم يكن قبله رسول ولا نبي، تمنى كما تمنى، ولا حب كما أحب، إلا والشيطان قد ألقى في أمنيته، كما ألقى على لسانه ﷺ، فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته، أي فأنت كبعض الأنبياء والرسل، فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ الآية، فأذهب الله عن نبيه الحزن، وأمنه من الذي كان يخاف، ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آهتهم، أنها الغرائق العلى، وأن شفاعتهن ترضى. يقول الله حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، إلى قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(٢٦) [النجم: ٢٦]، أي فكيف تمنع شفاعته آهتكم عنده. فلما جاءه من الله ما نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه، قالت قريش: ندم محمد على ما كان من منزلة آهتكم عند الله، فغير ذلك وجاء بغيره، وكان ذلك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسوله قد وقعا في فم كل

(١) تفسير يحيى بن سلام ج ١ ص ٢٨٤.



مشرك، فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه. وقال آخرون: بل معنى ذلك: إذا قرأ وتلا أو حدث. عن ابن عباس، قوله: ﴿إِذَا تَمَنَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه^(١).



قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في فتاويه: «وإذا كان التمني لا بد أن يدخل فيه القول، ففيه قولان: الأول، أن الإلقاء هو في سمع المستمعين، ولم يتكلم به الرسول. وهذا قول من تأول الآية بمنع جواز الإلقاء في كلامه. الثاني، - وهو الذي عليه عامة السلف ومن اتبعهم - أن الإلقاء في نفس التلاوة، كما دلت عليه الآية وسياقها من غير وجه، كما وردت به الآثار المتعددة، ولا محذور في ذلك، إلا إذا أقر عليه. فأما إذا نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته، فلا محذور في ذلك، وليس هو خطأ وغلط في تبليغ الرسالة، إلا إذا أقر عليه^(٢)».



قلت: ولا أعلم أي عصمة بقت للنبي ﷺ، وأي حرمة بقت للشريعة، وأي حفظ بقي لكتاب الله ﷻ: الذي تكفل الله في حفظه، إذ جوز هؤلاء المفسرون إلقاء الشيطان في كلام النبي ﷺ، وابن تيمية لا يرتضي التأويل، ويرجح الإلقاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسنرد عليهم، وندحض هذا القول الخطير.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٨ ص ٦٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج ١٥ ص ١٨٦.

التفسير العرفاني:

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول.

أما القرآن فوجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) ﴿لَا خِزْيَ لَنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٤٦) [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وثانيها: قوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

وثالثها: قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٤) [النجم: ٣-٤]. فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرائق العلى، لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال، وذلك لا يقوله مسلم.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِافْتَرَىٰ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣) [الإسراء: ٧٣] وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الأمر كذلك، مع أنه لم يحصل.

وخامسها: قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) [الإسراء: ٧٤]. وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتهاء غيره، فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل.

وسادسها: قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وسابعها: قوله: ﴿سُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦].

وأما السنة: فهي ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة، فقال: هذا وضع من الزنادقة، وصنف فيه كتابا. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسن البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. وأيضا فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي عليه السلام قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن، وليس فيه حديث الغرائيق. وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرائيق.

وأما المعقول فمن وجوه:

أحدها: أن من جَوَّز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان.

وثانيها: أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي، ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنا أذى المشركين له، حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه. وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلا، أو في أوقات خلوة. وذلك يبطل قولهم.

وثالثها: أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقرؤا بهذا القدر من القراءة، دون أن يقفوا على حقيقة الأمر. فكيف أجمعوا على أنه عظم آهتهم، حتى خروا سجدا مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم.



ورابعها: قوله: ﴿فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾^(١) وذلك؛ لأن أحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها. فإذا أراد الله إحكام الآيات، لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى.

وخامسها: وهو أقوى الوجوه، أنا لو جوزنا ذلك، ارتفع الأمان عن شرعه، وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك، ويبطل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي، وبين الزيادة فيه. فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال، أن هذه القصة موضوعة، أكثر ما في الباب أن جمعا من المفسرين ذكروها، لكنهم ما بلغوا حد التواتر، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة^(١).



قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في «الشفاء»: «ما روي من أن النبي ﷺ لما قرأ والنجم، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ﴾^(١٩) وَمَوَدَّةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ^(٢٠)» [النجم: ١٩-٢٠] قال: تلك الغرائيق العلا، وإن شفاعتها لترتجى، و يروى: ترتضى. وفي رواية: إن شفاعتها لترتجى، وإنما لمع الغرائيق العلا. وفي أخرى: والغرائقة العلا، تلك للشفاعة ترتجى. فلما ختم السورة سجد، وسجد معه المسلمون والكفار، لما سمعوه أثنى على آلهتهم. وما وقع في بعض الروايات، أن

(١) التفسير الكبير ج ٢٣ ص ٢٣٧.



الشیطان ألقاها على لسانه، وأن النبي ﷺ كان تمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه. وفي رواية أخرى: إلا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه، وذكر هذه القصة، وأن جبريل عليه السلام جاء، فعرض عليه السورة. فلما بلغ الكلمتين، قال له: ما جئتك بهاتين. فحزن لذلك النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى تسلياً له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢﴾.

أحدهما: في توهين أصله، والثاني على تسليمه. أما المأخذ الأول، فيكفيك أن هذا حديث لم يخرج به أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أُولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون، المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم^(١).



قال الشيخ عبد العزيز الدباغ رحمه الله تعالى في «الإبريز»: «عن الشيخ أحمد بن المبارك قال، وسألته رضي الله عنه أي (العارف بالله الشيخ عبد العزيز الدباغ) عن مسألة الغرائق، وقلت له: هل الصواب مع عياض ومن تبعه في نفيها، أو مع الحافظ ابن حجر فإنه أثبتها؟ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

فقال رضي الله عنه: الصواب في القصة مع ابن العربي وعياض، ومن وافقهما، لا مع ابن حجر، وقط ما وقع للنبي ﷺ شيء من مسألة الغرائق. وإني

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج ١ ص ٣١٠.



لأعجب أحيانا من كلام بعض العلماء، كهذا الكلام الصادر من ابن حجر ومن وافقه، فإنه لو وقع شيء من ذلك للنبي ﷺ لارتفعت الثقة بالشرعية، وبطل حكم العصمة، وصار الرسول كغيره من آحاد الناس، حيث كان للشيطان سلاطة عليه، وعلى كلامه، حتى يزيد فيه ما لا يريده الرسول ﷺ، ولا يحبه ولا يرضاه. فأى ثقة تبقى في الرسالة مع هذا الأمر العظيم؟. ولا يغني في الجواب أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان، ويحكم آياته، لاحتمال أن يكون هذا الكلام من الشيطان أيضا، لأنه كما جاز أن يتسلط على الوحي في مسألة الغرائق بالزيادة، كذلك يجوز أن يتسلط على الوحي بزيادة هذه الآية برمتها فيه. وحينئذ فيتطرق الشك إلى جميع آيات القرآن. والواجب على المؤمن الإعراض عن مثل هذه الأحاديث الموجبة لمثل هذا الريب في الدين، وأن يضربوا بوجهها عرض الحائط، وأن يعتقدوا في الرسول ﷺ ما يجب له من كمال العصمة، وارتفاع درجته عليه الصلاة والسلام إلى غاية ليس فوقها غاية. ثم على ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ يقتضي أن يكون للشيطان تسلط على وحي كل رسول رسول، وكل نبي نبي، زيادة على تسليطه على القرآن العزيز، لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ فاقترضت الآية على تفسيرهم أن هذه عادة الشيطان مع أنبياء الله وصفوته من خلقه، ولا ريب في بطلان ذلك.

ثم قلت للشيخ رحمه الله ونفعنا به: ما الصحيح عندكم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ وما هو نور الآية الذي تشير إليه؟ فقال رضي الله عنه: نورها الذي تشير إليه هو أن الله تعالى ما أرسل من رسول، ولا بعث نبياً من الأنبياء، إلى



أمة من الأمم، إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته، ويحبه لهم، ويرغب فيه، ويحرص عليه غاية الحرص، ويعالجهم عليه أشد المعالجة. ومن جملتهم في ذلك نبينا ﷺ الذي قال له الرب سبحانه وتعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخْعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَائِرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى. ثم الأمة تختلف كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيهِم مِّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوسواس، القاذحة له في الرسالة الموجبة لكفره. وكذا المؤمن أيضا لا يخلو من وساويس؛ لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب، وإن كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة، وبحسب المتعلقات.

إذا تقرر هذا فمعنى (تَمَنَّى) أنه يتمنى الإيمان لأمته، ويجب لهم الخير، والرشد، والصلاح، والنجاح. فهذه أمنية كل رسول ونبي. وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يليق به في قلوب أمة الدعوى من الوسواويس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة، ويبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به. فخرج من هذا أن الوسواويس تلقى أولا في قلوب الفريقين معا، غير أنها لا تدوم على المؤمنين، وتدوم على الكافرين»^(١).



(١) الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز ج ١ ص ٣٢٢-٣٢٥.



قال الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى في «المواقف»: «أنه تعالى ما أرسل رسولا مستقلا بالدعوة، ولا نبيا داعيا إلى اتباع شريعة من قبله، إلا ويحققه بصفة الكمال والرأفة الشاملة، فيتمنى ذلك، ويقول بلسانه لا بقلبه، لأن التمني ليس من أعمال القلوب، فيتلفظ بقوله: ليت الحق تعالى يهدي جميع من أمرني بدعوتهم اليه. وهذا التمني قهري طبيعي في كل رسول ونبى، كسائر الأمور الطبيعية، لما يغلب عليهم صلوات الله عليهم وسلامه، من إرادة الخير لعباد الله وحب نجاتهم... ولما صدر منهم هذا التمني، أدبهم الحق تعالى ونبّههم على ما فاتهم في هذا التمني بتسليط الشيطان وإلقائه تكذيبهم في نفوس جميع المتمنين تصديقهم وهدايتهم»^(١).



قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾» وسلط أتباعه من البشر يقولون في القرآن: سحر، وشعر، وإفك، وأساطير الأولين: فدور الشيطان - إذن - لا أن يدخل في كلام الله ما ليس منه. فهذا أمر لا يقدر عليه، ولا يمكنه الله من كتابه أبدا، إنما يمكن أن يلقي في طريق القرآن وفهمه، والتأثر به العقبات، والعراقيل التي تصد الناس عن فهمه والتأثر به، وتفسد القرآن في نظر من يريد أن يؤمن به. لكن، هل محاولة تشويه القرآن هذه، وصد الناس عنه، جاءت بنتيجة، وصرفت الناس فعلا عن كتاب الله؟! لقد خيب الله سعيه، ولم تقف محاولاته عقبة في سبيل الإيمان بالقرآن والتأثر به؛ لأن القرآن وجد قلوبا وآذانا استمعت وتأملت، فأمنت وانهارت لجلاله

(١) المواقف ج ١ ص ٤٦٢، الموقف الثاني وأربعون بعد المئتين.

وعظمته، وخضعت لأسلوبه وبلاغته، فآمنوا به واحدا بعد الآخر. ثم يقول تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٢) يعني ألغى وأبطل ما ألقاه الشيطان من الأباطيل، والعقبات التي أراد بها أن يصد الناس عن القرآن، وأحكم الله آياته، وأوضح أنها منه سبحانه^(١).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: إِنَّ المفسرين الذين اعتقدوا أن الشيطان ألقى بعض الكلمات مع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم لم يدعوا حرمة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا القول لا يقبله أقل المسلمين علما، أما أمانة الأنبياء والمرسلين فهي بلوغ الغاية القصوى في نيل رضا الحق عز وجل، وذلك من خلال تنفيذهم لما أمرهم الحق عز وجل به من هداية الخلق إلى الحق، ولأنهم تخلقوا بالرحمة والرفقة فهم يتمنون أن لا يخالفهم أحد حتى لا يكون مصيره إلى النار، ويتمنون الإسلام والإيمان لكل الناس حتى يدخلوا في جنات النعيم. فيأتي الشيطان ويوسوس للناس ويغويهم فيكفرون، وهذا هو إلقاء الشيطان. وكل هذا بقدر الله تعالى.

أما سبب سجود المشركين في تلك الحادثة، فذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يقرأ بسورة النجم، ووصل إلى قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدْ لِلَّهِ وَاعْبُدْ﴾ (٦٢) [النجم: ٦٢]، وسجد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون تبعاً له، سجد المشركون من شدة صولة وهيبة الخطاب الإلهي على قلوبهم، فسجدوا وهم لا يشعرون.

(١) تفسير الشعراوي ج ١٦ ص ٩٨٧٥.



قلت: فيما ذكرنا من أقوال هؤلاء العارفين الكفاية في الرد على من أساء للرسالة ولصاحبها، وعلى القائلين بجواز إلقاء الشيطان في قول النبي ﷺ. والحديث الذي استدلوا به حديث باطل مكذوب. والعجب من ابن تيمية كيف أورد أقوال أهل التفسير، ورجح الإلقاء في كلام النبي ﷺ، ومنع التأويل في الآية. فأين هو من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وأين هو من عصمة النبي ﷺ من الشيطان قال الله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٣٩] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [٤٠] قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴿٤٢﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

فقد عصم الله رسله عليهم السلام من الشيطان، وحفظ الله ﷻ كتابه من التحريف والضياع. فهؤلاء المفسرون يثبتون ما ينفيه الشيطان عن الأنبياء والمرسلين، تعالى الله ورسوله عما يصفون.



سورة الشعراء

الآية الثلاثون:

﴿فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (٢١٣)

[الشعراء: ٢١٣].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ:

﴿فَلَا نَدْعُ﴾ يا محمد ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي لا تعبد معه معبودا غيره ﴿فَتَكُونَ

مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ فينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين خالفوا أمرنا، وعبدوا غيرنا»^(١).



قال الواحدي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وذلك حين دعي إلى دين آبائه،

فقال الله: لا تعبد معه إلها آخر ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ قال ابن عباس: يحذر به

غيره، يقول: أنت أكرم الخلق علي، ولو اتخذت من دوني إلها لعذبتك»^(٢).



قال دروزة محمد رحمه الله تعالى في تفسيره: «تحتوي أوامر ربانية للنبي ﷺ في

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٤٠٤.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٣٦٤.

صدد دعوته وسيرته. فعليه أن يظل متمسكا بدعوته، وإخلاصه لله، وعدم إشراك أحد غيره معه في الدعاء، لئلا يكون في عداد المعذنين»^(١).



قال الصابوني رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب للرسول بطريق التهيج، لزيادة إخلاصه وتقواه»^(٢).



قلت: جانب المفسرون الصواب بنسبة الخطاب للنبي ﷺ، وقولهم هو المقصود بهذه الآية، وسنرد أقوالهم بأقوال المفسرين، الذين يوقرون المقام النبوي الشريف.

التفسير العرفاني:

قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به غيره، لأنه علم أن النبي ﷺ لا يتخذ إلها آخر، ثم قال ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ إن عبدت غيري، فتكون من الهالكين»^(٣).



قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وذلك في الحقيقة خطاب لغيره، لأن من شأن الحكيم، إذا أراد أن يؤكد خطاب الغير، أن

(١) التفسير الحديث ج ٣ ص ٢٦٨.

(٢) صفوة التفاسير ج ٢ ص ٣٦٥.

(٣) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٥٦٩.

يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود بذلك هم الأتباع، ولأنه تعالى أراد أن يتبعه ما يليق بذلك، فلهذه العلة أفرده بالمخاطبة»^(١).



قال أبو حيان رحمه الله تعالى في تفسيره: «والخطاب في الحقيقة للسامع، لأنه تعالى قد علم أن ذلك لا يمكن أن يكون من الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال المفسرون: المعنى: قل يا محمد لمن كفر: لا تدع مع الله إلها آخر»^(٢).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: الخطاب للمشركين بواسطة النبي ﷺ، فالنبي غير مقصود بهذا الخطاب؛ لأنه لم يشرك مع الله إلها آخر حتى قبل البعثة.



قلت: وهذه التفاسير تليق بمقامه ﷺ، وكما قلنا في جميع الآيات المشابهة لهذه الآية الخطاب للأمة بواسطة النبي ﷺ، لأن الله لا يكلم الناس إلا بواسطة النبي ﷺ.



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٤ ص ٥٣٥.

(٢) البحر المحيط في التفسير ج ٨ ص ١٩٦.

سورة القصص

الآية الحادية والثلاثون:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]

نرد في هذه الآية على قسمين من العلماء:

الأول اتخذ من الآية دليلا للانتقاص من المقام المحمدي، ووصفه بالبشرية المعتادة، وتكفير من يوقر النبي ﷺ. والثاني حكموا بهلاك أبي طالب على الكفر وخلوده في النار.

القسم الأول

التفسير الأولي:

قال أبو مارية القرشي في شرحه على كتاب التوحيد: «باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. أراد المصنف رحمه الله الرد على عباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكرب، وهداية القلوب، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية، ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت على سبيل الكرامة. وقد وقفت على رسالة لرجل منهم في ذلك، ويحتجون على ذلك بقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٣٤]

[الزمر: ٣٤] يقول قائلهم [البوصيري] في حق رسول الله ﷺ :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية، ومن نزلت فيه، تبين له بطلان قولهم، وفساد شرهم^(١).



قلت: لا أعلم كيف يستدل هؤلاء القوم على تكفير المسلمين، وتبديعهم في مثل هذه الآيات، وسنذكر التفسير الصحيح للآية، ونرد على القرشي في ادعاءاته، وافتراءاته الباطلة.

التفسير العرفاني:

قال أبو حيان الاندلسي رحمه الله تعالى في تفسيره: «**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**» إنما أنت منذر. وفي ذلك تسلية له ﷺ، وتخفيف ما كان يجده من عنادهم، فكأنه قيل: لست مسؤولاً عنهم، فلا يحزنك كفرهم. وفي ذلك دليل على أن أحدا لا يسأل عن ذنب أحد، ولا تزر وازرة وزر أخرى^(٢).



قال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره: «بعد أن أبان فيما سلف، أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمنوا به، وجاءوا إليه زرافات ووحدانا من كل فج عميق،

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ج ١ ص ٢٤٧.

(٢) البحر المحيط في التفسير ج ١ ص ٥٨٩.



وجابوا الفيافي، وقطعوا البحار للإيمان به، بعد أن سمعوا أخباره، وترامت لهم فضائله وشيئله، وقد كان في هذا مقنع لقومه أن يؤمنوا به، وأن تحدثه نفسه الشريفة بالطمع في إيمانهم، ودخول الهدى في قلوبهم، والانتفاع بما آتاه الله من العرفان، فتكون لهم به السعادة في الدنيا والآخرة - أردف ذلك الآية الأولى تسليية له ﷺ، إذ لم ينجع في قومه الذين يحبهم، ويحرص عليهم أشد الحرص - إنذاره وإبلاغه، فيقبلوا ما جاء به، بل أصروا على ما هم عليه، وقالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى، فكانوا على عكس قوم هم أجنب عنه، آمنوا بما جاء به، وقالوا إنه الحق من ربنا^(١).



قال الإمام الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، حيث نفى الحق سبحانه عن الرسول ﷺ الهداية في الأولى، وأثبتها له في الثانية. نلاحظ أن الحدث هنا واحد وهو الهداية، والمتحدث عنه واحد هو الرسول ﷺ، فكيف يثبت حدثاً واحداً لمحدث واحد مرة، وينفيه عنه مرة؟! لا بد أن تكون الجهة منفكة. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾ أي لا تستطيع أن تدخل الإيمان في قلب من تحب، ولكن تدل وترشد فقط. أما هداية الإيمان فبيد الله تعالى، يهدي إليه من عنده استعداد للإيمان، ويصرف عنها من أعرض عنه ورفضه. وكأن الله تعالى في إرادة عبده، من أحب شيئاً أعطاه إياه، ويسره له، وبذلك هدى المؤمن للإيمان، وختم على قلب الكافر بالكفر^(٢).



(١) تفسير المراغي ج ٢٠ ص ٧٣.

(٢) تفسير الشعراوي ج ١٣ ص ٧٩٢١.



قلت: وقد تبين من التفسيرات السابقة سبب نزول الآية ومعناها الصحيح، ونرد على القرشي وأمثاله، ممن اتخذوا من هذه الآيات وغيرها من آيات العتاب، ذريعة لمهاجمة المقام المحمدي، والتنقيص منه، وخابوا وخسروا أن يصلوا إلى شيء مما يرمون إليه. ونقول في تفسير الآية الكريمة: إنك يا أفضل الرسل لا تهدي من أحببت؛ لأنك مُرسل رحمة للعالمين، وأنت صاحب الخلق العظيم، ولا مكان للكراهية والبغض في قلبك الطاهر الشريف، وجعلك الله **رَبِّكَ**: مددا للأكران والعالمين بتحقيق قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء: ١٠٧]. ومن كانت هذه صفاته، فهو يحب الهداية لجميع العالمين، ويكره أن يدخل أحد من العالمين النار. وبما أن الله **رَبِّكَ** قد قدر في سابق علمه الأزلي، أن فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، فخطبه قائلاً: إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء على يدك، فيتحقق قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) وهو أعلم بالمهتدين من قبل أن يخلقهم، فأرح قلبك يا حبيبي، ولا تحزن على كفرهم. فنفي خلق الهداية في قلوب العباد، لأن الله هو الخالق، وأثبت له هداية الإرشاد والدلالة.



الرد على تكفيرهم للأمة:

أما قول القرشي: «أراد المصنف رحمه الله الرد على عباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين، أنهم ينفعون ويضرون، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، وهداية القلوب، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية» فمردود وباطل؛ لأن المسلمين لا يعبدون إلا الله، ولا يُشركون معه شيئاً. وتناول



هؤلاء، وتهاونوا في إطلاق لفظ الكفر على أهل القبلة والتوحيد. وهؤلاء يدعون انتسابهم للسلف الصالح، وكفروا الأمة، وبدعوا زوراً وبهتاناً. ولو اطلع على ما كان عليه السلف، لما سلکوا هذا المسلك. فهذا الإمام الذهبي يروي ما كان عليه السلف في حبهم وتبركهم بقبر النبي ﷺ، فيقول: «وَقَدْ سُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ مَسِّ الْقَبْرِ النَّبَوِيِّ وَتَقْيِيلِهِ، فَلَمْ يَرِ بِذَلِكَ بَأْسًا، رَوَاهُ عَنْهُ وَلَدُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ. فَإِنْ قِيلَ: فَهَلَا فَعَلَ ذَلِكَ الصَّحَابَةُ؟ قِيلَ: لَأَنَّهُمْ عَايَنُوهُ حَيًّا، وَتَمَلَّوْا بِهِ، وَقَبَّلُوا يَدَهُ، وَكَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وُضُوئِهِ، وَاقْتَسَمُوا شَعْرَهُ الْمُطَهَّرَ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ. وَكَانَ إِذَا تَنَحَّمَ لَا تَكَادُ نُحَامَتُهُ تَقَعُ إِلَّا فِي يَدِ رَجُلٍ، فَيَذَلُّكَ بِهَا وَجْهَهُ. وَنَحْنُ فَلَمَّا لَمْ يَصِحْ لَنَا مِثْلُ هَذَا النَّصِيبِ الْأَوْفَرِ، تَرَامِينَا عَلَى قَبْرِهِ بِالْإِلْتِرَامِ وَالتَّبَجِيلِ، وَالِاسْتِلَامِ وَالتَّقْيِيلِ، إِلَّا تَرَى كَيْفَ فَعَلَ ثَابِتُ الْبُنَانِيِّ؟ كَانَ يَقْبَلُ يَدَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَيَضَعُهَا عَلَى وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: يَدُ مَسَّتْ يَدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا يُحَرِّكُهَا مِنَ الْمُسْلِمِ إِلَّا فَرَطُ حُبِّهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ هُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُحِبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَشَدَّ مِنْ حُبِّهِ لِنَفْسِهِ، وَلَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَمِنْ أَمْوَالِهِ، وَمِنْ الْجَنَّةِ وَحُورِهَا، بَلْ خَلَقَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّونَ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّ أَنْفُسِهِمْ. حَكَى لَنَا جُنْدَارٌ، أَنَّهُ كَانَ بِجَبَلِ الْبِقَاعِ، فَسَمِعَ رَجُلًا سَبَّ أَبَا بَكْرٍ، فَسَلَّ سَيْفَهُ، وَضَرَبَ عُنُقَهُ. وَلَوْ كَانَ سَمِعَهُ يَسُبُّهُ، أَوْ يَسُبُّ أَبَاهُ، لَمَا اسْتَبَاحَ دَمَهُ، إِلَّا تَرَى الصَّحَابَةَ فِي فَرَطِ حُبِّهِمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: إِلَّا نَسْجُدُ لَكَ؟ فَقَالَ: «لَا»، فَلَوْ أَدْنَى هُمْ، لَسَجَدُوا لَهُ سَجُودَ إِجْلَالٍ وَتَوْقِيرٍ»^(١).



(١) معجم الشيوخ الكبير ج ١ ص ٧٣.



يقول الشيخ المحدث محمد بن علوي المالكي رحمه الله تعالى في كتابه «مفاهيم يجب أن تصحح» نقلاً عن الشيخ أحمد الحداد رحمه الله تعالى: «إنَّ الحكم على المسلم بالكفر في غير هذه المواطن التي بينها أمر خطير، وفي الحديث: **«إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرٌ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»**. رواه البخاري عن أبي هريرة. ولا يصح صدوره إلا ممن عرف بنور الشريعة، مداخل الكفر ومخارجه. والحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان في حكم الشريعة الغراء. فلا يجوز لأي إنسان الركض في هذا الميدان، والتكفير بالأوهام والمظان، دون تثبت ويقين، وعلم متين، وإلا اختلط سيلها بالأبطح، ولم يبق مسلم على وجه الأرض إلا القليل. كما لا يجوز التكفير بارتكاب المعاصي، مع الإيمان والإقرار بالشهادتين، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: **«ثَلَاثَةٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ الْكَفُّ عَمَّنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُكْفَرُهُ بِذَنْبٍ وَلَا تُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَالَ لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ»**^(١).



وكان إمام الحرمين رحمه الله تعالى يقول: «لو قيل لنا: فصلُّوا ما يقتضي التكفير من العبارات مما لا يقتضي، لقلنا: هذا طمع في غير مطمع، فإن هذا بعيد المدرك، وعمر المسلك، يستمد من أصول التوحيد. ومن لم يحظ بنهايات الحقائق، لم يتحصل من دلائل التكفير على وثائق. لذلك نحذر كل التحذير، من المجازفة بالتكفير في غير المواطن السابق بيانها؛ لأنه جد خطير، والله الهادي إلى سواء السبيل، وإليه المصير»^(٢).

(١) أبو داود (٢٥٣٢)، البيهقي في السنن الكبرى (١٨٥٢٣).

(٢) مفاهيم يجب أن تصحح للشيخ محمد بن علوي المالكي ص ٨٠.



قلت: ثم أن النبي ﷺ أخبر عن أمته أنها لا تقع في الشرك، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَتْلَى أَحَدَ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ، كَالْمُودِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: «إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْحَوْضَ، وَإِنِّي لَا نَظْرَ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا»، قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).



الرد على من كفر زوار القبور:

ثم إن القرشي افترى على المسلمين الذين يزورون الأنبياء والأولياء، واتهمهم بأنهم يعبدونهم، ويسألونهم، وهذا كذب محض. أما زيارة قبور الصالحين، فهو سنة تعلمها المسلمون من النبي ﷺ:

١. عَنْ عَائِشَةَ، أَمَّا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كُلَّمَا كَانَ لَيْلُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُخْرِجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَقِيعِ، فَيَقُولُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوْعَدُونَ غَدًا، مُؤَجَّلُونَ، وَأَنَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، بِكُمْ لَا حِقْوَنَ، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ» وَلَمْ يَقَمْ قُتَيْبَةُ قَوْلَهُ «وَأَتَاكُمْ»^(٢).

٢. ما خرج النبي ﷺ لزيارة القبور إلا بأمر من الله تعالى، ففي جزء من حديث طويل روته السيدة عائشة: قَالَ: «فَإِنَّ جَبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتُ، فَتَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكَ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكَ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكَ وَقَدْ وَضَعْتَ ثِيَابَكَ،

(١) البخاري (٤٠٤٢).

(٢) مسلم (٩٧٤)، النسائي السنن الكبرى (٢١٧٧).



وَضَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدَتْ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَوْقِظَكَ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ»، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ «قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمَ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأَخِرِينَ، وَأَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لِلْآحِقُونَ»^(١).

٣. النبي ﷺ أمر المسلمين بزيارة القبور عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «زوروا القبور؛ فإنها تذكركم الآخرة»^(٢).

٤. عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا، فَإِنَّ فِي زِيَارَتِهَا تَذْكَرَةً»^(٣).

٥. عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي»^(٤).

٦. عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَاءَنِي زَائِرًا، لَا تَعْمَلُهُ حَاجَةً إِلَّا زِيَارَتِي، كَانَ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

وفي هذه الأحاديث كفاية لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، حتى يعلم أن زيارة القبور سنة نبوية، ولا نتهم من يزور قبور الأنبياء والصالحين بالشرك والكفر.

(١) احمد (٢٥٨٥٥).

(٢) ابن ماجه (١٥٦٩).

(٣) أبو داود (٣٢٥٣).

(٤) الدارقطني (٢٦٩٥)، البيهقي في شعب الايمان (٣٨٦٢).

(٥) الطبراني في المعجم الكبير (١٣١٤٩).

جواز التوسل إلى الله بجاه الأنبياء عند زيارة قبورهم:

أما الرد على اتهام القرشي الباطل، بأن المسلمين يدعون أصحاب القبور، ويخصونهم بالدعاء والعبادة، وطلب الحاجات منهم، فهذا أيضاً كذب وافتراء. أما التوسل إلى الله بمقام ومنزلة صاحب القبر، فهذا ما أقره الشرع، وصنف في بيان مشروعيته كبار علماء الأمة السابقين واللاحقين، ونكتفي بذكر بعض الأدلة التي ذكرها الإمام المحدث محمد بن علوي المالكي رحمه الله تعالى في كتابه «مفاهيم يجب أن تصحح»، والذي رد فيه على أمثال القرشي، ممن حسب نفسه على أهل العلم:

١- التوسل بقبر النبي ﷺ بإرشاد السيدة عائشة رضي الله عنها:

قال الإمام الحافظ الدارمي رحمه الله تعالى في كتابه السنن، باب ما أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بعد موته: «حدثنا أبو النعمان، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا عمرو بن مالك النكري، حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة، فقالت: أنظروا قبر النبي ﷺ، فاجعلوا منه كوة إلى السماء، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، قال: ففعلوا، فمطرنا مطراً حتى نبت العشب، وسمنت الإبل. (تفتقت من الشحم، فسمى عام الفتق، ومعنى كوة أي نافذة) اهـ^(١). فهذا توسل بقبره ﷺ لا من حيث كونه قبراً، بل من حيث كونه ضم جسد أشرف المخلوقين، وحبيب رب العالمين، فتشرف بهذه المجاورة العظيمة، واستحق بذلك المنقبة الكريمة.

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: سنن الدارمي ج ١ ص ٤٣.

السيدة عائشة وموقفها من قبر النبي ﷺ:

أما قول بعضهم: بأن هذا الأثر موقوف على عائشة وهي صحابية، وعمل الصحابة ليس بحجة، فالجواب: هو أنه وإن كان رأياً لعائشة، إلا أنها رضي الله عنها معروفة بغزارة العلم، وفعلت ذلك في المدينة بين علماء الصحابة. ويكفيها من هذه القصة، أنها دليل على أن عائشة أم المؤمنين تعلم أن رسول الله ﷺ لا زال بعد وفاته رحيماً وشافعاً لأئمة، وأن من زاره واستشفع به شفع له، كما فعلت أم المؤمنين، وليس هو من قبيل الشرك، أو من وسائل الشرك، كما يلغط به هؤلاء المكفرون المضللون، فإن عائشة ومن شهدها، لم يكونوا ممن يجهلون الشرك، ولا ما يمت إليه. فالقصة تدمغ هؤلاء، وتثبت أن النبي ﷺ يهتم بأئمة في قبره، حتى بعد وفاته. وقد ثبت أن أم المؤمنين عائشة قالت: كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله ﷺ وأضع ثيابي، وأقول إنما هو زوجي وأبي. فلما دفن عمر معها، فوالله ما دخلت إلا وأنا مشدودة، حياء من عمر^(١). ولم تعمل عائشة هذا باطلاً، بل هي تعلم أن النبي ﷺ وصاحبيه يعلمان من هو عند قبورهم. وقد قال النبي ﷺ لمعاذ لما أرسله لليمن: فلعلك تمر بقبري ومسجدي^(٢). فتوفي رسول الله ﷺ، وجاء معاذ إلى قبر النبي ﷺ باكياً. وشاهده عمر بن الخطاب على هذا الحال، وجرت بينهما هذه المحادثة، كما رواها زيد بن أسلم عن أبيه، قال: خرج عمر إلى المسجد، فوجد

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي (رواه أحمد). قال الحافظ الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٦) ورواه الحاكم في المستدرک، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يعترضه الذهبي بشيء (ج ٤ ص ٧).

(٢) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي (رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات إلا يزيد لم يسمع من معاذ «كذا في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٥٥»).

معاذ بن جبل عند قبر النبي ﷺ يبكي، قال: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته عن رسول الله ﷺ: «اليسير من الرياء شرك».

٢- التوسل بقبر النبي ﷺ في خلافة عمر رضي الله عنه:

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي رحمه الله تعالى: أخبرنا أبو نصر بن قتادة وأبو بكر الفارسي قالا: حدثنا أبو عمر بن مطر، حدثنا إبراهيم بن علي الذهلي، حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن أبي صالح، عن مالك، قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، استسق الله لأمتك، فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام، فقال: «أنت عمر فأقرئه مني السلام، وأخبرهم أنهم مُسقون، وقل له: عليك بالكيس الكيس». فأتى الرجل، فأخبر عمر، فقال: يا رب ما ألو إلا ما عجزت عنه^(١). وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الداري - وكان خازن عمر - قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر رضي الله عنه، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق لأمتك، فإنهم قد هلكوا. فأتى الرجل في المنام، فقل له: أنت عمر، الحديث. وقد روى سيف في «الفتوح»: أن الذي رأى في المنام المذكور، هو بلال بن الحارث المزني، أحد الصحابة^(٢). ولم يقل أحد من الأئمة، الذين رووا الحديث، ولا من بعدهم ممن مرتبصانيفهم من الأئمة، أنه كفر وضلال، ولا طعن أحد في متن الحديث به.

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي وهذا إسناد صحيح. [كذا قال الحافظ ابن كثير في البداية (ج ١ ص ٩١) في حوادث عام ثمانية عشر].

(٢) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: قال ابن حجر: إسناده صحيح اهـ. (صحيح البخاري كتاب الاستسقاء)، فتح الباري ص ٤١٥ ج ٢.

وقد أورد هذا الحديث ابن حجر العسقلاني، وصححه سنداً كما تقدم. وهو من هو في علمه، وفضله، ووزنه بين حفاظ الحديث، مما لا يحتاج إلى بيان وتفصيل.

٣- توسل المسلمين به يوم اليمامة:

ذكر الحافظ ابن كثير إنَّ شعار المسلمين في موقعة اليمامة كان: [واحمداه]. قال ما نصه: وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم، وسار لجمال مسيلمة، وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع، ثم وقف بين الصفين، ودعا البراز، وقال: أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد، ثم نادى بشعار المسلمين، وكان شعارهم يومئذ (يا حمداه)^(١).

٤- التوسل به في المرض والشدائد:

عن الهيثم بن خنس قال: كنا عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فخدرت رجله، فقال له رجل: اذكر أحب الناس إليك، فقال: يا محمد، فكأنما نشط من عقل. وعن مجاهد قال: خدرت رجل رجل عند ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له ابن عباس: اذكر أحب الناس إليك، فقال: محمد ﷺ، فذهب خدره^(٢). ذكره الشيخ ابن تيمية في «الكلم الطيب». فهذا توسل في صورة النداء.

٥- التوسل بغير النبي ﷺ:

عن عتبة بن غزوان عن نبي الله ﷺ قال: «إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٢٤.

(٢) قال الشيخ محمد بن علي المالكي ذكره ابن تيمية الكلم الطيب في الفصل السابع والأربعين ص ١٦٥.



عوناً وهو بأرض ليس بها أنيس، فليقل: يا عباد الله أعينوني، فإن الله عبداً لا نراهم. وقد جرب ذلك». رواه الطبراني. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة، يكتبون ما يسقط من ورق الشجر. فإذا أصاب أحدهم عرجة بأرض فلاة، فليناد أعينوني يا عباد الله». رواه الطبراني، ورجاله ثقات. وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انفلت دابة أحدهم بأرض فلاة، فليناد: يا عباد الله احبسوا، يا عباد الله احبسوا، فإنَّ لله حاضراً في الأرض سيحبسه»^(١). فهذا توسل في صورة النداء أيضاً.

٦- قصة العتي في التوسل:

قال الإمام الحافظ عماد الدين ابن كثير رحمه الله تعالى: ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه «الشامل»، الحكاية المشهورة عن العتي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي، فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]. وقد جئتكَ مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشد يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي رواه أبو يعلى والطبراني وزاد سيحبه عليكم، وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف. اهـ. من مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي ابن أبي بكر الهيثمي (ج ١٠ ص ١٣٢).



ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: «الحق الأعرابي، فبشره أَنَّ الله قد غفر له»^(١). وذكر الإمام القرطبي عمدة المفسرين قصة تشبهها في تفسيره المعروف ب«الجامع»، قال: «روى أبو صادق عن علي قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفننا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ، وحثا على رأسه من ترابه، فقال: قلت يا رسول الله فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾... الآية، وقد ظلمت نفسي، وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر: «أنه قد غفر لك»^(٢).

٧- أبيات العتيبي على شباك النبي ﷺ:

تقدم ذكر البيتين الذين أنشدهما الأعرابي عند زيارته للنبي ﷺ ورواها العتيبي، وهي:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: فهذه القصة رواها الإمام النووي في كتابه المعروف بالإيضاح في الباب السادس ص ٤٩٨، ورواها أيضاً الحافظ عماد الدين ابن كثير في تفسيره الشهير عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية. ورواها أيضاً الشيخ أبو محمد ابن قدامة في كتابه المغني (ج ٣ ص ٥٥٦)، ونقلها أيضاً الشيخ أبو الفرج ابن قدامة في كتابه الشرح الكبير (ج ٣ ص ٤٩٥)، ونقلها أيضاً الشيخ منصور بن يونس البهوتي في كتابه المعروف بكشاف القناع من أشهر كتب المذهب الحنبلي (ج ٥ ص ٣٠) (١٦) [١٢].

(٢) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: [تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٦٥].



وهذه الأبيات مكتوبة بفضل الله على المواجهة النبوية الشريفة في العامود الذي بين شباك الحجرة النبوية، يراها القاضي والداني، منذ مئات السنين، حتى في عهد المرحوم الملك عبد العزيز، فالملك سعود، فالملك فيصل، فالملك خالد رحمهم الله تعالى، فالملك فهد خادم الحرمين الشريفين حفظه الله، وستبقى بإذن الله، بناء على توجيهات خادم الحرمين بالمحافظة على كل ما في المسجد النبوي الشريف، وعدم إزالة أي أثر قديم.

الخلاصة:

والخلاصة، أنه مما لا شك فيه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - له عند الله قدر عظيم، ومرتبة رفيعة، وجاه عظيم، فأى مانع شرعي أو عقلي يمنع التوسل به، فضلاً عن الأدلة التي تثبتته في الدنيا والآخرة - ولسنا في ذلك سائلين غير الله تعالى، ولا داعين إلا إياه، فنحن ندعوه بما أحب أيّاً كان، تارة نسأله بأعمالنا الصالحة، لأنه يحبها، وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه، كما في حديث آدم السابق، وكما في حديث فاطمة بنت أسد الذي ذكرناه، وكما في حديث عثمان بن حنيف المتقدم. وتارة نسأله بأسمائه الحسنى، كما في قوله ﷺ: «أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ أَوْ بِصِفَتِهِ أَوْ فِعْلِهِ»، كما في قوله في الحديث الآخر: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمَعْفَاتِكَ مِنْ عِقَابِكَ»، وليس مقصوراً على تلك الدائرة الضيقة التي يظنها المتعنتون.

وسر ذلك أن كل ما أحبه الله صح التوسل به، وكذا كل من أحبه، من نبي أو ولي، وهو واضح لدى كل ذي فطرة سليمة، ولا يمنع منه عقل ولا نقل، بل

تضافر العقل والنقل على جوازه، والمسؤول في ذلك كله الله وحده لا شريك له، لا النبي، ولا الولي، ولا الحي، ولا الميت ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٧٨).

وإذا جاز السؤال بالأعمال، فبالنبي ﷺ أولى، لأنه أفضل المخلوقات، والأعمال منها، والله أعظم حباً له ﷺ من الأعمال وغيرها - وليت شعري ما المانع من ذلك، واللفظ لا يفيد شيئاً أكثر من أن للنبي قدراً عند الله، والمتوسل لا يريد غير هذا المعنى، ومن ينكر قدره عند الله، فهو كافر، كما قلنا.

وبعد:

فمسألة التوسل تدل على عظمة المسؤول به ومحبه. فالسؤال بالنبي، إنما هو لعظمته عند الله، أو لمحبه إياه. وذلك مما لا شك فيه، على أن التوسل بالأعمال متفق عليه، فلماذا لا نقول: أن من يتوسل بالأنبياء أو الصالحين، هو متوسل بأعمالهم التي يحبها الله. وقد ورد حديث أصحاب الغار، فيكون من محل الاتفاق؟. ولا شك أن المتوسل بالصالحين، إنما يتوسل بهم من حيث أنهم صالحون، فيرجع الأمر إلى الأعمال الصالحة المتفق على جواز التوسل بها^(١).



قلت: وفي هذا القول لعالم الحجاز، ومحدث الحرمين، العارف بالله سيدي محمد بن علوي المالكي رحمه الله تعالى، القول الشافي، والجواب الكافي، ولمن يريد الفائدة فعليه بكتب هذا الولي الصالح.

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٤٨-١٦٠.



وأخيراً: نرد على اعتراض المتعالم (أبو مارية) على بيت الشعر الذي قاله الإمام البوصيري في «برده الشريفة»:

فإن من جودك الدنيا وضرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

فما تكلم الإمام البوصيري إلا عن نقطة في بحر من حقيقته ﷺ، وكل ما ذكره إنما هو موافق لخصائصه ﷺ، التي وردت في الكتاب والسنة. فالدنيا خلقت من أجله وبسببه، فكأنه أجاد بهما. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة، قال: يا رب، أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب، لأنك لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك، رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك، إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم، أنه لأحب الخلق إلي، ادعني بحقه، فقد غفرت لك. ولولا محمد ما خلقتك»^(١). فهو ﷺ الممد للعوالم لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٠٧). فالعوالم مستمدة منه، وداخله في عنايته ورعايته.

ولا شك، أن الله تعالى أعطى سيدنا محمداً ﷺ الدنيا والآخرة وخزائنها، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْتُمْ تَنْشِلُونَهَا»^(٢).

(١) الحاكم في المستدرک (٤٢٢٨).

(٢) البخاري (٢٩٧٧)، مسلم (٣٠٨٧) النسائي (٧٥٨٥).



وفي الدنيا أحلت له الغنائم، ونُصر بالربع من مسيرة شهر، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، وعرضت عليه جبال تهامة ذهباً وفضة، عن جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيَ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١). وفي الآخرة، فهو صاحب الشفاعة الكبرى، وصاحب اللواء المحمود، وأول من تفتح له الجنة، وأول من يدخل الجنة، وشفاعته لأهل الكبائر. فقد ملكه الله الدنيا والآخرة.

وأما قوله: (ومن علومك علم اللوح والقلم) فلا غرابة في ذلك، فأعطاه الله تعالى علم الأولين والآخرين، وأطلعه الله على ما كان من أخبار الأمم السابقة من قبل خلق الخلق، وعلى ما يكون حتى يدخل أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار. ثم إن الله أطلعه على ذلك في المعراج، ففي حديث المعراج الطويل: قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ، وَأَبَا حَبَّةَ الْأَنْصَارِيِّ، كَانَا يَقُولَانِ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعَ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ»^(٢). وهذا، ما أشار إليه الإمام البوصيري، والذي اعترض عليه هؤلاء المحسوبون على أهل العلم. وبعد كل ما ذكرناه، تبين بطلان قول هؤلاء القوم. ولقد أسهبت في ذكر الأدلة، والرد على قولهم، غيرة للجناب النبوي العالي، وغيره للمسلمين الموحدين، الذين يتهمونهم بالكفر والإشراك، وهم منه براء.



(١) البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١).

(٢) البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣).



القسم الثاني في تفسير هذه الآية

القول في أبي طالب عليه السلام

قال الطبري رحمه الله تعالى وكثير من أهل التفسير: «عن الزهري قال: حدثني سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله، لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانُ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾، وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] (١).



قلت: اختلف المسلمون في مسألة نجات أبي طالب إلى فريقين؛ فريق يقول بأنه هالك وخالد في النار، وفريق يقول بنجاته من النار، ونحن مع الذين يقولون بنجاته، وسنأتي بأقوال القائلين بهذا الرأي مع الأدلة:

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٥٩٩.

المفسرون القائلون بنجاة أبي طالب في تفسير هذه الآية:

قال الإمام الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «فلما حضرت أبا طالب الوفاة، قال له رسول الله ﷺ: «يا عم، قل لا إله إلا الله كلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة» فقال: يا ابن أخي، لولا أن قریشا تعيرني بهذه الواقعة، ويقولون ما آمن إلا جزعا من الموت، لأقررت عينك بها. لكن يروى أنه بعدما انتقل أبو طالب، جاء العباس إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا محمد، إن الكلمة التي طلبت من عمك أن يقولها قالها قبل أن يموت، وأنا أشهد بها. ونلاحظ هنا دقة الأداء من العباس، حيث لم يقل: إن هذه الكلمة لا إله إلا الله، بل سماها (الكلمة) لماذا؟ لأنه لم يكن قد أسلم بعد^(١).



قال الشيخ الإمام علي جمعة حفظه الله تعالى ورعاه: «هناك قولان في نجاة أبي طالب:

الأول: القائل بعدم نجاة أبي طالب؛ لأن النبي ﷺ لم يسمع منه الشهادتين.
الثاني: القائل بنجاته كما ورد عن العباس بن عبد المطلب، أنه قال للنبي ﷺ يا محمد لقد قال الكلمة التي أمرته بها. ونحن نتمسك بهذا القول، ونقول به حبا بالنبي ﷺ. وألف الشيخ زيني دحلان، مفتي مكة كتابه «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب»، وشحنه بأدلة كثيرة. ومن يقرأ الكتاب، سيقول بنجاة أبي طالب. فمن لبس نظارة الحب، وهو يقرأ ما قال، إلا ما يحبه النبي ﷺ.



(١) تفسير الشعراوي ج ١٨ ص ١٠٩٦٥.



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: نزلت هذه الآية تطيباً لخاطر النبي ﷺ، وبيان عظيم قدره على مولاه؛ لأنه لما عرض الإسلام على عمه أبي طالب في مرض وفاته أبي أبو طالب، أن يتلفظ بلفظ الشهادة أمام كفار قريش، ربما مخافة أن يتجرؤوا على رسول الله، وحماية له. فلما مات، ولم يلفظ بلفظ الشهادة، حزن النبي ﷺ حزناً شديداً، فطيب الله تعالى خاطره بهذه الآية. وهي لا تدل على أن أبا طالب هالك؛ لأنه كان مؤمناً في قلبه، لكنه لم يتلفظ بالشهادة في لسانه. والخلود في النار لمن كفر بقلبه ولسانه، وحتى لو دخل النار، لأنه لم ينطق بالشهادة، لكنه لا يخلد فيها، لأنه مؤمن. فوجود الإيمان مانع من الخلود، فالنبي حزن على عمه، لعدم إظهاره الإسلام. وقد يعاقب فترة قليلة على هذا، فأنزل الله هذه الآية تطيباً لخاطره، ومعناها: إنك لا تهدي للإسلام من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء بالنطق بالشهادتين، لذلك قال: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) فهو أعلم بإيمان المؤمن، حتى وإن لم ينطق.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: الهداية من الله مصدراً، وفي النبي مظهراً، وكل الأمور على الحقيقة من الله تعالى، ويجريها الله على يد من يشاء من عباده. فالنبي ﷺ هادي الأمم ومرشدها، ودليلها إلى الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وأصل الهداية بيده ﷺ. ولما كان النبي ﷺ رحمة للعالمين، كان يجب أن يهدي الناس جميعاً إلى الحق، وكان ﷺ يكثر في دعاءه من قول «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»، وكان ﷺ يحزن لأنهم مصرون على الكفر، فطيب الله قلبه بهذه الآيات، ومعناها أنك يا حبيبي قد أدت مهمتك

في هداية الإرشاد والدعوة، فلا تحزن عليهم، واترك أمرهم لنا ﴿لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

أما قولهم إِنَّ الآية دليل على كفر أبي طالب وخلوده في النار، وأنه لم ينطق بالشهادتين، فهذا لا نقول به، لوجود الأدلة والقرائن التي تدل على نجاته. فهو وإن لم ينطق بالشهادة، إلا أَنَّ أفعاله تدل على أنه مؤمن بما جاء به النبي ﷺ، بل ومدافع عنه، وإن لم يُظهر إيمانه. فالحكمة واضحة، وهي إِنَّ كتم الإيذان فيه حماية للنبي ﷺ، لأن سادات قريش كانوا يوقرون أبا طالب، ويحترمونه، ويعتبرونه على دينهم. ولقد أمر أبو طالب عائلته بالإسلام، فأسلم سيدنا علي وسيدنا جعفر رضي الله عنهما، وأسلمت السيدة فاطمة بنت أسد رضي الله عنها في بداية البعثة، ولم يمنعهم، ولم يطردهم، كما فعل الكفار مع من آمن من أهلهم، بل كان يوصي علياً وجعفر رضي الله عنهما بأن يلازما رسول الله ﷺ، ولا يفارقانه، ويفديانه بأرواحهما. ثم أن أبا طالب تحمل العذاب والصعاب مع عشيرته، إكراماً للنبي ﷺ. ولو كان كافراً، لتخلى عنه، كما فعل أبو لهب. ولما طلب النبي ﷺ منه أن يظهر الإسلام، امتنع حماية للنبي ﷺ، وحتى لا تقول قريش أَنَّ أبا طالب رجل مخادع وكذاب، فيقوموا بإيذاء النبي ﷺ. وفي رده على النبي ﷺ عندما دعاه إلى الإسلام بقوله «بل على ملة عبد المطلب» فيه دليل على توحيده. لأنه لم يثبت أَنَّ عبد المطلب سجد للأصنام، بل كان موحداً، وهو الذي قال لأبرهة للبيت رب يحميه، فأبي توحيد وتوكل على رب البيت كان عند عبد المطلب، ونحن نعلم أَنَّ آباء النبي وأجداده جميعهم موحدون. لذلك نقول بنجاة أبي طالب ودخوله الجنة، إن شاء الله تعالى.





قال شيخنا الشيخ حسين الحلاب رحمته الله: أبو طالب مات على الإسلام، وهو إن شاء الله من أهل الجنة، فهو الذي حمى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، وماله، وأهله، وعشيرته. ورفض تسليمه لقريش، بل وهددهم أن يقاتلونه، ثم تحمّل المشقة، وسكن الجبال، وجاع ومرض. وكل ذلك لم يُثنه عن موقفه، وإياك أن تقول عصبية؛ لأنه لو كانت عصبية لدافع عن النبي صلى الله عليه وسلم أبو لهب، فهو أيضا عمه. ألا ترى كيف صار مخلدا في النار بسبب عداوته للنبي وكفره، ويخفف عنه العذاب يوم الاثنين؛ لأنه فرح بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وحاشا لله أن يُخزي من دافع عن النبي بنفسه، وماله، وأهله، حتى وافاه الأجل. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم حزن حزنا شديدا لوفاته، وحاشاه أن يحزن لوفاة الكافر، ونحن نعتقد إنه إن شاء الله من أهل الجنة.



قلت: وهذا ما نقول به ونرجحه، ولمن يريد الاستزادة من الأدلة على نجاة أبي طالب، فقد صنف كثير في هذا الموضوع، وأشهرهم الإمام أحمد بن زيني دحلان، إمام الحرمين، في كتابه «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب».



سورة الأحزاب

الآية الثانية والثلاثون:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ١].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ بطاعته، وأداء فرائضه، وواجب حقوقه عليك، والانتهاز عن محارمه، وانتهاك حدوده، ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين يقولون لك: اطرده عنك أتباعك من ضعفاء المؤمنين بك، حتى نجالسك ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يظهرون لك الإيمان بالله والنصيحة لك، وهم لا يألونك، وأصحابك، ودينك خبالا، فلا تقبل منهم رأيا، ولا تستشرهم مستنصحا بهم، فإنهم لك أعداء ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يقول: إن الله ذو علم بما تضمرة نفوسهم، وما الذي يقصدون في إظهارهم لك النصيحة، مع الذي ينطوون لك عليه، حكيم في تدبير أمرك، وأمر أصحابك ودينك، وغير ذلك من تدبير جميع خلقه»^(١).



التفسير العرفاني:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «يا أيها المشرف حالا، المفخم قدرا

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢٠ ص ٢٠٢.



منا، المعلى رتبة من قبلنا، يا أيها المُرَقَّى إلى أعلى الرتب بأسنى القرب، يا أيها المخبر عنا، المأمون على أسرارنا، المبلغ خطابنا إلى أحبابنا، اتق الله أن تلاحظ غيرا معنا، أو تساكُن شيئاً من دوننا، أو تثبت أحدا سوانا، أو تتوهم شظية من الحدثان من سوانا. ﴿وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ﴾ إشفاقاً منك عليهم، وطمعاً في إيمانهم بنا، لو وافقتهم في شيء أرادوه منك. والتقوى رقيب على قلوب أوليائه، يمنعهم في أنفاسهم، وسكناتهم، وحركاتهم أن ينظروا إلى غيره، أو يثبتوا معه غيره، إلا منصوباً لقدرته، مصرفاً بمشيئته، نافذا فيه حكم قضيته»^(١).



قال البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «كان عليه الصلاة والسلام ألطف خلق الله من الأنبياء، والمرسلين، والملائكة المقربين، وأعرفهم به. ومن كمال معرفته، طار بجناح الربوبية في الربوبية، وشاهد مشاهد الألوهية. ففي كل شهود له منها لذة وحلاوة، كادت توقفه عن طيرانه من جلال لذته؛ فخوّفه الله من نفسه أن يحتجب به، فينقطع عن سفر الأزال إلى الآباد».



وقال ابن عطاء رحمه الله تعالى: «أيها المخبر عني خبر صدق، والعارف في معرفة حقيقة، اتق الله أن يكون لك التفات إلى شيء سواي. قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢]. عرّفه مكان الوحي منه إليه معرفة حقيقة، لا معرفة أوهام. فإن من موجبات معرفة الوحي، ألا يكون للنفس والقياس فيه

(١) تفسير القشيري ج ٣ ص ١٤٩.

سبيل، ولا يدخل فيه حظ النفس بحال، بل فيه اتباع حقيقي، بلا اعوجاج، ولا اضطراب»^(١).



قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ أَتَى اللَّهَ﴾ وهذا، وإن كان معلوماً من حاله، ففي أمره به أربعة أوجه؛ أحدهما، أن معنى هذا الأمر الإكثار من اتقاء الله في جهاد أعدائه. الثاني، استدامة التقوى على ما سبق من حاله. الثالث، أنه خطاب توجه إليه، والمراد به غيره من أمته. الرابع، أنه لنزول هذه الآية سبباً، وهو ما روي أنَّ أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي، قدموا المدينة، ليجددوا خطاب رسول الله ﷺ في عهد بينه وبينهم، فنزلوا عند عبد الله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس، ومعتب بن قشير، واثتمروا بينهم، وأتوا رسول الله ﷺ، فعرضوا عليه أموراً كره جميعها، فهمَّ رسول الله ﷺ والمسلمون أن يقتلوهم، فأنزل الله: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ أَتَى اللَّهَ﴾ يعني في نقض العهد الذي بينك وبينهم إلى المدة المشروطة لهم»^(٢).



قال الشيخ رافع الرفاعي مفتي الديار العراقية حفظه الله تعالى ورعاه: «كل أمر يرد من الله ﷻ إلى نبيه ﷺ فهو أمر عطاء، لا بمعنى إيجاد الفعل. فهذه الآية، لا تعني أن الله تعالى يطلب من نبيه ﷺ أداء الفعل بالتقوى، إنما هو أمر إيجاد

(١) تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٣ ص ١٣٤.

(٢) النكت والعيون للماوردي ج ٤ ص ٣٦٩.



ككن، أي أمر إيجاد التقوى في الذات المحمدية، أي أن الذات المحمدية اتقت الله مباشرة عند الخطاب، فهو أمر عطاء وإيجاد. وكذلك أمر رسول الله ﷺ للصحابي هو أمر إيجاد وعطاء، بتحويل من الله ﷻ. فعندما قال النبي ﷺ للصحابي: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»، فالصحابي آمن بالله مباشرة، واستقام من وقته؛ لأن أمر النبي ﷺ أمر إيجاد وعطاء. وهذا من دقائق الأسرار في التوجيه المحمدي للذوات البشرية. فكل أمر صدر من الله ﷻ: لرسوله، إنما هو أمر إيجاد وعطاء، لا طلب أداء الفعل. وهذه الأوامر تنطبق وتجري علينا، فنحن مطالبون بذلك، لأن الذات المحمدية حضرة معصومة كاملة؛ لأنه الإنسان الكامل».



قلت: وما ذكره العلماء أعلاه، هو ما تطمئن إليه النفس، وترتاح إليه الروح، وفي جميعها تنزيه للمقام المحمدي العالي.



الآية الثالثة والثلاثون:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾

[الأحزاب: ٣٧]



اعلم أخي القارئ الكريم، إنَّ هذه الآية قد قيل فيها من الكلام ما تقشعر له الأبدان، وتشتعل النفس غضبا نصره للحبيب الأعظم، من عظم الجرم الذي اتهم به ﷺ، من الكلام الذي لا يقبله المسلم، ولا يرضاه لمن أحب، بل لا يفعله أضعف المسلمين إيمانا. ولولا أنَّ غايتنا نصره الحبيب، وتنزيهه مقامه العالي الذي لا يدركه نبي مرسل ولا ملك مقرب، ما أوردت هذا الكلام هنا، لثقله على القلب والروح. فوالله لو نسبنا هذه التهمة هؤلاء المفسرين، لما رضوها، ولا استشاطوا غضبا على قائلها. ولا أعلم، كيف تجرؤوا ونسبوها للحبيب الأعظم ﷺ، فاستمع معي لما يقوله هؤلاء القوم:

التفسير الأولي:

قال الزمخشري رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذي هو أجل النعم، وبتوفيقك، لعنته ومحبه واختصاصه، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بما وفقك الله فيه، فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ، وهو زيد بن حارثة ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني زينب بنت جحش رضي الله عنها، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه، فوقعت في نفسه، فقال: سبحان الله مقلب القلوب، وذلك أنَّ نفسه كانت تحفو عنها قبل ذلك لا تريدها، ولو أرادتها لاختطبها، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله ﷺ، فقال لرسول الله ﷺ: أنى أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: مالك: أراك منها شيء؟ قال: لا والله، ما رأيت منها إلا خيرا، ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذيني، فقال له: ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، ثم طلقها بعد. فلما اعتدت قال رسول الله ﷺ: «ما أجد أحدا أوثق



في نفسي منك، اخطب على زينب». قال زيد: فانطلقت، فإذا هي تخمر عجبتها. فلما رأيته عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، حين علمت أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري، وقلت: يا زينب، أبشري، إن رسول الله ﷺ يخطبك، ففرحت، وقالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فتزوجها رسول الله ﷺ، ودخل بها. وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها؛ ذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم، حتى امتد النهار. فإن قلت: ما أراد بقوله: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾؟ قلت: أراد واتق الله، فلا تطلقها. وقصد نهى تنزيه لا تحريم؛ لأن الأولى ألا يطلق. وقيل: أراد واتق الله، فلا تدمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج. فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه؟ قلت: تعلق قلبه بها، وقيل مودة مفارقة زيد إياها، وقيل علمه بأن زيدا سيطلقها وسينكحها».



قال السمرقندي رحمه الله تعالى: «وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أتى رسول الله ﷺ ذات يوم إلى زيد بن حارثة، يطلبه في حاجة له، فإذا زينب بنت جحش قائمة في درع وخمار. فلما رآها أعجبته، ووقعت في نفسه. فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي»».



وقال الطبري رحمه الله تعالى: «عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسبا، وكانت امرأة فيها حدة. ثم قال الطبري: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: كأن النبي ﷺ قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش، ابنة

عمته، فخرج رسول الله ﷺ يوماً يريد، وعلى الباب ستر من شعر، فرفعت الريح الستر فانكشف، وهي في حجرها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ.



قال مقاتل رحمه الله تعالى: «إنَّ النبي ﷺ أتى زيدا، فأبصر زينب قائمة، وكانت حسناء بيضاء، من أتم نساء قريش، فهوها النبي ﷺ، فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ»، ففطن زيد، فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبرا، تعظم علي، وتؤذيني بلسانها. فقال النبي ﷺ: «أمسك عليك زوجك، واتق الله»، ثم إنَّ زيدا طلقها بعد ذلك»^(١).



قلت: والله لو أنَّ الشمس كَوَّرت، والسماء انفطرت، وصارت الجبال دكا، وقامت القيامة، وفار التنور، أهون على المسلم من سماع هذا الكلام. فقد أساءوا لحضرة الحبيب ﷺ، وأساءوا لأم المؤمنين زينب رضي الله عنها، واتهموها بأنها ناشز، وذات أخلاق سيئة. وكل إساءة إلى المرسل، فقد أساء إلى المرسل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٣ ص ٥٤٠، السمرقندي في تفسيره بحر العلوم ج ٣ ص ٦٢، والطبري في تفسيره ج ٢٠ ص ٢٧٤، والماوردي في تفسيره النكت والعيون ج ٤ ص ٤٠٥، ومقاتل بن سليمان في تفسيره ج ٤ ص ٤٩٥، البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٤ ص ٢٣٢.

التفسير العرفاني:

قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وروي عن علي بن الحسين: أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه؛ أن زيدًا يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها. فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خلق زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: «اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك»، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها. وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق، لما علم أنه سيتزوجها. وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس، في أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها. فعاتبه الله تعالى على هذا القدر، من أن خشي الناس في شيء قد أباحه الله له، بأن قال: «أمسك»، مع علمه بأنه يطلق. وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي في كل حال. قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية»^(١).



قال محمد عبد اللطيف الخطيب رحمه الله تعالى في تفسيره: «لقد تحبط أكثر المفسرين في تأويل هذه الآية، وذهبوا على غير مذهب، وأبعدوا في اتباع الأقاويص التي حاكها أعداء الدين في الدين، وجاروا ما أذاعه اليهود طعنًا في الرسول الكريم، العفيف النظيف؛ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فقالوا: إنَّ الرسول الأعظم رأى زينب -وهي في عصمة زيد- فأعجبته وأحبها، ووقعت من

(١) الجامع لاحكام القرآن ج ١٤ ص ١٨٨.



قلبه موقعاً كبيراً، إلى آخر ما أوردوه من إفك وبهتان، يتبرأ منه أحط الفساق؛ فضلاً عن أكرم الخلق على الإطلاق. فهذه ادعاءات المبطلين؛ مما لا يرتضيه الأتقياء، فكيف بسيد الأنبياء؟ وتعالى الله عن أن يرسل رسولاً، يطمح بعينه إلى حلائل المؤمنين. وأما خشيته للناس، فذلك استحياء منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه، بعد نهيهِ عن نكاح حلائل الأبناء ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي أمره لك، ووحيه إليك بتزوج زينب؛ رغم قولك لزيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾^(١).



قال العارف بالله الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس الله سره: «قال الشيخ أحمد بن المبارك: قد سألته رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَتَخَشَّى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ كيف عاتب الله تعالى نبيه، وهو سيد العارفين، وإمام الأنبياء والمرسلين؟ فأجابني رضي الله عنه بهذا المعنى، فقال: إنه عليه الصلاة والسلام، لما شاوره زيد في طلاق زينب، وأمره بإمسакها، وتقوى الله في معاشرتها، وكان يعلم عليه الصلاة والسلام أنها ستصير إليه، وأخفى ذلك ولم يظهره، رجع على نفسه بالعتاب، وقال في خاطره: «تخشى الناس والله أحق أن تخشاه»، وجعل يعاتب نفسه بهذا في الباطن، فأظهر الله سبحانه ما في باطنه عليه الصلاة والسلام، وأنزل الوحي به. قال رضي الله عنه: ومن فتح الله عليه، وتأمل الكتب السماوية، وجد فيها نور الكلام القديم، ونور طبع الحالة التي يكون عليها النبي عند نزول الوحي عليه، وهو تارة يكون على حالة قبض، فتنزل الآية وفيها نور الكلام القديم، ونور القبض الذي كانت عليه الذات حينئذ. وتارة، يكون على حالة بسط، فتنزل الآية،

(١) أوضح التفاسير ج ١ ص ٥١٣.



وفيهما نور الكلام القديم، ونور البسط الأول، قديم والثاني حادث. وتارة، يكون على حالة تواضع، فتتزل الآية وفيها نور الكلام القديم، ونور التواضع. هكذا، كل آية لا تخلو عن شيء من طبع ذاته صلى الله عليه وسلم، وهكذا آية: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ فيها نور الكلام القديم، ونور طبع ذاته ﷺ في حالة نزولها، وهو نور العتاب، فالكلام القديم من الله لا منه، والعتاب منه لا من الله عز وجل»^(١).



قال أبو الحسن علي بن أحمد السبتي المعروف بـ ابن خنير رحمه الله تعالى: «أما قول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَتَخْشَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ يعني من تزويجها الذي أمرتك به، أو أعلمتك به. وأما قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أي تخشى من قول الناس، على حذف حرف الجر، كأنه يقول: تخشى من الناس أن يقولوا فيك، فيأثموا ويهلكوا، ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ أي تخشى منه على الناس وللناس، حتى يقع مرادي فيك وفي الناس؛ إذ ليس احتياطك يغني عنهم من الله شيئاً، فلا عليك ممن قال، ولا ممن أثم، فأنا أعلم بما يقولون، وبما أجازيهم»^(٢).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «أنعم الله تعالى على سيدنا زيد بالإسلام، وأنعم النبي ﷺ على زيد بالعتق، وزوجه ابنة عمته. وبعد ذلك، أخبر الله النبي ﷺ أن زينب ستكون زوجته، ولم يأمره بإخبار الناس

(١) الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز ج ١ ص ٣٦٥.

(٢) تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء ص ٥٠.



بهذا الأمر. فلما أخبر سيدنا زيد عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يريد أن يطلق السيدة زينب رضي الله عنها، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ نصحا له، وشفقة عليه. ومعنى قوله: ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فالنبي يعلم الأمور ويخفيها، ولا يظهر إلا ما أراد الله أن يُبديه. والخشية قد تأتي بمعنى الخوف مع التعظيم، وقد تأتي بمعنى الحياء. وعلى المعنى الأول: تخاف على الناس أن يسيئوا الظن، فيعظم ذلك عليهم مما يناقض إيمانهم. وعلى معنى الحياء: أي تستحي من الناس؛ لأن الزواج من زوجة الابن بالتبني ليس من عاداتهم، فتستحي أن تخالف عاداتهم، فينزغ الشيطان في قلوب بعضهم. ولذا جاءت الآية بعدها، لبيان حالة النبي صلى الله عليه وسلم مع مولاه في قوله: ﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۖ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] لنفي معنى الخشية من الناس.



قلت: لا يقول بما قاله المسيئون، ولا يعتقد به، إلا من لا يوجد في قلبه ذرة من إيمان. فلقد أساء من قال بهذا القول إساءة فاحشة. وما هو إلا امتداد للإسرائيليات التي ملأت كتب التفسير، والتي فيها نزعة يهودية نصرانية، في التجرؤ على مقامات الأنبياء والمرسلين. فكما اهتموا سيدنا يوسف وسيدنا داود عليهم السلام، بما لا يرضاه الله ورسوله والمؤمنون، وصلت بهم الجرأة أن يحوموا حول حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخابوا وخسئوا أن يدنسوا هذه الحضرة الطاهرة. كيف يرضى المسلم عن تلك الأقوال في حق الإنسان الكامل، الذي ما نظر إلى امرأة أو شهوة دنيوية، لا قبل النبوة ولا بعدها. كيف هذا، وهو صاحب القلب الذي ما حوى سوى أسرار الجلال والجمال، وهو القلب الذي قال في حقه مولاه



في الحديث القدسي: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»، وهو العبد الأكمل، الذي وسع تجليات الحق. وهو الذي شق صدره أكثر من مرة، وأخرج حظ الشيطان منه، وملئ نورا وحكمة وإيمانا. وهو الطاهر المطهر، المطهر الذي طهره الله، وطهر به الأكوان، وهو ﷺ الذي يقول: «إِنَّ النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتى أبدلتة إيمانا يجد حلاوته في قلبه»^(١). وهناك مئات، بل آلاف الأدلة على طهارة قلبه، وسمعه، وبصره، وروحه، ظاهرا وباطنا. فكيف غفل القائلون عن كل هذا!!!.



قال لي شيخي حسن الحلاب رحمه الله: «في سورة الأحزاب من الأسرار العظيمة، ما إن تفكرت بآياتها ستجد الجواب الشافي في توضيح وتفسير هذه الآية. عليك أن تقرأ القرآن كسطر واحد، إذا أردت أن تفهم معانيه. وبركة أنظاره ودعائه، وجدت أن جميع سورة الأحزاب من بدايتها تهییء، وتتكلم، وتفسر هذه الآية. وقد مدح الله ﷺ نبيه، ونزهه في أكثر من موضع في هذه السورة؛ لعلمه أن هناك أناساً ستتجراً على مقام النبوة والرسالة، ولتتبع هذه الآيات من بداية سورة الأحزاب إلى نهايتها، ونوضح ذلك فيما يلي، ونرد على هؤلاء المسيئين:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

﴿٢﴾ [الأحزاب: ٢]، وفيها إشارة إلى أن النبي ﷺ لا ينطق ولا يفعل، إلا ما أوحى إليه، ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا يُخفي في قلبه ما يُغضب الله ﷻ، كما

(١) الطبراني في المعجم (١٠٣٦٢)، الحاكم في المستدرک (٧٨٧٥).



ادعى المبطلون. وإن ما سيكون من أمر الزواج، إنما هو بالوحي، لحكمة التشريع التي تقتضي الزواج من زوجة الابن بالتبني، بعد أن يطلقها الابن، وتكمل العدة. ولهذا أشار في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (٤) ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤-٥]. وفي هاتين الآيتين، يبين الله ﷻ: فيها أحكام الابن بالتبني، وأنه لا تنطبق عليه أحكام الابن الصلبي. وفيه إشارة إلى ما سيقدره بعد ذلك من جواز زواج زوجة الابن بالتبني، بعد انقضاء عدتها. وفيه تمهيد وردُّ على المنافقين، الذين سيتكلمون بسوء على النبي ﷺ بعد نزول الأمر الإلهي بزواجه من السيدة زينب رضي الله عنها. ثم مدح الله ﷻ: نبيه الكريم ﷺ، فقال: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٦) [الأحزاب: ٦] فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وهذا خطاب لكم يا من تجرأتم على صاحب الجنب العالي، وزوجاته أمهاتكم. وفيها إشارة إلى أنه كيف لكم أن تتجرؤوا على مقام النبي، ومقام زوجاته؟ وتتهمون السيدة زينب، بأنها ناشز، وهي أعظم قدرا من أن تقع في معصية النشوز. ثم بين الله تعالى أحوال النبي ﷺ وزوجاته والمؤمنين، وبين صفة المنافقين المتربصين بكل صغيرة وكبيرة، كي يُسيئوا للنبي ﷺ وأصحابه، فقال ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢) [الأحزاب: ١٢]. فلاحظ التوطئة العجيبة للأطراف المعنية بالخطاب، وما



سيحدث عندما يأمره الله تعالى أن يتزوج زينب، وأن يعلن هذا الأمر للملأ. وبعد عدة آيات من هذه الآية، مدح الله نبيه ﷺ، فجعله القدوة والأسوة للعالم، ولمن أراد الوصول إلى حضرات المولى ﷺ، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فكيف سوغت لكم أنفسكم أن تصفوا من وصفه الله تعالى بالأسوة والقدوة، أن ينظر إلى حليلة من رباه ويعشقها؟! وهذا أمر لا يفعله أكبر الناس جرما وذنبا.

ثم بعد ذلك، وردت الآيات التي تمدح نساء النبي ﷺ، وأنهن صاحبات المقام العالي، ولا يُشبهن النساء في المنزلة والخلق. وما نالوا ما نالوا، إلا لارتباطهم به ﷺ. ثم قال في وصفهم ووصف آل بيت النبي ﷺ من ذريته: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فهم الطاهرون المطهرون، وكل ذلك لاتصالحهم به ﷺ. وكل ذلك كي ينتبه المسلمون لمقامهم ومنزلتهم، فإذا كان الله تعالى قد طهر آل بيته إكراما له ﷺ، فما قولكم وأنتم تنسبون إليه هذه التهم الخطيرة.

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، أي إن جميع ما حصل في هذه القصة، هو بأمر الله وقضائه. فزواج زيد ﷺ من السيدة زينب رضي الله عنها كان بأمر الله، وطلاقه بأمر الله، وزواج النبي ﷺ من السيدة زينب بأمر الله. فأين العشق والهوى يا من طمس الله على قلوبكم، وتكلمتم بهذا الكلام؟!.



ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۗ﴾ [الأحزاب: ٣٧] بدأ الكلام في هذه الآية بمدح النبي ﷺ، فنسب الإنعام له، وهو يريد أن يعلمنا أن النعم لا تأتي من الله ﷻ: إلا عن طريق حبيبه. فكل نعمة جاءت لهذا العالم، إنما هي بواسطته، وكل الفضل من الله مصدرا، ومن النبي مظهرا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۗ﴾ [التوبة: ٥٩]. وهذه الآيات، إشارة من الله ﷻ: لنا بأن مظهر التجليات، والخيرات، والنعم، والفضل، هو سيدنا محمد ﷺ، فوجب التأدب معه. وكل هذا المدح، تنبيه للخصوصية قبل أن نخبرنا بأمر الزواج، حتى يحذر المسلمون أن يسيئوا الظن بنبيهم، فيهلكوا.

في قوله الله ﷻ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ بيان خلقه ﷻ، وتعليمه للأمة في حسن العشرة للزوجة، واحترامها، والصبر عليها. وفي الآية إشارة إلى رحمته العظيمة؛ إذ إن الله أطلعه على زواجه بالسيدة زينب، ورغم ذلك لم يترك النصيحة لزيد، وأمره بحسن العشرة.

قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وفيه إشارة إلى علمه بالأمور الغيبية قبل حدوثها، بتعليم الله له. وما دام الأمر هكذا، فكيف سوغ هؤلاء المفسرون لأنفسهم في إثارة هذه الشبهة؟!.



قوله تعالى: ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّهٖ﴾ من تعلم الأدب مع النبي ﷺ، يعلم ويعتقد أن النبي ﷺ لا يخشى شيئا من الأكوان، ولا يخشى إلا الله، بل إن المؤمن الحقيقي، لا يخشى في الله لومة لائم، فكيف به ﷺ؟!.

إذن: نفس الخشية هنا، بأن النبي ﷺ رحمة للعالمين، ومن رحمته وعلمه أن أقواما ستتكلّم بالسوء عليه، وتظن به المنكر، فيكفروا ويهلكوا. وهذا ما حصل بالفعل من بعض المنافقين. ومن يعتقد بالتهمة التي وجهت للنبي ﷺ، فاعتقاده يؤدي إلى سوء الخاتمة.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٣٧) وفي هذه الآية، الدليل الدامغ على المتمسكين بتلك الشبهة. فالزواج أمر رباني، صدر من رب العزة، وبين الله ﷻ سبب هذا الزواج، وهو تشريع الزواج من الأدياء بعد فراق الزوجة، وانقضاء عدتها. لا كما قال المسيؤون للجناب العالي ﷺ.

ثم قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (٣٨) [الأحزاب: ٣٨] هذا الرد الثاني من ربنا ﷻ على المتهمين للنبي ﷺ. فالنبي ليس عليه حرج فيما يفعل؛ لأنه مأمور به من قبل ربه.

ثم قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣٩) [الأحزاب: ٣٩]، هذا رد على من ادعى أن النبي ﷺ يخشى الناس، فلم يُظهر هذا الأمر، فجاء الرد الإلهي عليهم: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾.

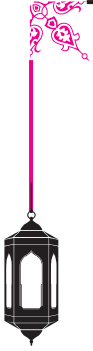


ثم قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ويبيّن الله تعالى تذكيرا للناس أنّ سيدنا محمداً ﷺ ليس أبا لأحد، فلا تتكلموا بالسوء، وتقولوا أنه تزوج زوجة ابنة، فزيد ليس ابنة، وسيدنا محمد ﷺ ليس أبا لأحد منكم ابوة نسب.

ثم مدح الله ﷻ: بنيه مرة أخرى، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤١﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٦]، جاءت آيات المدح لبنينا محمد ﷺ بعد ذكر القصة، ليبين خصوصيته. فقد مدحه قبل أن يتكلم عن الحادثة، ومدحه بعدها، ووصفه بأوصاف لم يصف بمثلها أحداً قبله ولا بعده، فهو ﷺ الشاهد المشهود، البشير النذير، الداعي إلى الله وباب حضرته، والسراج المنير الذي لا ينطفئ، فهو مصدر كل نور. وكل سراج إنما أوقد واستمد نوره من هذا السراج، فانتبه أيها المسلم لهذه الخصوصية، وتعلق بها، واحذر أن تسيئ الأدب.

ثم قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فما قولكم في هذه الآية، يا من تجرأتم على المقام المحمدي في كل زمان ومكان، وما قولكم يا من نسبتم للنبي ﷺ الذنب والمعصية، وفسرتم القرآن على هواكم؟! فليحذر المسلم مع كل ما يتعلق بسيدنا محمد ﷺ، وعليه التوقير والتعظيم إلى ما لا نهاية من التعظيم.

ثم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] وما زال المدح الإلهي لحبيبه





مستمراً. وكلما تقدمنا في الآيات، يزداد المدح رفعة وسموا، وهذا أمر خصه الله تعالى بنبينا، ولم يفعله مع مخلوق قبله ولا بعده. وهو أن يصلي عليه بنفسه قبل خلق الخلق، عندما كان نبيا وآدم بين الروح والجسد، والملائكة تصلي عليه، وأمر المؤمنين أن يصلوا عليه، كي يزدادوا قربا من ربهم، بمحبته، وتوقيره، والصلاة عليه، فكل علو وارتفاع متعلق به ﷺ.

ثم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧] والمتبع لتسلسل الآيات، يعلم علم اليقين أن الله تعالى يعلم أن المنافقين سيخوضون في هذه القصة مخاضاً خطيراً، وسيُفسر الناس على هواهم، لذلك تجد السورة انقسمت بين بيان خصوصية النبي ﷺ والدفاع عنه. وفي هذه الآية تحذير كبير، ووعد ووعد لمن يؤذي الله ورسوله، بالقول والفعل، بالظاهر وبالباطن.

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] وفيه تحذير لمن يؤذي المؤمنين والمؤمنات بالقول والفعل، فكيف لم ينتبه لهذه الآية من اتهم السيدة زينب رضي الله عنها بالنشوز وسوء الخلق، وحاشاها. ففي اتهامهم بهتان عظيم.

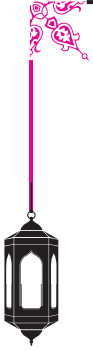
ثم قال الله ﷻ: ﴿لَيْنَ لَمْ يَنْهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٥٩-٦١] وهذا وصف لكل من يعادي سيدنا محمد ﷺ، ويتناول على مقامه. وهذا ما حدث فقد طرد الله تعالى المنافقين من المدينة، وأمر النبي بقتالهم، والنصر عليهم. وهو خطاب للأمة في كل

زمان ومكان، أن يحذروا من سوء الظن بالنبي ﷺ، واتهامه بما لا يليق بمقامه ﷺ.

وفي ختام السورة، حذر الله تعالى المسلمين أن يتشبهوا باليهود والنصارى في أذيتهم للأنبياء، ووصفهم بأوصاف لا تليق بمقام النبوة. واليهود كما هو معلوم قد حرّفوا التوراة، وأضافوا القصص التي فيها الإساءة للأنبياء الشيء الكثير. فقال الله: ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ ﴿٧٠﴾

[الأحزاب: ٥٩-٧٠]. وهذا كلام واضح وصريح في التحذير من أذية النبي ﷺ، واتهامه بما لا يليق، كما اتهم اليهود سيدنا موسى ﷺ بما لا يليق. وكأن الله يحذرنا أن نخوض في هذه القصة وغيرها، بما لا يليق بحقه ﷺ. ثم قال: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ مدحاً لسيدنا موسى عليه السلام، ودفاعاً عنه، وتنزيهه مما نسبته إليه اليهود، فما بالك أيها المسلم بسيدنا محمد ﷺ الذي تمنى سيدنا موسى أن يكون من أمته، فاعرف قدر نبيك، وتأدب في حضرته.

ثم قال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ ﴿٧٠﴾ أي اتقوا الله في هذا النبي، وقولوا قولاً سديداً في حقه، وإياكم وإيذائه، والإساءة إليه، فيحل عليكم عذابي، بل أحبوه، ووقّروه، وعظموه على قدر طاقتكم، فأقربكم وأدخلكم حضرتي. أخيراً: المتأمل لسورة الأحزاب، فكأنها جاءت لتمدح النبي تارة، وتدافع عنه تارة، وتتوعد المسيئين تارة أخرى، وتبشر المحبين المتبعين والمصلين عليه تارة، وإظهاراً لخصوصيته ومقامه عند مولاه تارة أخرى. وبعد كل ذلك، فكيف نصفه بما لا يليق؟!.



سورة ص

الآية الرابعة والثلاثون:

﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ص: ٦٩].

التفسير الأولي:

قال عبد الرحمن اليوسف رحمه الله تعالى: «والمهم أن من قرأ القرآن، وعلم شيئاً من الإسلام، ودرس سيرة الرسول ﷺ، حصل العلم الضروري الذي لا يدافع، بأن محمداً ﷺ هو عبد الله ورسوله، وأنه وجد يوم وجد على الأرض بشراً كالbشر، لا علم له بشيء مما كان في الملأ الأعلى، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ [٦٧] أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْتَأ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾» [ص: ٦٧-٧٢]، فالرسول أمره الله أن يقول هنا: ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [٦٩]. والملأ الأعلى هم الملائكة عندما أمرهم الله بالسجود لأدم، فسجدوا إلا إبليس، فكان بينه وبين الرب سبحانه وتعالى ما كان مما قصه على رسوله محمد ﷺ. ومما لم يكن عند الرسول قبل بعثته، وقبل نزول هذا الوحي، أو في علم منه. بل إن رسول الله عندما جاءه جبريل بالوحي، ظنه شيطانا، وجاء أهله ترتعد فرائصه، وهو يقول: زملوني. وقال للسيدة خديجة رضي الله عنها: لقد خشيت على نفسي. وظن أن الذي أتاه في غار حراء شيطان من الذين ينزلون على الكهان والسحرة. أقول: لا شك أن من قرأ سيرة الرسول ﷺ،

وعلم شيئاً يسيراً من عقيدة الإسلام، استحال عليه الإيمان بما آمن به الصوفية في شأن الرسول. ولكن هؤلاء، لأنهم تركوا الكتاب والسنة وراءهم ظهرياً، وتركوا العقول أيضاً وراءهم، وألقوها واتبعوا ما كتبه شياطين الإنس من الفلاسفة مما توهموه بعقولهم^(١).



قلت: هذا وأمثاله ممن جهل، وبدع، وفسق الغالبية العظمى من المسلمين، وكبار علماء الأمة من زمن التابعين إلى زماننا؛ لأنهم انتسبوا إلى السادة الصوفية، وتجاوز على النبي ﷺ، وأورد قصصاً ما أنزل الله بها من سلطان، حتى يسوغ لنفسه الهجوم على الصوفية. وسنين التفسير الذي يليق بمقام النبي ﷺ.

التفسير العرفاني:

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «خَرَجَ الإمام أحمد رحمه الله تعالى مِنْ حَدِيثِ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: «اِحْتَسِسَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنِ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَرَأَى عَيْنَ الشَّمْسِ فَخَرَجَ سَرِيعاً فَثُوبَ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ قَالَ لَنَا عَلَى مَصَافِكُمْ كَمَا أَنْتُمْ ثُمَّ انْفَتَلَ إِلَيْنَا ثُمَّ قَالَ أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةُ إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَقَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَبِّ قَالَ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى قُلْتُ لَا أَدْرِي قَالَهَا ثَلَاثًا قَالَ فَرَأَيْتَهُ

(١) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ج ١ ص ١٢٢.



وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيْ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْ فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَبِّ قَالَ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى قُلْتُ فِي الْكُفَّارَاتِ قَالَ مَا هُنَّ قُلْتُ مَشَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ قَالَ فِيمَ قُلْتُ إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَلَيْنُ الْكَلَامِ وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ قَالَ سَلْ قُلْتُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا». وخرَّجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، قال: وسألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا؟ فقال: هذا حديث حسن صحيح^(١).



قلت: وفي هذا الحديث الرد على عبد الرحمن اليوسف في ادعائه أن النبي ﷺ لا يعلم ما في الملأ الأعلى مطلقاً. والمتأمل في كلامه، يجد فيه من الإساءات، والمغالطات، ما لا يحصى. والعجيب، أنه يقول بعد ادعاءاته واتهاماته الباطلة أن من قرأ الكتاب والسنة والسيرة، لعرف أن محمداً ﷺ بشر كالbشر، وأن الصوفية لم يقرؤوا الكتاب والسنة، وينتقد الصوفية، لأنهم يعظمون النبي ﷺ، ويوقرونه، ويعزرونه، كما أمرهم القرآن. وما اتهم به الصوفية من أنهم لم يقرؤوا الكتاب والسنة، لا ينطبق إلا عليه قلباً وقالبا. ولو تأمل في القرآن والسنة والسيرة، لوجدها كلها مدحا وبيانا لفضائل وخصائص سيدنا محمد ﷺ. وسنرد على ادعاءاته الباطلة.

(١) روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي) ج ٢ ص ١٤٨.



أما قوله: «والمهم أنَّ من قرأ القرآن، وعلم شيئاً من الإسلام، ودرس سيرة الرسول ﷺ، حصل العلم الضروري الذي لا يدافع بأن محمداً ﷺ هو عبد الله ورسوله، وأنه وجد يوم وجد على الأرض بشراً كالشعر، لا علم له بشيء مما كان في الملاء الأعلى»، فهو مردود؛ لأن من قرأ القرآن والسيرة، لعلم أنه ﷺ ليس كالشعر العادي، فالقرآن عندما وصفه بالبشرية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. فهل الذي يوحى إليه، ويتحمل رؤية الملائكة، والجن، والسموات، والأرض، والجنة، والنار، والعرش، وما فوق العرش، بشر عادي؟! ولقد ذكرنا في موضع سابق من هذا الكتاب بعض فواضله ﷺ وفضائله، وما خصه الله به قبل النبوة وبعدها، فراجعه!.

وفي آية أخرى ذكر الله ﷻ: إِنَّ مِنْ صفات أهل الكتاب أنهم يهتمون الأنبياء بأنهم بشر معتاد، ولا يؤمنون بهم، قال الله ﷻ: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كُنَّا لَنَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١١﴾ [إبراهيم: ١٠-١١] فتأمل أيها القارئ الحصيف هذه الآية، وستعرف الرد على مثل هؤلاء الناس. فإن القول بأن الأنبياء بشر معتاد، نزعة يهودية نصرانية، قد ذمها الله ﷻ: في كتابه العزيز. وتأمل جواب الأنبياء في نفس الآية، وكيف أنهم يثبتون أن الله ﷻ: قد من عليهم، فهم ليس كباقي البشر، كما ظن أهل الكتاب ومن تأثر بأفكارهم.

أما الرد على قوله من السنة النبوية المطهرة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الْوِصَالِ» قَالُوا: إِنَّكَ

ثَوَّاصِلُ، قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أَطْعَمُ وَأُسْقِي»^(١). وقوله ﷺ في حديث آخر: «أَيْكُمْ مِثْلِي، إِنِّي أَبَيْتُ يُطْعِمَنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي». فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَتَّهُوا عَنْ الْوَصَالِ واصل بهم يوماً، ثُمَّ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَوْا الْهَلَالَ، فَقَالَ: «لَوْ تَأَخَّرَ لِرِدَّتِكُمْ»^(٢). فمن الذي لم يقرأ الكتاب والسنة، أم تؤمنون ببعض الكتاب، وتكفرون ببعض؟!.

أما قوله: بأن النبي لا علم له بالملا الأعلى، مستدلاً بالآية، فمرجوح؛ لأن معنى الآية بـ(دلالة الاقتضاء) والقرائن من الكتاب والسنة سيكون كالاتي والله أعلم: لا علم لي بالملا الأعلى بنفسي، ولكني أعلم ما يحصل هناك بتعليم الله ﷻ لي. وكما ورد في الحديث الذي أورده ابن رجب الحنبلي، والذي رواه الإمام الترمذي، وكما ذكرناه في بداية الكتاب. وهناك حديث آخر، رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: «أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَلَّى الْغَدَاةَ ثُمَّ جَلَسَ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الضُّحَى ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ مَكَانَهُ حَتَّى صَلَّى الْأَوَّلَى وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ كُلَّ ذَلِكَ لَا يَتَكَلَّمُ حَتَّى صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ثُمَّ قَامَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ النَّاسُ لِأَبِي بَكْرٍ أَلَا تَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَأْنُهُ صَنَعَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ يَصْنَعْهُ قَطُّ قَالَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ نَعَمْ عَرِضَ عَلَيَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَأَمْرِ الْآخِرَةِ فَجُمِعَ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ بِصَعِيدٍ وَاحِدٍ فَفَطَعَ النَّاسُ بِذَلِكَ حَتَّى انْطَلَقُوا إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْعَرَقُ يَكَادُ يُلْجِمُهُمْ فَقَالُوا يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ وَأَنْتَ اصْطَفَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ قَالَ قَدْ لَقِيتُ مِثْلَ الَّذِي لَقِيتُمْ انْطَلِقُوا إِلَى أَبِيكُمْ بَعْدَ

(١) البخاري (١٩٦٢)، مسلم (١١٠٢)، أحمد (٥٧٩٥).

(٢) البخاري (٦٨٥١).



أَيُّكُمْ إِلَى نُوحٍ إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ
 قَالَ فَيَنْطَلِقُونَ إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَأَنْتَ اضْطَفَاكَ اللَّهُ
 وَاسْتَجَابَ لَكَ فِي دُعَائِكَ وَلَمْ يَدْعُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا فَيَقُولُ لَيْسَ ذَاكُمْ
 عِنْدِي انْطَلِقُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا فَيَنْطَلِقُونَ إِلَى
 إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَيْسَ ذَاكُمْ عِنْدِي وَلَكِنْ انْطَلِقُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
 وَجَلَّ كَلَّمَهُ تَكْلِيمًا فَيَقُولُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ ذَاكُمْ عِنْدِي وَلَكِنْ انْطَلِقُوا إِلَى
 عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فَإِنَّهُ يُرَى الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ فَيَقُولُ عِيسَى
 عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ ذَاكُمْ عِنْدِي وَلَكِنْ انْطَلِقُوا إِلَى سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ
 عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ انْطَلِقُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى
 رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فَيَنْطَلِقُ فَيَأْتِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَئِذَنْ
 لَهُ وَبَشْرُهُ بِالْجَنَّةِ قَالَ فَيَنْطَلِقُ بِهِ جِبْرِيلُ فَيَخِرُّ سَاجِدًا قَدَرُ جُمُعَةٍ وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 ارْزُقْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ وَقُلْ يُسْمَعُ وَاشْفَعُ تُشَفِّعُ قَالَ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَإِذَا نَظَرَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ خَرَّ سَاجِدًا قَدَرُ جُمُعَةٍ أُخْرَى فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ارْزُقْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ
 وَاشْفَعُ تُشَفِّعُ قَالَ فَيَذْهَبُ لِيَفْعَ سَاجِدًا فَيَأْخُذُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِضَبْعِيهِ فَيَفْتَحُ
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ مِنَ الدُّعَاءِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى بَشَرٍ قَطُّ فَيَقُولُ أَيُّ رَبِّ خَلَقْتَنِي
 سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ وَأَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ حَتَّى إِنَّهُ
 لَيَرِدُ عَلَى الْخَوْضِ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَأَيْلَةَ ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا الصَّادِقِينَ فَيَشْفَعُونَ ثُمَّ
 يُقَالُ ادْعُوا الْأَنْبِيَاءَ قَالَ فَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْخُمْسَةُ وَالسَّتَّةُ
 وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا الشُّهَدَاءَ فَيَشْفَعُونَ لِمَنْ أَرَادُوا قَالَ فَإِذَا فَعَلَتْ
 الشُّهَدَاءُ ذَلِكَ قَالَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ أَدْخِلُوا جَنَّتِي مَنْ كَانَ لَا



يُشْرِكُ بِي شَيْئًا قَالَ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَالَ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ انظُرُوا فِي النَّارِ هَلْ تَلْقَوْنَ مِنْ أَحَدٍ عَمِلَ خَيْرًا قَطُّ قَالَ فَيَجِدُونَ فِي النَّارِ رَجُلًا يَقُولُ لَهُ هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ فَيَقُولُ لَا غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أَسَامِحُ النَّاسَ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَسَمِّحُوا لِعَبْدِي كَاسْمَاحِهِ إِلَى عِبِيدِي ثُمَّ يُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ رَجُلًا يَقُولُ لَهُ هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ فَيَقُولُ لَا غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَمَرْتُ وَلَدِي إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي بِالنَّارِ ثُمَّ اطْحَنُونِي حَتَّى إِذَا كُنْتُ مِثْلَ الْكُحْلِ فَادْهَبُوا بِي إِلَى الْبَحْرِ فَادْرُونِي فِي الرِّيحِ فَوَاللَّهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ لَمْ فَعَلْتَ ذَلِكَ قَالَ مِنْ مَخَافَتِكَ قَالَ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ انظُرْ إِلَى مُلْكٍ أَعْظَمَ مُلْكٍ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَهُ وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهِ قَالَ فَيَقُولُ لَمْ تَسْخَرْ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ قَالَ وَذَلِكَ الَّذِي ضَحِكْتُ مِنْهُ مِنَ الضُّحَى^(١).

فانتبه أيها القارئ الكريم إلى قول الصادق المصدوق: «نَعَمْ عَرِضَ عَلَى مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَأَمْرِ الْآخِرَةِ» ففيه الرد على هؤلاء القوم وأمثالهم، ومن قال بقولهم، فمن نصدق من يتهم النبي ﷺ بعدم العلم، أم الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ؟!.

أما قوله: «بل إنَّ رسول الله عندما جاءه جبريل بالوحي، ظنه شيطانا، وجاء أهله ترتعد فرائصه، وهو يقول: زملوني. وقال للسيدة خديجة رضي الله عنها: لقد خشيت على نفسي. وظن أنَّ الذي أتاه في غار حراء شيطان من الذين ينزلون على الكهان والسحرة». فوالله، ما قال بهذا أحد من أهل العلم، وإنه لاتهم خطير، لم يقله حتى إبليس، بل أنَّ الشيطان برأ ساحة الأنبياء من أنَّ يقربها، وسيأتي بعد صحائف قليلة من هذا الكتاب الإثبات على نبوة النبي ﷺ، من عالم الذر، وفي عالم الأضلاب، ومن أول ولادته، فراجعه!.

(١) الإمام أحمد (١٥).

أما اتهامه للنبي ﷺ بأنه ظن أنَّ جبريل شيطانا، فلا أعلم من أين أتى بهذه الرواية، والعجيب أنه يتهم السادة الصوفية الذين هم كبار علماء الأمة، من زمن التابعين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بعدم اطلاعهم على الكتاب والسنة، والذي قاله لم يقل به، حتى من لم يتعلم من المسلمين.

وسنذكر حديث نزول الوحي، لكي ينظر القارئ، هل فيه ما ادعاه هذا الرجل: عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بَغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِدَلِكِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ»، قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق: ١-٣] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَاِنْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ أَمْرًا تَنْصَرِفُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ



شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمٍّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُؤْفَى، وَفَتَرَ الْوَحْيَ»^(١).

فلا أدري، هل فات من يدعي العلم أن يطلع على أول حديث في صحيح البخاري. ثم كيف يظن أنه شيطان، وهو قد رآه في طفولته في حادثة شق الصدر، ونظر إليه، وقد شق صدره، ولم يغم عليه ولم يرتعد، بل سمع حتى كلام الملائكة، ووعاه ورواه. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ جَبْرِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَّامِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً، فَقَالَ: هَذَا حِطُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِهَاءٍ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغُلَّامُ يُسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ»، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْخِطِّ فِي صَدْرِهِ»^(٢).

ولا نريد أن نسرد الأدلة الطويلة في الرد على هذا الرجل، لأن المسلم المحب لا يقبل ما يتكلم به هذا الرجل، ويرفضه رفضاً قاطعاً دون الاطلاع على الأدلة، لوجود دليل المحبة، والتعظيم، والتنزيه لنبيه ﷺ في قلبه.



(١) البخاري (٣)، مسلم (١٦٠).

(٢) مسلم (١٦٢).

سورة الزمر

الآية الخامسة والثلاثون:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

[الزمر: ٦٦].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «ومعنى الكلام: ولقد أوحى إليك، لئن أشركت ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين، ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ بمعنى: وإلى الذين من قبلك من الرسل من ذلك، مثل الذي أوحى إليك منه، فاحذر أن تشرك بالله شيئاً، فتهلك. ومعنى قوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ولتكونن من الهالكين بالإشراك بالله، إن أشركت به شيئاً»^(١).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «لأن لاحظت غيري، وأثبت معي في الإبداع سواي أحبطت عملك، وأبطلت سعيك، بل الله-يا محمد-فاعبد، وكن من جملة عبادي الشاكرين»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢١ ص ٣٢٢.

(٢) تفسير القشيري ج ٣ ص ٢٩٠.

التفسير العرفاني:

قال التستري قدس الله سره في تفسيره: «لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ» والمقصود من ذلك أمته، فإنهم إذا سمعوا ما خاطب به النبي ﷺ من التحذير، كانوا أشد حذرا»^(١).



قال ابن عجيبة قدس الله سره في تفسيره: «كلام وارد على طريق الفرض، لتهيج الرسل، وإقنات الكفرة، والإيذان بغاية بشاعة الإشراك وقبحه، وكونه بحيث يُنهي عنه مَنْ لا يكاد يمكن أن يباشره بمنّ عداه، أو الخطاب له، والمراد غيره. وإفراد الخطاب مع كون الموحى إليهم جماعة، باعتبار خطاب كل واحد في عصره»^(٢).



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «لَيْنَ أَشْرَكَتَ» وقد علم أنه لا يُشرك، فالمقصود من أشرك من أمته. وهذا مثل قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، فإنه معلوم أنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو على بينة من ربه في مآله، فعلمنا بقرائن الأحوال أنه المخاطب، والمراد غيره لا هو»^(٣).



(١) تفسير التستري ج ١ ص ١١٦.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٥ ص ٩٩.

(٣) رحمة الرحمن في تفسير وإشارات القرآن من كلام الشيخ الأكبر ج ٣ ص ٥٥٨.

قلت: وهذه التفاسير، يتبين أنَّ تفسير الطبري ومن قال بقوله مردود وباطل، فإشراك النبي ﷺ والأنبياء من المستحيل العقلي. وقد أثبت القرآن هذا الأمر، كما بينه المفسرون في التفسير الذي يليق بمقامه.



سورة الشورى

الآية السادسة والثلاثون:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا
الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا
الْإِيمَنُ﴾ يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ما كنت تدري يا محمد، أي شيء الكتاب
ولا الإيمان اللذين أعطيناكهما»^(١).



قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ تَعْلَمُ قَبْلَ
الْوَحْيِ شَيْئًا أَلْبَتَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا
أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾ [يوسف: ٣]^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢١ ص ٥٦٠.

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ج ١ ص ٣٣٢.

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى في تفسيره: «لأن الضلال معناه الجهل، كما قال الله - عز وجل - في نبيه: ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] ضال ليس معناها فاسق، بل معناه أنه جاهل لا يدري، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]»^(١).



قلت: نحن نعلم أن الخطاب للنبي ﷺ، لكن لوجود القرائن على نبوته وأدم بين الروح والجسد، وأن النبوة ذاتية وليست مكتسبة، فالأنبياء منذ ولادتهم أنبياء، وعارفون بربهم، فليس من الأدب أن نقول: إن هذا الخطاب موجه للنبي ﷺ، وهو المعني بهذا الخطاب. أما إذا نظرت إلى كلام ابن عثيمين (غفر الله له)، ستتيقن أنه غير عارف بمقام النبي ﷺ وحقيقته وكمالاته وخصائصه. وإلا كيف سولت نفسه أن يصف النبي بهذا الوصف، ولو أراد أن يتكلم عن ملك من ملوك الدنيا المذنبين الغارقين في بحار الشهوات، لما تجرأ هذه الجرأة ولتأدب معه.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٥٢]»^(٢) اختلف العلماء في هذه الآية مع الإجماع على أنه لا يجوز أن يقال الرسل كانوا قبل الوحي على الكفر، وذكروا في الجواب وجوها؛ الأول، ما كنت تدري ما الكتاب أي القرآن، ولا الإيمان أي الصلاة،

(١) تفسير ابن عثيمين ج ١ ص ٣٦٢.



لقله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي صلاتكم. الثاني، أن يحمل هذا على حذف المضاف، أي ما كنت تدري ما الكتاب، ومن أهل الإيمان، يعني من الذي يؤمن، ومن الذي لا يؤمن. الثالث، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، حين كنت طفلا في المهد. الرابع، الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به، وإنه قبل النبوة ما كان عارفا بجميع تكاليف الله تعالى، بل أنه كان عارفا بالله تعالى، وذلك لا ينافي ما ذكرناه. الخامس، صفات الله تعالى على قسمين؛ منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية. فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة^(١).



قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: قال القشيري: وهو من مجوزات العقول، والذي صار إليه المعظم، أن الله ما بعث نبيا إلا كان مؤمنا به قبل البعثة. وفيه تحكم، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به. قال القاضي أبو الفضل عياض: وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة، فللناس فيه خلاف. والصواب، أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته، والتشكك في شيء من ذلك. وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات الطاف السعادة. ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك، كما عرف من حال موسى، وعيسى، ويحيى، وسليمان، وغيرهم عليهم السلام. قال القاضي: ولم ينقل أحد من أهل الأخبار، أن أحدا نبى واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك

(١) التفسير الكبير ج ٢٧ ص ٦١٤.

قبل ذلك. ومستند هذا الباب النقل. وقد استدل بعضهم، بأن القلوب تنفر عن
كانت هذه سبيله»^(١).



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «قال الله تعالى في معرض
الإمتنان على نبيه ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو قوله: يلقي الروح
من أمره ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ وهو خلو المحل عن كل ما شغله عن قبول
ما أوحى به إليه ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي﴾ يعني هذا المنزل ﴿نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ
عِبَادِنَا﴾ فجاء ب(من)، وهي نكرة في الدلالة مختصة عنده ببعض عباده من نبي
أو ولي ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ بذلك النور الذي هديتك به»^(٢).



قال العلامة الألوسي رحمه الله في تفسيره: «إنَّ المراد شرائع الإيمان ومعامله،
مما لا طريق إليه إلا السمع. وإليه ذهب محيي السنة البغوي، وقال: إنَّ النبي ﷺ
كان قبل الوحي على دين إبراهيم عليه السلام، ولم تتبين له عليه الصلاة والسلام
شرائع دينه. ولا يخفى أنه إذا لم يعتبر كون الكلام على حذف مضاف، يلزمه إطلاق
الإيمان على الأعمال وحدها، وهو خلاف المعروف. وقال الحسين بن الفضل: أي
أهل الإيمان، أي لا تدري من الذي يؤمن، وأنت تدري أنه لا يرتضي هذا إلا من
لا يدري. وإذا كان بعض إخوانه من الأنبياء عليهم السلام قد أوتي الحكم صبيًا،
ابن سنتين أو ثلاث، فهو عليه الصلاة والسلام أولى بأن يوحى إليه ذلك النوع

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٦ ص ٥٥.

(٢) الفتوحات المكية ج ٤ ص ٤١٢، طبعة دار الكتب العلمية.



من الإحياء صبياً أيضاً. ومن علم مقامه ﷺ، وصدق بأنه الحبيب الذي كان نبياً و آدم بين الماء والطين، لم يستبعد ذلك فتأمل»^(١). وقيل: أشير هذا الإحياء في هذه النشأة وكان له ﷺ في كل حال من أحواله فيها نوع من الوحي. والدراية المنفية إذ كان عليه الصلاة والسلام في كينونته، وقبل إخراجه منها بتجلي كينونته عز وجل. وإلا، فهو ﷺ نبي، ولا آدم، ولا ماء، ولا طين، ولا يعقل نبي بدون إحياء، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو التوحيد السليم من زوايا الأغيار، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^(٢).



قال الشيخ صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي ما كنت واقفاً على أسرار الخطاب، وحقيقة المعرفة في زمان غيبتك؛ إذ زيتتك باللطاف في حجب الغيب، ثم تجلي لك نور القرآن الذي ظهر منه نور العرفان، فصار العرفان إيمانك والقرآن عرفانك، فإيمانك العرفان، وعرفانك القرآن، فصار الإيمان والعرفان والقرآن من حيث عين الجمع واحداً، إذ جميعها صدر من صفة القدم بالتجلي والتدلي والظهور»^(٣).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «ومعنى عدم دراية الكتاب: عدم تعلق علمه بقراءة كتاب أو فهمه. ومعنى انتفاء دراية الإيمان:

(١) تفسير روح المعاني الالوسي ج ١٣ ص ٥٧.

(٢) تفسير روح المعاني الالوسي ج ١٣ ص ٦٢.

(٣) عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٣ ص ٢٧٣.



عدم تعلق علمه بما تحتوي عليه حقيقة الإيمان الشرعي، من صفات الله وأصول الدين. وقد يطلق الإيمان على ما يرادف الإسلام، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] وهو الإيمان الذي يزيد وينقص، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المائدة: ٣١]. فيزداد في معنى عدم دراية الإيمان، انتفاء تعلق علم الرسول صلى الله عليه وسلم بشرائع الإسلام. فانتفاء درايته بالإيمان، مثل انتفاء درايته بالكتاب، أي انتفاء العلم بحقائقه، ولذلك قال: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي﴾ ما كنت تدري، ولم يقل: ما كنت مؤمناً. وكلا الاحتمالين لا يقتضي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن مؤمناً بوجود الله، ووحدانية إلهيته قبل نزول الوحي عليه؛ إذ الأنبياء والرسل معصومون من الشرك قبل النبوة، فهم موحدون لله، ونابدون لعبادة الأصنام، ولكنهم لا يعلمون تفاصيل الإيمان. وكان نبينا صلى الله عليه وسلم في عهد جاهلية قومه، يعلم بطلان عبادة الأصنام. وإذا كان قومه يشركون مع الله غيره في الإلهية، فبطلان إلهية الأصنام عنده تمحضه لإفراد الله بالإلهية لا محالة. وقد أخبر بذلك عن نفسه فيما رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» عن شداد بن أوس، وذكره عياض في «الشفاء»: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما نشأت - أي عقلت - بغضت إلى الأوثان، وبغض إلى الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، فعصمني الله منهما، ثم لم أعد». وعلى شدة منازعة قريش إياه في أمر التوحيد، فإنهم لم يحاجوه بأنه كان يعبد الأصنام معهم. وفي هذه الآية حجة للقائلين بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبداً قبل نبوئته بشرع^(١).



(١) التحرير والتنوير ج ٢٥ ص ١٥٣.

قال الشيخ محمد الشريف الحسني: «يقول الإمام الكتاني قدس الله سره: فإن قلت: ما معنى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلَيْمُنُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾. قلت: لك أن تقول: إن هذا النفي منصوب على الكينونة الماضية، وهي عبارة عن حال عدمه؛ إذ له بداية. وهذا يرشدك له قوله: ﴿كُنْتَ﴾ الدالة على الماضي. والآية خرجت في معرض الامتنان، فكأن الحق يقول: إنك في حال عدمك، لا تدري الكتاب، ولا الإيمان. واليوم أنت تدري الكتاب والإيمان، بل أنت الكتاب والإيمان، بل أنت مبني الفواتح ومعناها، ومكنون باطن الأم ومعناها»^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعا: «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، إشارة إلى اللحظة اللطيفة التي بين خلق روحه ﷺ، وجعلها رحمة للعالمين، وبين تجلي القرآن على هذه الروحانية، لتثبت بها نبوته، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَلْفَلَقِ الْقُرْآنِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، أي لم يُثبت هنا واسطة وحي، بل منه سبحانه إلى روح نبيه مباشرة، قبل خلق آدم ومن عداه. ولذا قال «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين». ودليلنا على أنه أعطاه القرآن في حال روحانيته قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣﴾ [الرحمن: ١-٣]، علم القرآن قبل خلق الإنسان؛ إذ علمه للروحانية.

فالتفسير الذي نقول به: ما كنت تدري ما الكتاب حال خلقك نورا، قبل

(١) الكثر المطلسم: ص ٢٥.



أن نعطيك القرآن حال روحانيك، فصرّت نبيا. والله ﷻ بين جميع مراحل النبي ﷺ منذ بداية خلقه، فكان نوراً أولاً: ﴿نُورِهِ كَمِثْكَوْفٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] ثم جعله روحاً للعوالم، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٠٧] [الأنبياء: ١٠٧]، لذلك قال بعدها: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [١٠٨] [الأنبياء: ١٠٨]، ولم يقل: إنما أنا بشر، ثم أوحى إليه القرآن إجمالاً حال روحانيته، لتثبت له النبوة قبل خلق آدم، في قوله: ﴿وَلَنَّاكَ لَنَلْقَى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [١٠٩]، ثم أثبت الإرسال البشري الذي فيه الهداية في هذه الآية، فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَهْدِيْكَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ثم أثبت له الوحي حال بشريته، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾ [الشورى: ٥١].



قلت: تبين من خلال كلام المفسرين، أن الآية لا تعني عدم معرفة النبي ﷺ بالله قبل النبوة، والأمر كما بيّنه المفسرون، جزاهم الله خيراً. فمنهم من حمل الخطاب على ما يليق به في حال بشريته قبل النبوة، كما فعل الإمام الرازي، والقرطبي، والقشيري، وابن عاشور. ومنهم من حمل الخطاب في وقت روحانيته، كما فعل الشيخ البقلي، والشيخ الكتاني، والشيخ الدكتور يسري جبر، فخذ أي الآراء شئت، فجميعها منزّهة لمقام النبي ﷺ. وقول الشيخ البقلي، والشيخ الكتاني، والشيخ يسري جبر، وهو ما نميل إليه ونرجحه؛ لأن النبي ﷺ هو أكمل العارفين معرفة لربه في حال روحانيته، وفي حال بشريته منذ أول يوم ولد فيه، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، إلى وقوفه للشفاعة العظمى، حتى دخول أهل الجنة

الجنة. ففي كل طور من هذه الاطوار، لم تنقطع تجليات الحق ﷻ: عنه طرفة عين، وفي كل طور يكون التجلي بما يناسب مقامه وحاله، فهو أكمل العارفين بالله في جميع أطواره وأحواله:

النور المحمدي أول المخلوقات

تكلم العارفون بالله عن هذا الأمر كثيرا في كتبهم، وقصائدهم، ومواقفهم، وصلواتهم، وقالوا: إن أول ما خلق الله تعالى النور المحمدي، ومنه خلقت الأكوان، وكملت الأركان. واختلفت عبارات العارفين في التعبير عن هذا الأمر؛ نثرا وشعرا. ونحن هنا في صدد تقرير هذا الأمر بالأدلة من الكتاب والسنة.

١ - قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَبَضَرِبُ اللَّهُ الْأَمْثِلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥]

قال البغوي رحمه الله تعالى: «وَقَعَ هَذَا التَّمْثِيلُ لِنُورِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِكَعْبِ الْأَخْبَارِ: أَخْبَرَنِي عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ كَمِشْكَوْفٍ ﴿﴾ قَالَ كَعْبٌ: هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَالْمِشْكَاةُ صَدْرُهُ، وَالزُّجَاجَةُ قَلْبُهُ، وَالْمِصْبَاحُ فِيهِ النُّبُوَّةُ تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ هِيَ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، يَكَادُ نُورُ مُحَمَّدٍ وَأَمْرُهُ يَتَبَيَّنُ لِلنَّاسِ، وَلَوْ لَمْ يَتَكَلَّمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ، كَمَا يَكَادُ ذَلِكَ الزَّيْتُ يُضِيءُ، وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ. وَرَوَى سَالِمٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: الْمِشْكَاةُ جَوْفُ مُحَمَّدٍ، وَالزُّجَاجَةُ قَلْبُهُ، وَالْمِصْبَاحُ النُّورُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ، لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا

غربية، لا يهودي ولا نصراني، تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ إِبْرَاهِيمَ، نُورٌ عَلَى نُورٍ قَلْبُ
إِبْرَاهِيمَ، وَنُورٌ قَلْبُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أهـ^(١).



وقال السمرقندي رحمه الله تعالى: «**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**» يعني
الله مرسل الرسل إلى أهل السموات وأهل الأرض، **﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾** يعني مثل نور
محمد صَلَّى الله عليه وسلم، فسماه نورا، كقوله: **﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ
وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾** [المائدة: ١٥]. ثم قال: **﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾**،
يعني: مثل نور محمد صَلَّى الله عليه وسلم في صلب أبيه^(٢).



وقال سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمته الله في هذه الآية: «في المشكاة إشراق
الوحي، ومصباح الزجاجة إبلاغ ما يوحى إليه، نور على نور؛ إذ سطع نور النبوة
في زجاجة مشكاة القلب، جلّيت مرآة فؤاده، فأبصر بها غائب الغيب، خوطب
بلسان بلغ فانخرق لعين عقله منفذ إلى الملاء الأعلى، وعُرضت عليه مخبات لطائف
الأزل، فصار ترجمانا بين الحادث والقديم»^(٣).



قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي رحمته الله: «قال تعالى: **﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾** فشبه نوره بالمصباح. فلم يكن أقرب إليه تعالى قبولا في ذلك

(١) تفسير البغوي ج ٣ ص ٤١٧.

(٢) تفسير السمرقندي ج ٢ ص ٥١٤.

(٣) بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب الباز الأشهب الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٢٩٤.

الهباء إلا حقيقة محمد ﷺ المسماة بالعقل. فكان سيد العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود. فكان وجوده من ذلك النور الإلهي ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية. وفي الهباء وجد عينه، وعين العالم من تجليه، وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب، وأسرار الأنبياء»^(١).



وأشار إلى هذا المعنى مفتي الديار العراقية الشيخ الدكتور رافع الرفاعي في تسبيحه لقصيدة البردة:

محمدٌ نورُهُ المشكاةُ والقبسُ لو أنَّ موسى رآه راحَ يَقبسُ
هو الهدى والهوى والروح والنفسُ وبشرُهُ في وجوه الرسلِ مُنعكسُ
وهم هداةٌ إذا ما الناسُ قد يسوا وكلُّهم من رسولِ الله ملتمسُ
غرفاً من البحرِ أو رشفاً من الدِّيمِ



وقال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه في تفسير هذه الآية: «أي هو ﷺ: منور السموات والأرض، ومُظهرها، مثل نوره الذي أظهر به السموات والأرض وهو النور المحمدي الذي خلقه. ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ كِمَشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ» وهو المنير في ذاته، وفي قراءة (دريء) وهو المنير لغيره. فنوره الذي خلقه ونسبه إليه تشريفا، هو سيدنا محمد ﷺ، فهو نور الشريعة، ونور الحقيقة يهدي الله لنوره من يشاء».



(١) الفتوحات المكية ج ٢ ص ١٣٦.



قلت: ويكون المعنى لهذه الآية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي الله ﷻ: منور السموات والأرض بعد أن كانت عدماً، فأوجدها وأظهرها بالنور المحمدي المشار إليه: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الذي خلقه فنور به السموات والأرض ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ إشارة إلى الجسد المحمدي ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ إشارة إلى قلبه ﷻ ﴿الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ إشارة إلى صدره الشريف ﷻ ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ فهو المضيء في ذاته، والمضيء لغيره، فأضاء الله به الأكوان، وأضاء الله به الطريق لمن أراد الوصول إليه. ﴿يُوقَدُ مِنْ﴾ أي يمد الله هذا الجسد، والصدر، والقلب، بالأنوار، والأسرار، والوحي، ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مَبْرُكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فهذا النور المبارك لا ينقطع؛ لأن مصدره من الله، لا من الشرق فيغرب، ولا من الغرب فيغيب، ولكن يمد بالأنوار من كل الجهات، وفي كل الأزمنة. ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لأنه نور ذاتي تتخلله الرحمة، فصار رحمة للعالمين. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي نور الحق على نور الحقيقة المحمدية. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يهدي الله لنور الحقيقة المحمدية من يشاء من أهل التحقيق، ويهدي من يشاء من إلى الإسلام فيسلم، ومن أهل الإيمان فيترقى به إلى أعلى مقامات الإيمان، ومن أهل الاحسان فيصلون به إلى مقام «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فيهدي الله أهل المقامات الثلاث إلى أن يتعرفوا عليه، ويستمدوا منه، كل على حسب حاله ومقامه. وهناك وجه بين نوره ﷻ ونور المصباح الذي في المشكاة، وهو أنه لولا نور المصباح الذي في الزجاجة التي في المشكاة، ما ظهرت الأشياء في الغرفة المظلمة، وكذلك لولا نوره ﷻ ما ظهرت الأشياء من العدم إلى الوجود، ولا رُئيت.

٢- قال الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١].

وهذه النفس لها معنيان:

المعنى الأول: هو سيدنا محمد ﷺ حيث له الأولوية المطلقة في الخلق، ومن نوره خلقت الأكوان، وبمدد روحانيته قامت الأكوان، ولقد ورد في الخبر عن جابر بن عبد الله قال قلت: يا رسول الله، بأي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء، قال (نور نبيك يا جابر)^(١)، وهو الأب الروحي للأكوان لأنه ﷺ القائل (أنا منكم بمنزلة الوالد من ولده)^(٢)، وقال ابن الفارض في تائيته مشيراً إلى هذا المعنى:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

المعنى الثاني: هذه النفس سيدنا آدم عليه السلام، ولا تضارب بين المعنيين، فسيدنا محمد ﷺ له الأولوية المطلقة، وأولية سيدنا آدم عليه السلام أولية إضافية. وإلى هذا المعنى أشار العارفون في كتبهم، وسنذكر أقوالهم فيما يلي:

- (١) حديث جابر أورده العجلوني في كشف الخفاء (٨٢٧)، ابن حجر الهيتمي في كتابه (المنح المكية في شرح الهمزية ص ٩٤) علي القاري في مرقة المفاتيح (١/ ٢٤٠) النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن (سورة البقرة آية ١٢٧) تفسير الشيخ الشعراوي في تفسير سورة المائدة في قوله (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) المجلد ٥ ص ٤٠١.
- (٢) أبوداود (٨): عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ (إنما أنا منكم بمنزلة الوالد، أعلمكم فإذا جاء أحد منكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها) و البغوي في شرح السنة (١٧٣).



قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي قدس الله سره «لما كان الهباء أصل الوجود، وتجلي له اسمه تعالى النور، من حضرة الجود كان الظهور، فقبلت صورته عن من هذا الهباء فيض ذلك النور، فظهرت صورة مثلية، مشاهدا عينية، ومشارها غيبية، وجنتها عدنية، ومعارفها قلمية، وعلومها يمينية، وأسرارها مدادية، وأرواحها لوحية، وطينتها آدمية، فهو ﷺ أب لنا في الروحانية، كما كان آدم صلى الله عليه وآله عليه أبنا في الجسمية، قال ﷺ في حديث جابر رضي الله عنه «**أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر**» فكان ﷺ النفس الواحدة التي خلق منها زوجها، وبه وجد الوجود، فآدم زوجها من وجه، لأنه أكمل مخلوق مقابل لها في الوجود، فهو بهذه النسبة أم، ثم هو أب بالنسبة إلى ذريته وحواء أم، فهي زوجة، فإن رسول الله ﷺ آدم أبوة النبوة، كما أن آدم عليه السلام آدم أبوة الطين، قال ﷺ: «**كنت نبياً وآدم بين الماء والطين**» فكان ﷺ النفس الواحدة التي خلق منها زوجها، فإنه ما من نبي - من آدم إلى عيسى - يأخذ إلا من مشكاته، التي هي فلك الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فهو نازل من حيث روحانيته إلى كل نبي لما أنزل إليه إن فهمت وإن تأخرت طينته، وذلك معنى قوله «**كنت نبياً وآدم بين الماء والطين**» ولذلك تأخر وجود طينته إلى ختم النبوة، فإن البداية هي النهاية، وغيره ما كان نبياً إلا بعد استعداده لنزوله عليه، فكان نبياً حين بعث بفيض الحياة من مشكاته، ولم يتحقق بها ما تحقق بها ﷺ، وقد نبه على ذلك بقوله: «**مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى قصراً أحسن بنيانه، وترك فيه موضع لبنة، فطاف بها النظر يتعجبون من حسن بنائه إلا موضع تلك اللبنة، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة، ختم بي البنيان وختم بي الرسل**» وفي رواية «فأنا اللبنة



وأنا خاتم النبيين» ومما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله عن أول شيء خلقه الله تعالى فقال : هو نور نبيك يا جابر، خلقه الله تعالى، ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء الحديث بطوله.

إشارة: قوله تعالى ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وقوله تعالى: «ونفخت فيه من روحي» دليل على أن الأجسام من جسم واحد، والأرواح من روح واحدة، تنبيه على أن العالم وجد من واحد، لا إله إلا هو العليم القدير^(١).

قال نجم الدين الأسدي: أن الله تعالى يذكر الناس ببدء خلقتهم بالأشباح والأرواح بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورًا رِبَكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] فإنهم كما خلقوا بالأشباح عن نفس واحدة وهي شبح آدم عليه السلام، كذلك خلقوا بالأرواح عن نفس واحدة وهي روح محمد صلى الله عليه وسلم، لقوله: «أول ما خلق الله روحي»، فكما أن آدم عليه السلام بالشبح كان أبا البشر، كان محمد صلى الله عليه وسلم بالروح أبا الروح، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]؛ وهي النفس، خلقها من أدنى شعاع من أشعة أنوار روح محمد صلى الله عليه وسلم^(٢).

قال الشيخ عبد القادر الجزائري: «خلقكم من نفس واحدة، حقيقة واحدة هي «الحقيقة المحمدية» المسماة بالعقل الأول وبالقلم الأعلى، فالمخلوقات كلها منها، إلى غير نهاية. .. فهي الأصل والمنبع، فهي «دواة العالم»، والعالم جميعه الحروف المستخرجة منها، سواء المخلوقات الروحانية والجسمانية الطبيعية والعنصرية.

(١) رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن ج ١ ص ٤٩٢.

(٢) التأويلات النجمية ج ٢ ص ١١٣.

وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] ف «الواو» لا تفيد ترتيباً. فإن خلق الزوجة مقدم، وهي «النفس الكلية» المسماة باللوح المحفوظ، خلقها منه، كما خلق حواء من آدم ﷺ. يقول الشيخ محيي الدين ﷺ: «النفس خطرة من خطرات العقل الأول، وهي محل تفصيل ما أجمل في العقل الأول من العلوم»^(١).



٣- قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: ٨١] أي أنا أول العابدين، حيث كنت روحاً بين يدي ربي، فلم أرَ والداً ولا ولداً، كما تدعون.

قال علاء الدين الخازن رحمه الله تعالى: «معناه: إن كان للرحمن ولد في قولكم، وعلى زعمكم، فأنا أول من عبد الرحمن، فإنه لا شريك له ولا ولد له»^(٢).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى: «قال جعفر الصادق: أول ما خلق الله نور محمد ﷺ قبل كل شيء، وأول من وحد الله عز وجل من خلقه، ذرة محمد ﷺ، وأول ما جرى به القلم «لا إله إلا الله محمد رسول الله. اهـ، قاله الورعجي.

ففي الآية إشارة إلى أسبقيته ﷺ، وأنه أول تجلٍّ من تجليات الحق، فمن نوره انشقت أسرار الذات، وانفلقت أنوار الصفات، وامتدت من نوره جميع الكائنات»^(٣).

(١) المواقف ج ١ ص ٣٠٢، الموقف ١٥٥.

(٢) تفسير الخازن ج ٤ ص ١١٤.

(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٧ ص ٥٧.

٤- قال الله ﷻ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُوثُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] أثبت الله تعالى أنَّ السموات والأرض وما فيهن أسلموا طوعاً وكرهاً، وأول من أسلم هو سيدنا محمد ﷺ بدليل قوله تعالى ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

وقوله تعالى في آية أخرى ﴿وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٢]. قال القرطبي رحمه الله تعالى: «أَنَّهُ أَوَّلُ الْخَلْقِ أَجْمَعِ مَعْنَى، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ». وَفِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُقْضِي هُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»، أَنَّهُ أَوَّلُهُمْ لِكَوْنِهِ مُقَدِّمًا فِي الْخَلْقِ عَلَيْهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]. قَالَ قَتَادَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كُنْتُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ وَآخِرُهُمْ فِي الْبَعْثِ». فَلِذَلِكَ وَقَعَ ذِكْرُهُ هُنَا مُقَدِّمًا قَبْلَ نُوحٍ وَغَيْرِهِ»^(١).



وقال السمرقندي رحمه الله تعالى: «أول المسلمين يوم الميثاق»^(٢).



(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٥٥.

(٢) تفسير السمرقندي ج ١ ص ٥٠٠.

قال الألوسي رحمه الله تعالى: «هذا إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام أول ما خلق الله تعالى نوري»^(١).



وقال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى: «قد تكون الأولوية في الزمن، وقد تكون الأولوية في مقارنة الأزمان بعضها ببعض. فإذا قال رسول الله من الرسل: أنا أول المسلمين، فالمراد أول المسلمين في زمانه، وإذا قال محمد ﷺ أنا أول المسلمين، فالمراد أول المسلمين من لدن آدم إلى قيام الساعة، يعني: أنا وإن تأخر زمني، إلا أنني الأول إذا أخذنا الرتبة ساعة التكليف، ثم إن غيري من الرسل بعث إلى زمن بعينه، في مكان بعينه، وأنا بعثت للناس كافة في كل زمان ومكان. ثم إنني خاتم الرسل، فلا رسالة بعدي، ولا معقب من الرسل على رسالتي. هذه كلها حيثيات الأولوية عند رسول الله، وهي حيثيات ظاهرة لا تنكر، لذلك نجد الأولوية دائماً على لسان رسول الله ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: ٨١].^(٢)



قلت: وبهذا نستدل على أنه أول المخلوقات خلقاً، فكان أول المخلوقات إسلاماً، ولم يقل أحد: أنا أول المسلمين، إلا نبينا ﷺ.



(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج ٨ ص ٧١.

(٢) تفسير الشعراوي ج ١٧ ص ٥٧٧.

٥- قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٠٧] [الأنبياء: ١٠٧]
ومن المعلوم أنَّ كل ما سوى الله يسمى عالم، قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى:
«والتعريف في ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ لَا سِتِّغْرَاقُ كُلِّ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْعَالَمِ»^(١).

ومادام الله تعالى جعله رحمة للعوالم، فلزم وجوده قبل خلق العوالم؛ لكي
يُمد العوالم بهذه الرحمة، فيخرجها من العدم للوجود، على وفق علمه بتوجه مشيئته
لتخصيص قدرته، فيتم المراد على وفق الإرادة الإلهية. فلما أراد الله تعالى أن يوجد
العوالم على الوجه الأكمل، خلق النور المحمدي، فتمثل في الروحانية المحمدية،
فأمد العوالم بسريان هذه الرحمة فيها، فوجدت على الوجه الأكمل. وإليك بعض
أقوال أهل التفسير في تفسير هذه الآية.

قال المظهري رحمه الله تعالى: «الحقيقة المحمدية عند أهل التحقيق، هو
التعين الأول بفيوض الوجود، ومراتب القرب. ومنها مرتبة كونه يوحى إليه كلياً
لله، لا يصل في أحد إلا بتوسط الحقيقة المحمدية. وهذا أمر كشفي، ويشهد من
النصوص قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٠٧] [الأنبياء: ١٠٧].»^(٢)



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى: «قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله
عنه: الأنبياء- عليهم السلام- خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ هو عين الرحمة»^(٣).



(١) التحرير والتنوير ج ١٧ ص ١٦٦.

(٢) تفسير المظهري ج ١٠ ص ٢٠٩.

(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٥٠٧.



وقال السمرقندي رحمه الله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أي لجميع الخلق؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف؛ مؤمن، وكافر، ومنافق. وكان رحمة للمؤمنين، حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين، حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب. وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «من آمن بالله ورسوله فله الرحمة في الدنيا والآخرة، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ عَوفِي أَنْ يَصِيبَهُ مَا كَانَ يُصِيبُ الْأُمَمَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَهُوَ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ». وذكر في الخبر: أن النبي صَلَّى الله عليه وسلّم قال لجبريل عليه السلام: يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧)، فهل أصابك من هذه الرحمة؟ قال: «نعم أصابني من هذه الرحمة. إني كنت أخشى عاقبة الأمر، فأمنت بك لثناء أثنى الله تعالى عليّ، بقوله عز وجل ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢٠) مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ ﴿٢١﴾ [التكوير: ٢١]» (١).



وقال العلامة الألوسي رحمه الله تعالى: «وكونه ﷺ رحمة للجميع باعتبار أنه عليه الصلاة والسلام واسطة الفيض الإلهي على الممكنات على حسب القوابل، ولذا كان نوره ﷺ أول المخلوقات، ففي الخبر: «أول ما خلق الله تعالى نور نبيك يا جابر»، وجاء: «الله تعالى المعطي وأنا القاسم». وللصوفية - قدست أسرارهم - في هذا الفصل كلام فوق ذلك، وفي «مفتاح السعادة» لابن القيم: «أنه لولا النبوات، لم يكن في العالم علم نافع البتة، ولا عمل صالح ولا صلاح في معيشة، ولا قوام لمملكة، ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية، والكلاب الضارية، التي يعدو بعضها على بعض. وكل خير في العالم، فمن آثار النبوة. وكل شر وقع في

(١) تفسير السمرقندي ج ٢ ص ٤٤٥.

العالم، أو سيقع، فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها. فالعالم جسد، روحه النبوة، ولا قيام للجسد بدون روحه. ولهذا، إذا انكسفت شمس النبوة من العالم، ولم يبق في الأرض شيء من آثارها البتة، انشقت سماءه، وانتشرت كواكبه، وكوّرت شمسها، وخسف قمره، ونسفت جباله، وزلزلت أرضه، وأهلك من عليها، فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة اهـ»^(١).



وقال إسماعيل حقي رحمه الله تعالى: «قال بعض الكبار ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ مطلقة، تامة، كاملة، عامة، شاملة، جامعة، محيطية بجميع المقيدات من الرحمة الغيبية، والشهادة العلمية والعينية، والوجودية، والشهودية، والسابقة، واللاحقة، وغير ذلك. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ جمع عوالم، ذوي العقول وغيرهم، من عالم الأرواح والأجسام. ومن كان رحمة للعالمين، لزم أن يكون أفضل من كل العالمين...». ثم قال: قال في «عرائس البقلي»: «أيها الفهيم، إن الله أخبرنا أن نور محمد عليه السلام أول ما خلقه، ثم خلق جميع الخلائق من العرش إلى الثرى من بعض نوره، فأرساله إلى الوجود والشهود، رحمة لكل موجود؛ إذ الجميع صدر منه. فكونه كون الخلق، وكونه سبب وجود الخلق، وسبب رحمة الله على جميع الخلائق، فهو رحمة كافية. وافهم، أن جميع الخلائق صورة مخلوقة، مطروحة في فضاء القدرة بلا روح حقيقة، منتظرة لقدوم محمد عليه السلام. فإذا قدم إلى العالم، صار العالم حيا بوجوده؛ لأنه روح جميع الخلائق»^(٢).

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج ٩ ص ١٠٠.

(٢) روح البيان ج ٥ ص ٥٢٨.



وعن علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم أَنَّ النبي ﷺ قال: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام»^(١). وعن جابر بن عبد الله قال، قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء، قال: «نور نبيك يا جابر»^(٢). ونقول لمن يقول إنَّ هذا الحديث ضعيف: «إنَّ العلماء والمفسرين يعلمون بضعفه، لكنهم أوردوه في كتبهم، لعلمهم أنَّ الحديث إذا وافق آية قرآنية، انتقل من الضعيف إلى الحسن لغيره. وكما نرى، أنَّ الحديث وافق الآية التي ذكرناها أولاً، وتقوى بحديث علي بن الحسين الذي ذكرناه ثانياً. وأيضاً أنَّ الله تعالى وصف نبيه بالنور في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال ﷺ: «أول ما خلق الله نوري»^(٣)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال إنَّ النبي ﷺ سأل جبريل فقال: «يا جبريل كم عمرت من السنين؟ فقال يا رسول الله لست أعلم، غير أنَّ في الحجاب الرابع نجم يطلع في كل سبعين ألف سنة، ورأيتُه اثنين وسبعين مرة»، فقال ﷺ:

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٨٢٧، ٢٠٠٧) وأورده القسطلاني في (المواهب اللدنية بالمنهج المحمدية) ج ١ ص ٤٩ (باب تشريف الله تعالى له، وأورده الشيخ المحدث عبد الله سراج الدين في كتابه (هدى القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان ص ٢٠٦).

(٢) حديث جابر أورده العجلوني في كشف الخفاء (٨٢٧)، ابن حجر الهيتمي في كتابه (المنح المكية في شرح الهمزية ص ٩٤) علي القاري في مرقاة المفاتيح (١/ ٢٤٠) النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن (سورة البقرة آية ١٢٧) تفسير الشيخ الشعراوي في تفسير سورة المائدة في قوله (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) المجلد ٥ ص ٤٠١.

(٣) أورده علي القاري في مرقاة المفاتيح الفصل الثاني ج ١ ص ٢٧٠، والحلي في السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٤٠، والنيسابوري في تفسيره غرائب القرآن في تفسير الآية ١٢٧ من سورة البقرة، والإمام الفاروقي في مكتوباته المجلد ٣ ص ١٧٤ المکتوب ١٢١، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ج ١ ص ٥٤.

«يا جبريل وعزة ربي، أنا ذلك الكوكب»^(١). وقوله ﷺ: «جعلني فاتحاً وخاتماً»^(٢) أي افتتح بي الوجود، وختم بي الرسالات. وهذه الأحاديث يقوي بعضها بعضاً، وتتقوى جميعها بموافقتها للآيات القرآنية.



٦- قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] والإشارة في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ والنبي ﷺ يقول: «وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣)، ويقول ﷺ: «جعلني فاتحاً وخاتماً»، ويقول: «أنا أول الناس خروجا إذا بُعِثُوا وَأَنَا خَطِيئُهُمْ إِذَا وَفَدُوا وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيْسُوا لِيَوْمِ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ»^(٤). فإذا جمعنا بين قول الله ﷻ وقول النبي ﷺ، سيتبين لنا أنه ﷺ أول الخلق في الأكوان، فكانت الإعادة صورة للبداية. فلما كان ﷺ الأول في الإعادة، دل على أنه كان الأول في البداية ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾. وكل ذلك من حيث الحقيقة الروحانية، لا من حيث الصورة البشرية. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَأَوَّلُ شافعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ»^(٥). فله أولية في الخلق، وفي البعث، وفي الشفاعة، وفي دخول الجنة.

(١) أورده علي الحلبي في السيرة الحلبية ج ١ ص ٢١٤

(٢) البيهقي في شعب الايمان (٤٨٣٧)، البزار في مسنده (٩٥١٨) بلفظ (وجعلتك فاتحاً وخاتماً)، وعبد الرزاق في مصنفه (١٠١٦٣)،

(٣) البخاري (٢٤١٢)، الترمذي (٣١٤٨).

(٤) الترمذي (٣٩٩٦)، والدارمي (٥٠)، وأحمد (٣٩٨).

(٥) أبو داود (٤٦٧٣) والترمذي (٣١٤٨) وابن ماجه (٤٣٠٨) واحمد (١٠٩٧٢).



إثبات النبوة في طور الروحانية:

أثبتنا بالأدلة القطعية من الكتاب والسنة، أَنَّ النبي ﷺ نبي من عالم الذر. والنبي لا يكون نبياً، إلا بوحى وكتاب، وبإعلام الله تعالى له، فيصير عارفاً بالله تعالى، وبصفاته، وأسمائه، وتجلياته. وهذا ما سنبينه في هذا المبحث:

١- قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] الإشارة هنا في كلمة (ربك) فالخطاب متوجه للروحانية المحمدية؛ لأن له الحظ الأعظم من هذه الخلافة، فهو الخليفة الأعظم، وهو الأب الروحي للأكوان، قال ابن الفارض في تائيته مشيراً إلى هذا المعنى:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

وقال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي رحمه الله: « قرن التعريف لمحمد ﷺ بالاسم الرب الذي هو المصلح، وأضافه إلى سيدنا محمد ﷺ اعتناءً به أنه المقصود من هذه النشأة، إذ كان سيد الناس يوم القيامة، وأخفى في الدنيا ما يجب من تعظيمه لعمو منزلته، كما أخفى ما يستحقه جل جلاله من تعظيم عباده، وأطلق الألسنة عليه بأن له صاحبة وولداً، وما وقع به التعرف مما لا يليق به، كذلك قيل فيه ﷺ إنه ساحر مجنون كذاب، وغير ذلك، فإذا كان يوم القيامة وظهر الحق سبحانه وكبريائه، وذل كل موجود تحت عزته على الكشف، وذهبت الدعاوي،



وتبرأ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتَّبَعُوا، ظهر في ذلك اليوم مقام سيدنا محمد ﷺ وسيادته على الناس^(١).

يقول الشيخ يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «الخطاب في قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾ فكاف الخطاب إشارة إلى أن النبي ﷺ كان مخاطبا قبل خلق سيدنا آدم ﷺ، فالخطاب للروحانية المحمدية، فهو الإنسان الكامل في الحقيقة، وهو الخليفة بحق، وهو المراد بخطاب الله تعالى، فهو الذي جعله نبيا وآدم بين الروح والجسد، وهو الذي جعله فاتحا وخاتما، وهو الذي جمع الله فيه النبوات، ومنه تفرقت في سائر الأنبياء، لأنه القائل: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي﴾^(٢).



٢- قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾^(١٨١) [الزخرف: ٨١] ومن المعلوم أن العباد لا تكون إلا من بعد المعرفة. فلما أراد الله تعالى أن نعبده، ونتعرف إلى أسمائه وصفاته، أرسل لنا الرسل، مبشرين ومنذرين، وأرسل معهم الكتب، حتى نتعلم كيف نعبده، ونتقرب إليه. وكما أخبر القرآن الكريم، فالنبي ﷺ هو العابد الأول قبل خلق الخلق، وهو العارف الأول. وما استمد العارفون أسباب معرفتهم، إلا منه ﷺ. لذلك لم يقل مخلوق: أنا أول العابدين، إلا سيدنا محمد ﷺ. وقالها بأمر من الله ﷻ، ليبين مكانته، وأنه العبد الأول، والعبد الأكمل. وقال: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٨٢) لا شريك له، ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١٨٣) [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] فهو ﷺ أول المسلمين، وأول العابدين، بنص القرآن.

(١) إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن ج ١ ص ٩٤.

(٢) البخاري (٧١).



٣- قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَنُلَقِّيَ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٦﴾ [النمل: ٦]،
والشاهد في الآية قوله: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾. والعلم اللدني: هو ما يَنْكَشِفُ
لِلْقُلُوبِ مِنْ أَنْوَارِ الْغُيُوبِ^(١).

قال ابن عجيبة رحمة الله تعالى: «العلم اللدني: هو الذي يفيض على القلب
من غير اكتساب ولا تعلم»^(٢).

فالعلم اللدني، هو الذي يعلمه الله تعالى لبعض عباده من غير واسطة،
أي: تلقيت القرآن يا أكمل الرسل من غير واسطة في حال روحانيتك، وبواسطة
جبريل حال بشريتك.

قال البقلي قدس الله سره: «كان روحه ﷻ حاضرا مشاهدا في جميع أنفاسه،
يسمع من الحق كلاماً ازلياً على وفاق موارد الشرع بلا واسطة»^(٣). وهذا في حال
النبوة التي أشار إليها ﷻ بقوله: «كنت نبياً وآدم منجداً في طيبته»^(٤). وفي رواية:
«كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»^(٥). ولا يتصور نبوة بغير وحي ومعرفة.



(١) المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية ج ٣٠ ص ١٧.

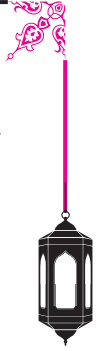
(٢) البحر المديد ج ٣ ص ٢٨٨.

(٣) عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٣ ص ٥٨.

(٤) أخرجه الإمام الترمذي (٣٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله متى
وجبت لك النبوة؟ قال: وآدم بين الروح والجسد، وأخرجه الإمام أحمد (٢٠٥٩٦)، والطبراني
في الكبير، وابن أبي شيبه (٣٦٥٥٣).

(٥) الإمام أحمد (٢٠٥٩٦) عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الخير قال قلت يا رسول الله متى كنت نبياً؟
قال: (وآدم بين الروح والجسد) والطبراني في الكبير (٨٣٤ / ٢٠) وابن أبي شيبه (٣٦٥٥٣) وأيضاً
عبد الله بن شقيق بلفظ (كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد) والترمذي (٣٦٠٩) عن أبي هريرة رضي
الله عنه قال: قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: (وآدم بين الروح والجسد).





يقول الشيخ عبد الرؤوف المناوي رحمه الله تعالى في «فتح القدير»: «كُنْتُ نَبِيًّا» لم يقل: كنت إنسانا، ولا كنت موجودا، إشارة إلى أن نبوته كانت موجودة في أول خلق الزمان، في عالم الغيب، دون عالم الشهادة. فلما انتهى الزمان بالاسم الباطن إلى وجود جسمه، وارتباط الروح به، انتقل حكم الزمان في جريانه إلى الاسم الظاهر، فظهر بذاته جسما وروحا، فكان الحكم له باطنا أو في كل ما ظهر من الشرائع على أيدي الأنبياء والرسل، ثم صار الحكم له ظاهرا، فنسخ كل شرع أبرزه الاسم الباطن، بحكم الاسم الظاهر، لبيان اختلاف حكم الاسمين، وإن كان الشرع واحدا. «وَأَدَمَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ» يعني أن الله جل وعلا أخبره بمرتبته، وهو روح قبل إيجاد الأجسام الإنسانية، كما أخذ الميثاق على بني آدم قبل إيجاد أجسامهم»^(١).



وقال نجم الدين الأسدي رحمه الله تعالى: «لا من لدن جبريل، وبه يشير إلى أنك جاوزت حد كمال كل رسول، فإنهم كانوا يتلقون الكتب بأيديهم من يد جبريل، والرسالات من لفظه وحيًا. وإنك وإن كنت تلقي القرآن بتنزيل جبريل على قلبك، تلقى حقائق القرآن من لدن حكيم لقلبك بحكمه بها القرآن، وهي صفة قائمة بذاته، فعلمك حقائق القرآن وبيانه، وهو العلم اللدني، عليم حكيم جعله بحكمته مستعداً لقبول الفيض القرآن، بلا واسطة عليم، هو أعلم حيث يجعل رسالته»^(٢).



(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٦ ص ٣٢٨.

(٢) التأويلات النجمية ج ٣ ص ٦٥.

٤- قال الله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣)﴾

[الرحمن: ١-٣] وهذا نص واضح بأن الرحمن علّم القرآن قبل خلق الأنسان، و(علّم) فعل يدل على حدوث الفعل في الزمن الماضي، فعلمه للروحانية المحمدية حين أعطاه النبوة في عالم الذر «كنت نبياً و آدم منجدل في طيئته»^(١)، ثم خلق الأنسان وهو سيدنا آدم ﷺ، وعلمه البيان ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، ثم بعث سيدنا محمدا ﷺ بصورته البشرية، وعلمه البيان، أي تبليغ الكلام القديم بلسان الحادث، لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠].



قال البغوي رحمه الله تعالى: «قال الكلبي: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ محمد ﷺ، وقال ابن كيسان: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يعني محمدا ﷺ، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ يعني بيان ما كان وما يكون؛ لأنه كان يبين عن الأولين والآخرين، وعن يوم الدين»^(٢).



٥- قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾

[طه: ١١٤]، أي لا تعجل بالقرآن قبل أن يتلوه عليك جبريل ﷺ، فسيدنا محمد

(١) أخرجه الإمام الترمذي (٣٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: وادم بين الروح والجسد، وأخرجه الإمام احمد (٢٠٥٩٦)، والطبراني في الكبير، وابن أبي شيبه (٣٦٥٥٣).
(٢) تفسير البغوي ج ٤ ص ٣٣٠.

ﷺ كان يسابق جبريل عليه السلام بقراءة القرآن. وهذا ما بينه في قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) [القيامة: ١٦]، لأنه قد أتى القرآن في حال روحانيته، كما بينا في الفقرة السابقة قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦) [النمل: ٦] فصار يتذكره ﷺ لوجوده في روحانيته حال تلقيه من سيدنا جبريل عليه السلام.



قال الشيخ أبو مدين الغوث رحمه الله: «إِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى قَلْبِهِ ﷺ جملة واحدة، بلا واسطة جبريل عليه السلام، فكان في صدره، إلا أنه ممنوع من النطق به إلى إتيان جبريل عليه السلام، فكان جبريل كالمفتاح لما في خزانة صدره، ولهذا كان يعجل بالقراءة حين نزلت هذه الآية (١)».



٦- قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١) [آل عمران: ٨١] فقد أخذ الله ﷻ العهد على الأنبياء في عالم الأرواح، إن جاء النبي ﷺ في زمانهم أن يؤمنوا به وينصروه، وإن لم يأت في زمانه فوظيفتهم دعوة الناس إلى التوحيد، والتبشير بهذا النبي الكريم، وذكر صفاته لأقوامهم، حتى يؤمنوا به إن جاء في زمانهم. وفيها إثبات النبوة لسيدنا محمد ﷺ من عالم الأرواح قبل عالم

(١) جلاء القلوب من الاصداء الكونية في بيان احاطته بالعلوم الكونية، للشيخ محمد بن ادريس الكتاني ج ١ ص ١٧١.

الأشباح، بل إن الله تعالى وصفه بصفة الرسالة من عالم البدء، وشهد له بالرسالة،
وشهد على الأنبياء بالإقرار والتسليم، فكان الأنبياء نوابا عنه ﷺ في دعوة الناس
إلى التوحيد، وعبادة رب العالمين، والتبشير بسيدنا محمد ﷺ.



قال الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى في كتابه «الأنوار المحمدية من
المواهب اللدنية»: «لما خلق الله تعالى نور نبينا ﷺ، وخلق بعده أنوار الأنبياء، أمره
أن ينظر إليهم، فغشيهم منه ما أنطقهم الله به فقالوا: يا ربنا من غشنا بنوره؟
فقال: هذا نور محمد بن عبد الله، فأخذ عليهم العهد ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ
لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الآية^(١).



٧- قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهذا دليل قاطع على
أنَّ الأرواح عاقلة، وقد خاطبها الله تعالى في عالم الذر. والسؤال هنا، من أول
الأرواح إجابةً للنداء؟ والجواب على ذلك: هي أعرف روح بالله، روح سيدنا
محمد ﷺ. وقد صرح بذلك، وقال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهٗ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾
﴿١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٣] وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٢﴾ [الزمر: ١٢].
فلما رأت الأرواح أنَّ الروح المحمدية أجابت، وتجلَّى عليها ربها بجميع التجليات،
أجابت أرواح الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين، والمؤمنين والمسلمين،

(١) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١١.

اقتداءً بتلك الروح، فنالوا ما نالوا من تلك الخيرات. وكل حسب مرتبته ومقامه، ومن هنا ظهر التفاوت في الدنيا.



قال الشيخ عبد العزيز الدباج رحمته الله: «فإن كل من أجاب الله تعالى من أرواح المؤمنين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام سقي من نوره صلى الله عليه وسلم، لكن منهم من سقي كثيرا، ومنهم من سقي قليلا. فمن هنا وقع التفاوت بين المؤمنين، حتى كان منهم أولياء وغيرهم. وأما أرواح الكفار، فإنها كرهت شرب ذلك النور، وامتنعت منه. فلما رأت ما وقع للأرواح التي شربت منه، من السعادة الأبدية، والإرتقاءات السرمدية، ندمت، وطلبت سقيا، فسقيت من الظلام، والعياذ بالله»^(١).



طُور الشهادة وشهوده ﷺ على الأكوان في جميع الأزمان

بعد أن ثبت عندنا أن سيدنا محمدا ﷺ حال روحانيته كان أول الأنبياء، وأن الله تعالى جمع له الأنبياء والمرسلين في عالم الذر، وأخذ العهد عليهم بالإيمان به وطاعة هذا النبي ﷺ، وثبت عندنا في الطورين السابقين، أن الروحانية المحمدية سابقة لخلق الأكوان، ومدة لها، سنثبت في هذا الطور ما خصَّ الله تعالى به نبيه ﷺ من شهوده على الأكوان، وإطلاعه على الأعمال، ومعاني كلمة الشاهد في القرآن الكريم وأسرارها.

(١) الإبريز ص ٥٥٤.



١- قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] فهو السراج المنير

الذي أنار الأكوان، فأخرجها من العدم، وهو الرسول الشاهد على الأكوان، وعلى الأمم والشعوب، فهو النبي المشاهد بروحانيته جميع ما كان وما يكون، فما وصفه الله ﷻ: بالشاهد، إلا لأنه مشاهد. والشاهد في معاجم اللغة من المشاهدة والعيان، والسماع والحضور، فكان شاهدا على خلق الأكوان، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِ الْمُضِلِّينَ عَضْدًا ﴿٥١﴾﴾

[الكهف: ٥٠-٥١]، فذم الله ﷻ الشيطان ومن تبعه، وقال إنه لم يشهدهم خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم. وبمفهوم المخالفة، نعلم أن الله ﷻ قد أشهد بعض خلقه على خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان، مثلما أشهد الملائكة على خلق آدم ﷺ. وكما قررنا، أن سيدنا محمدا ﷺ المخلوق الأول، فقد أشهده الله تعالى على خلق السموات والأرض، وخلق الأكوان. ولذلك قال عنه (شاهد) بصيغة اسم الفاعل، ولم يحدده بزمان معين، بل شاهد على كل الأزمان. وهذا ما بينه النبي ﷺ في الحديث الذي يرويه الشيخان، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ، حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ»^(١). وهو ﷺ شاهد على سؤال الأرواح يوم ألتست بربكم، وشاهد على

(١) البخاري (٣١٩٣)، مسلم (٢٨٩١)، أبو داود (٤٢٤٠).





جوابها، وكما بينا آنفاً. وشاهد على الأنبياء والأمم، لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وفي قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وشاهد على أمته في حال حياته، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسَيْرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].



قال نجم الدين الأسدي رحمه الله تعالى: «يشير إلى أنه لما كان أول مخلوق خلقه الله تعالى كان شاهداً بوحداية الحق تعالى وربوبيته، وشاهداً بما أخرج من العدم إلى الوجود، من الأرواح، والنفوس، والأجرام، والأركان، والأجسام، والمعادن، والنبات، والحيوان، والملك، والجن، والشيطان، والإنسان، وكل ما دب فيه روح؛ لئلا يشذ عنه مما يمكن للمخلوق دركه من أسرار أفعاله، وعجائب صنعته، وغرائب قدره بحيث لا يشاركه فيه غيره؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «علمت ما كان وما سيكون»؛ لأنه شاهد الكل، وما غاب لحظة، وشاهد خلق آدم عليه السلام، ولأجله قال صلى الله عليه وسلم: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»، أو كنت مخلوقاً وعالمًا، بأني نبي، وحكم لي بالنبوة، وآدم بين أن يخلق له روح، ثم يخلق له جسد، ولم يخلق بعد. وشاهد خلق إبليس، وما جرى عليه من امتناع السجود لآدم، والطرد واللعن بعد طول عبادته، ووفور علمه بمخالفة أمر واحد. فحصل له بكل حادثة جرت على الأنبياء والرسول والأمم، فهوم وعلوم. فلما تحصل لروحه ما أمكنه حصوله، من كمال العلم والحال، لكمال الربوبية الإلهية في عالم الأرواح، أراد أن يزداد نوراً على نور، وأن يحصل كمالاً على كمال

إنزال روحه في قلبه على وجه المعروف، بعدما شرفه وفضله أقصى ما يمكن من الإكرام، ثم رباه بلبان العناية في حجر الهداية، إلى أن أرسله إلى الأحمر والأسود ﴿شَهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾^(١).



قال ابن عجيبة قدس الله سره: «إنا أرسلناك بالحقيقة شاهداً، أنت شاهدنا، شاهدناك وشهدت علينا، فألبستك أنوار ربوبيتي. فمن شهدك بالحقيقة، فقد شَهِدْنَا. قُلْتُ: لأن نوره صلى الله عليه وسلم أول نور ظهر من نور الحق، فمن شَهِدَهُ، شَهِدَ الحق. ثم قال: ومن نظر إليك فقد نظر إلينا. قال صلى الله عليه وسلم: «من عرفني فقد عرف الحق، ومن رآني فقد رأى الحق». ثم قال: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أسرجت نورك من نوري، فتنور بنوري عيون عبادي المؤمنين، فيأتون إلي بنورك. ثم أمره بأن يُبَشِّرَ المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته، بلا حجاب ولا عتاب»^(٢).



٢- قال الله ﷻ: مخاطباً سيدنا محمداً ﷺ في كثير من مواضع القرآن، بصيغة ﴿أَنْتَ﴾. فإن كانت في زمانه، فهي رؤية العين، كقوله تعالى ﴿أَنْتَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا كِتَابًا مِنْ أَلَيْسَ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٣) [آل عمران: ٢٣]. وإن كانت الرؤية متعلقة بالأزمة التي قبله، فهي رؤية بالروحانية المحمدية السارية في الأكوان، بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤) [الأنبياء: ١٠٧] فقال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ

(١) التأويلات النجمية ج ٣ ص ٣٧٣.

(٢) البحر المديد ج ٤ ص ٤٤٥.



مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴿البقرة: ٢٤٦﴾ وقوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر: ٦] وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل: ١] فجميع هذه الآيات تفسر معنى كونه شاهدا على الأكوان، وعلى الأمم بروحانيته، ولذلك خاطبه ربنا بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي بروحانيتك. وهناك نوع آخر من الرؤية، وهي بالبصر، وهي خاصة بالنبي ﷺ والأنبياء والرسل. قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ [إبراهيم: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَافِرُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣] لذلك لم يقل: ألم تروا، فكان إيماننا بكل ذلك غيب، وله ﷻ شهود وعيان. وقد تحصل هذه الرؤية للأولياء، ولكن من خلال مرآته ﷻ. وهذه الرؤية رؤية بصر، وليست رؤية بصيرة وشهود، ودليلنا قول سيدنا موسى ﷺ: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ولم يقل: أشهدي، فطلب مشاهدة البصر، وكل هذا من الغيب الذي أطلع الله نبينا ﷺ عليه، حيث قال: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]



وقوله ﷺ: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣١) إِلَّا مَنْ أَرَضَى مِنْ

رَسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦-٢٧]﴾. وبعد كل ذلك، ثبت عندنا أنه ﷺ نبي من عالم الأرواح، ومشاهد للأكوان؛ لأنه الشاهد عليها، وممد الأكوان بالرحمة في كل الأزمنة؛ لأنه الرحمة للعالمين.



٣- قال الله ﷻ: ﴿وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجِّدِينَ﴾ (٣٩) [الشعراء: ٢١٩]. قال القرطبي

رحمه الله تعالى: «قال ابن عباس: أي في أصلاب الآباء، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيا»^(١). وقال البغوي رحمه الله تعالى: «قال عطاء عن ابن عباس: أراد تقلبك في أصلاب الأنبياء، من نبي إلى نبي، حتى أخرجك في هذه الأمة»^(٢). وهذا القلب والانتقال في أصلاب الأنبياء كان فيه من النفع، والبركة، والخير، والنجاة للأنبياء، ما لا يعلمه إلا الله. فقد روي عن ابن عباس قوله: «قلت: يا رسول الله، أين كنت وادم في الجنة؟ قال: كنت في صلبه، وأهبط إلى الأرض وأنا في صلبه، وركبت السفينة في صلب نوح، وقذفت في النار في صلب إبراهيم، لم يلتق لي أبوان قط على سفاح، لم يزل ينقلني من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام النقية، مهذبا، لا تشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما، وأخذ الله لي بالنبوة ميثاقي، وفي التوراة بشر بي، وفي الإنجيل شهر اسمي، تشرق الأرض لوجهي والسماء لرؤيتي»^(٣). ولقد نجى الله به آدم وقبل توبته، ونجى به نوحا من الغرق، ونجى

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٣ ص ١٤٤.

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن ج ٦ ص ١٣٤.

(٣) الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ج ١ ص ٣٧.





به إبراهيم من النار، ونجى به إسماعيل من الذبح، ونجى والده عبد الله. وكل ذلك ببركة وجود النور المحمدي في أصلابهم. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَتْ رُوحُهُ نُورًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بِأَلْفِي عَامٍ، يُسَبِّحُ ذَلِكَ النُّورُ وَتُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ بِتَسْبِيحِهِ، فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ أَلْقَى ذَلِكَ النُّورَ فِي صُلْبِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَهْبَطَنِي اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ فِي صُلْبِ آدَمَ، وَجَعَلَنِي فِي صُلْبِ نُوحٍ، وَقَذَفَ بِي فِي صُلْبِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ اللَّهُ تَعَالَى يَنْقُلُنِي مِنَ الْأَصْلَابِ الْكَرِيمَةِ، وَالْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ، حَتَّى أَخْرَجَنِي مِنْ أَبِي لَمْ يَلْتَقِيَ عَلَى سِفَاحٍ قَطُّ». وَيَشْهَدُ بِصَحَّةِ هَذَا الْخَبَرِ شِعْرُ الْعَبَّاسِ، الْمُشْهُورُ فِي مَدْحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

وشعر العباس عليه السلام:

أنت نورٌ من عزيزٍ راحمٍ تغمعُ الشركَ وعبادَ الوثنِ



طُورُ الْبَشَرِيَّةِ الْمَحْمُودِيَّةِ

ويعتبر هذا الطور من أعظم أطواره عليه السلام، لاجتماع أسرار الروح ومعارفها بأسرار الجسد ومعارفه. ولا يمكن لمخلوق أن يحيط بأسرار هذا الطور، ولا أي طور من أطواره عليه السلام، ستتكمّل في هذا الطور عن إثبات نبوته عليه السلام من ساعة الولادة.

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ص ١٦٠.

إثبات نبوته ﷺ منذ ولادته

النبوة وهيبة من فضل الله، وليست مكتسبة. والأنبياء وجبت لهم النبوة عند ولادتهم، بل كما أثبتنا في المبحث السابق، أنهم أنبياء من عالم الذر. وهذا نقرر عليه كثيراً من الأمور؛ منها أنهم عارفون بربهم، ولا يقعون في الشرك أبداً، ولا يرتكبون الذنوب صغيرها وكبيرها. وبهذا ننزه الأنبياء عما تُسب إليهم من الذنوب والمعاصي، والغفلة والجهل قبل الإرسال. وهنا سنذكر الأدلة على نبوتهم منذ ولادتهم من القرآن والسنة، وهذا لجميع الأنبياء كما سنبين، فما بالك بسيدنا محمد ﷺ. فلا يصح عند ذلك القول أنه كان جاهلاً بربه، وجاهلاً بالإيمان قبل البعثة:

١- قال الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (٤٥)

[الأحزاب: ٤٥]. وهذا نص صريح واضح، يصف الله تعالى نبيه ﷺ بالنبوة قبل الإرسال، فوصفه بالنبوة، ثم أرسله. أي يا أيها النبي المنبئ من عالم البدء روحاً وبطونا، وفي عالم الدنيا ساعة ولادتك وظهورك، إنا أرسلناك شاهداً على العالمين، ومبشراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين والمعاندين.

٢- قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١)

[الأنبياء: ٥١] أي آتيناه النبوة والحكمة مذ كان صغيراً، لذلك لم يسجد لصنم، ولم يعبد إلا الله.

قال مجاهد رحمه الله تعالى: «هديناه صغيراً»^(١).



(١) تفسير مجاهد ج ١ ص ٤٧٢.

وقال الرازي رحمه الله تعالى: «قال الضحاك: حين كان في صلب آدم، حين أخذ الله ميثاق النبيين»^(١).



وقال المظهري رحمه الله تعالى: «معناه من قبل البلوغ، حين خرج من السرب وهو صغير، حين قال: إني وجهت، يعنى أعطيتناه النبوة صغيراً. كما قال ليحيى: ﴿يَبْحَثُ خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] أو المعنى قبل استنبائه، ﴿وَكُنَّا بِهِ﴾ أي بإبراهيم ﴿عَلِيمِينَ﴾ إنه أهل للهداية والنبوة، حيث كان مبدأ تعيينه صفة العلم، والهداية من صفات الله تعالى»^(٢).



وقال نجم الدين الأسدي رحمه الله تعالى: «شرفنا بنور الخلة ومن قبل خلقه؛ لأن اتخذ الله إياه خليلاً، كان في الأزل. فإن الكلام الأزلي ناطق ﴿وَكُنَّا بِهِ﴾ ﴿عَلِيمِينَ﴾ أي بأهليته للخلة، واستحقاقه للرشد والهداية؛ لأننا خلقناه مستعداً للهداية والكرامة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المالك: ١٤]»^(٣).



٣- قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَتَأْتٍ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير للرازي ج ٢٢ ص ١٥٢.

(٢) تفسير المظهري ج ٦ ص ٢٠٢.

(٣) التأويلات النجمية ج ٢ ص ٤٩٩.



﴿١٠٢﴾ [الصفات: ١٠٢] قال سيدي الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «التأمل في خطاب سيدنا إبراهيم عليه السلام لسيدنا إسماعيل عليه السلام، وقوله: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ هذا خطاب لشخص عارف بالأمور وبمصدرها، وما ستؤول إليه. وما هو إلا نظر نبي عارف بالله، يعلم أن الأمر صادر من رب إبراهيم، وما عليهم إلا السمع والطاعة، لذلك قال: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ فالعاقل لا يسلم نفسه للذبح بسبب رؤيا، إلا إن كان نبيا، ويعلم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى».



٤- قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] وهذا نص صريح أن الله تعالى أوحى لسيدنا يوسف عليه السلام، وهو صبي في البئر.

٥- قال الله عز وجل: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] وهو الذي قال في حقه أيضاً: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] وكل ذلك يدل على نبوته واصطفائه، فهل من يصنع برعاية الله وحفظه يذنب أو يجهل؟! كلا والله، بل إن الله ببركته ولأجله، أوحى إلى أمه وحي الإلهام، فقال ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]

٦- قال الله عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا ءَانَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] فسيدنا سليمان عليه السلام لو لم يكن نبيا في صغره، لما رد حكم نبي الله داود عليه السلام، وسيدنا داود أخذ بحكمه، والله تعالى قال: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ﴾ ثم قال: ﴿وَكُلًّا ءَانَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. وهذا دليل على نبوته وهو صغير.

٧- قال الله ﷻ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]

وهذا أوضح النصوص وأبينها على ما نقول، فسيدنا عيسى وبعد أيام من ولادته قال إنه نبي وآتاه الله كتابا فما بالك بسيدنا محمد ﷺ؟!.

٨- قال الله ﷻ: ﴿يُحْيِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [١٢]

[مريم: ١٢] النصوص تفسر بعضها بعضا، وتبين متى وجبت النبوة للأنبياء. وأقول بعد ما ذكره الله تعالى في بيان نبوة الأنبياء، فهل لشخص أن يقول إنهم لا يعلمون الأحكام، ويجهلون ربهم، ويرتكبون المعاصي؟! وجميع ما ذكرناه في حق الأنبياء، فما بالك بسيدنا محمد ﷺ الذي هو سيد الأنبياء وإمامهم، فكيف لا تثبتون له النبوة، وتصفوه بالجهل، وعدم العصمة قبل البعثة؟! إن هذا إلا افتراء عظيم. وقد حكى أهل السير أن السيدة أمنة بنت وهب ؓ أخبرت أن نبينا محمداً ﷺ ولد حين ولد باسطاً يديه إلى الأرض، رافعاً رأسه إلى السماء.

وقال في حديثه ﷺ: وحادثة شق صدره الشريف، واستخراج قلبه وهو ينظر، ويسمع ما تكلم به الملك، ومثل هذه الأمور التي حصلت كثر، حتى علم جميع من رآه أنه نبي آخر الزمان. فبعدهما أثبتنا نبوته في علم الذر، ثبت عندنا الآن نبوته من يوم ولادته ﷺ، فهو العارف الكامل في عالم الذر، وقبل البعثة وبعدها. وكلما مر عليه طور من الأطوار، زادت معرفته بربه، وتوسعت آفاق معرفته، وهو مستمر إلى أبد الأبد.

فبعدهما أثبتنا نبوته في علم الذر، ثبت عندنا الآن نبوته من يوم ولادته ﷺ، فهو العارف الكامل في عالم الذر، وقبل البعثة وبعدها. وكلما مر عليه طور

من الأطوار، زادت معرفته بربه، وتوسعت آفاق معرفته، وهو مستمر إلى أبد الآبدن، ﴿وَلَا خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، ولا شك أن كل لحظة تمر عليه آخرة بالنسبة للتي قبلها، فهو ﷺ مترقٍ باستمرار إلى أبد الآبدن.



قلت: إذا ما أردنا أن نتكلم عن علومه وترقياته في طور بعثته وفي البرزخ وفي الحشر فلا يكفي هذا الكتاب ولا غيره، فقد تكلم علماء السير والحديث، والعارفون بالله من الأولياء عن هذه الأمور، ولم يبلغوا قطرة من بحر علومه وفتوحاته. واكتفينا بإثبات نبوته وعلومه في حال روحانيته، وحال ولادته حتى بلوغه سن الأربعين، كي نثبت أن المراد بتفسير الآية: أنه كان لا يعلم الكتاب والإيمان في الفترة بين خلقه نور، إلى خلق الروحانية المحمدية حين ثبتت له النبوة. ومن أراد الاطلاع على أسرار بقية أطواره ﷺ فقد فصلنا القول فيه في كتابنا «سيدنا محمد من البدء إلى الأبد في القرآن والسنة».



وهناك وجه آخر للتفسير: ما كنت تعلم الكتاب بكل تفاصيله، وتجلياته، وأسراره، وأنواره، وفتوحاته، وطرق بلاغه، حتى سن الأربعين، فقد كشفنا لك كل شيء، لذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] أي إنك مفتوح عليك، ولم تغب عن حضرتنا، والآن رفعنا لك الحجاب بالكلية، لذلك قال ﷺ: «فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ»^(١).

(١) سنن الترمذي (٣٢٣٥).

سورة الأحقاف

الآية السابعة والثلاثون:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]

التفسير الأولي:

قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «ما أنا أول رسول بعث، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، يعني: يرحمني وإياكم، أو يعذبني وإياكم. وقال الحسن في قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ يعني: في الدنيا. وقال الكلبي: وذلك أنه رأى في المنام، أنه أخرج إلى أرض ذات نخل وشجر، فأخبر أصحابه، فظنوا أنه وحي أوحى إليه، فاستبشروا، فمكثوا بذلك ما شاء، فلم يروا شيئاً مما قال لهم، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا الذي قلت لنا. فقال: «إنما كان رؤيا رأيته، ولم يأت وحي من السماء، وما أدري أيكون ذلك أو لا يكون»^(١).



قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ في الدارين على التفصيل؛ إذ لا علم لي بالغيب»^(٢).



(١) بحر العلوم ج ٣ ص ٢٨٦.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٥ ص ١١٢.

قال ابن أبي زمنين رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾^(١) تَفْسِيرُ الْكَلْبِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ فِي مَنَامِي أَرْضًا أَخْرَجُ إِلَيْهَا مِنْ مَكَّةَ. فَلَمَّا اشْتَدَّ الْبَلَاءُ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمَكَّةَ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، حَتَّى مَتَى نَلْقَى هَذَا الْبَلَاءَ، وَمَتَى نَخْرُجُ إِلَى الْأَرْضِ حَتَّى أُرَيْتُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ، أَمُوتَ بِمَكَّةَ أَمْ نَخْرُجُ مِنْهَا؟»^(٢).



قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾^(٣) أي: لست إلا بشرا ليس بيدي من الأمر شيء»^(٤).



قلت: هذا التفسير لا يتفق مع ما جاء في القرآن والسنة، من أنه ﷺ أخبر بما يكون إلى يوم القيامة، وبشّر أصحابه بالجنة، وأنه بشير للمؤمنين، ونذير للكافرين، ولا يليق بمقام الرسالة والنبوة، والذي علّمه الله ما لم يعلم، ولا أدري لم يتمسك بهذه الآيات بعض الناس، حتى يتخذوها حجة لإثبات بشرية النبي ﷺ المعتادة، والله خصّه بالعلم والرسالة والوحي، وسنرد عليهم، ونبين التفسير الذي يليق بمقامه ﷺ:

التفسير العرفاني:

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «قوله: ﴿إِن أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوحَى﴾

(١) تفسير القرآن العزيز ج ٤ ص ٢٢٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ١ ص ٧٧٩.

إِلَى ﴿اِسْتَنَافَا بَيَانِيَا وَإِتْمَامَا لِمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾﴾ بَأَن قِصَارَى مَا يَدْرِىهِ، هُوَ اتِّبَاعُ مَا يَعْلَمُهُ اللهُ بِهِ، فَهُوَ تَخْصِيصٌ لِعُمُومِهِ. وَمِثْلُ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ، وَأَنَّ الْمَشْرِكِينَ فِي النَّارِ، وَأَنَّ وَرَاءَ الْمَوْتِ بَعْثًا. وَمِثْلُ أَنَّهُ سَيَهْجُرُ إِلَى أَرْضِ ذَاتِ نَخْلٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ، وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى مَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «ما أدري ما يفعل بي ولا بكم بذاتي، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ: يُدْرِينِي، فَفَنَى الدَّرَايَةَ الذَّاتِيَّةَ وَلَمْ يَنْفِ الدَّرَايَةَ بِالْوَحْيِ. وَلِلْأَسَفِ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِرِينَ: لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ فِي الْبَدَايَةِ أَمْرَهُ وَأَمْرَهُمْ، وَبَعْدَ ذَلِكَ عِلْمُهُ اللهُ. وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ، وَعِلْمُهُ، وَأَدْرَاهُ. وَقَدْ أَسَاءَ الْأَدَبُ مِنْ نَسَبِ الْجَهْلِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ. وَلَوْ كَانَ لَدَيْهِمْ أَدَبٌ، لَقَالُوا لَا يَعْلَمُ أَوْ لَا يَدْرِي كَمَا قَالَ الْقُرْآنُ، وَهَذَا لَا يَلِيقُ لِمَقَامِهِ، وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنْ نُوْقِرَهُ، وَنُعْظِمَهُ، وَنَقْدِمَهُ عَلَى أَنْفُسِنَا. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ﴾ فَقَدْ أَثْبَتَ الدَّرَايَةَ بِالْوَحْيِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشَابِهَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [يونس: ٤٩] فيقفون عندها، ويقولون إنه لا يملك شيئاً، ولم يكملوا الآية ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقد شاء الله أن ينفع من آمن به، ويضر من كفر به. وهؤلاء كالذي يقف على قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ويتهمم المصلين بأن لهم وادي ويل. وهذا غلط كبير في القراءة والتفسير. فيجب إكمال الآية، حتى يكتمل المعنى. ولا نقطع الآية من السياق، فالنبي يعلم بتعليم الله له.



(١) التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ١٨.



قلت: وهذا التفسير هو اللائق بمقامه ﷺ. ويرد على البيضاوي في قوله «أنه ﷺ لا يدري ما يفعل به في الدارين»، وحتى السمرقندي الذي قال: «لا يدري في دار الدنيا»، أن النبي ﷺ يعلم حاله وحال المؤمنين، وحال المشركين في الدنيا والآخرة؛ لأن الله أخبره بذلك، كما في العديد من الآيات. ويعلم ما يفعل به في الدار الدنيا، فعلم عصمته من الناس، وعلم أن الله ناصره وناصر المؤمنين، وعلم انتشار دعوته حتى تصل لجميع بقاع الأرض، وعلم أنه في الآخرة صاحب المقام المحمود، وأنه أول شافع وأول مشفع، وصاحب الحوض والكوثر، وأول من يدخل الجنة، وشفاعته لأهل الكبائر. أما ما يختص بأمته، فبشر أصحابه بالجنة، وبشرهم بما سيكون من أمرهم في الدنيا، وما سيُفتح على أيديهم، وأخبر أنه ستفتح الدنيا على أمته، وأخبر بجميع علامات الساعة الصغرى والكبرى إلى يوم القيامة. وكل هذا في الدنيا، بل وأخبر بما سيكون إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: «قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ، حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ»^(١).

فها هو يخبر بما كان وبما يكون، فهو أفضل الخلق، وإمام العالم، وقطب الوجود، لكنه أعطى الربوبية حقها. وذلك لكمال معرفته، ونهاية علمه، وشرف قدره ﷺ، ترضيه وتزيده شرفا، وعزا، وتخصيصا، وقربا. فنسب علمه ودرايته إلى مولاه، فقال: ﴿إِنْ أَنْعُ إِلَّا مَا يُوحَى﴾ [الأحقاف: ٩]، ثم قال مخاطبا الناس: ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي واضح بما آتيت به من المعجزات، وأخباري بالمغيبات من

(١) البخاري (٣١٩٣)، مسلم (٢٨٩١)، أبو داود (٤٢٤٠).



خلال وحي رب السماوات، فوجب عليكم تصديقي واتباعي، ولا تعترضوا على ما أعطاني ربي من الخصوصية.

وللقرائن التي ذكرناها والتي دلت على علمه ﷺ بما كان من بدء الخلق وأخبار الأمم السابقة، وبما سيكون من علامات الساعة وحتى دخول أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، وجب تقدير محذوف ليظهر المعنى المراد من هذه الآية، وهذا من (دلالة الاقتضاء) فيكون المعنى «وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم بنفسي، بل أعلم ذلك بما علمني ربي، لذلك قال ﴿إِنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَى﴾».



سورة غافر / سورة محمد

الآية الثامنة والثلاثون:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥]

وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وسله غفران ذنوبك وعفوه لك
عنه»^(١).



قال مكي بن أبي طالب القيرواني في تفسيره: «قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ
لِذَنْبِكَ﴾ أي: واسأل ربك أن يستر عليك ذنبك، بعفوه ورحمته»^(٢).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وفي هذا دليل على أنه كانت له
ذنوب، ولم يكن جميع استغفاره لأتمته؛ لأنه قال في موضع آخر: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢١ ص ٤٠٣.

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ج ١٠ ص ٦٤٤٨.



وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿١﴾ وهنا لم يذكر ذلك. ويمكن حمل الذنب على ما كان قبل النبوة؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزلة، ثم يجب عليه الاستغفار منها كلما ذكرها. فإن تجديد التوبة يجب، كما يجب أصل التوبة»^(١).



قال عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقوله: **وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ** ﴿٢﴾ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب، والعفو عن الجرائم. واستغفر أيضا **وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴿٣﴾ فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة»^(٢).



قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى في تفسيره: «ومن فوائد الآية: كل إنسان محتاج إلى مغفرة، حتى النبي ﷺ محتاج إلى مغفرة؛ قال تعالى: **﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾**. واعلم، أن الإنسان قد يكون بعد الذنب أعلى مقاما منه قبل الذنب؛ لأنه قبل الذنب قد يكون مستمرا على الحال التي كان عليها، وماشيا على ما هو عليه، معتقدا أنه كامل، وأن ليس عليه ذنوب؛ فإذا أذنب، وأحس بذنبه، رجع إلى الله، وأناب إليه، وأخبت إليه، فيزداد إيمانا، ويزداد مقاما - يرتفع مقامه عند الله عز وجل؛ ولهذا قال الله تعالى في آدم: **﴿وَعَصَى**

(١) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٣ ص ٣١١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ١ ص ٧٨٧.

ءَادَمُ رَبَّهُ، فَفَوَّى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ [طه ١٢١-١٢٢]، فجعل الاجتباء بعد هذه المعصية ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.



قلت: لا أعلم كيف أثبت هؤلاء المفسرون الذنب إلى سيدنا محمد ﷺ ونسبوه له، وهو المعصوم قبل النبوة وبعدها، من الصغائر والكبائر، والهوى، والنفس، والشيطان، وسنين التفسير اللائق بجنابه العالي ونرد على ما قالوه:

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فإن مقامات عبوديته، وإن كانت عالية، إلا أنه كان ينكشف له في درجات مكاشفاته أنها بالنسبة إلى ما يليق بالحضرة الصمدية عن التقصير، فكان يستغفر منها. وكذلك حكى عن أهل الجنة كلامهم، فقال: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠] فقلوه ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ إشارة إلى التنزيه. وقيل إضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول، فقلوه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ من باب إضافة المصدر إلى المفعول، أي: واستغفر لذنب أمتك في حقك^(١).



قال القرطبي رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ قيل: لِذَنْبِ أُمَّتِكَ، حُذِفَ الْمُضَافُ وَأُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ. قَالَ: هَذَا تَعَبُّدٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدُعَاءٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا مَا وَعَدْتُنَا﴾ [آل عمران: ١٩٤] وَالْفَائِدَةُ

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٧ ص ١١٤.

زِيَادَةُ الدَّرَجَاتِ وَأَنْ يَصِيرَ الدُّعَاءُ سُنَّةً لِمَنْ بَعْدَهُ»^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «**وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ**» تشريعاً لأمتك، فإنَّ الاستغفار يمحو الذنوب التي تعوق عن النصر، أو تداركاً لما فرط منك من ترك الأولى في بعض الأحيان، فإنَّ حسنات الأبرار سيئات المقربين. والحاصل: أنَّ كل مقام له ذنب يليق به، وهو التقصير في القيام به على ما يليق به، فالنبي ﷺ كُلف بدوام الشهود، ولو في حال التعليم. فإذا غاب عن الحق لحظة بشغل البال بالتعليم، كان في حقه نقصاً يُوجب الاستغفار^(٢)».



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: أي الذنب الواقع في حَقِّك من قومك؛ لأن النبي ﷺ لا يقع منه ذنب، لذلك كان يقول: **«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**، فغفر الله لهم، وتاب على قسم منهم، فاسلموا، ثم استغفر لمؤمنين والمؤمنات.



قلت: فيما قاله هؤلاء العلماء الأفاضل الكفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فأثبتوا أنه غير معني في هذا الخطاب، إنما هو من باب إضافة

(١) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٢٤، بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٣ ص ٢١٠، تفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل ج ٣ ص ٢١٦.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٥ ص ١٤٣.



المصدر إلى مفعوله. أما من احتج بأنه ﷺ كان يستغفر في اليوم مائة مرة، كما قال ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١). فهذا الحديث لا يُثبت الذنب له فيستغفر منه، بل فيه تعليم وتشريع لأتمته على ملازمة الاستغفار والإكثار منه، هذا من وجه.

ومن وجه آخر فإنه ﷺ كان يترقى في كل لحظة ما لا يعلمه إلا الله، فكان إذا ما ترقى والتفت إلى المنزلة التي ترقى منها، رأى النقص في ذلك المقام، قياساً على ما ترقى إليه في معرفة ربه، فيستغفر من ذلك المقام. وهذا ما ذكره العارفون بالله كسيدي عبد العزيز الدباغ رحمه الله وغيره. فالعارفون ينظرون إلى أعمالهم، وأحوالهم، وعباداتهم لا تليق بمولاهم، فيستغفرون الله على الطاعة، كما هو حال الملائكة، يقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. ونحن نستغفره من المعصية، لذلك شرع الاستغفار خلف الصلوات المفروضة، لشهودهم النقص والتقصير بحق مولاهم، وهم متلبسون في العبادة. فهذا معنى الاستغفار في حق العارفين، فما بالك بسيد العارفين، والذي قال له ربنا: ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤] أي كل لحظة تمر عليك خير من التي قبلها، ولك فيها ترقيات، لا نهاية لها. لذلك لما قرأ سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله هذا الحديث استشكل عليه، فنام فرأى النبي ﷺ في المنام وقال له: «يا مبارك، غين أنوار، لا غين أغيار». فكلما أشرقت عليه أنوار التجليات، ورفع به إلى أعلى مقامات المشاهدات، استغفر مما كان عليه، وبه من المقامات.



(١) مسلم (٢٧٠٢).

سورة الفتح

الآية التاسعة والثلاثون:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ٢].

التفسير الأولي:

قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «ما كان قبل نزول الوحي، وما كان بعده»^(١).



قال الثعلبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ قبل الرسالة ﴿وَمَا﴾ إلى وقت نزول هذه السورة»^(٢).



قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: «فيه وجهان؛ أحدهما، ليغفر لك الله استكمالاً لنعمه عندك. الثاني، يصبرك على أذى قومك. وفيه ثلاثة أقاويل؛ أحدها، ما تقدم قبل الفتح وما تأخر بعد الفتح. الثاني، ما تقدم قبل النبوة وما تأخر بعد النبوة. الثالث، ما وقع وما لم يقع على طريق الوعد، بأنه مغفور إذا كان. ويحتمل رابعاً، ما تقدم قبل نزول هذه الآية وما تأخر بعدها»^(٣).

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٣ ص ٢٠٨.

(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن المعروف بتفسير الثعلبي ج ٩ ص ٤٢.

(٣) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٥ ص ٣١٠.

قال ابن عطية رحمه الله تعالى في تفسيره: «وكان رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل النبوة وزره صحبة قومه، وأكله من ذبائهم، ونحو هذا. وقال الضحاك: وفي كتاب النقاش حضوره مع قومه المشاهد التي لا يجبها الله تعالى»^(١).



قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «واختلف أهل التأويل في معنى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقيل: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ قبل الرسالة، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعدها، قاله مجاهد. ونحوه قال الطبري وسفيان الثوري. وقال سفيان الثوري: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ ما عملته في الجاهلية من قبل أن يوحى إليك. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ كل شيء لم تعمله»^(٢).



قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾﴾ جميع ما فرط منك مما يصح أن تعاتب عليه»^(٣).



قلت: لم يصدر عن المعصوم ﷺ ذنب ولا صغيرة ولا كبيرة قبل النبوة ولا بعدها. وهذا ما أثبتته القرآن والسنة، ولا أعلم كيف جوز هؤلاء المفسرون الكبار رحمهم الله الذنب، ولم يفسروا الآية تفسيراً يليق بالمعصوم.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٥ ص ٤٩٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ج ١٦ ص ٣٦٢.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٥ ص ١٢٦.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «المراد ذنب المؤمن، كأنه تعالى قال: ليغفر لك ذنب المؤمنين، ليدخل المؤمنين جنات»^(١).



قال التستري رحمه الله تعالى في تفسيره: «يعني فتحنا أسرار العلوم في قلبك، حتى ظهر عليك آثارها، وهي من أعلام المحبة، وتمام النعمة. ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال: أي ما تقدم من ذنب أبيك آدم صلوات الله عليه، وأنت في صلبه، وما تأخر من ذنوب أمتك، إذ كنت قائدهم ودليلهم»^(٢).



قال الألوسي رحمه الله تعالى في تفسيره: «المراد ما هو ذنب في نظره العالي ﷺ وإن لم يكن ذنباً، ولا خلاف الأولى عنده تعالى، كما يرمز إلى ذلك الإضافة. وقيل: يشير إلى فتح باب قلبه عليه الصلاة والسلام إلى حضرة ربوبيته عز وجل بتجلي صفات جماله وجلاله، وفتح ما انغلق على جميع القلوب من الأسرار وتفصيل شرائع الإسلام، وغير ذلك من فتوحات قلبه ﷺ. ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ليستر وجودك في جميع الأزمنة بوجوده جل وعلا، ويتم نعمته عليك بإثبات جميع حسنات العالم في صحيفتك؛ إذ كنت العلة في إظهاره. ﴿وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ بدعوة الخلق على وجه الجمع والفرق، وينصرك الله على النفوس

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٨ ص ٦٩.

(٢) تفسير التستري ج ١ ص ١٤٧.



الأمانة ممن تدعوهم إلى الحق نصراً عزيزاً، قلما يشبهه نصر. ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم أكثر الأنبياء عليهم السلام تبعاً، وكان علماء أمته كأنبيا بني إسرائيل، إلى غير ذلك مما حصل لأمته بواسطة تربيته عليه الصلاة والسلام لهم، وإفاضة الأنوار والأسرار على نفوسهم وأرواحهم^(١).



قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «سبقت المغفرة وقوع الذنب، وهذه الآية قد يكون لها في حق المعصوم وجه، وهو أن يُستر عن الذنوب، فتطلبه الذنوب، فلا تصل إليه، فلا يقع منه ذنب أصلاً، فإنه مستور عنه^(٢).

وقال: فقدم المغفرة على الذنب، وليس بذنوب عنده، إنما ذكره لتعرف العناية الإلهية بأحبابه، لا ذنب لمحبوب، ولا حسنة لمحِب عند نفسه^(٣).



قال العارف بالله الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس الله سره جواباً على سؤال مريده الشيخ أحمد بن المبارك عن زمن وقع الفتح للنبي ﷺ: «ومتى وقع؟ فقال: من صغره، فإنه ﷺ لم يحجب عنه تعالى».

فقلت: «وهذا الفتح ثابت لكل نبي، بل ولكل عارف، فأبي خصوصية فيه لبنينا ﷺ؟! فقال رضي الله عنه: الفتح يختلف بالقوة والضعف، فكل على ما

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج ١٣ ص ٢٣٨.

(٢) الفتوحات المكية ج ٣ ص ١٧٠.

(٣) الفتوحات المكية ج ٥ ص ٢٤٦.



يطيق، والقوة التي في النبي ﷺ عقلا وروحا، ونفسا وذاتا، وسرا وحفظه، لم تثبت
 غيره، حتى لو جمع أهل الفتح كلهم من الأنبياء وغيرهم، وجعلت القوة المشار
 إليها عليهم، لذابوا جميعا، وتهاقت ذواتهم. والمراد بقوله بالذنب في قوله تعالى:
 ﴿مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ﴾ سببه وهو الغفلة وظلام الحجاب، الذي في أصل
 نشأة الذات الترابية. قال: وهذه الغفلة والحجاب للذنوب، بمثابة الثوب العفن
 والوسخ، لنزول الذباب عليه. فمتى كان ذلك الثوب على أحد، نزل عليه الذباب،
 ومتى زال عنه ذلك الثوب، زال عنه الذباب. فالثوب مثال الحجاب، والذباب
 مثال للذنوب، فمن سمى ذلك الثوب ذبابا، فهي تسمية سائغة. فكَذلك المراد
 هنا بالذنب هو الحجاب، والمراد بما تقدم وما تأخر الكناية عن زواله بالكناية،
 فكأنه يقول: إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليزول عنك الحجاب بالكلية، ولتتم النعمة
 منا عليك، ولتتهدي وتنصر، فإنه لا نعمة فوق نعمة زوال الحجاب، ولا هداية
 فوق هداية المعارف، ولا نصرة أبلغ من نصرة من كانت هذه حالته. فقلت: وهل
 هذا خاص بالنبي ﷺ؟ فقال: نعم. فقلت: ولم؟ فقال: لأنه عين كل شيء. فقلت:
 ولذلك تقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في المحشر، ائتوا محمدا عبدا غفر
 الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قلت: وهذا الذي قاله الشيخ رضي الله عنه
 من أنفس المعارف، وألطف اللطائف، وأليق بالجناب النبوي، وأبلغ في التنزيه
 والتعظيم، وأوفق للعصمة المجمع عليها، وأوفى بحق النبي صلى الله عليه وسلم،
 وأنسب بترتيب الآية وحسن سياقها، فجزاه الله عنا أفضل الجزاء»^(١).



(١) الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز: ٣٤٣.

قال الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى في المواقف: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ﴾ ليستر لك وعنك ومن أجلك ﴿اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ قبل الفتح ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ أي ذنب أمتك. وإنما نسبت ذنوب أمته اليه ﷺ؛ لأن حقيقة كل رسول، هي مجموع حقائق أمته، فهو الكل وهم أشخاص الكل، فكيف به ﷺ إذ هو كل الكل، وعنصر العناصر، والجنس الأعلى، وجوهر الجواهر، وحقيقة الحقائق، وروح العالم كله ومحركه. وقد ورد: «إذا دخلت شوكة في رجل أحدكم أجد ألمها». فأراحه الله بهذا الفتح المبين، وأعلمه مآل من أذنب منهم المغفرة، والوصول إلى السعادة المطلوبة، والغاية المرغوبة. وإن حصل لبعضهم تخلص وتهذيب، فهو غير قادح في المغفرة لهم، بالنسبة لما يحصل لغيرهم بتلك المعاصي نفسها»^(١).



قال الشيخ المحدث عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى: «الغفر معناه الستر، والستر نوعان؛ ستر بين العبد وبين وقوع الذنب، وهذا يوافق معنى العصمة، لأنها صفة تحول بين النبي وبين المعصية مع بقاء الاختيار. وستر بين العاصي وبين العقاب على ذنبه.

والمراد بالمغفرة هنا: العصمة لتقارب معناهما، كما تبين. وإنما أوتر التعبير بها؛ لأن المقام مقام امتنان. ثم المعنى بعد هذا: ليظهر الله عصمتك للناس، فيروا فيك حقيقة الكمال، ويلمسوا منك معنى الرحمة العامة، لا تبطرك عزة الفتح، ولا تسرك نشوة النصر، فلا تنتقم ولا تتشفى، ولكن تعفو وتغفر»^(٢).

(١) المواقف ج ١ ص ٣٨٠، الموقف الخامس بعد المئتين.

(٢) موسوعة العلامة المحدث عبد الله بن الصديق الغماري ج ١٣ ص ٢٣٠.



قال الشيخ الدكتور رافع الرفاعي مفتي الديار العراقية حفظه الله تعالى ورعاه: «الذي يسبق للذهن عند جميع الناس، أن المغفرة مقترنة بحصول الذنب، ولكن الأمر ليس كذلك. فالمغفرة هنا بمعنى العصمة، أي ليعصمك الله عن الذنب فيما تقدم من عمرك وما تأخر. ومما يؤيد هذا القول، ما نص عليه كثير من العلماء، على أن المغفرة والعفو والتوبة، جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية في معرض الإسقاط والترخيص، أي إسقاط طلب الفعل، والترخيص به. ومثاله: في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ فالعفو لم يتعلق بذنب أصلاً، وهذا من باب الإسقاط. وفي قوله تعالى: ﴿أَسْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيَّ بِجُحُودِكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣] أي إذا لم تفعلوا، فأسقطنا عنكم ذلك الفعل. أما في معنى الترخيص، فقوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] أي رخص لكم. وهناك معنى ثان في تفسير (ذنبك) أي الذنب الذي وقع في حَقِّك من قبل أُمِّتِك؛ لأنهم ما عرفوا حَقِّك، وما عرفوا قدرك. والنبى ﷺ يريد غفرانه، وهذا الذي يتناسب مع كونه رحمة مهداة، فغفر الله تعالى ذنوبهم؛ كرامة له، وإتماماً للنعمة عليه. والله أعلم».



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «أي ما تقدم من الذنب الواقع في حَقِّك قبل هجرتك، وليس الذنب الصادر منك، فهو ﷺ لم يصدر منه ذنب لكهال عصمته، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي بعد الهجرة من قتال قومك لك، في بدر وأحد والأحزاب. فكاف الخطاب من ﴿ذُنُوبِك﴾ في محل نصب مفعول به، فالذنب وقع عليه، ولم يصدر منه. وقد ورد في القرآن الكريم إضافة المصدر إلى فاعله ومفعوله، فمن إضافة المصدر إلى فاعله، قوله تعالى: ﴿فَن تَابَ

مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ [المائدة: ٣٩].
 فهنا أضاف الظلم إلى فاعله. ومن إضافة المصدر إلى مفعوله، قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ
 أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، فهنا أضاف الظلم إلى
 مفعوله، فهو الذي وقع عليه الظلم. وهو كما في هذه الآية، فيكون الذنب الذي وقع
 في حقه، وليس الذي صدر منه. فالأنبياء معصومون من الصغائر والكبائر، قبل
 البعثة وبعدها، لذلك كان النبي ﷺ يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».



قلت: وما ذكره هؤلاء العارفون فيه من التنزيه لقماته ﷺ الشيء الكثير،
 فكل نزه حسب استطاعته ومعرفته، وفي كل خير وكفاية. ولقد أثبتنا في تفسير
 الآية الثامنة والعشرين نبوته من عالم الذر، إلى عالم الأصلاب، إلى عالم الظهور.
 ولم تُذكر في كتب السير والحديث حادثة واحدة، تدل على ارتكابه المحرمات قبل
 النبوة، بل كان يهتم بأمور مباحة، ويمنعه الله تعالى عنها. عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ
 عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ جَدِّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:
 سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ
 الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَ بِهِ غَيْرَ مَرَّتَيْنِ، كُلُّ ذَلِكَ يُحَوِّلُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَا أُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ
 مَا هَمَمْتُ بَعْدَهَا بِشَيْءٍ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ»^(١). وهذا حديث صرح به النبي
 ﷺ والله حفظه من المباح القادح من أمور الجاهلية، فما بالك بالهَمِّ بمعصية؟!
 وحاشاه، كيف يعصي ويرتكب الذنوب، وهو أكمل العارفين بالله من ساعة
 ولادته. قال الشيخ عبد العزيز الدباغ في «الإبريز»: «الفتح ثابت له من صغره،
 ولم يحجب عن ربه طرفة عين».

(١) مسند البزار (٦٤٠).

سورة التحريم

الآية الأربعون:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّى مَرْضَاتٍ أَرْوَجَكَ^١ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿١﴾ [التحريم: ١].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «عن قتادة قال: كان الشعبي يقول: حرّمها عليه، وحلف لا يقربها، فعوتب في التحريم، وجاءت الكفارة في اليمين. حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة وعامر الشعبي، أن النبي ﷺ حرم جاريته. قال الشعبي: حلف بيمين مع التحريم، فعاتبه الله في التحريم، وجعل له كفارة اليمين»^(١).



قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «روي أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في نوبة عائشة رضي الله تعالى عنها أو حفصة، فاطلعت على ذلك حفصة، فعاتبته فيه، فحرّم مارية، فنزلت. وقيل شرب عسلا عند حفصة، فواطأت عائشة سودة وصفية، فقلن له: أنا نشتم منك ريح المغاير، فحرّم العسل، فنزلت. ﴿تَبَنَّى مَرْضَاتٍ أَرْوَجَكَ﴾ تفسير لـ ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو حال من فاعله، أو استئناف لبيان الداعي إليه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لك هذه الزلة، فإنه لا يجوز تحريم ما أحله الله»^(٢).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢٣ ص ٤٧٦.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٥ ص ٢٢٤.



قال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي يا أيها النبي لم تمتنع عن شرب العسل الذي أحله الله لك، تلتمس بذلك رضا أزواجك؟ وهذا عتاب من الله على فعله ذلك، لأنه لم يكن عن باعث مرضى، بل كان طلباً لمرضاة الأزواج. وفي هذا تنبيه إلى أن ما صدر منه لم يكن مما ينبغي لمقامه الشريف أن يفعله»^(١).



قال مصطفى العدوي رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «عتاب الجليل لنبه الكريم. بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد: فسورة التحريم سورة مدنية، يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) [التحريم: ١].. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ يراد به هو، وتراد به أمته من بعده، فلا ينبغي لأحد أن يحرم شيئاً أحله الله سبحانه وتعالى؛ ابتغاء مرضاة أي شخص كان، وقد عاتب الله نبيه محمداً ﷺ هذا العتاب، كما عاتبه في سورة عبس في قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى (٣)﴾ [عبس: ١-٣]. لما أقبل النبي ﷺ على صناديد قريش، وترك عبد الله بن أم مكتوم، فعاتب الله النبي هذا العتاب. وهنا عتاب آخر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١). فلا ينبغي أن تطغى العاطفة على ديننا، ولا ينبغي أن يطغى الحب على الشرع، بل الشرع فوق كل شيء، وفوق كل أحد، ومحبة الشرع فوق كل محبة، فلا ينبغي أن تحرص على مرضاة أزواجك، وتحرم على نفسك شيئاً أحله الله

(١) تفسير المراغي ج ٢٨ ص ١٥٦.



سبحانه وتعالى لك، أو تحل شيئاً حرمة الله سبحانه وتعالى عليك. وفي تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) حث على الاستغفار. فإذا كان هذا قد صدر منك، وأحللت شيئاً، أو حرّمت شيئاً ابتغاء مرضاة أزواجك، فباب التوبة مفتوح، فاستغفر الله من ذلك؛ فالله سبحانه غفور رحيم^(١).



قلت: يسارع بعض المفسرين في تفسير هذه الآية وشيهاها، في أن الخطاب فيه لوم وعتاب من الله تعالى لنبيه ﷺ، بل ويتمادى البعض في تخطئة النبي ﷺ، واتهامه بالزلل في عمله. وسنرد عليهم ونذكر التفسير الذي يليق بمقامه ﷺ.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «في الآية مباحث:

البحث الأول، ﴿لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾^(٢) يوهم أن هذا الخطاب بطريق العتاب وخطاب الوصف، وهو النبي ينافي ذلك، لما فيه من التشريف والتعظيم، فكيف هو؟

نقول: الظاهر أن هذا الخطاب ليس بطريق العتاب، بل بطريق التنبيه على أن ما صدر منه لم يكن كما ينبغي.

البحث الثاني، تحريم ما أحل الله تعالى غير ممكن، لما أن الإحلال ترجيح جانب الحل، والتحريم ترجيح جانب الحرمة، ولا مجال للاجتماع بين الترجيحين،

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي ج ٦٧ ص ٢، وذكر نحوه أيضاً عمر بن سليمان العتيبي الرسل والرسالات ج ١ ص ١٠٨، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ١ ص ٨٧٢.



فكيف يقال: لم تحرم ما أحل الله؟ نقول: المراد من هذا التحريم، هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج، لا اعتقاد كونه حراما بعد ما أحل الله تعالى. فالنبي ﷺ امتنع عن الانتفاع معها، مع اعتقاده بكونه حلالا. ومن اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله تعالى بعينه، فقد كفر. فكيف يضاف إلى الرسول ﷺ مثل هذا؟! (١).



قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وحيث يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) إن الآية تشير إلى أمر أغضب النبي ﷺ، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفس البشرية من أمور حللها الله. والعتاب هنا أيضا لصالح رسول الله ﷺ» (٢).

وقال في موضع آخر من تفسيره: «والتحريم تضيق على النفس، فالحق سبحانه يعتب على رسوله ﷺ؛ لأنه ضيق على نفسه، وحرّم عليها ما أحله الله لها. كما تعتب على ولدك الذي سهر طويلا في المذاكرة حتى أرهق نفسه، فالعتاب لصالح الرسول، لا ضده» (٣).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «فهم الكثير من المفسرين، أن اللوم في هذه الآية للنبي ﷺ، والحقيقة أن اللوم لزوجات النبي ﷺ. فالنبي أراد أن يرضي زوجاته من باب حسن عشرته، ورحمته، وحسن خلقه،

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٣٠ ص ٥٦٨.

(٢) تفسير وخواطر الشعراوي - ج ٦ ص ٣٦٤٧.

(٣) تفسير وخواطر الشعراوي ج ١٤ ص ٨٦١٨.



فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ بَعْضَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ، فَعَارَ اللَّهُ عَلَى حَبِيبِهِ ﷺ، وَقَالَ لَهُ: افْعَلْ مَا شِئْتُ، وَعَلَيْهِنَّ أَنْ يَلْتَزِمَنَّ الْأَدَبَ مَعَكَ. فَلَا عِتَابَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مُحَرَّمًا، بَلْ اِمْتَنَعَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْمُبَاحِ؛ إِرْضَاءً لَزَوْجَاتِهِ، فَلَامَ اللَّهُ أَزْوَاجَهُ لِأَجَلِهِ. ثُمَّ نَزَلَتْ الْآيَاتُ الَّتِي تَهْدِي زَوْجَاتَ النَّبِيِّ لَتَنَافِسَهُنَّ، غَيْرَةَ عَلَيْهِ. وَقَالَ لَهُنَّ: إِنَّ لَمْ تَتَأَدَّبُوا مَعَ حَبِيبِي، فَسَوْفَ أُبَدِّلُهُ خَيْرًا مِنْكَ. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ غَفَرْتَ لَكَ، حَتَّى مَحَاوَلَتِكَ إِرْضَاءَهُمْ، فَافْعَلْ مَا شِئْتُ، فَأَنْتَ حَبِيبِي. فَالْآيَاتُ جَمِيعُهَا لِبَيَانِ عِظْمَةِ مَقَامِهِ، فَنَادَاهُ بِالنَّبُوءَةِ فِي بَدَايَةِ الْآيَةِ، لِبَيَانِ عُلُوِّ شَأْنِهِ. ثُمَّ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنْ نَوَبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤]، وَهَذَا الْخُطَابُ لِسَيِّدَتِنَا عَائِشَةَ وَسَيِّدَتِنَا حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَوَضَّحَ أَنَّ اللَّوْمَ وَالْعِتَابَ لَهَا، وَلَيْسَ لِلنَّبِيِّ ﷺ. فَلَمَّا حَصَلَ هَذَا الْأَمْرُ الْبَسِيطُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَاتِهِ، وَانزَعَجَ النَّبِيُّ مِنْهُ، أَنْزَلَ اللَّهُ قَرَأْنَا؛ نَصْرَةً لِحَبِيبِهِ، وَلِبَيَانِ عُلُوِّ شَأْنِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي يَنْصُرُهُ، وَيَعَارُ عَلَيْهِ، وَيَحْفَظُهُ، وَيَحَافِظُ عَلَيْهِ. وَلَيْسَ اللَّهُ فَقَطْ، بَلْ وَأَعْظَمُ جُنْدَ اللَّهِ جِبْرِيلُ، وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ كَكِبَارِ الصَّحَابَةِ، وَصَالِحِي الْأُمَّةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَبَاقِي الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُ عَدَدُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، كُلُّهُمْ جُنُودُ لَهُ. فَالْكُونُ كُلُّهُ انْتَفَضَ مِنْ أَجَلِهِ ﷻ، فَأَيُّ لَوْمٍ لِلنَّبِيِّ بَعْدَ هَذَا؟! يَا مَنْ لَمْ تَعْرِفُوا قَدْرَ نَبِيِّكُمْ».



قلت: يُؤْخَذُ عَلَى بَعْضِ الْمَفْسَرِينَ فِي تَفْسِيرِهِمْ أَنَّهُمْ يَفْسِرُونَ الْآيَاتِ الْخَاصَّةَ بِالْحَبِيبِ ﷺ دُونَ النَّظَرِ إِلَى مَقَامِهِ الْعَالِيِّ وَمَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ كِمَالَاتٍ وَفَضَائِلٍ لَمْ يَجْعَلْهَا لِسِوَاهُ، فَكَيْفَ فَهَمُ الْبَعْضُ أَنَّ اللَّهَ عَاتَبَ نَبِيَهُ وَلَا مَهَ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ، بَلْ

وتماذى البعض مثل البيضاوي، ونسب الزلة في العمل للنبي ﷺ وحاشاه. ولما جاء بعض المتأخرين واطلعوا على هذه التفسيرات صاروا يجهرون بها على المنابر ويؤلفون لها الكتب، وبَوَّبُوا في كتبهم أبواباً، بعنوان عتاب الله لنيه، ويدئون بسرديات التي يستدلون بها على العتاب، كما فعل مصطفى العدوي. وما هذا إلا لجهلهم بمقامه ﷺ عند مولاه. وجزى الله العارفين بالله تعالى والعارفين بمقام الحبيب ﷺ عند مولاه، إذ فسروا به هذه الآية بصورة تليق بمقامه العالي ﷺ، فقد أثلجوا صدور المحبين للنبي ﷺ، بدفعه للشبهات التي يثيرها المسيئون للجناب العالي.



سورة المدثر

الآية الحادية والأربعون:

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٥﴾ [المدثر: ٥].

التفسير الأولي:

قال مقاتل رحمه الله تعالى في تفسيره: «يعني الأوثان؛ يساف ونائلة، وهما صنمان عند البيت، يمسح وجوههما من مر بهما من كفار مكة، فأمر الله - تبارك وتعالى - النبي ﷺ أن يجتنبهما»^(١).



قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فيه ستة تأويلات؛ أحدها، يعني الآثام والأصنام، قاله جابر، وابن عباس، وقتادة، والسدي. الثاني، والشرك فاهجر، قاله ابن جبير. الثالث، والذنب فاهجر، قاله الحسن. الرابع، والإثم فاهجر، قال السدي. الخامس، والعذاب فاهجر، حكاه أسباط. السادس، والظلم فاهجر»^(٢).



قال ابن كثير والطبري رحمهما الله تعالى في تفسيرهما: «﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ وقوله: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «﴿وَالرُّجْزَ﴾ وهو الأصنام. وكذا

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٤ ص ٤٩٠.

(٢) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٦ ص ١٣٧.

قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والزهري، وابن زيد: إنها الأوثان. وقال إبراهيم، والضحاك: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي: اترك المعصية^(١).



قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾» يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها، ومما نسب إليها من قول أو عمل. ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمره بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك، وما دونه^(٢).



التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «احتج من جوّز المعاصي على الأنبياء بهذه الآية، قال: لولا أنه كان مشغلا بها، وإلا، لما زجر عنها بقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾» والجواب: المراد منه الأمر بالمداومة على ذلك الهجران، كما أن المسلم إذا قال: اهدنا، فليس معناه إنا لسنا على الهداية فاهدنا، بل المراد ثبتتنا على هذه الهداية، فكذا ههنا^(٣).



(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٨ ص ٢٦٤، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢٣ ص ١٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ١ ص ٨٩٥.

(٣) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٣٠ ص ٧٠٠.

قال النسفي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي أثبت عل هجره، لأنه كان بريئاً

منه»^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «استمر على ما أنت عليه من هجر هذه الأصنام، فأمر الملتزم بالشيء معناه: استمر عليه، لأنه كان لا يعبد الأصنام قبل بعثته، لا هو ولا أجداده. كما قال في الآية التي قبلها: ﴿وَيْبَاكَ فَطَهَّرَ﴾^(٢) وهو كان طاهراً، بعيداً عن النجاسات قبل النبوة وبعدها. فالمعنى: استمر على ما أنت عليه، فيحول العادة إلى عبادة، وهذا تكريماً له، ورفعاً لشأنه ﷺ».



قلت: لقد أثبتنا نبوته ﷺ في جميع أطواره، وما قاله بعض المفسرين أن الخطاب يعني: اترك الأصنام، أو الذنوب والمعاصي والآثام، مردود ومرجوح. ولم يثبت عنه ﷺ أن ارتكب ذنباً ولا معصية قبل البعثة. والواجب على المسلم أن يعرف حقيقة نبيه وكمالاته، حتى يُفسر هذه الآيات بما يليق بمقام نبيه، لا بما يوافق غيره من البشر، ممن يجوز في حقهم الذنب والمعصية. وكما قال المفسرون المنزهون لمقامه ﷺ: استمر على ما أنت عليه، من هجرك للأوثان، والمعاصي، والذنوب، فأنت المعصوم عن كل هذا، واستمر على ما أنت عليه من هجرك لسوانا، وكما هو معلوم هذا أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ، وللأمر عند الأصوليين والبلاغيين أكثر

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل المعروف بتفسير النسفي ج ٣ ص ٥٦٢.

من عشرين معنى، ومن معاني الأمر (التكوين)، وهذا الأمر من الله لرسوله أمر تكوين، بمعنى بمجرد صدور الأمر من الحق ﷻ: لرسوله ﷺ سلب من الذات المحمدية أي التفاتة إلى الرجس والشهوات ظاهرا وباطنا، وصار من لحظته ظاهرا مطهرا، وهذا الأمر إنما صدر من الله تعالى إلى حبيبه لحظة إيجاده نورا بين يدي ربه، فصار مظهرا للنور والطهر والتوحيد.

وللآية توجيه آخر، فهو خطاب لاتباعه وأحبابه من بعده، أي يا من تريد الوصول إلينا، فاهجر الكل وتعال، وأخرج العوالم من قلبك تصل، فكل حجاب يحجبك عن مولاك رجز، وعليك هجره.



سورة الإنسان

الآية الثانية والأربعون:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]

التفسير الأولي:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: ارض بقضائه، واستسلم لحكمه. ﴿وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي ولا كفورا، وهذا أمر له بإفراد ربه بطاعته»^(١).



التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «إنه عليه السلام ما كان يطيع أحدا منهم، فما الفائدة في هذا النهي؟ الجواب: المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد، لأجل ما تركب فيهم من الشهوات الداعية إلى الفساد، وأن أحدا لو استغنى عن توفيق الله وإمداده وإرشاده، لكان أحق الناس به، هو الرسول المعصوم. ومتى ظهر ذلك، عرف كل مسلم، لأنه لا بد له من الرغبة إلى الله، والتضرع إليه في أنه يصونه عن الشبهات والشهوات»^(٢).



(١) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٣ ص ٦٦٨.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٣٠ ص ٧٥٨.

قلت: من المعلوم أن النبي ﷺ لا يطيع إلا ربه ﷻ، والخطاب له ﷺ والمراد به أمته؛ لأنه واسطة البلاغ، وكما قلنا سابقاً إن الأمر من الله تعالى إلى نبيه ﷺ أمر تكوين، فقله ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أوجد الصبر بجميع أقسامه في ذاته الشريفة، فصار أسوة للصابرين، بل وممدا لهم، ولما قال له ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ إِنْهُمْ أَوْكَفُورًا﴾ أي استمر على ما أنت عليه من الإعراض عنهم وعدم الالتفات لهم.



سورة عبس

الآية الثالثة والأربعون:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝٢ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنَّى ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۝٥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَنَّى ۝٧ وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يَسْعَى ۝٨ وَهُوَ يَخْشَى ۝٩ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝١٠﴾ [عبس: ١-١٠]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى والكثير من أهل التفسير: «حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، قال: حدثنا أبي، عن هشام بن عروة مما عرضه عليه عروة، عن عائشة قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١﴾ في ابن أم مكتوم، قالت: أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني، قالت: وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين، قالت: فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقوله بأسا؟ فيقول: لا، ففي هذا أنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١﴾. ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنَّى ۝٣﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما يدريك يا محمد، لعل هذا الأعمى الذي عبست في وجهه يزكى. وقوله: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۝٤﴾ يقول: أو يتذكر فتتنفعه الذكرى، يعني: يعتبر، فينفعه الاعتبار والاتعاظ»^(١).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢٤ ص ٢١٧، الكشف والبيان عن تفسير القرآن المعروف بتفسير الثعلبي ج ١٠ ص ١٣٠.

قال أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني رحمه الله تعالى: «وَعَبَسَ فِي وَجْهِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخَرِينَ، فَمَا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَجْوَاهُ، وَأَخَذَ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، أَمْسَكَ اللَّهُ بَعْضَ بَصَرِهِ، وَخَفَقَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١)».



قلت: اتفاق أهل التفسير على هذا المعنى، ونقل المتأخرين منهم عن المتقدمين، لا يعني أن نُسَلِمَ لهذا التفسير ونقول به، لأننا ننزه النبي ﷺ من صفة العبوس، وهي صفة ذم. وقد ننزهه الله تعالى من كل نقص، ومن كل شبهة. لذلك سنبين التفسير الذي يليق بمقامه ﷺ، وننفي عنه هذه الصفة التي نسبها المفسرون له.

التفسير العرفاني:

الإمام الرازي رحمه الله تعالى لم ينف العبوس عن النبي ﷺ لكنه ذكر أوجهاً في تنزيهه، فقال: «جاءه ابن أم مكتوم عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري، من بني عامر بن لؤي، وعنده صناديد قريش؛ عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمّية بن خلف، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام. وابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر، فكيف عاتب الله رسوله على أن أدّب ابن أم مكتوم وزجره؟ وإنما قلنا: أنه كان يستحق التأديب، لوجوه؛ أحدها، أنه وإن كان لفقد بصره لا يرى القوم، لكنه لصحة سمعه، كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ أولئك الكفار، وكان يسمع أصواتهم أيضاً، وكان يعرف

(١) الهداية إلى بلوغ الغاية ج ١٢ ص ٨٠٥١.



بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلام النبي ﷺ، وإلقاء غرض نفسه في البين قبل تمام غرض النبي، إيذاء للنبي عليه الصلاة والسلام، وذلك معصية عظيمة. وثانيها، أن الأهم مقدم على المهم، وهو كان قد أسلم وتعلم، ما كان يحتاج إليه من أمر الدين. أما أولئك الكفار، فما كانوا قد أسلموا، وهو إسلامهم سبباً لإسلام جمع عظيم. فإلقاء ابن أم مكتوم ذلك الكلام في البين، كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم، لغرض قليل، وذلك محرم. وثالثها، أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، فنهاهم عن مجرد النداء إلا في الوقت. فههنا هذا النداء الذي صار كالصارف للكفار عن قبول الإيمان، وكالقاطع على الرسول أعظم مهماته، أولى أن يكون ذنباً ومعصية. فثبت بهذا: أن الذي فعله ابن أم مكتوم، كان ذنباً ومعصية، وأن الذي فعله الرسول كان هو الواجب»^(١).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله وهو تفسير الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني أيضاً: «العبوس ليست صفة النبي ﷺ الذي كان لا يُخفي بشره على أحد، ومن اطلع على سبب النزول علم أن النبي ﷺ كان جالسا مع صناديد قريش، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة، وكان يعرض عليهم الإسلام. فلما دخل عبد الله ابن أم مكتوم على النبي ﷺ ليسأله عن أمر، عبس الوليد بن المغيرة؛ لأنهم لا يُدخلون الفقراء إلى مجالسهم. والمتبع لآيات القرآن الكريم، يجد أن الوليد ذكر في موضع آخر من القرآن الكريم بصفة العبوس، وذلك في سورة المدثر:

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٣١ ص ٥٢.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾

[المدر: ١٨-٢٢] ويستحيل أن يصف الله تعالى الكافر بالعبوس، ثم يصف النبي ﷺ بالعبوس، فعبس الكافر وتولى حال مجيء الأعمى للنبي ﷺ. وما يدريك أيها العابس، لعل هذا الأعمى يزكى، أو يذكر ويتعظ، فتفعه الذكرى. أما من استغنى وهو الكافر الذي عبس، فأنت له تصدى، وكأن الله تعالى غار على النبي ﷺ، كيف يكلم العابس، ويتحمل عبوسه، ويتنازل عن حقه من أجل الدعوة. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ﴾ ليس واجبا عليك أن يزكى هذا العابس، وقد قال: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]. وقال في آية أخرى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ فليس عليك وجوبا أن يهتدي كل الناس بدعوتك. أما قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ الأعمى الراغب وهو يخشى مولاه، فأنت تشغل عنه بهذا العابس. وهذا معنى قول السيدة عائشة: «انها أنزلت في ابن أم مكتوم»^(١). وقال عنه الإمام الترمذي حديث غريب.



وأضاف سيدي الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «قد بين الله تعالى في نهاية السورة حال الفريقين، الذين ذكرهما في بداية السورة، فقال عن سيدنا محمد ﷺ وابن أم مكتوم، وفريقه من الصحابة ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٨-٣٩] وقال عن الفريق الآخر العابس الكافر: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَافِرَةٌ ﴿٤٠﴾ زَهَقَهَا فَتْرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٤٠-٤٢]. وهذا ما حصل للوليد بن المغيرة الذي مات على الكفر، ونرى التوافق بين ما ذكره الله في هذه

(١) الترمذي: ٣٣٣١.

السورة، وفي سورة المدثر، حيث قال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]. فكل الآيات جازمت بأنه سيموت على الكفر.



قلت: وبعد هذا التفسير، لا يسعني إلا أن أقول رضي الله تعالى عن شيخنا الشيخ حسن الحلاب، وشيخنا الشيخ يسري جبر الحسني على هذا التفسير، والذي يليق بمقامه ﷺ، فوالله إنه أكمل وأفضل تفسير لهذه الآية. وهذا ما نعتقد برسول الله صلى الله عليه وسلم. ونضيف لما ذكره مشايخنا الكرام، أن الله تعالى ذكر كلمة العبوس في القرآن الكريم ثلاث مرات؛ الأولى، يصف بها الكافر الوليد بن المغيرة ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [٢٢] ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [٢٣] [المدثر: ٢٢-٢٣].

الثانية، يصف به شدة وكلاحة يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠] فكيف يصف الله ﷻ الكافر وشدة يوم القيامة بوصف، ثم يصف حبيبه المصطفى، وخليفه المجتبي، بهذا الوصف. ثم أنه ما ورد في السير عن النبي ﷺ، أنه كلع وجهه وقطبه بوجه أحد أبدا، لا قبل النبوة، ولا بعدها. وكما هو معلوم، أن أفضل من وصف النبي ﷺ أم معبد، حيث قالت: «رأيت رجلا ظاهر الوضوء، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعب ثحلة، ولم تزر به صعلة، وسيم في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته سهل، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثائة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأباه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل لا هذر ولا تزر، كأن منطق خرزات نظم يتحدرن، ربع لا يأس من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له رفقاء

يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود لا عابس ولا مفند»^(١) وفي رواية ابن أبي عاصم الشيباني: «لا عابس ولا يعتدي على أحد بشر، أظهر الناس خلقا وأكرمهم عودا»^(٢) وفي رواية الآجري: «لَا عَابِسٌ وَلَا مُعْتَدٍ»^(٣). وهذا ما ندين به أنه ﷺ غير عابس ولا معتد، وصفة العبوس في هذه السورة ننسبها إلى الكافر.



(١) الطبراني في المعجم الكبير (٣٦٠٥).

(٢) الآحاد والمثاني (٣٤٨٥).

(٣) الشريعة (١٠٢٠).

سورة الضحى

الآية الرابعة والأربعون:

﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: ووجدك على غير الذي أنت عليه اليوم. حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا مهران، عن السدي: ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا﴾ قال: كان على أمر قومه أربعين عاما. وقيل عني بذلك ووجدك في قوم ضلال فهداك»^(١).



قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي ووجدك غير مهتد إلى ما سبق إليك من النبوة والعلم، ونحوه قوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقد يعبر عن سوء الاختيار بالضلال، نحو قوله: ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، ويعبر عن الخيبة بالضلال والغبي والخطأ»^(٢). وقال: والضلال ههنا الجهل بالمعارف الحقيقية، نحو: ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾^(٣).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ٢٤ ص ٤٨٨.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ج ١ ص ٦٧.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ج ١ ص ٤٢٠.



قلت: عندما اقرأ هذه النصوص أقف محتاراً، ولا أعلم كيف لعلماء اطلعوا على سيرة النبي ﷺ، وعلموا أنه لم يكن على دين قومه، ولم يرتكب معصية واحدة قط، أن يصفوا نبينهم بهذه الأوصاف؟! وسند على هذه التفاسير، ونبين الصحيح بإذن الله تعالى.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «فاعلم أن بعض الناس ذهب إلى أنه كان كافراً في أول الأمر، ثم هداه الله وجعله نبياً، قال الكلبي: ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يعني كافراً في قوم ضلال، فهذا للتوحيد. وقال السدي: كان على دين قومه أربعين سنة. وقال مجاهد: وجدك ضالاً عن الهدى لدينه. واحتجوا على ذلك بآيات أخر، منها قوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وقوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِحَبَطٍ عَمَلِكُ﴾ [الزمر: ٦٥]. فهذا يقتضي صحة ذلك منه. وإذا دلت هذه الآية على الصحة، وجب حمل قوله: ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عليه.

وأما الجمهور من العلماء، فقد اتفقوا على أنه عليه السلام، ما كفر بالله لحظة واحدة. يقال: ضل الماء في اللبن، إذا صار مغموراً، فمعنى الآية: كنت مغموراً بين الكفار بمكة، فوقاك الله تعالى حتى أظهرت دينه. والعرب تسمي الشجرة الفريدة في الفلاة ضالة، كأنه تعالى يقول: كانت تلك البلاد كالمفازة، ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله ومعرفته إلا أنت، فأنت شجرة فريدة في مفازة الجهل، فوجدتك ضالاً فهديت بك الخلق. ونظيره قوله عليه السلام: «الحكمة ضالة



المؤمن». وأيضاً، أنه قد يخاطب السيد، ويكون المراد قومه. فقلوه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي وجد قومك ضاللاً، فهدهم بك وبشرعك. وأيضاً: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عن الضالين منفرداً عنهم، مجانباً لدينهم. فكلما كان بعدك عنهم أشد، كان ضلالهم أشد، فهذا إلى أن اختلطت بهم، ودعوتهم إلى الدين المبين^(١).



قال الجنيد البغدادي رحمه الله: «المعنى: وجدك متحيراً في بيان ما أنزل الله إليك، فهذا لييانه، لقلوه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾»^(٢).



قال التستري رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي وجدك لا تعرف قدر نفسك، فعرفك قدرك، ووجدك ضالاً عن معاني محض مودتك، فسقاك من شراب مودته بكأس محبته، فهذا إلى معرفته، وخلع عليك خلع نبوته ورسالته، ليدل بهما على قربهِ ووحدانيته. قال: وفيها وجه آخر: ووجدك نفسك نفس الطبع، فقير إلى سبيل المعرفة»^(٣).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يعني من بين قوم ضلال فهدي، يعني حفظك من أمرهم، وعن أخلاقهم. ويقال: ووجدك بين قوم ضلال، فهدهم بك»^(٤).

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٣١ ص ١٩٧.

(٢) الإمام الجنيد سيد الطائفتين ج ١ ص ١٥٢.

(٣) تفسير التستري ج ١ ص ١٩٧.

(٤) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٣ ص ٥٩٢.

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي ضللت في شعاب مكة، فهدى إليك عمك أبا طالب في حال صباك. ويقال: ﴿ضَالًّا﴾ فينا متحيرا... فهديناك بنا إلينا. ويقال: ﴿ضَالًّا﴾ عن تفصيل الشرائع، فهديناك إليها، بأن عرفناك تفصيلها. ويقال: فيما بين الأقوام ضلال، فهداهم بك. ويقال: ﴿ضَالًّا﴾ في محبتنا، فهديناك بنور القربة إلينا. ويقال: ﴿ضَالًّا﴾ عن محبتي لك، فعرفتني أنى أحبك. ويقال: جاهلا بمحل شرفك، فعرفتني قدرك. ويقال: مستترا في أهل مكة، لا يعرفك أحد، فهديناهم إليك، حتى عرفوك»^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ في محبته، فهداك إلى حضرة مشاهدته ومقام قربه، فكان قاب قوسين أو أدنى»^(٢).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «وليس المراد بالضلال هنا اتباع الباطل، فإن الأنبياء معصومون من الإشراف قبل النبوة باتفاق علمائنا. وإنما اختلفوا في عصمتهم من نوع الذنوب الفواحش التي لا تختلف الشرائع في كونها فواحش، وبقطع النظر عن التنافي بين اعتبار الفعل فاحشة، وبين الخلو عن وجود شريعة قبل النبوة، فإن المحققين من أصحابنا نزهوه عن ذلك، والمعتزلة منعوا ذلك، بناء على اعتبار دليل العقل كافيا في قبح الفواحش على إرسال كلامهم في ضابط دلالة العقل. ولم يختلف أصحابنا أن نبينا ﷺ لم يصدر منه ما ينافي أصول

(١) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٣ ص ٧٤١.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ١٠٦.



الدين قبل رسالته، ولم يزل علماؤنا يجعلون ما تواتر من حال استقامته، ونزاهته عن الرذائل قبل نبوءته، دليلا من جملة الأدلة على رسالته، بل قد شافه القرآن به المشركين بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، ولأنه لم يؤثر أن المشركين أفحموا النبي صلى الله عليه وسلم فيما أنكر عليهم من مساوي أفعالهم، بأن يقولوا: فقد كنت تفعل ذلك معنا^(١).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: لا يُتصور أن النبي صلى الله عليه وسلم غفل عن حضرة ربه لحظة من اللحظات، فكيف يصفه البعض بالضلال وعدم الهداية. ومنه استمدت الأكوان هدايتها، كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فالمعنى في هذه الآية يتضح إذا ما فسرنا الضلال مع الأخذ بعين الاعتبار مقامه العالي عند مولاه، فالضلال هنا بمعنى الحيرة، أي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم بتعليم الله تعالى له أنه نبي ورسول سيخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وكان محتارا في كيفية هداية الخلق إلى مولا هم، وكان منتظرا للأمر الإلهي بالتبليغ، وطريقة التبليغ، لذلك كان يتحنث في غار حراء. ولما جاءه جبريل عليه السلام، وقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ، أي: كيف أبلغ الكلام القديم بلسان الحادث؟!.



قلت: وفي هذه التفاسير الرد الدامغ على من قال ويقول أنه صلى الله عليه وسلم كان ضالا عن الهداية، أو ضالا على دين قومه وحاشاه من ذلك.

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٠٠.

سورة الشرح

الآية الخامسة والأربعون:

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح: ٢-٣].

التفسير الأولي:

قال مجاهد رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال: ذنبك في الجاهلية»^(١).



قال مقاتل رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول: وحططنا عنك ذنبك الذي أنقض ظهرك، يقول للنبي ﷺ كان أثقل ظهرك، فوضعناه عنك»^(٢).



قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول: وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها. حدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: حدثنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ يعني الشرك الذي كان فيه»^(٣).



(١) تفسير مجاهد ج ١ ص ٧٣٦.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٤ ص ٧٤٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢٤ ص ٤٩٢.

قال الواحدي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي ما كنت فيه من أمر الجاهلية، لأنه ﷺ كان على كثير من مذاهب قومه، وإن لم يكن عبد صنم»^(١).



قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى: «إن قال قائل: هذه الآية وما سقناه شاهد لها يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد يذنب، فهل النبي ﷺ يذنب؟ فالجواب: نعم، ولا يمكن أن نرد النصوص لمجرد أن نستبعد وقوع الذنب منه ﷺ، ونحن لا نقول الشأن إلا يذنب الإنسان، بل الشأن أن يغفر للإنسان، هذا هو المهم أن يغفر له. أما أن لا يقع منه الذنب، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(٢)،^(٣).



قلت: وكما هي عادة من حجب الله تعالى عن خصوصية الأنبياء والمرسلين ومقامهم العالي، وما خصهم الله ﷻ من العصمة، فهم على ديدنهم في رمي الأنبياء بالذنب والمخالفة، بل ويتجرأ البعض كابن عثيمين، في إثبات الذنب له، وبعبارة صريحة، وكأنه يتحدث عن آحاد المسلمين، وما ذلك إلا لجهله بمقامات الأنبياء وخصائصهم.

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ج ٤ ص ٥١٩.

(٢) سنن الترمذي ٢٦٨٧، قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ مَسْعَدَةَ عَنْ قَتَادَةَ.

(٣) تفسير جزء عم ج ١ ص ٢٤٤.

التفسير العرفاني:

قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس، حتى نزل عليك الوحي، وأنت مطهر من الأدناس. ويحتمل أيضاً: أي أسقطنا عنك تكليف ما لم تُطِّقه؛ لأن الأنبياء وإن حملوا من أثقال النبوة على ما يعجز عنه غيرهم من الأمة، فقد أعطوا من فضل القوة، ما يستعينون به على ثقل النبوة، فصار ما عجز عنه غيرهم ليس بمطاق»^(١).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «خفضنا عنك أعباء النبوة، وجعلناك محمولا، لا متحملا. ويقال: قويناك على التحمل من الخلق، وقويناك لمشاهدتنا، وحفظنا عليك ما استحفظت، وحرسناك عن ملاحظة الخلق فيما شَرَّفناك به»^(٢).



قال أبو حيان رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾» كناية عن عصمته من الذنوب، وتطهيره من الأدناس، عبّر عن ذلك بالخط على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك، كما يقول القائل: رفعت عنك مشقة الزيارة، لمن لم يصدر منه زيارة، على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه»^(٣).



(١) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٦ ص ٢٩٦.

(٢) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٣ ص ٧٤٣.

(٣) البحر المحيط في التفسير ج ١٠ ص ٥٠٠.

قال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي حططنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلغها، فجعلنا التبليغ عليك سهلاً، ونفسك به مطمئنة راضية، ولو قبلت بالإساءة ممن أرسلت إليهم، كما يرضى الرجل بالعمل لأبنائه ويهتم بهم. فالعبء مهما ثقل عليه، يخففه ما يحيش بقلبه من العطف عليهم، والحدب على راحتهم، ويتحمل الشدائد وهو راض بما يقاسي في سبيل حياتهم وتنشئتهم»^(١).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَوَضَعْنَا﴾ ووضع حطه عن حامله، والكلام تمثيل لحال إزالة الشدائد والكروب، بحال من يحط ثقلاً عن حامله، ليرى من عناء الثقل.

والمعنى: أن الله أزال عنه كل ما كان يتخرج منه من عادات أهل الجاهلية، التي لا تلائم ما فطر الله عليه نفسه، من الزكاة والسمو، ولا يجد بداً من مسائرهم عليه، فوضع عنه ذلك حين أوحى إليه بالرسالة. وكذلك ما كان يجده في أول بعثته من ثقل الوحي، فيسره الله عليه بقوله: ﴿سُفِّرْتُكَ فَلَا تَسْجُ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَسْرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: ٨]. و﴿أَنْقَضَ﴾ جعل الشيء ذا نقيض، والنقيض صوت صرير المحمل والرحل، وصوت عظام المفاصل، وفرقة الأصابع، وفعله القاصر من باب نصر، ويعدى بالهمزة. وإسناد ﴿أَنْقَضَ﴾ إلى الوزر مجاز عقلي، وتعديته إلى الظهر تبع لتشبيه المشقة بالحمل، فالتركيب تمثيل لمتجشم المشاق

(١) تفسير المراغي ج ٣٠ ص ١٨٩.

الشديدة، بالحمولة المثقلة بالإجمال تثقيلاً شديداً، حتى يسمع لعظام ظهرها فرقة وصرير. وهو تمثيل بديع، لأنه تشبيه مركب، قابل لتفريق التشبيه على أجزائه»^(١).



قال الشيخ المحدث عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله: «الوزر معناه في اللغة: الحمل الذي يثقل الظهر، ومنه سمي الذنب وزراً، لأنه يثقل العاصي يوم القيامة. وعلى هذا، فمعناه هنا: ثقل عبء النبوة والتبليغ، لأن النبي ﷺ حين نبي كان الوحي شديداً، حتى خاف على نفسه من الهلاك، فأخذت السيدة خديجة رضي الله عنها تعضده، وتشد أزره. ثم لما أمر بالتبليغ، زاد الأمر شدة لما لاقاه من إذاية القريب والبعيد له ولأصحابه. وهذه أثقال تثقل الظهر، وتنوء بها قوة الإنسان، فوضعها الله عنه، ووفقه للقيام بما كلف به على خير ما يرام. وإن كان معنى الوزر الذنب، فالمراد بالوضع العصمة، ولذلك عبر به؛ لأنه يثقل الظهر بعقابه، وبالندم عليه في حالة التوبة منه، والعصمة - لكونها تمنع وقوع ذلك - تريخ صاحبها من ثقل عقابه، ومن ثقل الندم عليه، فعبر عنها بالوضع لذلك. هذان الوجهان في غاية الوضوح»^(٢).



قال الشيخ الإمام علي جمعة حفظه الله تعالى ورعاه: «أي وضع الله ﷻ الحجب عن نبيه ﷺ، وعندما أسقطت الحجب صار النبي ﷺ يرى الأشياء على حقيقتها، فصار ضاراً لله ﷻ: على الدوام. فالإنسان في قلبه بابان، كما قال الإمام

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤١٠.

(٢) موسوعة العلامة المحدث عبد الله بن الصديق الغماري ج ١٣ ص ٢٣٤.



الغزالي رحمه الله: باب على الخلق، وباب على الحق ﷻ: وكان باب الخلق مفتوحا على الدوام في قلبه ﷻ؛ لأنه مأمور بالتبليغ. والنبي ﷺ مع شدة شوقه لربه ﷻ، وأنسه به، تتدفق الأنوار على قلبه من الحق ﷻ، فتحاول أن تغلق باب الخلق، لكنه يستغفر الله في اليوم واللييلة مائة مرة من أجل فتح باب الخلق؛ لأنه مكلف بفتحه للتبليغ والتشريع. فمعنى ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ أي أسقطنا عنك الحجب بالكلية. وانشرح الصدر وشقه، مذ كان صغيرا، إنما هو لعدة إخراج حظ الشيطان منه. وليس كما يظن البعض، أنه لو بقي فيه لاستطاع الشيطان أن يوسوس للنبي ﷺ، وإنما هو رفع حظ الشيطان من الرحمة المهداة، فلا تناله الرحمة أبداً.



قال الشيخ رافع الرفاعي مفتي الديار العراقية حفظه الله تعالى ورعاه: «إذا ما رجعنا إلى قوله تعالى في بداية السورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] ونحن نعلم أن (لم) إذا دخلت على الفعل المضارع، تفيد النفي والقلب والجزم، وبدخولها قلبت الزمن إلى الماضي، فصار المعنى: يا حبيبي، أنت من أصل الماضي مشروح الصدر، ومرفوع الذكر، ومغفور الذنب، أي ليس لك ذنب أصلا؛ لأنني كملتك من كل شيء. فيكون معنى ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ أي لا وزر لك في أصل خلقتك».



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «الوزر هو الثقل أو الذنب، والأنبياء لا ذنب لهم، فالوزر في حقهم هو الثقل والأعباء،



﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ﴾ أعباء الرسالة، فصارت يسيرة لك، صعبة على غيرك؛ لأن الرسالة والوحي من الأمور التي لا يتحملها الإنسان، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، فوضعنا عنك هذا الأمر الثقيل الذي أنقض ظهره. وقول سيدنا موسى عليه السلام في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ ٢٩ هَرُونَ أَخِي ٣٠ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ٣١ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ٣٢﴾ [طه: ٢٩-٣٢] والوزير الذي يحمل الأعباء مع رئيسه، لذلك سُمي وزيراً، والله عَجَل: رفع الأثقال عن النبي ﷺ دون واسطة مخلوق، دلالة على رفع قدره.



قلت: من عقيدتنا كمسلمين، أن الأنبياء معصومون من الذنب قبل النبوة وبعدها، وهذا ما أثبتناه في الفصل الأول الخاص بعصمة الأنبياء، ثم أثبتنا في هذا الفصل نبوة النبي ﷺ في جميع أطواره، وبذلك يتبين خطأ من ينسب الذنب إلى الأنبياء قبل البعثة وبعدها. وكما قال العارفون في تفسير هذه الآية، أن الوزر بمعنى أثقال النبوة ومشقتها، وأثقال تحمل نزول القرآن، الذي لو نزل على جبل لتصدع. قال الله عَجَل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. فلو نزل القرآن على الجبال لتصدعت، ولما تحملت أنوار القرآن الكريم، وتحمله قلب النبي ﷺ. قال الله عَجَل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١١٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ١١٤﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، فلولا قلب النبي ﷺ ما نزل القرآن ولولا لسانه ما تيسر القرآن قال الله عَجَل: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ١٧﴾ [مريم: ٩٧]، فوضع الله عنه ثقل الوحي والنبوة والرسالة، فصارت ميسرة بلسانه، ليبلغ الناس، ويبين ما نزل إليه.



أما ما ذكره ابن عثيمين في إثبات الذنب له، متحججا بأنه لا يرد النصوص التي ثبتت، فلا توجد نصوص تثبت الذنب للأنبياء، بل إن كلامه وإثباته الذنب للأنبياء فيه رد للنصوص التي لا تعد ولا تحصى، في أن الأنبياء معصومون، وأن الله اصطفاهم، ولم يجعل للشيطان عليهم سبيلا. بل إن الشيطان اعترف أن لا سلطان له على عباد الله المخلصين، والسيرة التي لم تثبت ولو بنص واحد أن النبي ﷺ ارتكب ذنبا واحدا، بل ما قارب شبهة واحدة. وهذا ما أثبتناه عدة مرات في هذا الفصل، وأكثر ما يرد قوله في إثبات الذنب للنبي ﷺ هذه السورة، فقد قال الله في هذه السورة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] وأغلب أهل التفسير على أن هذه الآية تخص حادثة شق الصدر التي حصلت للنبي ﷺ.

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «فدل ذلك على أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلى كنه جلالتها، وإن حملناه على نون الجميع، فالمعنى كأنه تعالى يقول: لم أشرحه وحدي، بل أعملت فيه ملائكتي، فكنت ترى الملائكة حواليك، وبين يديك، حتى يقوى قلبك، فأديت الرسالة وأنت قوي القلب، ولحقتهم هيبة، فلم يجيبوا لك جوابا. فلو كنت ضيق القلب، لضحكوا منك، فسبحان من جعل قوة قلبك جبنا فيهم، وانشرح صدرك ضيقا فيهم»^(١).



وقال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وروي عن النبي ﷺ قال: «جاءني ملكان في صورة طائر، معها ماءٌ وثلجٌ، فشرح أحدهما صدري، وفتح

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٣٢ ص ٢٠٦.



الآخر بمنقاره فيه فغسله». وفي حديث آخر قال: «جاءني ملك فشق عن قلبي، فاستخرج منه عذرة، وقال: قلبك وكيع، وعيناك بصيرتان، واذناك سميعتان، أنت محمد رسول الله، لسانك صادق، ونفسك مطمئنة، وخلقتك قثم، وأنت قيم». قال أهل اللغة قوله: وكيع أي يحفظ ما يوضع فيه. يقال: سقاء وكيع، أي قوي يحفظ ما يوضع فيه. واستوكعت معدته، أي قويت. وقوله: قثم أي جامع. يقال: رجل قثم للخير، أي جامع له. ومعنى ألم نشرح قد شرحنا^(١).

قلت: فكيف لمن شرح الله صدره وأخرج حظ الشيطان منه، وهو في سن الصبا، ويشاهد الملكين، ويسمع كلامهم، ولا يخاف ولا يرتاب، أن يُنسب له الذنب. ومع إخراج حظ الشيطان منه، ونفسه لا تأمره إلا بخير، كما ورد عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ» قَالُوا: وَإِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «وَيَايَايَ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»^(٢). وبعد كل هذه النصوص، يتبين أن كلام هؤلاء القوم وفتواهم بجواز الذنب على الأنبياء، هو الذي يرد النصوص ويخالفها.



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢٠ ص ١٠٤.

(٢) مسلم (٢٨١٤).



سورة البقرة

الآية الأولى:

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «حدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو، قال: حدثنا أسباط، عن السدي في خبر ذكره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: لما قال الله عز وجل لآدم: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، أراد إبليس أن يدخل عليها الجنة، فمنعته الخزنة. فأتى الحية - وهي دابة لها أربع قوائم كأنها البعير، وهي كأحسن الدواب - فكلمها أن تدخله في فمها حتى تدخل به إلى آدم، فأدخلته في فمها - قال أبو جعفر: والفقم جانب الشدق - فمرت الحية على الخزنة، فدخلت، ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر. فكلمه من فمها فلم يبال كلامه، فخرج إليه، فقال: ﴿يَتَّخِذُكُمْ حُلُمًا﴾



عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ [طه: ١٢٠]، يقول: هل أدلك على شجرة، إن أكلت منها كنت ملكاً مثل الله عز وجل، أو تكونا من الخالدين، فلا تموتان أبداً. وحلف لهما بالله: إني لكما لمن الناصحين. وإنما أراد بذلك ليدي لهما ما توارى عنهما من سواتهما، بهتك لباسهما. وكان قد علم أن لهما سوءة، لما كان يقرأ من كتب الملائكة، ولم يكن آدم يعلم ذلك. وكان لباسهما الظفر، فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدمت حواء فأكلت، ثم قالت: يا آدم، كل، فإني قد أكلت فلم يضرني. فلما أكل آدم، بدت لهما سواتهما، وطفقا يخفضان عليهما من ورق الجنة»^(١).



وقال الزجاج رحمه الله تعالى: «معناه أنها أزلَّ بإغواء الشيطان إياهما، فصار كأنَّه أزلَّهما، يصلح أن يكون ﴿فَازَلَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أكسبهما الزلة والخطيئة، ويصلح أن يكون ﴿فَازَلَهُمَا﴾ نحَّاهما»^(٢).



قلت: ولا يخفى على ذي علم، أن هذه القصة من الإسرائيليات التي ملأت كتب التفسير، وفيها تجرؤ على الله ﷻ والملائكة من قدرة إبليس في الاحتيال ودخول الجنة، دون أن يراه أحد، ثم وسوس لآدم عليه السلام. ومن ثم، اتهم سيدنا آدم بالذنوب والمعصية، وسنرد على هذه التفاسير، ونوضح التفسير الذي يليق بمقام الأنبياء الأصفياء.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١ ص ٥٢٤، ٥-الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ج ١ ص ٣١١، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ١ ص ٧١.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ج ١ ص ١١٥.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: قال صاحب «الكشاف»: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ تحقيقه، فأصدر الشيطان زلتها عنها. ولفظة «عن» في هذه الآية كهي في قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ [الكهف: ٨٢]. قال القفال رحمه الله: هو من الزلل يكون الإنسان ثابت القدم على الشيء، فيزل عنه، ويصير متحولاً عن ذلك الموضع. ومن قرأ (فأزالهما) فهو من الزوال عن المكان. وحكي عن أبي معاذ أنه قال: يقال أزلتك عن كذا، حتى زلت عنه. وأزلتلك حتى زلت. ومعناها واحد، أي: حولتك عنه. وقال بعض العلماء: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي استرلها، فهو من قولك: زل في دينه، إذا أخطأ، وأزله غيره إذا سبب له ما يزل من أجله في دينه أو دنياه. ولنذكر ههنا كيفية تلك الزلة، ليظهر مراد الله تعالى من قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ فنقول لنفرض أنه صدر ذلك الفعل عن آدم عليه السلام بعد النبوة. فإقدامه على ذلك الفعل، إما أن يكون حال كونه ناسياً، أو حال كونه ذاكرة. أما الأول: وهو أنه فعله ناسياً، فهو قول طائفة من المتكلمين. واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]. ومثله بالصائم يشتغل بامر يستغرقه ويغلب عليه، فيصير ساهياً عن الصوم، ويأكل في أثناء ذلك السهو لا عن قصد. والناسي غير قادر على الفعل، فلا يكون مكلفاً؛ لقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وأما من حيث النقل، فلقوله عليه الصلاة والسلام: «رفع القلم عن ثلاث». فلما عوتب عليه، دل على أن ذلك لم يكن على سبيل النسيان، لأننا نقول: العتاب إنما حصل على ترك التحفظ من أسباب النسيان، وهذا الضرب من السهو موضوع عن المسلمين، وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به،



وليس بموضوع عن الأنبياء لعظم خطرهم. ومثلوه بقوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ثم قال: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مَّبِينَةٍ يُّضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأئمة فالأئمة». وقال أيضا: «إِنِّي أُوَعِّدُكُمْ كَمَا يُوَعِّدُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»^(١). وكان الحسن رحمه الله يقول: والله ما عصي قط إلا بنسيان. ثم قوله: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(١١٥)، يحتمل ولم نجد له عزمًا على القيام على المعصية، فيكون إلى المدح أقرب^(٢).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي حملها على الزلة، وفي التحقيق: ما صرفتهما إلا القدرة، وما كان تقلبها إلا في القضية، أخرجهما عما كانا فيه من الرتبة والدرجة جهرا، ولكن ما ازداد - في حكم الحق سبحانه - شأنهما إلا رفعة وقدرًا^(٣).



قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقال بعض أرباب المعاني قوله ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ إشعار بالوقوع في الخطيئة والخروج من الجنة، وأن سكناه فيها لا يدوم، لأن المخلد لا يحظر عليه شيء، ولا يؤمر ولا ينهى. والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فدل على خروجه منها».

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٣ ص ٤٥٥.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٣٢ ص ١٠٥.

(٣) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ١ ص ٨١.



قُلْتُ: قد استنبط بعض العلماء نبوة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَتَمَّائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] فأمره الله تعالى أن يُنبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله عز وجل. وقيل: أكلها ناسياً، ومن الممكن أنها نسيا الوعيد. قُلْتُ: وهو الصحيح، لإخبار الله تعالى في كتابه بذلك حتماً وجزماً، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]. ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ واليقظ، لكثرة معارفهم وعُلُو منازلهم، ما لا يلزم غيرهم، كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعاً، صار به عاصياً، أي مُخَالِفاً^(١).

ثم قال القرطبي: «الصحيح في إهباطه وسكنه في الأرض، ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك، وهي نشر نسله فيها، ليكلفهم ويمتحنهم، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخرى؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف، فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة. والله أن يفعل ما يشاء. وقد قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وهذه منقبة عظيمة، وفضيلة كريمة شريفة»^(٢).



قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «لم يكن الهبوط عقوبة لآدم وحواء، وإنما كان عقوبة لإبليس. فإن آدم أهبط لصدق الوعد، بأن يُجعل في الأرض خليفة، بعد ما تاب عليه واجتباها، وتلقى الكلمات من ربه بالاعتراف. فاعترافه عليه السلام في مقابلة كلام إبليس: أنا خير منه، فعرفنا الحق بمقام

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٠٤-٣٠٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٢١.



الاعتراف عند الله، وما ينتجه من السعادة، لتتخذ طريقاً في مخالفتنا، وعرفنا بدعوى إبليس ومقاتله لنحذر من مثلها عند مخالفتنا، وأهبطت حواء للتناسل، وأهبط إبليس للإغواء. فكان هبوط آدم وحواء هبوط كرامة، وهبوط إبليس هبوط خذلان، وعقوبة، واكتساب أوزار^(١).



قال ابن عطاء الله السكندري قدس الله سره: «اعلم، أن أكله عليه السلام للشجرة لم يكن عنادا ولا خلافا. فإما أن يكون نسي الأمر، فتعاطى الأكل، وهو له غير ذاك، وهو قول بعضهم. ويحمل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(١١٥). أو إن كان تناوله ذاكرا للأمر، فهو إنما تناوله لأنه قيل له: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٢٠) [الأعراف: ٢٠]. فلجبه في الله، وشغفه به، أحب ما يؤدبه إلى الخلود في جواره، والبقاء عنده، أو ما يؤدبه إلى الملكية؛ لأن آدم ﷺ عاين قرب الملكية من الله، فأحب أن يأكل من الشجرة لينال رتبة الملكية التي هي أفضل، أو التي هي في ظنه كذلك، على اختلاف أهل العلم وأهل المعرفة أيضا، أيها أفضل؟ الملكية أم النبوة، لا سيما وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاسَمُهُمَا إِيَّيْكَمَا لَئِنِ التَّصَحَّيْتُ﴾^(٢١) [الأعراف: ٢١]. قال آدم عليه السلام: ما ظننت أن أحدا يحلف بالله كاذبا^(٢).



(١) الفتوحات المكية: ج ١ ص ٥٩٥-٥٩٩.

(٢) التنوير في إسقاط التدبير ج ١ ص ٣٦.



قال الشيخ علي الخواص رحمته الله: «كان آدم يعلم أنه لا بد من خروجه من الجنة لدار الدنيا؛ لأجل التناسل لجميع بنيه، ولأجل التكليف. وكان يعلم أيضاً أنَّ العبد لا يكْمُل في مقام العبودية الذي به شرفه، إلا بالافتقار والذل. وكان يعلم باطلاعه في اللوح المحفوظ، أنه لا بد من إظهار خلق على صورته منه، كما أراه الحق ذلك في عالم الذر، حين استخرجهم من ظهره لأجل أخذ الميثاق، ومن هناك علم رتبة محمد صلى الله عليه وآله. وكان يعلم أنه ليس من شأن الكريم أن يُخرج من جواره عبداً بغير حجة تقام عليه في ظاهر الأمر، فلذلك بادر آدم عليه السلام إلى إقامة الحجة بأكله من الشجرة، لتمييز الحق بالكمال المطلق، ويتميز العبد بالذل والافتقار، ولذلك استعجل آدم عليه السلام الأكل من الشجرة؛ لعلمه أنه لا ينزل إلى مكان خلافته، إلا إن أقيمت عليه حجة بشيء وقع فيه في حضرة الله تعالى، وساعده على ذلك صفاء قلبه. فإن الأنبياء قلوبهم صافية، لا تظن أن أحداً يكذب ولا يحلف بالله كاذباً، فلذلك صدق من حلف أن يدلّه على شجرة الخلد وملك لا يبلى»^(١).



قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس الله سره: «اعلم أنَّ الله تعالى لما قضى في سابق علمه بالسعادة لقوم، والشقاوة لقوم، ولم يُبدل ذلك القول لديه، فلا بد من فاتح يفتح القبضتين، فكان إبليس فاتحاً لقبضة الشقاوة، وآدم عليه السلام فاتحاً لقبضة السعادة. فإبليس شقي، وآدم عليه السلام سعيد، هو وذريته الذين اقتفوا آثاره في التوبة والاعتراف. فأن آدم مع علمه بأن ما وقع فيه كان بقضاء وقدر، اعترف بذنبه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَرَبِّنا تَقَفِّرْ لَنا وَرَحِمَنا لَنَكُونَنَّ مِنْ

(١) درر الغواص في فتاوي سيدي علي الخواص للشيخ عبد الوهاب الشعراني ص ١٩.

يخرجون إذا وقعوا في معصية عن الإثم، ولا يصرون على المعاصي من غير توبة ولا إعراض، كما وقع فيها إبليس وجنوده من الإنس والجن. فكان حكم آدم عليه السلام فيما وقع له مع الحق ﷻ حكم عبد قال الحق ﷻ بينه وبينه: إني أريد أن أظهر في هذا الوجود، ما كان مكنوناً في علمي، وبحكم أسمائي في أهل حضراتها من السعداء والاشقياء، وتظهر حجتي على عبادي قبل أن أخرجهم من جواري، فإن علمي سبق بذلك، وأنا كريم. ومن شأن الكريم، أن لا يخرج أحداً من جواره إلا بحجة ظاهرة، تُقام عليه بين المحجوبين عن سماع ما قلته لك من سري. فإذا قلت لك: لا تقرب هذه الشجرة، فاعلم أنني أذنت لك في القرب منها، فاقرب لأقيم عليك الحجة، وأخرجك إلى دار خلافتك وترقيك بالأعمال؛ فإن هذه الدار التي أنت فيها، لا تكليف فيها ولا ترقى لأحد بأعماله، كما هي أعمال أهل الجنة التي يؤول أمر المؤمنين إليها بعد يوم القيامة. فلا يسمع العبد صاحب هذا السر إلا أن يبادر إلى ما أذن له فيه سيده سراً من وراء المحجوبين، ولم يكن ذلك معصية إلا عند المحجوبين عن سماع ذلك السر الذي أسرّه الحق ﷻ لآدم عليه السلام ^(١).



قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: (والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، وإنما أنزله إلى الأرض ليكمله).

فلم يزل آدم عليه السلام راقياً إلى الله تعالى، تارة على معراج التقريب

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الاكابر ص ٢٤٠.

والتخصيص، وتارة على معراج الذلة والمسكنة، وهو في التحقيق أتم، ويجب على كل مؤمن إن يعتقد إن النبي ورسول لا ينتقلان من حالة إلا إلى حالة أكمل منها. وافهم هاهنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

قال ابن عطية: (وللحالة الثانية خير لك من الأولى).

وإذ قد عرفت هذا، فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى له التدبير والمشیئة وكان قد سبق من تدبير مشيئته، أنه لا بد أن يعمر الأرض ببني آدم، وأن يكون منهم كما شاء. ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [الصافات: ١١٣].

وكان من تدبير حكمته: أن لا بد من تمام ذلك، وظهوره إلى عالم الشهادة، فأراد الحق سبحانه أن يكون تناول آدم للشجرة سببا لنزوله إلى الأرض، ونزوله إلى الأرض سببا لظهور مرتبة الخلافة التي من عليه بها، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: (أكرم بها معصية أورثت الخلافة وسنت التوبة لمن بعده إلى يوم القيامة).

وكان نزوله إلى الأرض بحكم قضاء الله تعالى، قبل أن يخلق السماوات والأرض.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: (والله لقد أنزل آدم إلى الأرض، قبل أن يخلقه، كما قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فمن

حسن تدبير الله تعالى لآدم، أكله من الشجرة ونزوله الأرض وإكرام الله تعالى إياه بالخلافة والإمامة^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «أكل سيدنا آدم عليه السلام من الشجرة ناسياً، وليس متعمداً. فاستغل الشيطان هذا النسيان، فبدأ يوسوس لهما، بأن هذه شجرة الخلد والبقاء في الجنة، وأقسم لهما أنه ناصح، كما قال الله عز وجل ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَنَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا خَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وسيدنا آدم عليه السلام كان لا يتصور أن هناك مخلوق يحلف بالله كذبا، ولعظمة الله في قلبه صدقه، فأكل منها، فبدت لهما سوءاتهما. وفيها تعليم للخلق، أن الله تواب رحيم، وأن الإنسان إذا عصى ربه يسارع إلى التوبة والاستغفار فيغفر له. مع ملاحظة أن شريعة الأنبياء من لدن آدم إلى سيدنا عيسى عليهم السلام، كانوا يؤاخذوا بالخطأ والنسيان، وما استكروها عليه. بخلاف شريعتنا المحمدية، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَا وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(٢).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «علم، أن جميع ما ذكره المفسرون عن دخول إبليس في الحية حتى يدخل الجنة، من الإسرائيليات. وآدم عليه السلام لم يرتكب

(١) التنوير في اسقاط التدبير ص ٣٣.

(٢) ابن ماجه (٢١٣٩).



المعصية عامداً، وما حصل ما حصل، إلا بتصدق الوعد الأول، الذي أخبر الله ﷻ به قبل خلق سيدنا آدم عليه السلام. قال الله: ﷻ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. فأي ذنب لآدم عليه السلام في تطبيقه ما أَرادَه الله منه. ثم إنَّ الله ﷻ لما أَراد أن يُنزل سيدنا آدم إلى الأرض؛ كي يكون خليفته فيه، كان لابد من وجود سبب لإخراجه من الجنة؛ لأنه ﷻ الحكم العدل، وحتى لا يتجرأ من يأتي من بعده من أولاد آدم، ويقول: إنَّ الله ظلمنا بإخراجنا من الجنة. ثم إنَّ الأنبياء عليهم السلام لا يعملون عملاً، إلا وهم مأمورون به، سواء كان الأمر ظاهراً أو باطناً، قال الله ﷻ: ﴿لَا يَسْأَلُونَكَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. والخطاب هنا عن الأنبياء وليس عن الملائكة، كما قال بعض من أهل التفسير. وحتى لا يعترض المعترضون على قولنا إنَّ الأنبياء قد يؤمرون في الباطن بأشياء، يجب عليهم القيام بها، وهي في نظرنا القاصر خطأ، وحاشاهم من الخطأ، والدليل على ذلك قول الخضر عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ [الكهف: ٨٢]، فلقد فعل أموراً في ظاهرها مخالفة للشرع، وفي الحقيقة تبين أنه مأمور بها من قبل الله ﷻ. هذا وهو من الأولياء الكبار، فما بالك بالأنبياء، فصار من المؤكد عندنا أنَّ كل أعمال الأنبياء عليهم السلام مأمورون بها، ولا يفعلون شيئاً إلا بأمر الله. والدليل على أنَّ الله ﷻ قد أخبر آدم عليه السلام بهذا الأمر، نستنبطه من إعلام الله لآدم، بأنه الخليفة، ولقد علمه الأسماء كلها، وأسجد الملائكة له.

أما الرد على الذين ينسبون الذنب لسيدنا آدم عليه السلام، مستدلين بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ فالاستغفار لم يكن لذنوب ارتكبه، بل لأن ظاهر الأمر فيه مخالفة في الظاهر، والسبب الثاني للاستغفار لكي يعلم أولاده من بعده كيفية الاستغفار، والأدب في خطاب الله تعالى، فنسب الظلم إلى نفسه، وتاب منه.



قلت: وفي كلام الأولياء الذي ذكرناه باختلاف عبارتهم وتنوع إشارتهم الجواب الكافي لتزويه مقام النبوة من الخطيئة. ونقول لمن يسيء الأدب مع مقام سيدنا آدم عليه السلام ويصفه بالذنب وأن الشيطان قد فتنه وأغواه استمع إلى قوله تعالى: ﴿يَنْبِئُ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]. فانظر إلى جمال الخطاب الإلهي، الذي يظهر عظمة مقام سيدنا آدم عليه السلام عند مولاه، فعندما خاطبنا المولى عليه السلام قال: ﴿لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ وعندما انتقل بالخطاب إلى سيدنا آدم عليه السلام، لم يقل كما فتن أبويكم، بل قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ﴾، فكيف نقول أن الشيطان قد استطاع فتنه آدم عليه السلام وغوايته.

ولقد صار معلوم عند بني آدم من هذه القصة، أن الشيطان مصدر كل شر. ونضع بين يدي القارئ الكريم، المحاورة التي جرت بين ربنا عليه السلام وبين إبليس بعد أن أمرهم بالسجود. وعند قراءتك، ستنجلي لك الحقيقة كاملة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [٦١] قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ

ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَأِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدُّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥]. فبعد أن صار إبليس من المنظرين، وتوعد الناس بالغواية، قال الله ﷻ لك هذا، لكنك لا تستطيع القرب من عبادي المخلصين. وفي هذا التقرير من الحق ﷻ الدليل الدامغ على من يقول أن للشيطان سلطة على عباد الله المخلصين من الأنبياء والأولياء والمؤمنين.

أما الدليل من السنة النبوية الشريفة الذي يبين أن ما حصل هو بأمر الله تعالى، ولا يجوز لمسلم أن يتهم أبانا آدم ﷺ بالذنب: عن أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْتَكَ خَطِيئَتِكَ مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، ثُمَّ تَلَوْنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ » فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ^(١) أي كررها مرتين. وفي رواية الإمام مسلم عَنْ يَزِيدَ وَهُوَ ابْنُ هُرْمَزٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجِ، قَالَا: سَمِعْنَا أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ

(١) البخاري (٣٤٠٩).



وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكُمْ وَجَدَتْ اللَّهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ، قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدَتْ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَعَوَى، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى »^(١).

وبعد هذا الحديث الشريف، كيف يقول المفسرون أن آدَمَ عليه السلام أذنب وارتكب الخطيئة، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يعلم أن آدَمَ عليه السلام بريء مما نسب إليه، وسيدنا موسى الكليم عليه السلام يعلم أنه بريء، وهذا لعلم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيأتي أناس يقرءون هذه الآيات، ويتجرءون على مقام النبوة، ويتهمون آدَمَ عليه السلام بالذنب، ويسئون إليه، فساق الحديث على لسان الأنبياء. وفيه الجواب الكافي. فكيف نتهم آدَمَ بالذنب على أمر، قد كتبه الله تعالى لديه قبل خلقه بأربعين سنة؟.

وفي رواية الدارمي: «تَلُومُنِي أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»^(٢). فكيف نتهمه بالذنب على أمر قد كتبه الله صلى الله عليه وسلم عليه قبل خلق السموات والأرض، فما فعل إلا ما كان مكتوباً عند الله، كي يكون فاتحاً لقبضة الخير على الأرض.



(١) مسلم (٢٦٥٢).

(٢) الدارمي: ٢٩٣.

سورة الأعراف

الآية الثانية:

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَلَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ

عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٠]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «كانت حواء لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش لها ولد لتسمينه عبد الحارث، فعاش لها ولد، فسمته عبد الحارث. وإنما كان ذلك عن وحي الشيطان». عن سمرة بن جندب: أنه حدث أن آدم عليه السلام سمى ابنه عبد الحارث. عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم، فتعبدهم لله، وتسميه «عبيد الله» و«عبد الله» ونحو ذلك، فيصيبهم الموت. فأتاها إبليس وآدم، فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه، لعاش. فولدت له رجلا، فسماه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾. وعن ابن عباس قوله في آدم: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾^(١) فشكت: أحبلت أم لا ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمَا رَبُّهُمَا لَئِن ءَاتَيْنَا صَلَاحًا﴾ الآية، فأتاهما الشيطان، فقال:

(١) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ

حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَتَتْهُمَا رَبُّهُمَا لَئِن ءَاتَيْنَا صَلَاحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

[الأعراف: ١٨٩].



هل تدریان ما یولد لکما؟ أم هل تدریان ما یکون؟ أهیمة یکون أم لا؟ وزین لهما الباطل، أنه غوی مبین. وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدین فماتا، فقال لهما الشیطان: إنکما إن لم تسمیاه بی، لم ینخرج سویا، ومات کما مات الأولان! فسمیا ولدهما «عبد الحارث»^(١).



قال الزجاج رحمه الله تعالى: «یروی فی التفسیر أن إبلیس - علیه اللعنة - جاء إلى حواء فقال: أتدرین ما فی بطنک؟ فقالت لا أدري، قال فلعله بهیمة ثم قال: إن دعوت الله أن یجعله إنساناً أتسمینه باسمی؟: فقالت، نعم فسمته عبد الحارث، وهو الحارث»^(٢).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى فی تفسیره: «آدم وحواء أعطاهما ورزقهما فأشركوا فی عبادته. ثم نزه نفسه عن الشرك، فقال تعالى: ﴿فَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي هو أعلى وأجل من أن یوصف بالشرك»^(٣).



قلت: هذا التفسیر مردود بنصوص القرآن والسنة، فكیف ینسبون الشرك لسیدنا آدم عليه السلام، وكیف یجعلون للشیطان علیه سیبلاً؟!، إن هذا إلا افتراء عظیم.

(١) جامع البیان عن تأویل آی القرآن المعروف بتفسیر الطبري ج ١٣ ص ٣٠٨.

(٢) معانی القرآن وإعرابه ج ٢ ص ٣٩٥.

(٣) بحر العلوم المعروف بتفسیر السمرقندي ج ١ ص ٥٧٥.

وكل هذا من الإسرائيليات التي شاعت بين أهل التفسير، ولم يثبت هذا الخبر بإسناد صحيح.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: فقلوه: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقتضي صدور الشرك عنهما. والجواب: لا نسلم أنَّ النفس الواحدة هي آدم، وليس في الآية ما يدل عليه، بل نقول: الخطاب لقريش، وهم آل قصي. والمعنى: خلقكم من نفس قصي، وجعل من جنسها زوجة عربية ليسكن إليها. فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح، سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد الدار، وعبد قصي. والضمير في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لهما ولأعقابهما. فهذا الجواب هو المعتمد^(١).

ثم قال في موضع آخر من تفسيره: «المروي عن ابن عباس ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي نفس آدم، وخلق منها زوجها أي حواء، خلقها الله من ضلع آدم عليه السلام من غير أذى. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٨٩) فلما أثقلت أي ثقل الولد في بطنها آتاها إبليس في صورة رجل، وقال: ما هذا يا حواء، إني أخاف أن يكون كلبا أو بهيمة، وما يدريك من أين يخرج؟ أمن دبرك فيقتلك، أو ينشق بطنك؟ فخافت حواء، وذكرت ذلك لآدم عليه السلام، فلم يزالا في هم من ذلك، ثم آتاها وقال: إن سألت الله أن يجعله صالحا سويا مثلك،

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢ ص ٤٥٨.



ويسهل خروجه من بطنك، تسميه عبد الحرث، وكان اسم إبليس في الملائكة الحرث، فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَليحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي لما آتاها الله ولدا سويا صالحا، جعل له شريكا، أي جعل آدم وحواء له شريكا. والمراد به الحرث هذا تمام القصة.

واعلم أن هذا التأويل فاسد، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه تعالى قال: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وذلك يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة.

الثاني: أنه تعالى قال بعده: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، وما جرى لإبليس اللعين في هذه الآية ذكر.

الثالث: لو كان المراد إبليس، لقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ ولم يقل ما لا يخلق شيئا، لأن العاقل إنما يذكر بصيغة «من» لا بصيغة «ما».

الرابع: أن آدم عليه السلام كان أشد الناس معرفة بإبليس، وكان عالما بجميع الأسماء، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] فكان لا بد، وأن يكون قد علم أن اسم إبليس هو الحرث، فمع العداوة الشديدة التي بينه وبين آدم، ومع علمه بأن اسمه هو الحرث، كيف سمى ولد نفسه بعبد الحرث؟! وكيف ضاقت عليه الأسماء، حتى أنه لم يجد سوى هذا الاسم!.

الخامس: أن الواحد منا، لو حصل له ولد يرجو منه الخير والصلاح، فجاءه إنسان، ودعاه إلى أن يسميه بمثل هذه الأسماء، لزجره، وأنكر عليه أشد الإنكار.



فآدم عليه السلام مع نبوته، وعلمه الكثير الذي حصل من قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وتجاربه الكثيرة التي حصلت له، بسبب الزلة التي وقع فيها لأجل وسوسة إبليس، كيف لم يتنبه لهذا القدر، وكيف لم يعرف أنَّ ذلك من الأفعال المنكرة التي يجب على العاقل الاحتراز منها؟!.

السادس: بتقدير أنَّ آدم عليه السلام سماه بعبد الحرث، فلا يخلو إما أن يقال إنه جعل هذا اللفظ اسم علم له، أو جعله صفة له، بمعنى أنه أخبر بهذا اللفظ أنه عبد الحرث، ومخلوق من قبله. فإن كان الأول، لم يكن هذا شركا بالله؛ لأن أسماء الأعلام والألقاب لا تفيد في المسميات فائدة، فلم يلزم من التسمية بهذا اللفظ حصول الإشرak. وإن كان الثاني، كان هذا قولاً بأن آدم عليه السلام اعتقد أنَّ الله شريكاً في الخلق والإيجاد والتكوين، وذلك يوجب الجزم بتكفير آدم، وذلك لا يقوله عاقل. فثبت بهذه الوجوه، أنَّ هذا القول فاسد، ويجب على العاقل المسلم ألا يلتفت إليه.

إذا عرفت هذا فنقول: في تأويل الآية وجوه صحيحة، سليمة، خالية عن هذه المفاسد، وهي:

التأويل الأول: ما ذكره القفال، فقال: «أنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل، وبيان أنَّ هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك. وتقرير هذا الكلام، كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية. فلما تغشى الزوج زوجته، وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما: لئن آتيتنا ولدا صالحا



سويا، لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك. فلما آتاها الله ولدا صالحا سويا، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطباع، كما هو قول الطبائعين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام. ثم قال تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله عن ذلك الشرك، وهذا جواب في غاية الصحة والسداد.

التأويل الثاني: بأن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصي. والمراد من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قصي، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها. فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح السوي، جعلوا له شركاء فيما آتاها، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد اللات. وجعل الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول الحق جلّ جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم عليه السلام، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: خلق من ضلعها زوجها حواء، سلها منه وهو نائم، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليستأنس بها، ويطمئن بها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي جامعها حين رُكبت فيه الشهوة، ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ أي خف عليها، ولم تلق منه ما تلقى بعض الحبالى من حملهن من الأذى والكر، أو ﴿حَمَلًا خَفِيًّا﴾ يعني النطفة قبل تصورها، ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي ذهبت وجاءت به مخففة، واستمرت إلى

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٥ ص ٤٢٧-٤٢٨.



حين ميلاده ﴿فَلَمَّا أَثَقَلَتْ﴾ فلما أثقلت أي: ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبره في بطنها، ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا آدم وحواء، قائلين: ﴿لَيْنَ آتَيْنَا صَلَاحًا﴾ لَيْنَ آتَيْنَا ولدًا صالحًا أي: سويًا سالمًا في بدنه، تام الخلقة، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لَنَكُونَنَّ لك مِنَ الشَّاكِرِينَ على هذه النعمة المجددة. فلما آتاها ولدًا صالحًا كما سألا، جعل أولادهما لَهُ شُرَكَاءَ فِيهَا آتَاهُمَا، فسموا عبد العزى، وعبد مناف، وعبد الدار. فالآية إخبار بالغيب في أحوال بني آدم ممن كفر منهم وأشرك. ولا يصح في آدم وحواء هذا الشرك لعصمة الأنبياء، وهذا هو الصحيح. وقد يُعَاتَبُ الْمَلِكُ الْأَبَ على ما فعل أولاده، كما إذا خرجوا عن طاعته، فيقول له: أولادك فعلوا وفعلوا، على عادة الملوك»^(١).



قال الشيخ عبد العزيز الدباج رحمته الله: هذا معاتبة الآباء بما فعلته الأبناء والأولاد. كمن له بستان فيه فواكه وثمار، فجاء إليه أولاد زيد، فأخذوا من ثماره، وأفسدوا فيه. فجاء رب البستان إلى زيد، وجعل يخاصمه ويعاتبه، ويقول له: أفسدت عليّ بستانِي، وأكلت ثمارِي، وفعلت وفعلت. فعلى شبه هذا الأسلوب، جاءت القصة الشريفة»^(٢).



قال ابن حزم الظاهري رحمه الله تعالى: «وأما قوله عز وجل: ﴿لَيْنَ آتَيْنَا﴾

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٢ ص ٢٩٣.

(٢) الإبريز ص ٢٦٨.

صَلِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴿١٩٠﴾

فهذا تكفير لآدم عليه السلام، ومن نسب لآدم عليه السلام الشرك والكفر، كفر كفرا مجردا بلا خلاف من أحد من الأمة. ونحن ننكر على من كفر المسلمين العصاة، العشارين، القتالين، والشرط الفاسقين، فكيف من كفر الأنبياء عليهم السلام؟! وهذا الذي نسبوه إلى آدم عليه السلام من أنه سمى ابنه عبد الحارث، خرافة، موضوعة، مكذوبة، من تأليف من لا دين له ولا حياء، لم يصح سندها قط. وإنما نزلت في المشركين على ظاهرها»^(١).



قلت: وقد تبين لنا المعنى الصحيح من الآية، ورضي الله عن الإمام الرازي رحمته الله الذي أحسن وأجاد في الإجابة ورد الشبهات وبيان وجوه التفسير الصحيحة. وما ذكره الفريق الأول مردود ولا يقبله مسلم لوجود العصمة للأنبياء، وحفظ الله لهم من الشيطان وتسلطه على أنبيائه.



(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٤.

سورة طه

الآية الثالثة:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحْدِ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥)

[طه: ١١٥]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: يقول تعالى ذكره: وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصر لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتبعوا أمر عدوهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقد بما فعل ذلك أبوهم آدم، ووسوس إليه الشيطان فأطاعه، وخالف أمري، فحلّ به من عقوبتي ما حلّ. قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحْدِ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥) قال: قال له: ﴿يَتَّعِدُكُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧) [طه: ١١٧] قرأ حتى بلغ ﴿لَا تَطْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ ﴿وقرأ حتى بلغ ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ قال: فَنَسَى ما عهد إليه في ذلك، قال: وهذا عهد الله إليه، قال: ولو كان له عزم، ما أطاع عدوه الذي حسده، وأبى أن يسجد له مع من سجد له إبليس، وعصى الله الذي كرّمه وشرّفه، وأمر ملائكته، فسجدوا له»^(١).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٨ ص ٣٨٣.

قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أمرنا آدم عليه السلام بترك أكل الشجرة من قبل، يعني من قبل محمد ﷺ. ﴿فَنَسِيَ﴾ يعني: فترك أمرنا ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ قال: حفظا لما أمر به. روى سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه قال: عهدنا إلى آدم من قبل ﴿فَنَسِيَ﴾، أي فترك أمرنا ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي حزمًا^(١).



قلت: نحن لا نوافق المفسرين في قولهم أن آدم ﷺ لم يكن له عزم، وأطاع الشيطان، وحلت به العقوبة. وقد بينّا في تفسير الآية الأولى ذلك، وأثبتنا أن سيدنا آدم ﷺ لم يذنب. وسنرد على قولهم، بأنه لم يكن له عزم وعصى، ونثبت أن في هذه الآية تبرئته من الذنب، لا كما قالوا وفهموا.

التفسير العرفاني:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «ويقال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ على الإصرار على المخالفة. ويقال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ في القصد على الخلاف، وإن كان، فذلك بمقتضى النسيان، قال تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ على خلاف الأمر، وإن كان منه اتباع لبعض مطالبات الأمر. ويقال شرح قصة آدم - عليه السلام - لأولاده على حجة التسكين لقلوبهم، حتى لا يقنطوا من رحمة الله. فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم، واستقبلته هذه الخطيئة، وقوله تعالى ﴿فَنَسِيَ﴾ من النسيان، ولم يكن في وقته النسيان مرفوعا عن الناس. ويقال عاتبه بقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ ثم أظهر عذره، فقال ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾»^(٢).

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي بحر العلوم ج ٢ ص ٤١٤.

(٢) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٢ ص ٤٨١.



قال الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى: «شهد الله تعالى لآدم عليه السلام بالنسيان، فقال: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ أي قصدا للمعصية. والإجماع على أن الناسي غير عاص، ولا مؤاخذه فيما بينه وبين الله تعالى. ومع هذا، قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ [طه: ١٢١]، فالسيد أن يقول لأعز عبيده ما شاء، وليس للعبيد أن يقولوا مثل ذلك القول»^(١).



قال الشيخ صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «إنَّ الله ﷻ قدَّر قبل الكون وقبل آدم، أن آدم مصطفى مجتبي بالرسالة والنبوة، وعلم الأسماء والجلال والكمال، وإنه يعرف الله بطريق كل اسم من أسمائه، ونعت من نعوته، فجزَّ آدم باسمه إلى نعته، ومن نعته إلى صفته، ومن صفته إلى رؤية ذاته، فألبس نور بهائه الشجرة المنهية، وأراه ذلك النور والبهاء الرباني، ثم أمره بالاجتناب عنها، وألقي في قلبه محبة قربها، لأنها مرآة جلاله، يتجلى لآدم منها، فغلت المحبة على الأمر، وسلبته لطائف هذا الجمال، فوقع في هيجان شوقها، وغمار لذة بهاء مشاهدتها، فترك صورة الأمر، لشوق جمال الأمر، ووقع في بحر القهر بغير مبالاة على العهد؛ لأن عهد الأزل باصطفائيته سابق عهد الأمر، فمن رؤيته عهد الأزل ترك عهد الأمر، فاجترأ لعلمه بمكانته بوصف الاصطفائية عند الحق وقبوله؛ لأنه بعد القبول الأزلي، لن يؤثر فيه مباشرة المعصية. وقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ لم يجد الحق ﷻ في قلب آدم عزم متابعة أمر الظاهر عند العهد؛ لأن في قلبه رؤية ما يتولد

(١) المواقف ج ١ ص ٢٢٦، الموقف السابع عشر بعد المائة.

من أكل الشجرة، من خروج عرائس المقدرات الغيبية من مكنن القدم. يا عاقل فديت لنقض عهده الذي بسببه بدا أعلام دولة المرسلين والنبين والصادقين»^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل أن لا يأكل من شجرة بعينها، فَنَسِيَ ولم نجد له عزما على المعصية، وكأن الله ﷻ يلتمس لسيدنا آدم العذر؛ لأنه خلقه على هيئة ينسى فيها، حتى إذا فعل ناسيا، يكون معصوما حال معصيته. والناسي في شريعتهم يؤاخذ، وكل ما حدث من نسيانه وأكله من الشجرة ليكون عذرا لخروجه من الجنة. واعتبر النسيان معصية، حتى يُعَلِّم النبي المعصوم من بعده من أبنائه كيف يتوب إذا وقع في الذنب. وعلى هذا، تكون معصيته صورية، وليست حقيقية. فالله ﷻ ذكر العذر قبل أن يذكر المعصية، إكراما له؛ لأنه نبي معصوم».



قلت: نقلت لك أيها القارئ الكريم أقوال العلماء الربانيين الذين يعرفون مقام النبوة وقدسيتها، فتراهم يجلون هذا المقام بإشاراتهم وعباراتهم من ران المتطفلين الرامين لهذا المقام المقدس بالنقص والتقصير. وقد توسعنا في إثبات براءة آدم ﷻ مما نسب إليه في الآية الأولى. وفي هذه الآية نكتفي بكلام العلماء الربانيين في تفسيرهم لهذه الآية.



(١) تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٢ ص ٥٠٤.

الآية الرابعة:

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (١٢١) [طه: ١٢١]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ يقول وخالف أمر ربه، فتعدى إلى ما لم يكن له أن يتعدى إليه، من الأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، وقوله: ﴿ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (١٢٢) [طه: ١٢٢]، يقول: اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه، فرزقه الرجوع إلى ما يرضى عنه، والعمل بطاعته»^(١).



قال الثعلبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ أي تعدى إلى ما لم يكن له فعله. وقال أكثر المفسرين: ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي أخطأ وضل، ولم ينل مراده مما أكل»^(٢).



قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ بأكل الشجرة. ﴿فَغَوَىٰ﴾ فضل عن المطلوب وخاب، حيث طلب الخلد بأكل الشجرة،

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٨ ص ٣٨٨.

(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن المعروف بتفسير الثعلبي ج ٦ ص ٢٦٤.

أو عن المأمور به، أو عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو. وقرئ «فغوى» من غوى
الفصيل، إذا أتحم من اللبن. وفي النعي عليه بالعصيان والغواية مع صغر زلته،
تعظيم للزلة، وزجر بليغ لأولاده عنها»^(١).



قلت: من الخطأ، اتخاذ هذه الآية وتفسير هؤلاء المفسرين حجة لنسبة
الغواية والمعصية للأنبياء. ولم يوفق البيضاوي في تعبيره، بأن سيدنا آدم عليه السلام غوى
عن المطلوب وخاب. فهذا القول لا يليق بمقام من أسجد الله تعالى له الملائكة،
وعلمه الأسماء كلها، ووصفه بالخلافة، وسنين التفسير الصحيح للآية فيما يلي:

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أما قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾
فمن الناس من تمسك بهذا في صدور الكبيرة عنه من وجهين؛ الأول، أن العاصي
اسم للذم، فلا ينطلق إلا على صاحب الكبيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]. ولا
معنى لصاحب الكبيرة، إلا من فعل فعلا يعاقب عليه. والوجه الثاني، أن الغواية
والضلالة اسمان مترادفان، والغى ضد الرشد. ومثل هذا الاسم لا يتناول إلا
الفاسق، المنهمك في فسقه. ومن الناس من سلم أن الآية تدل على صدور المعصية
منه، لكنه زعم أن المعصية كانت من الصغائر، لا من الكبائر. وهذا قول عامة
المعتزلة، وهو أيضا ضعيف؛ لأننا بينا أن اسم العاصي اسم للذم، ولأن ظاهر
القرآن يدل على أنه يستحق العقاب، وذلك لا يليق بالصغيرة.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٤ ص ٤١.

واعلم أنَّ الأولى عندي في هذا الباب والأحسم للشغب أنَّ يقال: إنَّ ظاهر القرآن، وإن دل على أنَّ آدم عصي وغوى، لكن ليس لأحد أن يقول: إنَّ آدم كان عاصيا غاويا. ثم قال رحمه الله: أنه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره، كما يجوز للسيد في عبده وولده عند معصيته من إطلاق القول، ما لا يجوز لغير السيد في عبده وولده. أما قوله: ﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، فالمعنى: ثم اصطفاه فتاب عليه، أي عاد عليه بالعفو والمغفرة، وهداه رشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار، وقبل الله منه ذلك»^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «وأما قوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ فلعلو شأنه وقربه، عُذ عسياناً في حقه، «حسنات الأبرار سيئات المقربين». يقول الحق جلَّ جلاله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي ضل عن مطلوبه، الذي هو الخلود وفي وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية، مع صغر زلته، تعظيم لها، وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها.

والحاصل: أن كل ما يردُّ العبد إلى مولاه، ويحقق له العبودية والانكسار، فهو شرف له وكمال. وكل ما يقوي وجود النفس ويرفعها، فهو نقص وإبعاد، كائنًا ما كان. فالعصمة والحِفظَة، إنما هي من المعاصي القلبية، أو من الإصرار. وأما معاصي الجوارح، فيجري على العبد ما كتب، ولا تنقصه، بل تكمله، كما تقدم. فالتزنيه، إنما يكون من النقائص، وهي التي تُوجب البعد عن الحق، لا مما يؤدي إلى الكمال. وبهذا تفهم أنَّ ما وقع من الأنبياء - عليهم السلام - مما صورته

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٢ ص ١٠٨.



المعصية، ليس بنقص، إنما هو كمال. وكذا ما يصدر من الأولياء، على سبيل الهفوة، فتأمل، ولا تبادر بالاعتراض، حتى تصحب الرجال، فيعلموك النقص من الكمال. قال الواسطي: العصيان لا يُؤثر في الاجتباءية. وقوله: ﴿وَعَصَى﴾ أي: أظهر خلافاً، ثم أدرسته الاجتباءية، فأزالت عنه مذمة العصيان، ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (١١٥).

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: نعمت المعصية أورثت الخلافة. واعلم، أن آدم عليه السلام قد أهبط إلى الأرض قبل أن يخلق، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فقد استخلفه قبل أن يخلفه، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب، فكان أكله سبباً في نزوله للخلافة، والرسالة، وعمارة الأرض، فهو نزول حساً، ورفعة معنى. وكذلك زلة العارف، تنزله لشرف العبودية، فيرتفع قدره عند الله^(١).



قال العلامة الألوسي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال الحسن: والله ما عصى إلا بنسيان. قال جعفر: طالع الجنان ونعيمها، فنودي عليه إلى يوم القيامة، وعصى آدم. ولو طالعها بقلبه، لنودي عليه بالهجران إلى أبد الآباد. وفي التأويلات النجمية: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ بصرف محبته في طلب شهوات نفسه ﴿فَغَوَى﴾ بصرف الفناء في الله في طلب الخلود، وملك البقاء في الجنة» انتهى^(٢).



(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٤٢٥.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج ٥ ص ٤٧.



قال الشيخ رافع الرفاعي مفتي الديار العراقية حفظه الله تعالى ورعاه: «هذا خطاب الله تعالى عن نبيه، وليس من الأدب أن نخاطب الأنبياء، كما خاطبهم ربهم وخالقهم. ولقد بين لنا النبي ﷺ حقيقة هذه القصة، في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِحْتَجَّ آدَمَ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْتَكَ خَطِيئَتِكَ مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، ثُمَّ تَلَوْنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى مَرَّتَيْنِ»^(١). وهذا الحديث يشير إلى قاعدة: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِی﴾ [الكهف: ٨٢]، ولا إرادة له في ذلك، إنما أجرى الله تعالى ذلك على يديه. وهذا ما نسميه: «فناء الإرادة المطلق» فيجري الله تعالى هذه الأفعال على أيديهم من غير إرادة، ويسميها معصية، وهذا غير قادح في عصمتهم. ولا يجوز أن نحكم على أعمال الأنبياء بعقولنا، ولا نقيسهم على بقية البشر؛ لأنه قياس مع الفارق».



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «نسبة المعصية في هذه الآية نسبة صورية، وليست على الحقيقة؛ لأنه برأه من المعصية بالنسيان، وعدم العزم عليها. ولسيدنا آدم ﷺ علينا حقان؛ حق الأبوة وحق النبوة، فيجب على من يتكلم في قصته أن يتكلم بأدب، وتنزيه، وتوقير. ولقد بين الله تعالى مقام آدم ﷺ في الآية التي بعدها، فقال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَحْبَبْنَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢] اجتباه بالخلافة، وتعليمه الأساء، وأسجد

(١) البخاري (٣٤٠٩).

له الملائكة، وجعل صلبه مخزناً للأنبياء، والأولياء، والصالحين، فتاب عليه من النسيان، وهدى به».



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «المتبع للآيات السابقة واللاحقة يجد أن الله تعالى قد دافع عن نبيه، ونزّاه من ارتكاب المعصية قبل أن يصفه بالمعصية، فقال قبل ست آيات ﴿وَلَقَدْ عَاهِدْنَا إِيَّاهُ مِنْ قَبْلُ فَتَنَّا سَمِعَ لَهُ، عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، فنبهنا أنه أكل ناسيا، ولم يكن له عزم على مخالفة أمر ربه. ثم كرّمه وبيّن منزلته قبل أن يصفه بالمعصية، فقال ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦]، وهذا كي نتأدب مع صاحب هذا المقام، ولا نأخذ الآيات التي ستأتي على ظاهرها، ونتّهمه بالذنب. ثم قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعِدُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]. والوسوسة حصلت عندما أقسم الشيطان لسيدنا آدم عليه السلام وأنه له لمن الناصحين، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾ [٢١] [الأعراف: ٢١]. ولم يتصورا، أن هناك من يُقسم بالله كاذبا. وكل هذا ليتحقق صدق الوعد الأول، بأن يكون خليفة في الأرض، لذلك قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [١٢٢]. فكيف نتّهم سيدنا آدم بالذنب على شيء قد كتبه الله عليه قبل خلق الخلق، وترك كل ما خصه الله به من فضائل وتكريات وتمسك بنسبة الذنب له».



قلت: بعد أن ذكرنا أقوال العلماء الربانيين في جميع الآيات التي تخص سيدنا آدم عليه السلام، نكون بذلك قد بينا التفسير الذي يليق بمقامه عليه السلام، وأجبنا على الشبهات التي يثيرها بعض الناس ممن لم يتأدب بالآداب الواجبة على المسلم بحق الأنبياء. وكما هو معلوم، بأن الأدب مع المرسل هو الأدب مع المرسل.



سيدنا نوح عليه السلام

سورة هود

الآية الأولى:

﴿قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال أبو جعفر: يقول الله تعالى ذكره: ﴿قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قال الله: يا نوح إن الذي أغرقته فأهلكته، الذي تذكر أنه من أهلك ليس من أهلك. واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فقال بعضهم: معناه ليس من ولدك، هو من غيرك. وقالوا: كان ذلك من حنث^(١). ذكر من قال ذلك: حدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا هشيم، عن عوف، عن الحسن، في قوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ قال: لم يكن ابنه. حدثنا ابن وكيع، قال حدثنا ابن عليه، عن أصحاب ابن أبي عروبة فيهم، عن الحسن قال: لا والله، ما هو بابنه^(٢).



(١) الحنث « (بكسر الحاء وسكون النون)، الذنب والمعصية. وفي الحديث « يكثر فيهم أولاد الحنث»، أي: أولاد الزنا.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٥ ص ٣٤٠.

قلت: وهذا القول من الإسرائيليات التي وجدت في كتب التفسير، فلا يجوز أن نتهم زوجة النبي نوح عليه السلام بالزنا، وسنرد على هذا القول الفاسد فيما يلي:

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال بعضهم معنى قوله: أنه عمل غير صالح أي أنه ولد زنا وهذا القول باطل قطعاً. قال: ﴿يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ واعلم أنه لما ثبت بالدليل أنه كان ابناً له، وجب حمل قوله: ﴿يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ على أحد وجهين؛ أحدهما، أن يكون المراد: أنه ليس من أهل دينك. والثاني، المراد: أنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك. والقولان متقاربان»^(١).



قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره: «هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي بَنِيْتُ مِنْ أَهْلِي﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم؛ لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق، لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام. وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية، ولا نقول به»^(٢).



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٨ ص ٣٥٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٣٢٥.



قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي ليس من أهلك الذين وعدتهم أن أنجيهم، قاله سعيد بن جبير. وقال الجمهور: ليس من أهل دينك ولا ولايتك، فهو على حذف مضاف. وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الدين، أقوى من حكم النسب. وقال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وأنه كان ابنه لصلبه. وكذلك قال الضحاك، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران، وغيرهم، وأنه كان ابنه لصلبه. وقيل لسعيد بن جبير: يقول نوح: ﴿إِنَّ أَبْنَى مِنْ أَهْلِي﴾ أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبح الله طويلاً، ثم قال: لا إله إلا الله، يحدث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أنه ابنه، وتقول إنه ليس ابنه، نعم كان ابنه، ولكن كان مخالفاً في النية والعمل والدين. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وهذا هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به، وإن قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ليس مما ينفي عنه أنه ابنه. وقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠]، يعني في الدين لا في الفراش، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها: نعم. قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التنور، فخرجت تقول لقومها: يا قوم، والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربه، إلا أن يفور هذا التنور، فهذه خيانتها. وخيانة الأخرى، أنها كانت تدل على الأضياف، والله أعلم»^(١).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: «أنه ابنه»، غير أنه خالفه في العمل. وقال بعض الحكماء: إن الابن إذا

(١) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ج ٩ ص ٤٥.



لم يفعل ما يفعل الأب انقطع عنه، والأمة إذا لم يفعلوا ما فعل نبيهم، أخاف أن ينقطعوا عنه»^(١).



قال الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «ويريد الحق سبحانه هنا أن يلفت نبيه نوحا، إلى أن أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم، ولكنها أهلية المنهج والاتباع. وإذا قاس نوح عليه السلام ابنه على هذا القانون، فلن يجده ابنا له. ألم يقل نبينا ﷺ عن سلمان الفارسي: «سلمان منا آل البيت». إذن، فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتباع، لا بنوة نسب. وانظر إلى دقة الأداء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، ثم يأتي سبحانه بالعلة والحشية لذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾. فكأن البنوة هنا عمل، وليست ذاتا، فالذات مذكورة هنا، والمذكور هو العمل، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابنا لنوح. وهكذا، نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم، وليس الشحم، وليس اللحم، إنما هو الاتباع، بدليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ولو كان عملا صالحا، لكان ابنه»^(٢).



قلت: وما ذكره المفسرون أعلاه، هو الذي يعتقده المسلمون. وإنما ذكرنا هذه الآية مع الرد على الشبهة التي يثيرها بعض المنافقين للطعن في الأنبياء عليهم السلام، ليتنبه المسلم بأن العلم لا يؤخذ إلا من العلماء، وليس من الكتب، ولأنه

(١) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٢ ص ١٣٨.

(٢) تفسير وخواطر القرآن الكريم ج ١١ ص ٦٤٨٤.

كما صار واضحاً إنَّ الإسرائيليات موجودة في كتبنا، ولذلك قال العارفون: «من أخذ العلم من الكتاب، صار خطؤه أكثر من الصواب». فوجب أخذ العلم من العلماء الربانيين.



الآية الثانية:

﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]

التفسير الأولي:

قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ﴾ إني أعطك أي أنهاك ﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني: ممن يترك أمري. ويقال: من المكذبين بقدرة الله تعالى وقضائه^(١).



قال السمعاني رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فيه قولان؛ أحدهما، أن نوحاً كان يظن أنه مسلم، وهو يبطن الكفر من أبيه، فهذا معنى قوله: ﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾. والثاني، معناه: أنه ليس بابن لك على ما ذكرنا. وقوله: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ معناه: إني أحذرك أن تكون من الآثمين، وذنب المؤمن جاهل، وذنب الكافر كفر. والقول

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ١٥٣.

الثاني: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني: أن تدعو بهلاك الكفار، ثم تطلب نجاة كافر^(١).



قلت: لا يجوز القول إن سيدنا نوح عليه السلام خالف أمر الله، أو كذب قضاء الله وقدره، فهذا اتهام خطير لنبي من أولي العزم، وهم أكمل العارفين بالله، وحاشاهم أن يكذبوا أمر الله وقضائه.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «احتج بهذه الآية من قدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام. واعلم، أنه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام من المعاصي، وجب حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الأفضل والأكمل، وحسنات الأبرار سيئات المقربين. فلهذا السبب، حصل هذا العتاب والأمر بالاستغفار، ولا يدل على سابقة الذنب، كما قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣]، ومعلوم أن مجيء نصر الله، والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجا، ليست بذنب يوجب الاستغفار. وقال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وليس جميعهم مذنبين، فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك الأفضل^(٢).

(١) تفسير القرآن ج ٢ ص ٤٣٣.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٨ ص ٣٥٧.



قال ابن حزم رحمه الله تعالى الظاهري: «نوح عليه السلام تأول وعد الله تعالى أن يخلصه وأهله، فظن أن ابنه من أهله على ظاهر القرابة. وهذا لو فعله أحد، لكان مأجورا، ولم يسأل نوح تخلص من أيقن أنه ليس من أهله، فتفرع على ذلك نهى عن أن يكون من الجاهلين، فتقدم عليه السلام من ذلك ونزع. وليس ها هنا عمد للمعصية البتة، وبالله تعالى التوفيق»^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «إنَّ الله عز وعلا، قدّم له الوعد بإنجاء أهله، مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب، لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وألا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق، في أنه من المستثنى، لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب ألا يشتهه»^(٢).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي سترت غيبي في حال اوليائي وأعدائي، فلا يعلم سر تقديري. قوله: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ﴾ وذلك لحرمة شيخوخته وكبره، ولأنه لم يستجب له في ولده، فتدارك بحسن الخطاب قلبه»^(٣).



(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٥.

(٢) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٣٩٨.

(٣) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٢ ص ١٣٨.





قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال الورتجي: أدب نبيه نوحاً عليه السلام، بأن لا يسأل إلا ما وافق القدر. وكل دعاء لم يوافق مراده تعالى في سابق علمه، لم يؤثر في مراد الداعي. وقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي ليس عمله على موافقة السنة، ثم وعظه، وقال: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الجاهل: من جهل قدر الله، أي أنزهك عن سوء الأدب في السؤال، على غير قاعدة مرادك. هـ. وقال في الحكم: «ليس الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب»^(١).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: سيدنا نوح عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وما كان سؤاله إلا استفهاماً عن الوعد الذي فيه نجاة أهله من الغرق، حيث قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وقد فهم أن أهله من الناجين، وأن ابنه من أهله، إلا أن الله تعالى قد استثنى بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ وهم زوجته وابنه، لذلك وضح له الأمر، فقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فهو ليس من أهلك؛ لأن عمله غير صالح، فلم يؤمن بي ويتبعك، وهذه حكمة الله تعالى كي يُرينا عجائب قدرته وحكمته، وأن الأمر كله بيده، فيرسل النبي، ويُبقي زوجته وابنه على الكفر.

وفي مشهد آخر، يذكر لنا قصة فرعون الطاغية الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ويجعل الله تعالى زوجة فرعون مؤمنة موحدة. وكل هذا كي يُسَلِّم

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٢ ص ٥٢٣.

الإنسان الأمر إلى الله، ويجتهد في عبادة مولاه، ويطلب حسن الخاتمة. أما قوله:
﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ في فهم وعدي. وفيه خطاب للأمة، أن لا
تعرضوا على شيء مما أراده الله تعالى، فإنه من قال: لم، لم يفلح أبداً.



قلت: والذي يريد ما قاله شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله، ما ورد في قراءة
الكسائي ويعقوب: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وهذه القراءة توضح المقصود من هذه
الآية، لا كما قال الذين فسروها بتفسير لا يليق بمقام الأنبياء.



سورة نوح

الآية الثالثة:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]

التفسير الأولي:

قال البغوي رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «قال ابن عباس، والكلبي، ومقاتل: كان الرجل ينطلق بابه إلى نوح، فيقول: احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبي حذرنه، فيموت الكبير، وينشأ الصغير عليه ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً﴾ [نوح: ٢٧].»



التفسير العرفاني:

قال مقاتل رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] يعني أحدا، وذلك أن الله - تبارك وتعالى - قال: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وذلك أن الله - تعالى - كان أخرج كل مؤمن من أصلاهم وأرحام نسائهم. فلما أخبر بذلك، دعا عليهم، قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] إنك إن تذرهم على الحال التي أخبرت عنهم، أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، يضلوا

عبادك، ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا»^(١).



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «ما دعا نوح عليه السلام على قومه إلا رحمة بهم، خوف أن يشتد عليهم غضب الله تعالى أكثر مما كانوا فيه. وقد أمرنا نبينا ﷺ أن يقول أحدنا إذا خاف أن يقع في الفتنة: **«اللهم توفني إذا كانت الوفاة خيرا لي»**، ولم يكن دعائه على قومه غضب نفسي، حاشا الأنبياء من ذلك»^(٢).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «الأنبياء عليهم السلام لا يغضبون لأنفسهم، بل يتنازلون بحقهم للخلق، لذلك تجدهم يُضربون ويُعذبون من أقوامهم، ولا يدعون عليهم. وإذا ما دعوا، فكل ما يقومون به من قول أو فعل، فهو بأمر الله قال الله تعالى: **﴿لَا يَسْقُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾** [الأنبياء: ٢٧]. وهذه الآية الكريمة ترد على كل من عاب أو انتقص فعل الأنبياء، ونسب إليهم الكبيرة والصغيرة. ثم إن الله تعالى يعلم في سابق علمه، أنه سيهلك الكافرين، وقد أخبر نوحا عليه السلام بذلك: **﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنُؤْمِتَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتَئِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾** [هود: ٣٦]، فما كان دعاء نوح، إلا موافقاً لمراد الله تعالى».



(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٤ ص ٤٥٢، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢٣ ص ٦٢٤.

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الاكابر ج ١ ص ٢٤١.



سورة هود

الآية الأولى:

﴿قَالَ لَوْ أَنِّي بِيَكْمُ قُوَّةٍ أَوْ أَوْىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه حين أبوا إلا المضي لما قد جاؤوا له من طلب الفاحشة، وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم: ﴿لَوْ أَنِّي بِيَكْمُ قُوَّةٍ﴾ بأنصار تنصرني عليكم، وأعوان تعينني ﴿أَوْ أَوْىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: أو أنضم إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم، لحلت بينكم وبين ما جئتم تريدونه مني في أضيافي، وحذف جواب (لو) لدلالة الكلام عليه، وأن معناه مفهوم. حدثني موسى، قال حدثنا عمرو، قال حدثنا أسباط، عن السدي: قال لوط: ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي بِيَكْمُ قُوَّةٍ أَوْ أَوْىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: إلى جند شديد، لقاتلتكم»^(١).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٥ ص ٤١٨.

التفسير العرفاني:

قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وروى أبو سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ». يعني الله تعالى قال رسول الله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ». قال وهب بن منبه: لقد وجدت الرسل على لوط، وقالوا: إن ركنك لشديد»^(١).



قال الشيخ يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: ﴿أَوَّاءٍ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ وهو ربي، و (أو) بمعنى (بل) للإضراب، لأن النبي ﷺ قال: «يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(٢) أي ركن إلى ربه؛ لأنه متوكل على الله ﷻ.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «المسلم الذي يعلم مقام الأنبياء وصفاتهم من القرآن والسنة، لا يخطر على باله أبداً، أن الأنبياء يركنون إلى غير مولاهم، أو يخافون في الله لومة لائم. ولقد قال الله ﷻ في حق سيدنا نوح: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِعَايَةِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]. فالنبي لا يخاف ولا يرتجف قلبه، إلا من خشية

(١) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٢ ص ٤٩٠.

(٢) صحيح البخاري ٣٤٢٣.

مولاه، فكيف يخاف من الأكوان، من تولاه رب الأكوان؟! فالأنبياء أقوياء
بربهم، لذلك قال الله ﷻ: ﴿فَقَنْدِلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (النساء: ٨٤).
فلو لم يقاتل مع النبي ﷺ أحد من أصحابه، لقاتل المشركين وحده.
والخلاصة في ذلك، أن سيدنا لوطاً عليه السلام وجميع الأنبياء ملتجئون إلى ربهم في كل
الأوقات، لكن سيدنا لوطاً عليه السلام عندما اشتد الأمر عليه، صرح بذلك طلباً لنصرة
الله في الحال، وإظهاراً للعبودية وحاجته وفاقته لمولاه، فجاءه الرد: ﴿قَالُوا يَلُوطُ
إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ
إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١) فلَمَّا
جاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ
(٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِي مِّنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) [هود: ٨١-٨٣].



سيدنا إبراهيم عليه السلام

سورة البقرة

الآية الأولى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰمَ تُؤْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال ذلك لربه، لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى. حدثنا القاسم، قال: حدثني الحسين، قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج، قال: سألت عطاء بن أبي رباح، عن قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰمَ تُؤْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰمَ تُؤْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ﴾ قال: ﴿فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ ليريه. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰمَ تُؤْمِنُ﴾». وأن تكون مسألته ربه ما سألته أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه. من أن إبراهيم، لما رأى الحوت الذي بعضه



في البر، وبعضه في البحر، قد تعاوره دواب البر، ودواب البحر، وطير الهواء، ألقى الشيطان في نفسه، فقال: متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء؟ فسأل إبراهيم حينئذ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ليعاين ذلك عياناً، فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه مثل الذي ألقى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك. فقال له ربه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ يقول: أَوَلَمْ تصدق يا إبراهيم، بأني على ذلك قادر؟ قال: بلى يا رب، لكن سألتك أن تريني ذلك؛ ليطمئن قلبي، فلا يقدر الشيطان أن يلقي في قلبي مثل الذي فعل عند رؤيتي هذا الحوت»^(١).



قلت: لا أعلم كيف ذكر هذا التفسير الإمام الطبري ورجّحه، وكيف نسب الشك لسيدنا إبراهيم عليه السلام.

التفسير العرفاني:

قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فيه ثلاثة أوجه؛ أحدها، يعني ليزداد يقيناً إلى يقينه، هكذا قال الحسن، وقتادة، وسعيد بن جبير، والربيع. ولا يجوز ليطمئن قلبي بالعلم بعد الشك؛ لأن الشك في ذلك كفر، لا يجوز على نبي. والثاني، أراد ليطمئن قلبي أنك أجبت مسألتني، واتخذتني خليلاً كما وعدتني، وهذا قول ابن السائب. والثالث، أنه لم يرد رؤية القلب، وإنما أراد رؤية العين»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٥ ص ٤٨٩.

(٢) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ١ ص ٣٣٣.



قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «ما قاله قوم من الجاهل، وهو أنَّ إبراهيم عليه السلام كان شاكا في معرفة المبدأ، وفي معرفة المعاد. أما شكه في معرفة المبدأ، فقولُه: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وقولُه: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، وأما شكه في المعاد، فهو في هذه الآية. وهذا القول سخيف، بل كفر. وذلك، لأن الجاهل بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى كافر، فمن نسب النبي المعصوم إلى ذلك، فقد كفر النبي المعصوم، فكان هذا بالكفر أولى. ومما يدل على فساد ذلك وجوه؛ أحدها، قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَلَوْ كَانُوا شَاكَا﴾، ولم يصح ذلك. وثانيها، قوله: ﴿وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ وذلك كلام عارف طالب لمزيد اليقين. ومنها أنَّ الشك في قدرة الله تعالى يوجب الشك في النبوة، فكيف يعرف نبوة نفسه. أما قوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا﴾ ففيه وجهان؛ أحدهما، أنه استفهام بمعنى التقرير، قال الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راح

والثاني، المقصود من هذا السؤال أن يجيب بما أجاب به؛ ليعلم السامعون أنه عليه السلام كان مؤمنا بذلك، عارفا به، وأن المقصود من هذا السؤال شيء آخر»^(١).



قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «اختلف الناس في هذا السؤال، هل صدر من إبراهيم عن شك أم لا؟ فقال الجمهور: لم يكن إبراهيم عليه السلام

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٧ ص ٣٦.

شَاكَّا فِي إِحْيَاءِ اللَّهِ الْمُوتَى قَطُّ، وَإِنَّمَا طَلَبَ الْمَعَايِنَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ النفوس مستشفرة إلى رُؤْيَا مَا أُخْبِرَتْ بِهِ. وَهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمَعَايِنَةِ» رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَلَمْ يَرَوْهُ غَيْرُهُ، قَالَ أَبُو عُمَرَ. قَالَ الْأَخْفَشُ: لَمْ يُرَدْ رُؤْيَا الْقَلْبِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ رُؤْيَا الْعَيْنِ. وَقَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالرَّبِيعُ: سَأَلَ لِيَزْدَادَ يَقِينًا إِلَى يَقِينِهِ.



قال ابن عطية رحمه الله تعالى: «وترجم الطبري في تفسيره، فقال: وقال آخرون سأل ذلك ربه، لأنه شك في قدرة الله تعالى، وذكر عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾. وذكر حديث أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» الحديث، ثم رجح الطبري هذا القول». قال الإمام القرطبي: «قلت: حديث أبي هريرة خرّجه البخاري ومسلم عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نَحْنُ أَحَقُّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي وَيَرْحَمُ اللَّهُ لَوْ طَا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ». قال ابن عطية: «وما ترجم به الطبري عندي مردود». وأما قول عطاء: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس، فمعناه من حيث المعاينة على ما تقدم. وأما قول النبي ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» فمعناه: أنه لو كان شاكًا، لكننا نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أخرى ألا يشك. فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم»^(١).



(١) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٩٨.



قال التستري رحمه الله تعالى في تفسيره: «لم يكن سؤاله ذلك عن شك، وإنما كان طالباً زيادة يقين إلى إيمان كان معه، فسأل كشف غطاء العيان بعيني رأسه، ليزداد بنور اليقين يقيناً في قدرة الله، وتمكيناً في خلقه، ألا تراه كيف قال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَى﴾ فلو كان شاكاً، لم يجب بـ«بلى»، ولو علم الله منه الشك، وهو أخبر بـ«بلى»، وستر شكه لكشف الله تعالى ذلك، إذ كان مثله مما لا يخفى عليه، فصح أن طلب طمأنينته، كان على معنى طلب الزيادة في يقينه. وقال سهل: وفيها وجه آخر، أنه سأل أن يريه إحياء الموتى طمأنينة له في أنه اتخذ خليلاً. قال سهل: وفيه وجه آخر، معناه: أن سؤالي إياك لا أستحق به عليك، إلا ما تحققه لي، وذلك موقف الخواص من خلقه. فسؤالي إياك أن تريني إحياء الموتى، ليطمئن قلبي مني. وقد كان في الجاهلية يسمى الخليل. قلنا فقوله: ﴿لَيَطْمِئَن قَلْبِي﴾ أي خلتي، هذا لما أعلمه أنك تحيي وتميت»^(١).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قيل كان في طلب في زيادة اليقين، فأراد أن يقرن حق اليقين، بما كان له حاصل من عين اليقين. وقيل استجلب خطابه بهذه المقالة إلى قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَى﴾ كنت أو من، ولكنني اشتقت إلى قولك لي: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ فإن بقولك لي: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ تطمينا لقلبي. والمحـب أبداً يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أي وجه أمكنه. ويقال إن إبراهيم أراد إحياء القلب بنور الوصلة بحكم التمام، فقليل له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ يعني أما

(١) تفسير التستري ج ١ ص ٣٧.

تذكر حال طلبك إيانا، حين كنت تقول لكل شيء رأيته ﴿هَذَا رَيِّي﴾ فلم تدر كيف بلغناك إلى هذه الغاية، فكَذلك يوصلك إلى ما سمعت إليه همتك»^(١).



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «في قوله: ﴿لِيُطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ إِنَّ لِلْأَحْيَاءِ وجوه كثيرة، كما كان إيجاد الخلق، فمنهم من أوجده الله تعالى عن كلمة كن، ومنهم من أوجده بيديه، ومنهم من أوجده ابتداءً، ومنهم من أوجده عن خلق آخر، فطلبتُ العلم من تعيين وجه من هذه الوجوه، فإذا أعلمني به، اطمئن قلبي. وقال النبي ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» ولم يكن في شك، لا هو ولا إبراهيم من الشك الذي يزعمونه، الذي نفاه رسول الله ﷺ، فإنه لو شكَّ إبراهيم لكان محمد ﷺ أولى بالشك منه، فإنه مأمور أن يهتدي بهديهم، فالرسل والمؤمنون الكمل واقفون مع ما يعطيهم ربهم»^(٢).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «إياك أيها المسلم أن تشك، أن سيدنا إبراهيم عليه السلام خطر على قلبه الشك؛ لأنه قلب نبي، وقلب النبي مفطور على معرفة ربه، والشك فعل شيطاني، والشيطان لا سلطان له على قلوب عباد الله المؤمنين، فما بالك بالأنبياء والمرسلين. أما سؤاله، فهو سؤال إدلال؛ سؤال الخليل ل خليله، ليدل عليه حتى يخصه بأمر لا يخص به غيره، وهو «أن يرى القدرة بغير سبب»؛ لأن الله في عالم الدنيا أخفى قدرته بالأسباب.

(١) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) الفتوحات المكية ج ٧ ص ٢٦٦، طبعة دار الكتب العلمية.



ولشدة قربه من ربه أراد أن يرى القدرة بغير الأسباب. فكلما كان الإنسان قريباً من المحبوب، كلما رفعت الحجب بينه وبين محبوبه. وبالتالي، هو يريد رفع حجاب الحكمة التي هي الأسباب، لذلك قال: أولم تؤمن أنك خليلي، قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، فينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، وهو في عالم الدنيا.

أما قول النبي ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ﴾^(١) فيقصد أمتي أولى بالشك، وليس نفسه الشريفة. فإذا كانت أمته لم تشك، فسيدينا إبراهيم عليه السلام من باب أولى لم يشك».



قلت: وها هم العارفون من العلماء الربانيين، ردوا ذلك التفسير الفاسد الذي اتهم الأنبياء بالشك وإلقاء الشيطان في قلبه، وعجبت إلى من أوردوا هذه التفسير في كتبهم ورجحوها، كيف لم يقرؤوا قول الله ﷻ قبل هذه الآية بآيتين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهل الذي أقام الحجة على النمرد، وقال له: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يوجد في قلبه شك؟ إن هذا إلا افتراء مبين.



(١) البخاري (٣٣٧٢)، مسلم (١٥١)، ابن ماجه (٤٠٢٦)، احمد (٨٣٢٨).

سورة الأنعام

الآية الثانية:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٨].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «عن ابن عباس قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥]، يعني به الشمس والقمر والنجوم. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ فعنده حتى غاب. فلما غاب قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ فعنده حتى غاب، فلما غاب قال: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ فعندها حتى غابت. فلما غابت قال: ﴿يُنْقِمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٨﴾.

وحدثنا بشر، قال حدثنا يزيد، قال حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ علم أن ربه دائم لا يزول. فقرأ حتى بلغ: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ ﴿٧٧﴾ رأى خلقا هو أكبر من الخلقين الأولين وأنور، ثم قال أيضا: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ ﴿٧٨﴾ يقول: فلما غاب قال

إبراهيم: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ويوفقني لإصابة الحق في توحيده ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ أي من القوم الذين أخطئوا الحق في ذلك، فلم يصيبوا الهدى، وعبدوا غير الله»^(١).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وقال: هذا بغير فكرة. فكان ذلك منه زلة. ويقال: إنما قال ذلك على سبيل الاستفهام: أهذا ربي؟ ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ يعني غاب الكوكب، قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ يعني: لا أحب ربا يتغير عن حاله ويزول. ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ يعني طالعا. ويقال إن ذلك كان في وقت السحر، وكان ذلك في آخر الشهر ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ يعني: الزهرة حين طلعت، وكان من أضواء الكواكب. فلما ارتفع وطلع الفجر، نقص ضوءه. «﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ يعني: لا أحب ربا يتغير. ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ﴾ فرأى ضوءه أكثر، قال هذا ربي على سبيل الاستفهام. ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ يعني: نقص ضوءه حين أسفر الصبح، ﴿قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يعني: لئن لم يحفظ ربي قلبي، لقد كنت اتخذت إلها ما لم يكن إلها. ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً﴾ يعني: طالعة قد ملأت كل شيء ضوءا، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ يعني: أعظم وأكثر نورا. ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ يعني: غربت، علم أنه ليس بإله. فجاءته أمه، فقال لها: من ربي؟ قالت: أنا. قال: ومن ربك؟ قالت: أبوك. قال: ومن رب أبي؟ قالت: نمرود بن كنعان. قال: ومن ربه؟ قالت له: اسكت. فقال لها: كيف هو؟ هل يأكل ويشرب وينام؟

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١١ ص ٤٨٠.



قالت: نعم. قال: هذا لا يصلح أن يكون ربا وإلهًا. فرجعت الأم إلى أب إبراهيم، فأخبرته بالقصة، فخرج إليه فسأله مثل ذلك. ثم قال له في آخره: تعال حتى تعبد الذي خلقتني، وخلقك، وخلق نمرود. فغضب أبوه، فرجع عنه، ثم دخلت عليه رافة الوالد لولده، فرجع إليه. وقال له: أدخل المصرا لتكون معنا، فدخل، فرأى القوم يعبدون الأصنام، فدعوه إلى عبادة الأصنام، فقال لهم حينئذ: يا قوم، إني بريء مما تشركون، فقليل له من تعبد أنت يا إبراهيم؟ فقال: أعبد الله الذي خلقتني، وخلق السموات والأرض»^(١).



قلت: إن هذه الإسرائيليات الموجودة في كتب التفسير من الخطورة بمكان، وإذا ما اعتقد بها المسلم، وقال بها يُخاف عليه من الكفر، وظهرت فرق، واستغلت هذه المقولات، وبدأوا يظهرونها على أنها فكر جديد، وأخذوا ينشرونه في كتبهم ودروسهم المسموعة والمرئية، ومن الأمثلة على مثل هؤلاء:

قال محمد عثمان الخشت: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِّرُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٩].

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ١ ص ٤٦١.



فالمشكلة التي واجهها أبو الأنبياء في عصره، كانت مشكلة التقليد، والاتباع الأعمى للآباء وكبار القوم؛ هنا رفض إبراهيم عليه السلام إسكات عقله... لقد استخدم أبو الأنبياء عقله، فمر بمرحلة شك ضرورية، امتدحها القرآن الكريم، ومنها وصل إلى رفض القديم. فالشك المنهجي ضروري للإيمان المنضبط، والشك المنهجي ضروري للعلم، والشك المنهجي ضروري لتأسيس الخطاب الديني في كل العصور^(١).



التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «اتفق أكثر المحققين على فساد القول: إِنَّ النجم رب في قول إبراهيم: هذا ربي، واحتجوا عليه بوجوه؛ الحجة الأولى، أَنَّ القول بربوبية النجم كفر بالإجماع والكفر غير جائز بالإجماع على الأنبياء. الحجة الثانية، أَنَّ إبراهيم عليه السلام كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بالدليل. والدليل على صحة ما ذكرناه، أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر: ﴿أَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرَنُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]. الحجة الثالثة، أنه تعالى حكى عنه، أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالرفق، حيث قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]. وحكى في هذا الموضع، أنه دعا أباه إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام، بالكلام الخشن، واللفظ الموحش. ومن المعلوم، أَنَّ من دعا غيره

(١) نحو تأسيس عصر ديني جديد ص ١٣-١٥.



إلى الله تعالى، فإنه يقدم الرفق على العنف، واللين على الغلظ، ولا يخوض في التعنيف والتغليظ، إلا بعد المدة المديدة، واليأس التام. فدل هذا، على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مرارا وأطوارا. ولا شك، أنه إنما اشتغل بدعوة أبيه بعد فراغه من مهم نفسه، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف الله بمدة. الحجة الرابعة، أن هذه الواقعة، إنما وقعت بعد أن أراه الله ملكوت السماوات والأرض، حتى رأى من فوق العرش والكرسي، وما تحتها، إلى ما تحت الثرى. ومن كان منصبه في الدين كذلك، وعلمه بالله كذلك، كيف يليق به أن يعتقد إلهية الكواكب؟! الحجة الخامسة، أن دلائل الحدوث في الأفلاك ظاهرة من خمسة عشر وجها وأكثر، ومع هذه الوجوه الظاهرة، كيف يليق بأقل العقلاء نصيبا من العقل والفهم، أن يقول بربوبية الكواكب، فضلا عن أعقل العقلاء وأعلم العلماء؟! الحجة السادسة، أنه تعالى قال في صفة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٤) [الصافات: ٨٤]. وأقل مراتب القلب السليم، أن يكون سليما عن الكفر، وأيضا مدحه، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ﴾ (٥١) [الأنبياء: ٥١] أي آتيناه رشده من قبل، من أول زمان الفكرة. وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ﴾ أي بطهارته وكماله، ونظيره قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] الحجة السابعة، قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥) [الأنعام: ٧٥]، أي وليكون بسبب تلك الرؤية من الموقنين، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ والفاء تقتضي الترتيب، فثبت أن هذه الواقعة، إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين بربه. الحجة الثامنة، أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه، والدليل عليه أنه تعالى لما

ذكر هذه القصة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، ولم يقل على نفسه. فعلم أنَّ هذه المباحثة، إنما جرت مع قومه، لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد، لا لأجل أنَّ إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه. الحجة التاسعة، أنَّ القوم يقولون إنَّ إبراهيم عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب، والقمر، والشمس، حال ما كان في الغار. وهذا باطل، لأنه لو كان الأمر كذلك، فكيف يقول: ﴿يَقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ مع أنه ما كان في الغار لا قوم ولا صنم. الحجة العاشرة، قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨٠] وكيف يحاجونه، وهم بعد ما رأوه، وهو ما رأيهم. وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس، بعد أن خالط قومه، ورأيهم يعبدون الأصنام، ودعوه إلى عبادتها، فذكر قوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفَلِينَ﴾ ردا عليهم، وتنبئها لهم على فساد قولهم. ثم قال بعد ذلك أن يكون إبراهيم ذكر هذا الكلام على سبيل الاستهزاء، كما يقال لذليل ساد قوما: هذا سيدكم، على سبيل الاستهزاء. وأنه صلى الله عليه وآله وسلم، أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب، إلا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم، وبعد طباعهم عن قبول الدلائل، أنه لو صرَّح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه، ولم يلتفتوا إليه، فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة. وذلك بأن ذكر كلاما يوهم كونه مساعدا لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب، مع أنَّ قلبه صلوات الله عليه كان مطمئنا بالإيمان. ومقصوده من ذلك، أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإفساده، وأن يقبلوا قوله. وتمام التقرير، أنه لما يجد إلى الدعوة طريقا سوى هذا الطريق، وكان عليه السلام مأمورا بالدعوة إلى الله^(١).

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٣ ص ٣٩-٤٠.

قال التستري رحمه الله تعالى في تفسيره: قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ فقال: كان هذا القول منه تعريضاً لقومه عند حيرة قلوبهم، لأنه كان أوتي رشفه من قبل، كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم قال: كانت حالة إبراهيم التبري من كل شيء سوى الله تعالى، ألا تراه حين قال جبريل عليه السلام: هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، لم يعتمد على أحد سواه في كل حال^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعا صنعها، ومدبراً دبّر طلوعها، وأفولها، وانتقالها، ومسيرها، وسائر أحوالها. ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ قول من ينصف خصمه، مع علمه بأنه مبطل، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأنجى من الشغب. ثم يكر عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجة. ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام ﴿بَازِعًا﴾ مبتدئاً في الطلوع ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً، وهو نظير الكوكب في الأفول، فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه. ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ من باب استعمال النصفة، أيضاً مع

(١) تفسير التستري ج ١ ص ٦٢.

خصومه ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] أي للذي دلت هذه المحدثات عليه، وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها^(١).



قال ابن حزم رحمه الله تعالى: «أراه الله تعالى الحجة على قومه، قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين، تشريفا له على الروحانيات وهياكلها، وترجيحا لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة، وتقريرا أن الكمال في الرجال، فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ ثم لما ﴿رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] فيا عجباً، مما لا يعرف ربا، كيف يقول: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [٧٧] رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد، ونهاية المعرفة، والواصل إلى الغاية والنهاية، كيف يكون في مدارج البداية؟! دع هذا كله خلف قاف، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف. فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج، وأوضح المناهج، وعن هذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك، وهو رب الأرباب الذي يقتبسون منه الأنوار، ويقبلون منه الآثار ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوْرٌ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٧٨] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَفِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٧٩] قرر مذهب

(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٣٩.

الحنفاء، وأبطل مذهب الصابئة، وبين أنَّ الفطرة هي الحنيفية، وأن الطهارة فيها، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها، وأن النجاة والخلاص متعلقة بها»^(١).



قلت: قبول هذه الإسرائيليات يؤدي إلى فتح الباب على مصراعيه لأهل الإلحاد ومن تبعهم، للطعن بالشرعية وبكتاب الله ﷻ، لأن من طعن بالنبي المرسل، وجوز عليه الشك والخطأ، جوز بعد ذلك الطعن بما جاء به.

ومن تكلم عن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقال إنَّ الشيطان ألقى في قلبه الشك، أو الذي قال أنه شك مدحه القرآن، فهذا تلاعب بالألفاظ، وتضليل للناس باسم الدين. وكلام هؤلاء مردود، وكما وضحه الأئمة أعلاه، وخصوصا ما قام به الإمام الرازي، من سرد الأدلة الدامغة على بطلان قولهم، وإثبات العصمة لسيدنا إبراهيم عليه السلام. وسنضيف إلى ذلك بعض الآيات الأخرى، التي حكاها القرآن عن سيدنا إبراهيم عليه السلام، كي تنجلي الحقيقة أمامك أيها القارئ الكريم، وتعلم مقام سيدنا إبراهيم عند ربه ﷻ. وإني لن أذكر الآيات التي ذكرها الإمام الرازي، وفيها الكفاية، إلا أنني سأذكر آيات أخرى، إتماما للفائدة:

قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١]، يَبْنَ الله ﷻ: لنا اصطفاؤه لسيدنا إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، وجعله إمام الموحدين، وجعل شريعته وملته أساساً للتوحيد، فهل من الإسلام أن تنتهم من هذه صفاته بالشك؟!.

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ١١٠.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] فهل يشك الحنيف؟! ومن وصفه الله تعالى أنه ما كان من المشركين، وأمر سيدنا محمداً ﷺ أن ينتسب إلى ملته. وقد ذكر الله ﷻ: هذا الأمر، ليؤكد في كثير من آيات القرآن الكريم، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَجُلًا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]. وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٣٠] شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَحَبَّ لَهُ وَهَدَنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣]، فالله عز وجل يُنزه إبراهيم، ويأمر سيدنا محمداً ﷺ بالانتساب إليه، ويأتي من يتهمه بالشك.

قال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] وهذه الأوصاف جميعها قبل أن يبدأ سيدنا إبراهيم بدعوة أبيه وقومه إلى عبادة الله.



سورة الأنبياء

الآية الثالثة:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا
يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقد زعم بعض من لا يصدق بالآثار، ولا يقبل من الأخبار، إلا ما استفاض به النقل من العوام، أن معنى قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ إنما هو: بل فعله كبيرهم، هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم، أي إن كانت الآلهة المكسورة تنطق، فإن كبيرهم هو الذي كسّرهم. وهذا قول خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات، كلها في الله؛ قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وقوله لسارة: هي أختي^(١).

ثم إن الطبري اعتبر هذه كذبة، وهي خاطئة، فقال: وقيل إن إبراهيم صلوات الله عليه، عني بقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الذِّكْرِ﴾ [الشعراء: ٨٢] والذي أرجو أن يغفر لي قولي: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقولي لسارة: إنها أختي^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٨ ص ٤٦١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٣٦٣.



قلت: أعجب من سرد الإمام الطبري للأقوال والتفسيرات التي تؤدي إلى عدم تبرئة الأنبياء مما تُسب إليهم من ارتكاب الذنب، ويأخذ اللفظ على ظاهره، ولا ينظر إلى القرائن التي تصرف اللفظ عن ظاهره، كالعصمة، وعدم تسلط الشيطان على الأنبياء، واصطفاء الله لهم من عالم الأزل. وسنرد على هذا التفسير، ونوضح معنى الكذبات، كما بينها أهل التحقيق من المفسرين.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «القول الأول، ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقد علق الفأس على رقبتة، لكي يورد هذا القول، فيظهر جهلهم في عبادة الأوثان. القول الثاني، وهو قول طائفة من أهل الحكايات، أن ذلك كذب، واحتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ثَبَّتْنِي فِي ذَاتِ اللَّهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وَقَوْلُهُ لِسَارَةَ إِنَّهَا أُخْتِي». وفي خبر آخر: «أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة، قال: إني كذبت ثلاث كذبات». ثم قرروا قولهم من جهة العقل، وقالوا: الكذب ليس قبيحا لذاته، فإن النبي عليه السلام إذا هرب من ظالم، واختفى في دار إنسان، وجاء الظالم وسأل عن حاله، فإنه يجب الكذب فيه. وإذا كان كذلك، فأبي بعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا يعرفها إلا هو، واعلم أن هذا القول مرغوب عنه.

أما الخبر الأول، وهو الذي رووه؛ فلأن يضاف الكذب إلى رواته أولى، من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. والدليل القاطع عليه، أنه لو جاز



أن يكذبوا لمصلحة، ويأذن الله تعالى فيه، فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه، وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه، وذلك يبطل الوثوق بالشرائع، وتطرق التهمة إلى كلها. ثم إن ذلك الخبر لو صح، فهو محمول على المعارض^(١).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال له الملك: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلِنَا يَتَابَرِهِمْ﴾ (٦٣) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ، كَبِيرُهُمْ هَذَا» [الأنبياء: ٦٢-٦٣]، يعني: عظيمهم عندكم. وإنما قال هذا على وجه الاستهزاء، لا على وجه الجلد. ﴿فَنَشْكُلُهُمْ إِنْ كَانُوا يَطْفُونُ﴾ [الأنبياء: ٦٣] يعني: إن كانوا يتكلمون، فسألوهم من فعل هذا بكم؟! فرجعوا إلى أنفسهم، فلاموها، يعني إلى أصحابهم، ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤) [الأنبياء: ٦٤].



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «هذا من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها، إلا أذهان الراضة من علماء المعاني. والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها، على أسلوب تعريضي، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيته»^(٢).



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٢ ص ١٥٦.

(٢) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٣ ص ١٢٤.



قال العلامة الألوسي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وكذا قوله عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله في زوجته سارة: هي أختي، من معاريض الأقوال، كقول نبينا ﷺ لمن قال له في طريق الهجرة: ممن الرجل، من ماء، حيث أراد عليه الصلاة والسلام ذكر مبدأ خلقه، ففهم السائل أنه بيان قبيلته. وكقول صاحبه الصديق، وقد سئل عنه عليه الصلاة والسلام في ذاك أيضاً: هو هاد يهديني، حيث أراد، وفهم السائل آخر، ولا يعد ذلك كذباً في الحقيقة. وتسميته به في بعض الأحاديث الصحيحة بالنظر لما فهم الغير منه، لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم»^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «قال سيدنا إبراهيم عليه السلام: هذا القول استهزاء بهم، وإقامة الحجة عليهم. أما توجيه الحديث الذي احتج به بعض المفسرين، وأثبتوا الكذب الحقيقي للأنبياء، والذي يرويه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «قَالَ لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وَقَالَ بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ هَٰ هُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَقَالَ مَنْ هَذِهِ قَالَ أُخْتِي فَأَتَى سَارَةَ قَالَ يَا سَارَةُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ أُخْتِي فَلَا تُكَذِّبْنِي فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج ٢٣ ص ١٠١.





فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ فَأَخَذَ فَقَالَ ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ فَدَعَتْ اللَّهَ فَأُطْلِقَ ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأَخَذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ فَقَالَ ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ فَدَعَا بَعْضَ حَاجِبَيْهِ فَقَالَ إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ فَأَخْدَمَهَا هَاجِرَ فَاتَّهَتْ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ مَهْيَا قَالَتْ رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ أَوْ الْفَاجِرِ فِي نَحْرِهِ وَأَخْدَمَ هَاجِرَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ^(١).

فاعلم أن الأنبياء إذا قالوا قولاً بخلاف الواقع، فهو من باب التعريض لاستحالة الكذب في حقهم؛ ولأنه يوافق الواقع من جهة بعيدة، ويخالف الواقع من جهة قريبة. كما حدث مع النبي ﷺ، حينما سأله الرجل ممن أنت؟ فقال النبي ﷺ: أنا من ماء. و(من ماء) تحتل عدة احتمالات، فالسائل فهمها أنه من قبيلة تسمى ماء، والنبي ﷺ يقصد بداية الخلق، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فقول سيدنا إبراهيم: ﴿فَعَلَهُ، كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وهو يريد بإشارته إصبع إبهامه الذي أمسك الفأس به وكسر الأصنام، وهو أكبر الأصابع. وهم فهموا من إشارته، أنه يشير إلى الصنم الكبير. فهو من باب إقامة الحجة عليهم، أي كيف تعبدون من لا ينطق، ولا يدافع عن نفسه.

أما من تمسكوا بكذب الأنبياء، وذكروا اعتذار سيدنا إبراهيم عليه السلام في حديث الشفاعة بالكذبات، فنقول لهم: هذا من باب تواضع الأنبياء، والأنبياء يعلمون أن الشفاعة العظمى في ذلك المقام لسيدنا محمد ﷺ. ومن أدبهم مع ربهم عز وجل، فيعتبرون المعارض التي هي مباحة لهم في بعض الأحيان، خلاف الأولى في حقه. وهناك أمر مهم، يجب أن نتنبه إليه، وهو الأدب في الخطاب. فسيدنا محمد ﷺ إمام

(١) البخاري (٣٣٥٧).



الأنبياء، وسيدهم، ومعدهم، إذا أطلق هذه العبارة على سيدنا إبراهيم عليه السلام، فهذا خاص به. أما نحن، إذا ما رويناه الحديث، فنروي به بلفظه الشريف، لكن يجب أن نفهمه مع ما يليق بمقام الأنبياء.

أما قوله ﷺ في الحديث: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وهذا أيضا من باب التعريض، حتى يفهم السامع أنه مريض، وهو يقصد أنه سقيم في نفسه من أفكارهم وعقائدهم التي أمرضته، من شدة بعدها عن الحق.

أما قوله ﷺ عن سارة: أختي، هذا أيضا من باب التعريض، وهو يقصد أختي في الديانة. وهذا واضح من قول سيدنا إبراهيم عليه السلام في الحديث: «يا سارة: ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك، وإن هذا سألني، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني». ومعلوم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فهي أخته في الدين، زوجته في الحياة. وكان هذا الملك الجبار، إذا ذكر له امرأة جميلة، وهي متزوجة، قتل زوجها، وأخذ المرأة له. فلما قال إنها أختي، فهم السامع أنها أخته على الحقيقة، ثم أن سيدنا إبراهيم عليه السلام دعا لها ألا يمسها هذا الجبار بشر، فذهبت له. وكلما حاول أن يمسها، شلت يده. وبعدها قال الجبار: أطلقيني، ولا أمسك أبدا، فأطلقته. فأعطاه هدية سيدتنا هاجر عليها السلام، فأعطتها لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فأنجب منها سيدنا إسماعيل عليه السلام.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «الأنبياء معصومون من الكبائر، والصغائر، والكذب، ومن كل شبهة وإن دقت. وجوابنا على كل ما نُسب إلى



سيدنا إبراهيم عليه السلام هو قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] فالله تعالى أثبت نبوته ورشده من عالم الأزل، ومنذ ولادته في عالم الدنيا. والأولياء، إذا ما جاءتهم الولاية، لا يُتصور في حقهم الكذب، فما بالك بالأنبياء، والنبى ﷺ يقول: «المؤمن لا يكذب». وهذه الآية جاءت قبل قوله تعالى: ﴿فَعَلَّهُمْ كَيْدَهُمْ هَذَا﴾ فكيف بمن آتاه الله رشده، وناظر أباه، ودعاه إلى عبادة الله تعالى، أن نتهمه بالكذب. وكل ما ورد في القرآن الكريم، من مناظرات سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر، ومع النمرود، ومع عبّاد الكواكب، ومع قومه، حين كسر الأصنام، يوضحها قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]. فإذا كان الله تعالى قد آتاه الحجة في جميع مناظراته، فكيف نتهمه بالشك، والكذب، والخطيئة. والمتتبع لسياق الآيات في هذه السورة، سيجدها واضحة في أن قول سيدنا إبراهيم، كان من باب الاستهزاء والسخرية بهم، وإقامة الحجة عليهم. فلننظر إلى الآيات التالية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [٥١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِيدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ



﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ [الأنبياء: ٥١-٦٥].

فها هو سيدنا إبراهيم يدعوهم إلى عبادة الله، ويصفهم بالضلال في عبادتهم للأصنام، ثم قال بوضوح: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِيرِينَ﴾. وسمع بعض الناس قوله هذا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ فأبى كذب في الأمر؟! وقد دعاهم، وصرح بتحطيم آلهتهم. وبعد أن أقام الحجة عليهم، وأن آلهتهم لا ينفعون، ولا يضرّون، ولا ينطقون، فهِمَّ الكفار أنهم على خطأ، ولم يقولوا له: أنك كذبت في ادعائك على كبيرنا، قال الله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، بل طبع الله على قلوبهم، وأرادوا الانتقام من إبراهيم؛ لأنه كسر أصنامهم، فقالوا: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ [الأنبياء: ٦٨]. فأين الخطيئة والكذب في كل ما مضى؟! ولا حجة لكم في الحديث؛ لأنه من باب المعاريض، وهذا ما يفهمه أي عربي.



سورة الشعراء

الآية الرابعة:

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢) [الشعراء: ٨٢]

التفسير الأولي:

قال مجاهد رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢) قال: «هو قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿فَعَلَهُ، كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله لسارة: إنها أختي، حين أراد فرعون من الفراعنة أن يأخذها»^(١).



قال الزجاج رحمه الله تعالى: «جاء في التفسير أن خطيئته قوله: إن سارة أختي، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ، كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ومعنى ﴿خَطِيئَتِي﴾ أن الأنبياء بشر، وقد يجوز أن تقع عليهم الخطيئة، إلا أنهم صلوات الله عليهم لا تكون منهم الكبيرة؛ لأنهم معصومون، مُحْتَارُونَ على العالمين. كل نبي هو أفضل من عالم أهل دهره كُلِّهِمْ»^(٢).



(١) تفسير مجاهد ج ١ ص ٥١١، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٣٦٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ج ٤ ص ٩٣.





قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «يعني: أرجو أن يغفر خطيئتي، وهو قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ويقال قوله: ﴿هَذَا رَيْي﴾ ويقال: ما كان نبي من الأنبياء عليهم السلام إلا وقد هم بزلة. وقال مقاتل: إِنَّ إبراهيم عليه السلام قد كذب ثلاث كذبات، وأخطأ ثلاث خطيئات، وابتلي بثلاث بليات، وسقط سقطه. فأما الكذبات، فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَشَاوَهُمْ﴾، وقوله لسارة حين قال: هي أختي. والخطايا، قوله للنجم والقمر والشمس: ﴿هَذَا رَيْي﴾. وأما البليات، حين قذف في النار، والختان، والأمر بذبح الولد. وسقط سقطه حين دعا لأبيه، وهو مشرك^(١).



قلت: بعد ما أثبتناه في الفصل الأول من عصمة الأنبياء، وتفسير الآيات السابقة التي تخص سيدنا إبراهيم عليه السلام، صار من الواضح أَنَّ هذه التفسيرات مردودة، وخصوصا ما قاله السمرقندي. وسنوضح التفسير الصحيح الذي يتعلق بهذه الآية.

التفسير العرفاني:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «خطيئة الأحاب شهودهم محتهم، وتعنيهم عند شدة البلاء عليهم، وشكواهم مما يمسهم من برحاء الاشتياق، قال بعضهم:

وَإِذَا مُحَاسِنِي اللَّاتِي أَدَلَّ بِهَا كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلِّي: كيف أعذر؟^(٢)

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٥٥٧.

(٢) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ١٣ ص ١٤.



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «من أدب الكُمَّل أن يضيفوا ما يضر إلى نفوسهم، وما ينفع إلى ربهم، كما فعل إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ثم أنه ترقى من ذلك إلى طلب المغفرة، من إضافة المرض إلى نفسه بقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ فجمع في هذا بين أدبين؛ بين نسبة المرض إلى نفسه، وبين الأدب في التعريف، بأن ذلك المرض حكم نسبة الاسم الإلهي، مع أنه ما قصد بنسبة المرض والخطيئة إلى نفسه إلا الأدب»^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي﴾ أي في مغفرته ﴿خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ذكره عليه السلام هضماً لنفسه، وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذر منها، وطلب مغفرته لما يفرط منهم. وقال أبو عثمان: أخرج سؤاله على حد الأدب، لم يحكم على ربه بالمغفرة، ولكنه طمَعَ طَمَعَ العبيد في مواليتهم، وإن لم يكونوا يستحقون عليهم شيئاً؛ إذ العبد لا يستحق على مولاه شيئاً، وما يأتيه يأتيه من فضل مولاه»^(٢).



قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «إنه أدب عال مع الله، وهضم لعمله؛ لأن الإنسان مهما قدّم من الخير، فهو دون ما يستحق الله تعالى من العبادة؛ لذلك كان طلب المغفرة من الطمع. ويجب أن ننظر هنا: متى دعا إبراهيم ربه، ومتى تضرع إليه؟ بعد أن ذكر حيثيات الألوهية، واعترف لله بالنعم السابقة،

(١) لوائح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية، تصنيف الشيخ عبد الوهاب الشعراوي ج ١ ص ٣٢٧.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٤ ص ١٤١.



وأقر بها، فقد خلقه من عدم، وأمدّه من عدم، ووَقَّر له كل مقومات الحياة. وإقرار العبد بنعم الله عليه، يقضي على كبرياء نفسه، ويصِفِّي روحه وأجهزته، فيصير أهلاً لمناجاة الله، وأهلاً للدعاء. فإن اعترفت لله بالنعم السابقة، أجابك فيما تطلب من النعم اللاحقة، على خلاف من لا يذكر لله نعمة، ولا يقر له سبحانه بسابقة خير، فكيف يقبل منه دعاء؟! وبأي وجه يطلب من الله المزيد؟! إذن: لا تدع ربك إلا بعد صفاء نفس، وإخلاص عبودية؛ لذلك ورد في حديث رسول الله ﷺ: «من عمل بما علم، أورثه الله علم ما لم يعلم»^(١).

قال الشعراوي رحمه الله تعالى: «في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾» [إبراهيم: ٤١] ونعلم أن طلب الغفران من المعصوم إيدان بطلاقة قدرة الله في الكون، ذلك أن اختيار الحق سبحانه للرسول، أي رسول، لا يعفى الرسول المختار من الحذر، وطلب المغفرة. وها هو سيدنا رسول الله ﷺ يقول: «إني استغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة». وطلب المغفرة من الله، إن لم يكن لذنوب كما في حال الرسل المعصومين، فهو من الأدب مع الله؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى يستحق منا فوق ما كلفنا به. فإذا لم نقدر على المندوبات وعلى التطوعات؛ فلندع الحق سبحانه أن يغفر لنا. ومنا من لا يقدر على الفرائض؛ فليدع الله أن يغفر له؛ ولذلك يقال: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»^(٢).



قلت: وفي ما ذكر أعلاه الجواب الكافي، والرد الشافي على من أساء لسيدنا

إبراهيم عليه السلام.

(١) تفسير وخواطر القرآن الكريم ج ١٧ ص ١٠٥٩٦.

(٢) تفسير وخواطر القرآن ج ١٢ ص ٧٥٥٨.

سورة الصافات

الآية الخامسة:

﴿فَنظَرَنظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ». حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا أبو أسامة، قال: حدثني هشام، عن محمد، عن أبي هريرة، أن رسول الله قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وَقَوْلُهُ لِسَارَةِ إِنَّمَا أُخْتِي». وهذا القول عليه أكثر المفسرين»^(١).



قلت: هذا القول لم يقله أكثر المفسرين كما قال الطبري، بل أغلب المفسرين قالوا هو من المعارض، ونزّهوا النبي من الكذب والخطيئة، كما بينا وسنبين الآن.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وذلك لأنهم كانوا يستدلون بعلم النجم على حصول الحوادث المستقبلية، فوافقهم إبراهيم على هذا الطريق في

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢١ ص ٦٣، بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٥٥٧.

الظاهر، مع أنه كان بريئاً عنه في الباطن. ومقصوده أن يتوسل بهذا الطريق إلى كسر الأصنام، فإذا جازت الموافقة في الظاهر ههنا، مع أنه كان بريئاً عنه في الباطن»^(١).



قال الزجاج رحمه الله تعالى: «وجاء في التفسير أن إبراهيم نطق بثلاث كلمات على غير ما يوجبه لفظها، لما في ذلك من الصلاح، وهي قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله: إِنَّ سَارَّةَ أُخْتِي. والثلاث لهن وجه في الصدق بَيِّنٌ، فسارّة أخته في الدين، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فيه غير وجه؛ أحدها، إني مَغْتَمٌ بِضَلَالَتِكُمْ حتى أنا كالسقيم. ووجه آخر، إني سقيم عندكم. وجائز أن يكون ناله في هذا الوقت مَرَضٌ»^(٢).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قيل أراد (إلى) النجوم، فأقام (في) مقام (إلى). ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كانت تأتية الحمى في وقت معلوم، فقال: قرب الوقت الذي أسقم فيه من أخذ الحمى إياي، فكأنه تعلل بذلك ليتأخر عنهم، عند ذهابهم إلى عيدهم، لتمشية ما كان في نفسه من كسر الأصنام. ويقال كان ذلك من جملة المعارض. وقيل أرى من نفسه موافقة قولهم في القول بالنجوم، لأنهم كانوا يقولون بالنجوم، فتأخر بهذا السبب عنهم»^(٣).



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٣ ص ٤١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ج ٣ ص ٣٩٧.

(٣) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٣ ص ٢٣٦.

قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «الأنبياء معصومون مختارون على العالمين. وقيل: هي قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ وقوله لسارة: هي أختي. وما هي إلا معاريض كلام، وتخيلات للكفرة، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار. فإن قلت: إذا لم يندر منهم إلا الصغائر، وهي تقع مكفرة، فما له أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا، وطمع أن تغفر له؟ قلت: الجواب ما سبق لي، إنَّ استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم، وهضم لأنفسهم»^(١).



قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فرأى مواقعها واتصالاتها، أو في علمها أو في كتابها، ولا منع منه مع أنَّ قصده إيهامهم وذلك حين سألوه أن يعبد معهم. ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أراهم أنه استدل بها، لأنهم كانوا منجمين، على أنه مشارف للسقم، لئلا يخرجوه إلى معبدهم، فإنه كان أغلب أسقامهم الطاعون، وكانوا يخافون العدوى، أو أراد إني سقيم القلب لكفركم، أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً، قل من يخلو منه، أو بصدد الموت. ومنه المثل: كفى بالسلامة داء»^(٢).



قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «لماذا وصف الله نبيه إبراهيم في الآخرة بأنه من الصالحين؟ قالوا: لأن إبراهيم أثر عنه ثلاث كلمات، يسميها المتصيدون للأخطاء، ثلاث كذبات أو ذنوب؛ الأولى، قوله لملك مصر،

(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٣ ص ٣١٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ج ٥ ص ١٣.



لما سأله عن سارة، قال: أختي. والثانية لما قال لقومه حينما دعوه للخروج معهم لعيدهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. والثالثة، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي عندما حطم الأصنام. ويقول هؤلاء المتصيدون: إنها أقوال منافية لعصمة الأنبياء، لكن ما قولكم، إن كان صاحب الأمر والحكم شهد له بالصلاح في الآخرة؟! ثم إنَّ المتأمل في هذه الأقوال، يجدها من قبيل المعارض التي قال عنها النبي ﷺ: «**إِنَّ فِي الْمَعَارِضِ لَمَدْوَحَةٍ عَنِ الْكَذِبِ**». فقولُه عن سارة: إنها أختي، هي فعلا أخته في الإيمان، وربما لو قال: زوجتي، لقتله الملك ليتزوجها هو. أما قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فهو اعتذار عن مشهد كافر، لا ينبغي للمؤمن حضوره، كما أنَّ السقم يكون للبدن، ويكون للقلب، فيحتمل أن يكون قصده سقيم القلب، لما يراه من كفر القوم»^(١).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: قول سيدنا إبراهيم عليه السلام يُحمل على وجهين: الأول: أنه من الحجج التي تعلمها من ربه، كي يتسنى له البقاء، وتكسير الأصنام، ليقيم الحجة على الكافرين، لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣].

الثاني: عندما نظر سيدنا إبراهيم عليه السلام للنجوم، وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فَهِمَ قومه وهم يعتقدون بالنجوم، أنه استدل بالنجوم على مرضه. وهو في الحقيقة عندما رفع رأسه إلى السماء، وهي قبلة الدعاء، خاطب ربه ومولاه: يا رب إني

(١) تفسير وخواطر الشعراوي ج ١٨ ص ١١٣٩.

سقيم، أي ضعيف، وأطلب عونك ومددك وتوفيقك، في ما أرسلتني وأمرتني به. وسيدنا إبراهيم عليه السلام أظهر التسليم والافتقار الكامل لمولاه في جميع مراحل حياته.



قلت: السياق الذي جاءت به الآية الكريمة يوضح أن الله عز وجل يظهر لنا فضائل سيدنا إبراهيم عليه السلام، على عكس من اتهم سيدنا إبراهيم بالكذب والخطيئة، وادعى إجماع المفسرين على ذلك. قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ

لِإِبْرَاهِيمَ ۚ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَفَبِكُلِّ عِلَةٍ غَالِبِينَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٧ فَظَرَّ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ ۝٩٤ قَالَ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنجُتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۝١٠٢ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْهُ ۝١٠٤ فَدَّصَقَتْ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمَعِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١١٠﴾

[الصفات: ٨٣-١١٠]. فلقد مدح الله تعالى في هذه الآيات سيدنا إبراهيم عليه السلام، قبل الآية التي نحن بصددناها وبعدها، فوصفه بذي القلب السليم، أي الخالي مما سوى مولاه، وسليم من الشرك، ومن الشك، ومن الكذب.



ثم يَبينُ مناظرته لأبيه، ثم لقومه، ودحضه لعقيدتهم بالحجة الدامغة، ولم يلتفت إلى تهديدهم، فأوقدوا نارا عظيمة، ولم يكثرث لأنه قوي بربه. وورد أنه لما ألقى عليه السلام في النار، جاءه سيدنا جبريل عليه السلام، فقال: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ قال: أما لك فلا، وأما لربي، فعلمه بحالي يغني عن سؤالي، فصار إماما للتوكل، والتسليم، والتفويض المطلق.

ثم بعد ذلك قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصفافات: ٩٩] فبدأ طريقه بربه، وأكمله بربه، وانتهى إلى رضوان ربه. فهل مثل هذا يشك ويكذب؟! ثم تستمر الابتلاءات والاختبارات، فيأمره ربه بذبح ابنه سيدنا إسماعيل عليه السلام، ولم يسأل عن السبب، ولم يعترض ولم يشك، بل عمد إلى تنفيذ الأمر، فجزاه الله تعالى، وفدى ابنه بذبح عظيم، ووصفه بقوله: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَأْتِرْهِمُ﴾ (١٠٤) قَدْ صَدَقَتِ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُؤْمِنُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠). فهل نترك الفواضل التي جاءت في السياق، ونخرج الآية، ونفسرها على هوانا بما لا يليق بمقام النبوة؟! إن هذا شيء عجاب.



سورة التوبة وسورة الشعراء

الآية السادسة:

﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١١٤)

[التوبة: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْفِرْ لَأَيِّ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٨٦) [الشعراء: ٨٦].

أحببت أن أختتم الآيات التي ذكرت سيدنا إبراهيم عليه السلام بقضية والد سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهل مات على الكفر، أم على الإيمان؟ ونحن نقول بإيمانه، وسنين ذلك.

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وأصفح لأبي عن شركه بك، ولا تعاقبه عليه ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ يقول: إنه كان ممن ضل عن سبيل الهدى، فكفر بك»^(١). وقال في موضع آخر من تفسيره: «﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾ [التوبة: ١١٣] يقول: أن يدعوا بالمغفرة ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ولو كان المشركون الذين يستغفرون

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٧ ص ٥٩٤.



لهم ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ ذوي قرابة لهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يقول: من بعد ما ماتوا على شركهم بالله، وعبادة الأوثان، وتبين لهم أنهم من أهل النار، لأن الله قد قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله. فإن قالوا: فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه، وهو مشرك؟ فلم يكن استغفار إبراهيم لأبيه إلا لموعدة وعدها إياه. فلما تبين له، وعلم أنه لله عدو، خلاه وتركه، وترك الاستغفار له، وآثر الله وأمره عليه، ففترأ منه حين تبين له أمره^(١).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «ويقال أراد النبي ﷺ أن يستغفر لأبويه، وهما مشركان، واستأذن منه المسلمون أن يستغفروا لأبائهم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وقال: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وذلك أن أباه وعد إبراهيم أن يسلم، فكان يستغفر له رجاء أن يسلم. وروى سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، أنه قال: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات. فلما مات تبين له أنه عدو لله، تبرأ منه. يعني: ترك الدعاء، ولم يستغفر له بعد، لأنه مات على الكفر»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٣ ص ٥٠٩.

(٢) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٩١.



قلت: لقد وضحنا في الآيات التي تحدثت عن سيدنا محمد ﷺ في مسألة أبوي النبي ﷺ، وأثبتنا نجاتهما، بل إنهما من كبار العارفين، وأثبتنا أيضا أن آباءه ﷺ موحدون ناجون إلى أبينا آدم عليه السلام. فلا يصح أن ننسب الكفر لأحد من آباءه ﷺ، وسيدنا إبراهيم من آباء النبي ﷺ، وسنين التفسير اللائق بمقامهم العالي في هذه الآية:

التفسير العرفاني:

قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِأَبْنَيْهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. وسنأخذ من هذه الآية لقطة نفيدنا في أشياء كثيرة، لأن القرآن سيتعرض في قصة إبراهيم، أنه تحدث مع أبيه في شئون العقيدة. فقال كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]. ونحن نعلم، أن رسول الله ﷺ من سلالة إسماعيل بن إبراهيم. والرسول عليه الصلاة والسلام قال: «أنا سيد ولد آدم». فإذا كان آزر أبو إبراهيم كافرا، وعابدا للأصنام، فكيف تصح سلسلة النسب الشريف؟ نقول لو أن القرآن قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَر﴾ وسكت، لكان المعنى أن المخاطب هو أبو إبراهيم، ولكن قول الله: ﴿لِأَبِيهِ أَرَزَر﴾ جاءت لحكمة؛ لأنه ساعة يذكر اسم الأب يكون ليس الأب، ولكن العم. فأنت، إذا دخلت منزلا، وقابلك أحد الأطفال، تقول له: هل أبوك موجود، ولا تقول: أبوك فلان؛ لأنه



معروف، بحيث لن يخطئ الطفل فيه. ولكن إذا كنت تقصد العم، فإنك تسأل الطفل هل أبوك فلان موجود؟ فأنت في هذه الحالة تقصد العم، ولا تقصد الأب. لأن العم في منزلة الأب، خصوصا إذا كان الأب متوفيا. إذن: قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَأَبِيهِ أَزْرَ﴾ بذكر الاسم، فمعناه لعمه أزر. فإذا قال إنسان: هل هناك دليل على ذلك؟ نقول: نعم، هناك دليل من القرآن في هذه الآية الكريمة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ والآباء جمع أب، ثم حدّد الله تبارك وتعالى الآباء، إبراهيم وهو الجد يطلق عليه أب، وإسماعيل وهو العم يطلق عليه أب، وإسحق وهو أبو يعقوب، وجاء إسماعيل قبل إسحق^(١). إذن ففي هذه الآية جمع أب من ثلاثة؛ هم إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب الذي حضره الموت، وهو ابن إسحق، ولكن أولاد يعقوب، لما خاطبوا آبائهم قالوا آباءك، ثم جاءوا بأسمائهم بالتحديد، وهم إبراهيم الجد، وإسماعيل العم، وإسحق أبو يعقوب، وأطلقوا عليهم جميعا لقب الأب، فكأن إسماعيل أطلق عليه الأب وهو العم، وإبراهيم أطلق عليه الأب وهو الجد، وإسحق أطلق عليه الأب وهو الأب. فإذا قال رسول الله ﷺ: «أنا أشرف الناس حسبا ولا فخر» يقول بعض الناس كيف ذلك، ووالد إبراهيم كان غير مسلم. ورسول الله ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم». فإذا قال أحدهم: كيف هذا، وأبو إبراهيم عليه السلام كان مشركا، عابدا للأصنام؟. نقول له: لم يكن أزر أبا لإبراهيم، وإنما كان عمه، ولذلك قال القرآن الكريم:

(١) وتأييدا لقول مولانا الشعراوي فقد قال الله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف عليه السلام (إذ قال يوسف لأبيه يا ابت إني رأيت أحد عشر كوكبا) فقد قال لأبيه ولم يصرح باسم يعقوب لأنه معروف.



﴿لِأَيِّهِ ءَازَرَ﴾ وجاء بالاسم، يريد به الأبوة غير الحقيقية. فأبوة إبراهيم، وأبوة إسحق، معلومة لأولاد يعقوب. ولكن إسماعيل، كان مقبياً في مكة، بعيداً عنهم. فلماذا جاء اسمه بين إبراهيم وإسحق؟ نقول: جاء بالترتيب الزمني؛ لأن إسماعيل أكبر من إسحق بأربعة عشر عاماً. وكونه وصف الثلاثة بأنهم آباء، إشارة لنا من الله سبحانه وتعالى أن لفظ الأب يطلق على العم. والله تبارك وتعالى يريدنا أن نتنبه لمعنى كلمة آزر^(١). وقال في موضع آخر من تفسيره: «وأقول ذلك لأضفي مسألة وقع فيها اللغظ الكثير؛ فالبعض من العلماء قال: هل كان آزر أباً لإبراهيم؛ والحديث الشريف يقول: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء». فكان النبي ﷺ أخبر أنه من سلسلة نسب موحد، لا يمكن أن يكون للشرك فيه مجال، وآزر كان مشركاً. وما دام الحق يقول في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]. فلو أن آزر الوالد الحقيقي لإبراهيم، لكان سيدنا محمد ﷺ من ذريته. وأرى أنه عمه؛ لأن الرسول ﷺ قال: «ما زلت أتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»، وهو قول يدل على أن نسبه الشريف مطهر من الشرك من جهة الآباء ومن جهة الأمهات. إذن، فلا يصح أن نعتقد أن أباً إبراهيم هو آزر؛ لأنه كان على هذا الوضع مشركاً، لكن كيف نفسر قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيِّهِ ءَازَرَ﴾؟ نقول: إننا نأخذ اللغة، ونأخذ استعمالات القرآن في معنى الأبوة. والقرآن صريح في أن الأبوة كما تطلق على الوالد الحقيقي الذي ينحدر الولد من صلبه، تطلق كذلك على أخي الوالد أو عمه. والدليل على ذلك، أن

(١) تفسير وخواطر القرآن الكريم ج ١ ص ٥٨٩.



القرآن الذي قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَزَّ وَجَلَّ﴾ وهو بعينه القرآن الذي قال: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٣) إذن، آباء هي جمع أب، وأقل الجمع ثلاثة: إبراهيم إذن، وكذلك العم إسماعيل يطلق على كل منهما أب، وأيضا إسحاق، وهو والد يعقوب. هؤلاء هم الآباء المذكورون في هذه الآية. وهنا نفهم، أن أبوة إسماعيل ليعقوب، إنما هي أبوة عمومة؛ لأن يعقوب بن إسحاق، وإسحاق أخو إسماعيل. إذن، فقد أطلق الأب وأريد به العم، ويدلنا الرسول ﷺ على ذلك حينما أخذ عمه العباس أسيرا، فقال: ردوا علي أبي؛ وأراد عمه العباس^(١). وقال الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١) [إبراهيم: ٤١]. والإنسان كما نعلم له وجود أصلي من آدم عليه السلام؛ وله وجود مباشر من أبويه، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديه، وصار مؤمنا، فهو يدعو لهما بالمغفرة، أو إنَّ الأسوة كانت منهما؛ لذلك يدعو لهما بالمغفرة. والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة؛ لأنهم كانوا صحبة له وقدوة، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر. وكان إبراهيم - عليه السلام - صاحب الدعاء، يدعو للمؤمنين من ذريته؛ وتلك دعوة وشفاعة منه لمن آمن؛ ويرجو الحق سبحانه أن يتقبلها^(٢).



(١) تفسير وخواطر القرآن الكريم ج ٦ ص ٣٧٣٢.

(٢) تفسير وخواطر القرآن الكريم ج ١٢ ص ٧٥٥٨.



قال الزخشي رحمه الله تعالى في تفسيره: «جعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه، لأن العم أب والخالة أم، لانخراطهما في سلك واحد، وهو الأخوة، لا تفاوت بينهما. ومنه قوله عليه السلام: «**عم الرجل صنو أبيه**» أي لا تفاوت بينهما، كما لا تفاوت بين صنوي النخلة. وقال عليه الصلاة والسلام في العباس: «**هذا بقية آبائي**»، وقال: «**ردوا على أبي، فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود**»^(١).



قال الثعلبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «عن صهيب، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿**وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجِدِينَ**﴾^(٢٩) [الشعراء: ٢١٩] قال: من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة. عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس في قوله سبحانه: ﴿**وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجِدِينَ**﴾^(٢٩) قال: ما زال رسول الله ﷺ يتقلب في أصلاب الأنبياء، حتى ولدته أمه»^(٣).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: ما ذكره الأئمة من الأدلة، على أن جميع آباء النبي ﷺ ناجون وموحدون، فيه الكفاية للرد على من ادعى عدم نجاة والد سيدنا إبراهيم عليه السلام. ونضيف إلى ذلك إنَّ دعاء سيدنا إبراهيم: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾^(٤١) كان آخر ما دعى به حين بلغ الكبر من عمره، ولم ينهه ربه عن ذلك: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ**﴾

(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ١ ص ١٩٢.

(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن المعروف بتفسير الثعلبي ج ٧ ص ١٨٤.

وَلِإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾
[إبراهيم: ٣٩-٤١] فتبين أنَّ الاستغفار الذي نُهي عنه كان استغفاره لعمه آزر، ولكن لما دعا لوالديه، لم ينه عن الاستغفار.

وهناك دليل آخر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] فجعل الله النبوة في ذرية نوح عليه السلام، ومن ذريته إبراهيم، ووالده، وبنيه. وفيه إشارة إلى أنَّ والد إبراهيم من الموحدين.



قلت: تُضيف إلى ما سبق من الأدلة الناصعة الوضوح، أنَّ كلمة الأب في القرآن وردت ويراد بها الأب، ووردت ويراد بها الأم والأب، ووردت ويراد بها العم والجد. فوردت ويراد بها العم والجد في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكُمْ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٣). وفي قول سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨] وأطلقت، ويراد بها الأم والأب في قوله ﷺ: ﴿وَلَا بُيُوتَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ وَوَرِثَةُ آبَاؤِهِ فَلَأُمُّهُ الثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٠]. وتطلق كلمة الأب، ويراد بها الرجل الذي تكفل بالصبي، ورباه حتى يكبر، لذلك كان الناس في عهد النبي ﷺ يسمون سيدنا زيد ﷺ (زيد بن محمد)، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ

وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴿[الأحزاب: ٤٠]﴾، فتبين لنا من كل ما مضى، أنَّ الأب تطلق وتشمل عدة معانٍ. والوالد تطلق، ويراد به الذي خرج الابن من صلبه. وبما أنه قد وردت في السنة المطهرة الأحاديث التي دلت على طهارة ونجاة آباء النبي ﷺ، وورد أيضا في كتب السير والأنساب، أنَّ والد إبراهيم عليه السلام اسمه (تارح)، فتبين لنا أنَّ المقصود من آيات النهي عن الاستغفار عمه آزر.





سورة يوسف

الآية الأولى:

﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا
لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]

التفسير الأولي:

قال مقاتل رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، يعني
خسران مبين، ونظيرها في سورة القمر: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ [القمر: ٤٧] يعني
في شقاء^(١).



التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾
يعني هذا حيف ظاهر، وضلال بين. وهاهنا سوالات؛ السؤال الأول، إنَّ من
الأمور المعلومة أنَّ تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد،

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٢ ص ٣٢٠.



ويورث الآفات. فلما كان يعقوب عليه السلام عالما بذلك، فلم أقدم على هذا التفضيل؟. وأيضا، الأسن والأعلم والأنفع أفضل، فلم قلب هذه القضية؟. والجواب: أنه عليه السلام ما فضّلها على سائر الأولاد إلا في المحبة، والمحبة ليست في وسع البشر، فكان معذورا فيه، ولا يلحقه بسبب ذلك لوم. السؤال الثاني، أن أولاد يعقوب عليه السلام، إن كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى، فكيف اعترضوا عليه؟ وكيف زيّفوا طريقته، وطعنوا في فعله؟ وإن كانوا مكذّبين لنبوته، فهذا يوجب كفرهم. والجواب: أنهم كانوا مؤمنين بنبوّة أبيهم، مقرّين بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى، إلا أنهم لعلهم جوّزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالا مخصوصة بمجرد الاجتهاد، ثم إنَّ اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد. وذلك، لأنهم كانوا يقولون: هما صبيان، ما بلغا العقل الكامل، ونحن متقدمون عليهما في السن، والعقل، والكفاية، والمنفعة، وكثرة الخدمة، والقيام بالمهمات، وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل. وأما يعقوب عليه السلام، فلعله كان يقول: زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة، فليس لله عليّ فيه تكليف. وأما تخصيصهما بمزيد البر، فيحتمل أنه كان لوجوه؛ أحدها، أن أمهما ماتت، وهما صغار. وثانيها، لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة، ما لم يجد في سائر الأولاد^(١).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «ويقال: لما اعترضوا بقلوبهم على أبيهم في تقديم يوسف في المحبة، عاقبهم بأن أمهاتهم حتى بسطوا في أبيهم لسان

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٨ ص ٤٢٣.



الواقعة، فوصفوه بلفظ الضلال، وإن كان المراد منه الذهاب في حديث يوسف عليه السلام. ولما حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له، لم يرض - سبحانه - حتى أقامهم بين يدي يوسف عليه السلام، وخروا له سجدا، ليعلموا أنَّ الحسود لا يسود»^(١).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «والضلال هنا أي هي مفتونة العقل بحب هذا الفتى، وليس المراد الضلال الديني»^(٢).



قلت: كان أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام موحدّين ومؤمنين بنبوة أبيهم، ولا يمكن أن نتصور أنهم يقصدون بكلمتهم الضلال الذي بمعنى الشقاء والكفر. والسياق واضح، بأنهم حسدوا أخاهم يوسف عليه السلام على مكانته عند أبيه، فيكون المعنى: إنَّ أبانا لفي محبة عظيمة واضحة ليوسف أكثر منا، وهذا لا يرضينا. لذلك قالوا له بعد حقبة من الزمن، عندما ذكر يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ قَدِيمٍ﴾ [يوسف: ٩٥] أي محبتك القديمة ليوسف.



(١) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٢ ص ١٧٠.

(٢) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ج ١٢ ص ٢٦١.

الآية الثانية:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣].

التفسير الأولي:

قال الماوردي رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «ما خافهم عليه، ولو خافهم ما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب، لأنه أغلب ما يخاف منه من الصحاري. وقال الكلبي: بل رأى في منامه، أن الذئب شدّ على يوسف، فلذلك خافه عليه»^(١).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «يحزني أن تذهبوا به؛ لأنني لا أصبر عن رؤيته، ولا أطيق على فرقه. هذا إذا كان الحال سلامته، فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب؟! ويقال: لما خاف عليه من الذئب، امتحن بحديث الذئب. ففي الخبر ما معناه: «إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه». وكان من حقه أن يقول: أخاف الله، لا الذئب. وإن كانت محال الأنبياء عليهم السلام -محروسة من الاعتراض عليها»^(٢).

قال الزمخشري رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «وروى أن يوسف أخذ

(١) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٣ ص ١٣ مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير للرازي ج ١٨ ص ٤٢٢.

(٢) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٢ ص ١٧٢.



بيد يعقوب، فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الورق والذهب، وخزائن الحلي، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، وغير ذلك. فلما أدخله خزانة القراطيس، قال: يا بني، ما أعقك، عندك هذه القراطيس، وما كتبت إلى علي ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل. قال أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني، فسله. قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك، لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ قال: فهلا خفتني؟^(١)



قال إسماعيل حقي الخلوئي رحمه الله تعالى في تفسيره: «لقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم: البلاء موكل بالمنطق. فان يعقوب عليه السلام قال أولا في حق يوسف: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فابتلى من ناحية هذا القول، حيث قالوا أكله الذئب. وقال ههنا: ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] فابتلى أيضا بذلك، وأحيط بهم، وغلبوا عليه»^(٢).



قلت: الأنبياء أعرف الخلق بالله، وأخوفهم من الله. وهذا الكلام الذي قاله المفسرون أعلاه، مردود بالأدلة والبراهين. وما ذكروه من أن البلاء موكل بالمنطق ينطبق على الناس، وليس على الأنبياء والمرسلين.

(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٥٠٦، مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير

للرازي ج ١٨ ص ٥١٤.

(٢) روح البيان ج ٤ ص ٢٩١.

التفسير العرفاني:

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «فلما ذهبوا به وأوحينا إليه قبل ذلك ولتنبئهم أمر، أي أوحينا إليه نبئهم بأمرهم هذا، أي أشعرهم بما كادوا ليوسف -عليه السلام-، إشعارا بالتعريض، وذلك في قوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾. وجملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ على هذا التقدير حال من ضمير جمع الغائبين، أي وهم لا يشعرون أننا أوحينا إليه بذلك»^(١).



قال صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «سيدنا يعقوب خاف من ذئب حسدهم، وبرؤيته في ذلك حقيقة. وكل ما رأى يعقوب من هذه الواقعات، وكل ما قاله لبنيه من الزجر والنصيحة في حق يوسف عليه السلام، مما رأى بنور النبوة ما يقع في المستقبلات من الواقعات»^(٢).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «من شدة فطنة سيدنا يعقوب عليه السلام وإعلام الله تعالى له بنيتهم عن طريق الوحي، لقنهم الحجة، حتى يعدلوا عن قتله. فإخوة يوسف عليه السلام أجمعوا أمرهم على قتله، فقال لهم هذا القول، فانتبهوا إلى هذا الأمر، فعدلوا عن قتله، وألقوه في البئر، وادعوا أن الذئب

(١) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ج ١٢ ص ٢٥٣.

(٢) تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٢ ص ١٥٢.

أكله. وسيدنا يعقوب عليه السلام كان يعلم أنهم لا يستطيعون قتله من خلال الرؤية التي قصها له سيدنا يوسف عليه السلام، وإن يوسف عليه السلام هو خليفته في النبوة».



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: الأنبياء خاصة الله وأهل حضرته، ولا تغفل قلوبهم عن ربهم طرفة عين، وجميع أفعالهم وأقوالهم موافقة لمراد الله عز وجل، فلا يجوز اتهام النبي عليه السلام بأنه خاف على يوسف، وعاقبه الله بما خاف منه، أو عاتبه الله؛ لأنه خاف من الذنب، ولم يخف من الله. فهذا الكلام لا ينطبق على الأولياء والصالحين، فكيف بالأنبياء والمرسلين؟! وسيدنا يعقوب عليه السلام قد أخبر سيدنا يوسف بما سيكون من أمره في بداية السورة، فقال: ﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٥﴾ وكذلك يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسِمِّي نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦﴾ [يوسف: ٥-٦] فكل ما ذكر في سورة يوسف، ذكره يعقوب ليوسف عليهما السلام في هذه الآية. ففي قوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ اشتملت على ما سيحدث من تأمر إخوته عليه، وإلقاءه في غيابة الحب. وفي قوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾ أي الاجتباء، سيكون بعد حدوث هذا الامتحان، وقد أوحى الله إلى سيدنا يوسف عليه السلام وهو في البئر وهذا دليل الاجتباء.

وفي قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ما حصل لسيدنا يوسف عليه السلام من العلم، والوحي وتأويل الرؤى، وما أثمرته هذه المعرفة في السجن، من إيمان الناس به، وصارت سببا لخلاصه حين فسر رؤيا الملك، ثم آمن به، وجعله عزيز مصر.

وفي قوله: ﴿وَيُنِزُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإظهار براءتك، وارتفاع شأنك، وإيمان كل أهل مصر بالله ﷻ.

أما قوله: ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ إذ جاء بهم من البدو، ليكونوا معك معززين مكرمين. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وهو الذي علمنا ما قلناه لك، ومن حكمته أن قدر الأسباب للوصول إلى هذه النتيجة. فكيف يخاف عليه من الذئب، والله قد علمه ما سيكون من يوسف ﷺ، فهو الذي قال: ﴿وَجَاءَ عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وما قال هذا القول إلا لعلمه، أن الذئب بريء من دم يوسف.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، فكيف نتهم الأنبياء بهذه الأمور، وهم يعلمون الأحداث بتعليم الله لهم.

وسيدنا يعقوب ﷺ يعلم من الله أن يوسف سيكون نبيا، وأن الله تعالى سيهدي به أهل مصر، وسيعلم يوسف ﷺ تأويل الرؤيا، وما كانت من وسيلة توصله إلى مصر أفضل من تلك التي حدثت لسيدنا يوسف ﷺ. وكل ما حصل للأنبياء، هو من باب الأسباب، حتى ينفذوا مراد الله في خلقه. وكما أن سيدنا آدم أنزل بسبب إلى الأرض، وسيدنا موسى ﷺ قتل الرجل، فكان سببا لخروجه من بلده لكي يلتقي بشعيب ﷺ، ثم يرسله الله ﷻ إلى فرعون، وكذلك كانت قصة سيدنا يوسف ﷺ.



قلت: أما قول الماوردي فمردود؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي، ولم يحصل ما رآه في الرؤيا وأكله الذئب، بل كان ادعاء إخوته.



أما قول القشيري، فلا ينطبق على الأنبياء، بل ينطبق على غيرهم من المؤمنين. ولا يجوز التصحيح على الأنبياء في أقوالهم، كقوله: وكان من حقه أن يقول أخاف الله لا الذئب، فنحن لسنا أعرف من سيدنا يعقوب عليه السلام فيما يقول. ولا يجوز اتهام الأنبياء بغلبة حب المخلوق على حب الخالق، فأخطأ في التعبير، فعوقب.

أما ما أورده الزمخشري، فهو من الإسرائيليات التي لا يعتمد عليها. وما قاله العارفون في التفسير الذي يليق بمقام سيدنا يعقوب، هو الذي نقول به، ونتبناه.



الآية الثالثة

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]

التفسير الأولي:

قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقال سعيد بن جبير: لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال: ﴿يَأْسَفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾ قال قتادة والحسن: والمعنى يا حزنًا. وقال مجاهد والضحاك: يا جزعًا!. وقيل: إنَّ يعقوب كان يُصلي، ويؤسّف نائم مُعترض بين يديه، فغطّ في نومه فالتفت يعقوب إليه، ثم غطّ ثانية فالتفت إليه، ثم غطّ ثالثة فالتفت إليه، سرورًا به وبغطيطه، فأوحى الله تعالى إلى ملائكته: «انظروا إلى صفيي وابن خيلي، قائمًا



في مُناجاتي، يلتفتُ إلى غيري. وعزتي وجلالي، لأُنزِعن الحدقتين اللتين التفتت بهما، ولأُفرِقن بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنةً، ليعلم العاملون أنَّ من قام بين يدي، يجب عليه مراقبة نظري». هذا يدلُّ على أنَّ الالتفات في الصلاة - وإن لم يُبطل - يدلُّ على العُقوبة عليها، والنقص فيها. وقد روى البخاري عن عائشة قالت: سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال: «هُوَ اختلاسٌ يختلسه الشيطانُ من صلاة العبد»^(١).



قلت: من الواضح، أنَّ قوله: لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع» مردود. فكيف تُسوغ هذا القول على الأنبياء، ونتهمهم بالجهل في أقوالهم عند حلول المصيبة. وسنذكر التفسير الذي يليق بمقام النبوة في هذه الآية.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قوله: ﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ ثم أمسك لسانه عن النياحة، وذكر ما لا ينبغي، وهو المراد من قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ثم أنه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق، بدليل قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبتة، وقويت محنته، فإنه صبر وتجرع الغصة، وما أظهر الشكاية، فلا جرم استوجب به المدح العظيم، والثناء العظيم»^(٢).



(١) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٤٨.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٨ ص ٤٩٧.



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف، فإنه قلّ من يملك نفسه عند الشدائد، وقد بكى رسول الله ﷺ وقال: «الْقَلْبُ يَحْزَنُ، وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا عَلَى فِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ». ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مملوء غيظاً على اولاده لما فعلوا، أو كاظم غيظه، ماسك له، لم يظهر منه شيئاً، ولم يشك لأحد»^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله: «لا يدل البكاء والحزن على الجزع وعدم الصبر، بدليل أن سيدنا النبي ﷺ بكى عند موت ابنه إبراهيم عليه السلام، وبكى عند موت عمه حمزة عليه السلام. والبكاء معناه رقة القلب، وهي رحمة يضعها الله في قلوب عباده، ولا شك أن الأنبياء أكثر خلق الله رحمة وشفقة بالناس. والإنسان عند كثرة بكائه يضعف بصره، فضعف بصر سيدنا يعقوب، ولم يعم. وأما قوله بعد ذلك: ﴿فَازْتَدَ بَصِيرًا﴾ أي قوي بصره، وزالت غشاوة العين التي كانت بسبب البكاء».



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «حاشا لسيدنا يعقوب عليه السلام من الجزع، وما كان بكائه إلا لركة قلبه، وغلبة المشاعر الأبوية عليه، وهو يعلم أن يوسف عليه السلام حي يرزق، ولم يأكله الذئب. ومثال ذلك: الأب يعلم بحياة ابنه الحبيب، وهو مقيم في بلاد بعيد، وتصله الرسائل، وقد يراه في وسائل الاتصال المتطورة في عصرنا هذا، ومع ذلك تجد كثيراً من الآباء يكون شوقاً للقاء أبنائهم،

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٢ ص ٦٢٠.



وقد يمرضون بسبب ذلك. فهذا كان حال سيدنا يعقوب عليه السلام، فمع علمه أن ابنه بخير، إلا أن شوق اللقاء وعذاب البعد، لا يزول إلا باللقاء.



قلت: وما ذكره مشايخنا أعلاه، هو الذي يليق بمقام النبوة. والكلام الذي أورده القرطبي في تفسيره، لا يُتصور في حق الأنبياء، بل لا يتصور في حق أولياء هذه الأمة، فما بالك بالأنبياء عليهم السلام.



الآية الرابعة:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال الذين قال لهم يعقوب من ولده ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [٩٤] [يوسف: ٩٤] تالله، أيها الرجل، إنك من حب يوسف، وذكره لفي خطئك وزلللك القديم لا تنساه، ولا تتسلى عنه. حدثني المشني قال: حدثنا عبد الله قال: حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ الْقَدِيمِ﴾ يقول: خطائك القديم. حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ الْقَدِيمِ﴾ أي إنك لمن ذكر يوسف في الباطل الذي أنت عليه»^(١).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٦ ص ٢٥٦.

قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ يعني: ولد ولده قالوا ليعقوب: إنك مختلط في الكلام، كما كنت في القديم من ذكر يوسف^(١).



قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: بنو بنيه خاطبوه بهذا، وكذلك قال السدي، هذا قول بني بنيه، لأن بنيه كانوا بمصر. وفي معنى هذا الضلال ثلاثة أقوال: أحدها، أنه بمعنى الخطأ، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني، أنه الجنون، قاله سعيد بن جبير. والثالث، الشقاء والعناء، قاله مقاتل، يريد بذلك شقاء الدنيا^(٢).



قلت: وسياق الآية لا يدل على ما قاله المفسرون أعلاه، وأولاد يعقوب أو أحفاده يعرفون أن يعقوب نبي، فلا ينسبونه للضلالة، والشقاء، والجنون، وسنوضح التفسير الذي يليق بهم.

التفسير العرفاني:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ وصفوه بالضلال في المحبة. ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرف

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٢٠٩.

(٢) زاد المسير في علم التفسير ج ٢ ص ٤٧١.

من الريح نسيم يوسف عليه السلام، وخبر يوسف كثر حتى جاء الإذن:

وإني لاستهدى الرياح نسيمكم
واسألها حمل السلام إليكم
إذا هي أقبلت نحوكم بهبوب
فإن هي يوما بلغت فأجيوا

وهذه سنه الأحباب: مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال»^(١).



قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقال قتادة: ﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي لفى حبك القديم، لا تنساه ولا تذهل عنه. وهو كقولهم: ﴿إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] ثم قال قتادة: قد قالوا كلمة غليظة، ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبي الله»^(٢).



قال الطنطاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قالوا له على سبيل التسلية: إنك يا يعقوب، ما زلت غارقا في خطئك القديم، الذي لا تريد أن يفارقك. وهو حبك ليوسف، وأملك في لقاءه، والإكثار من ذكره. وتحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف... وحل أوان المفاجأة التي حكاها القرآن في قوله: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]».



(١) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٢ ص ٢٠٦.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٨ ص ٨٠٥.

قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «كما قلنا، ونقول دائماً، لا يجوز نسبة الجزع، والضلال، والجنون، إلى الأنبياء. فهم الطاهرون المطهرون، المعصومون، المصطفون من قبل ربهم ﷺ. وما قال أولاده أو أحفاده هذا القول، إلا بعد أن ذكر يوسف عليه السلام، فيكون المعنى: إنك لفي محبتك العظيمة ليوسف، التي لم تفتر عنها، ولم تمل من ذكرها».





سورة يوسف

الآية الأولى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودِيٌّ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]

التفسير الأولي:

قال مقاتل رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودِيٌّ﴾ يقول همت المرأة بيوسف، حتى استلقت للجماع ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يوسف حين حلّ سراويله، وجلس بين رجلَيْها، ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يعني آية ربه لواقعها. والبرهان مثل له يعقوب عاض على إصبعه. فلما رأى ذلك، ولى دبرا، واتبعته المرأة^(١).



قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى في تفسيره: «سفيان عن بن جريج وسالم أو أحدهما عن بن أبي مليكة عن بن عباس في قوله: ﴿هَمَّتْ يَهُودِيٌّ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال أسلمت له وحل التبان، وقعد بين فخذيها، فنادى مُنادٍ يا يوسف، لا تكن كالطائر. قال: إذا دما ذهب ريشه، فلم يعظ عن الندا شيئا، فنودي الثانية، فلم يعظ عن الندا شيئا، فتمثل له يعقوب، فضر ب صدره، فقام، فخرجت الشهوة من أنامله»^(٢).

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٢ ص ٣٢٨.

(٢) تفسير الثوري ج ١ ص ١٤٠.



قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال أبو جعفر: ذكر أنَّ امرأة العزيز لما همت بيوسف، وأرادت مراودته، جعلت تذكر له محاسن نفسه، وتشوقه إلى نفسها، كما حدثنا ابن وكيع، قال: حدثنا عمرو بن محمد، قال: حدثنا أسباط عن السدي: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: قالت له: يا يوسف، ما أحسن شعرك، قال: هو أول ما ينتثر من جسدي. قالت: يا يوسف، ما أحسن وجهك، قال: هو للتراب يأكله، فلم تزل حتى أطمعته، فهمت به وهم بها، فدخل البيت، وغلقت الأبواب، وذهب ليحل سراويله، فإذا هو بصورة يعقوب قائماً في البيت، قد عض على إصبعه، يقول: «يا يوسف، لا توقعها، فإنما مثلك ما لم توقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق. ومثلك إذا واقعتها مثله، إذا مات ووقع إلى الأرض، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه. ومثلك ما لم توقعها مثل الثور الصعب الذي لا يعمل عليه. ومثلك إنَّ واقعتها مثل الثور حين يموت، فيدخل النمل في أصل قرنيه، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه»، فربط سراويله، وذهب ليخرج يشدد، فأدركته، فأخذت بمؤخر قميصه من خلفه، فخرقته، حتى أخرجته منه وسقط، وطرحه يوسف واشتد نحو الباب. فأما ما كان من هم يوسف بالمرأة وهمها به، فإن أهل العلم قالوا في ذلك، ما أنا ذاكره عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس، سئل عن هم يوسف ما بلغ؟ قال: حل الهميان، وجلس منها مجلس الخاتن. وعن ابن أبي مليكة، قال: سألت ابن عباس: ما بلغ من هم يوسف؟ قال: استلقت له، وجلس بين رجلها. وعن ابن أبي مليكة، قال: سألت ابن عباس: ما بلغ من هم يوسف؟ قال: استلقت على قفاها، وقعد بين رجلها، لينزع ثيابه»^(١).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٦ ص ٣٣.





قال الزجاج رحمه الله تعالى: «أكثر المفسرين أنه هم بها، حتى رأى صورة يعقوب عليه السلام، وهو يقول له: يا يوسف، أتهم بفعل السفهاء، وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء. وقيل أنه رأى في البيت مكتوباً: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] وهذا مذهب أهل التفسير، ولسنا نشك أنه قد رأى برهاناً قطعه عما هم به. وقال قوم: المعنى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وذهبوا إلى أن المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها. والذي عليه المفسرون، أنه هم بها، وأنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، إلا أن الله تفضل بأن أراه البرهان، ألا تراه قال: ﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].»



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أنه حل سراويله، وجلس بين رجلها، لولا أن رأى برهان ربه. يقول: مثل له يعقوب في الحائط عاضاً على شفتيه، فاستحيا، فتنحى بنفسه. وقال وهب بن منبه: لم تزل تخدعه، حتى هم بها، ودخل معها في فراشها، فنودي من السماء: مهلاً يا يوسف، فإنك لو وقعت في خطيئة محي اسمك عن ديوان النبوة. وقد روي في الخبر: «أنه ليس من نبي إلا وقد أخطأ، أو هم بخطيئة، غير يحيى بن زكريا، ولكنهم كانوا معصومين من الفواحش»^(١).



(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ١٨٨.



قال الثعالبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «فأما ما كان من هم يوسف عليه السلام بالمرأة وهمتها به، فإن أهل العلم اختلفوا في ذلك، قال الضحاك: جرى الشيطان فيما بينهما، فضرب بيده إلى جيد يوسف، وباليد الأخرى إلى جيد المرأة، حتى جمع بينهما. وقالت جماعة من المتأخرين: لا يليق هذا بالأنبياء، فأولوا الآية بضروب من التأويل، وقال بعضهم: وهم بالفرار منها، وهذا لا يصح، لأن الفرار مذكور، وليس له في الآية ذكر. وقيل: هم بضربها ودفعها، وقيل: هم بمخاصمتها ومرافعتها إلى زوجها، وقيل ﴿وَهُمَّ بِهَا﴾ هو كناية عن غير مذكور، وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ثم ابتداء الخبر عن يوسف، وقال: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ على التقديم والتأخير، تقديرها: لولا أن رأى برهان ربه، لهم بها، ولكنه رأى البرهان، فلم يهم، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]. وهذا فاسد عند أهل اللغة؛ لأن العرب لا تقدم جواب (لولا) قبلها، لا يقول: لقد قمت لولا زيد، وهو يريد: لولا زيد لقيمت. جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال: همت بيوسف أن يفرشها، وهم بها يوسف يعني تمنّاها أن تكون له زوجة. وهذه التأويلات التي حكيها كلها غير قوية، ولا مرضية، لمخالفتها أقوال القدماء من العلماء، الذين يؤخذ عنهم التأويل، وهم قد أخذوا عن الذين شهدوا التنزيل»^(١).



قلت: المسلم الذي تعلم دروس العقيدة للمبتدئين، وقرأ فيها ما للأنبياء من العصمة والحفظ، لا يقبل بهذه الأقوال، ويتبرأ منها. ولا يخفى على أي متعلم،

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ج ٥ ص ٢٠٩.



أنَّ هذه الروايات من الإسرائيليات التي جُوِّزَ الذنب على الأنبياء. وهذا الذي نسبوه لسيدنا يوسف عليه السلام، لو نسبتها لقائلها، لهجم عليك هجوم الوحش الكاسر، ولقال لك: أنا من العارفين الذين طَهَّرَ الله قلوبنا من النظر إلى سواه. أما نحن، فلا يصح أن ننسب هذه التهمة لأهل الإيمان من المسلمين. والعجب الأكبر ليس ممن أتى بهذه الروايات وأدرجها في كتابه، ولكن ممن أورد آراء الذين دافعوا عن عصمة الأنبياء من المفسرين المحققين، وبدأ يرد عليها ويضعفها، وهو يريد أن يثبت الكبيرة للأنبياء مع سبق الإصرار والترصُّد.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «اعلم أنَّ هذه الآية من المهِّمَّات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها، وفي هذه الآية مسائل؛ المسألة الأولى، في أنه عليه السلام، هل صدر عنه ذنب أم لا؟ وفي هذه المسألة قولان:

الأول: أنَّ يوسف عليه السلام همَّ بالفاحشة. قال الواحدي في كتاب «البيسط»: «قال المفسرون: الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم، همَّ يوسف أيضا بهذه المرأة هما صحيحا، وجلس منها مجلس الرجل من المرأة. فلما رأى البرهان من ربه، زالت كل شهوة عنه». قال جعفر الصادق رضي الله عنه بإسناده عن علي عليه السلام أنه قال: طمعت فيه، وطمع فيها، فكان طمعه فيها أنه هم أن يحل التكة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حل الهميان، وجلس منها مجلس الخائن. وعنه أيضا: أنها استلقت له، وجلس بين رجلها ينزع ثيابه، ثم إنَّ الواحدي طوّل في كلمات عديمة الفائدة في هذا الباب، وما ذكر آية يحتج بها،



ولا حديثا صحيحا يعول عليه في تصحيح هذه المقالة، وما أمعن النظر في تلك الكلمات العارية عن الفائدة. روي أن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]، قال له جبريل عليه السلام: ولا حين هممت يا يوسف، فقال يوسف عند ذلك: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾. ثم قال: والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف، كانوا أعرف بحقوق الأنبياء عليهم السلام، وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا لهم عنه. فهذا خلاصة كلامه في هذا الباب.

والقول الثاني: أن يوسف عليه السلام كان بريئا عن العمل الباطل، والهم المحرم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين، وبه نقول وعنه نذب.

واعلم أن الدلائل الدالة على وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام كثيرة، ولقد استقصيناها في سورة البقرة في قصة آدم عليه السلام، فلا نعيدها إلا أنا نزيد ههنا وجوها: فالحجة الأولى: أن الزنا من منكرات الكبائر، والخيانة في معرض الأمانة، أيضا من منكرات الذنوب، وأيضا مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد، أيضا من منكرات الذنوب، وأيضا الصبي إذا تربى في حجر إنسان، وبقي مكفي المؤنة، مصون الغرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته، فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم، من منكرات الأعمال. إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام، كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع. ومثل هذه المعصية، لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى، وأبعدهم عن كل خير، لاستتكف منه. فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة؟! الثاني، ثم أنه تعالى قال في غير هذه الواقعة:



﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤] وذلك يدل على أنَّ ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه، ولا شك أنَّ المعصية التي نسبوها إليه، أعظم أنواع وأفحش أقسام الفحشاء، فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء، مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء.

الثالث، أنَّ الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة، استعظموا ذلك، وأتبعوها بإظهار الندامة، والتوبة، والتواضع. ولو كان يوسف عليه السلام أقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة، لكان من المحال ألا يتبعها بالتوبة والاستغفار. ولو أتى بالتوبة، لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها، كما في سائر المواضع. وحيث لم يوجد شيء من ذلك، علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب، ولا معصية.

الرابع، أنَّ كل من كان له تعلق بتلك الواقعة، فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

واعلم، أنَّ الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف عليه السلام، وتلك المرأة وزوجها، والنسوة، والشهود، ورب العالمين، شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته أيضاً عن المعصية. وإذا كان الأمر كذلك، فحينئذ لم يبق للمسلم توقف في هذا الباب.

أما بيان أنَّ يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب، فهو قوله عليه السلام: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦] وقوله عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]. وأما بيان أنَّ المرأة اعترفت بذلك،

فلأنها قالت للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] وأيضا قالت:

﴿الْأَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] وأما بيان

أن زوج المرأة أقر بذلك، فهو قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنَ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢٨)

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [يوسف: ٢٨-٢٩]. وأما الشهود، فقوله

تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ فَمِيسُئُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِّنْ

الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٦) [يوسف: ٢٦]. وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله: ﴿كَذَلِكَ

لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤) [يوسف: ٢٤]. فقد

شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات؛ اولها، قوله: ﴿لِنَصْرِفَ

عَنْهُ السُّوءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة. والثاني، قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي كذلك

لنصرف عنه السوء والفحشاء. والثالث، قوله: ﴿إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى

قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا

سَلَامًا﴾ (٦٣) [الفرقان: ٦٣]. والرابع، قوله: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان: تارة

باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول. فوروده باسم الفاعل، يدل على كونه آتيا

بالطاعات والقربات، مع صفة الإخلاص. ووروده باسم المفعول، يدل على أن

الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته. وعلى كلا الوجهين، فإنه من أدل

الألفاظ على كونه منزها عما أضافوه إليه.

وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته، فلأنه قال: ﴿فَعِرَّكَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٨٣) [ص: ٨٢-٨٣]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء

المخلصين، ويوسف من المخلصين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

فكان هذا إقرارا من إبليس، بأنه ما أغواه، وما أضله عن طريقة الهدى. وعند هذا



نقول: هؤلاء الجهال، الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة، إن كانوا من أتباع دين الله تعالى، فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته. وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده، فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته. ولعلمهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه، فزدنا عليه في السفاهة. وإذا عرفت هذا فنقول: الكلام على ظاهر هذه الآية يقع في مقامين: المقام الأول: أن نقول لا نسلم أن يوسف عليه السلام هم بها. والدليل عليه: أنه تعالى قال: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وجواب لولا هاهنا مقدم، وهو كما يقال: قد كنت من الهالكين لولا أن فلانا خلصك. المقام الثاني: في الكلام على هذه الآية أن نقول: سلمنا أن أهم قد حصل، إلا أننا نقول: إن قوله: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ لا يمكن حمله على ظاهره؛ لأن تعليق أهم بذات المرأة محال، لأن أهم من جنس القصد، والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية، فثبت أنه لا بد من إضمار فعل مخصوص، يجعل متعلق ذلك أهم. وذلك الفعل غير مذكور، فهم زعموا أن ذلك المضمّر، هو إيقاع الفاحشة بها، ونحن نضمّر شيئاً آخر يغير ما ذكره. وبيانه من وجوه؛ الأول، المراد أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه، ومنعها عن ذلك القبيح؛ لأن أهم هو القصد. فوجب أن يحمل في حق كل أحد على القصد الذي يليق به. فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة، والتنعم، والتمتع. واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق، القصد إلى زجر العاصي عن معصيته، وإلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يقال: هممت بفلان، أي بضربه ودفعه. فإن قالوا: فعلى هذا التقدير، لا يبقى لقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فائدة. قلنا: بل فيه أعظم الفوائد، وبيانه من أنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام، أنه لو هم بدفعها لقتلته، أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله،



فأعلمه الله تعالى أنَّ الامتناع من ضربها أولى صونا للنفس عن الهلاك. والثاني، أنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه، فربما تعلقت به، فكان يتمزق ثوبه من قدام. وكان في علم الله تعالى أنَّ الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن، ولو كان ثوبه ممزقا من خلف لكانت المرأة هي الخائنة، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى. فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه، بل ولى هاربا عنها، حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية. فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذي ذهبنا إليه، ولم يبق في يد الواحدي إلا مجرد التصلف، وتعدد أسماء المفسرين. ولو كان قد ذكر في تقرير ذلك القول شبهة، لأجبنا عنها، إلا أنه ما زاد على الرواية عن بعض المفسرين»^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: بعد أن ذكر الزمخشري التفاسير المتهمة لسيدنا يوسف بالهم، قال: «وهذا ونحوه، مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد، ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة، لنعيت عليه، وذكرت توبته واستغفاره. كيف وقد أثنى عليه، وسَمَّى مُحْلَصًا، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم، ناظرا في دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه، ومصدق لها. ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته، وضرب سورة كاملة عليها، ليجعل له لسان

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٨ ص ٤٣٤ - ٤٤٣.



صدق في الآخرين، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة، وطيب الإزار، والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة، التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين، ليقتدي بنبي من أنبياء الله، في القعود بين شعب الزانية، وفي حل تكتّه للوقوع عليها، وفي أن ينهيه ربه بثلاث كرات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن، وبالتوبيخ العظيم، وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أثناه، وهو جاثم في مريضه، لا يتحلل، ولا ينتهي، ولا ينتبه، حتى يتداركه الله بجبريل وإجباره. ولو أنّ أوقع الزناة، وأشطرهم، وأحدهم حدقة، وأصلحهم وجهاً، لقي بأدنى ما لقي به نبي الله مما ذكروا، لما بقي له عرق ينبض، ولا عضو يتحرك، فيا له من مذهب ما أفحش، ومن ضلال ما أبينه. ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف منصوب المحل، أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه، أو مرفوعة، أي: الأمر مثل ذلك لنصرف عنه السوء من خيانة السيد، والفحشاء من الزنا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفتح، الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم^(١).



قال الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وبرهان ربه سابق على الهم، فلم يرتكب ما يتطلبه الهم؛ لأن برهان ربه في قلبه، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية، وبذلك تنتهي المسألة. ولذلك، فلا داعي أن يدخل الناس في متاهات أنه همّ وجلس بين شعبيها، ولم يرتعد إلا عندما تمثل له وجه والده يعقوب، ونهاه عن هذا الفعل. فأفسق الفساق، ولو تمثل له أبوه، وهو في مثل هذا الموقف،

(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٤٥٥.



لأصيب بالإغماء. وحين تناقش من رأى هذا الرأي؛ يرد بأن هدفه أن يثبت فحولة يوسف؛ لأن الهم وجد، وأنه قد نازع الهم. ونقول لصاحب هذا الرأي: أتتكلم عن الله، أم عن الشيطان؟! أنت لو نظرت إلى أبطال القصة، تجدهم: امرأة العزيز، ويوسف، والعزيز نفسه؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفكاك من ذلك الموقف، ثم النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز ليشاهدوا جماله؛ والله قد كتب له العصمة. فكل هؤلاء تضافروا على أن يوسف لم يحدث منه شيء. وقال يوسف **الْعَصَمَةَ** نفسه: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وامرأة العزيز نفسها قالت مصدقة لما قال: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾ وقالت: ﴿الْفَنَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴿[يوسف: ٥١-٥٢]. وعن النسوة، قال يوسف: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠) [يوسف: ٥٠]. وقال يوسف لحظتها: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) [يوسف: ٣٣]. والصبوة هي حديث النفس بالشيء؛ وهو ما يثبت قدرة يوسف عليه السلام على الفعل، وحماه الله من الصبوة؛ لأن الحق سبحانه قد قال: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾. وقد صرّف الله عنه الشيطان الذي يتكفل دائما بالغواية، وهو لا يدخل أبدا في معركة مع الله؛ ولكنه يدخل مع خلق الله؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه: ﴿قَالَ فِعْرَنُكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿[ص: ٨٢-٨٣]. فالشيطان نفسه يقر أن من يستخلصه الله لنفسه من العباد، إنما يعجز هو كشيطان عن غوايته، ولا يجروا على الاقتراب منه. وبعد كل هذه الأدلة، فليس من حق أحد أن يتساءل: هل هم يوسف بامرأة العزيز، أم لم يهيم؟^(١).

(١) تفسير وخواطر القرآن الكريم ج ١ ص ٦٩١٣.



قال أبو بكر الجزائري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي همت بضربه لامتناعه عن إجابتها لطلبها، بعد مراودات طالت مدتها، وهم هو بها أي بضربها دفعا لها عن نفسه، إلا أنه أراه الله برهانا في نفسه، فلم يضربها، وأثر الفرار إلى خارج البيت، ولحقته تجري وراءه لترده، خشية أن يعلم أحد بما صنعت معه. ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ هو يريد الخروج، وهي تريد رده إلى البيت، خشية الفضيحة، وأخذته من قميصه، فقدته أي شقته من دبر أي من وراء لأنه أمامها وهي وراءه. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤] أي هكذا نصرف عن يوسف السوء، فلا يفعله والفحشاء، فلا يقربها، وعلل لذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤) أي الذين استخلصناهم لعبادتنا ومحبتنا، فلا نرضى لهم أن يتلوثوا بآثار الذنوب والمعاصي»^(١).



قال الشيخ عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى: «في ذكر همّها به وهمّه بها، بيان ما كانت عليه من شدة الطلب والتوصل إلى مقصودها بأي وجه كان، وما كان عليه هو عليه السلام، من العفة مع رحمته بها لما أصابها من العشق، وما بين الله عز وجل ما همت به، لأنه معلوم من قوله: ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ ولا ما همّ به، لأنه معلوم من قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾»^(٢).



(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ج ٢ ص ٦٠٥.

(٢) المواقف ج ٢ ص ٢٣٣، الموقف الثالث والسبعون بعد المئتين.



قال شيخنا الشيخ حسين الحلاب رحمته الله: «الأنبياء والمرسلون معصومون قبل النبوة وبعدها من الهم السيء، والشيطان، والصغائر، والكبائر. وإن من يقول أن سيدنا يوسف عليه السلام هم أن يفعل الفاحشة، فهذا جاهل بمقام الأنبياء الأصفياء. والذي نقول به إنها همّت بفعل الفاحشة معه، وهم عليهم السلام أن يضربها، ويدفعها عن نفسه، لولا أن رأى برهان ربه، فقد رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام، فامتنع عن ضربها، ولو ضربها لثبتت التهمة التي وجهتها إليه بقولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥] لكن الله تعالى حفظه مما كادت له».



قلت: والقصة واضحة لجميع المسلمين، إلا من كان في قلبه مرض، وبأقوال العارفين التي ذكرناها الكفاية للباحث عن الحقيقة، وليس لدينا ما نضيفه إلا الشيء القليل، عسى أن يكون فيه زيادة بيان. أورد الله تعالى بعض الآيات الكريمة التي تحدثت عن خصائص سيدنا يوسف عليه السلام، قبل أن يتكلم عن قصته مع زوجة العزيز، فقال عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، فهذا نص صريح لا يحتاج إلى تأويل أن الله تعالى أوحى إلى يوسف عليه السلام. ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] وبعد أن أوحى إليه في البئر، وجاء به إلى مصر، أعطاه التمكين في الأرض، وعلمه من تأويل الأحاديث، ثم بعد أن بلغ رشده، آتاه العلم والحكمة، ووصفه بأنه من المحسنين، وبعدها ذكر الآيات التي فيها قصته مع زوجة العزيز، وكأن الله تعالى



يذكر فضائله وفواضله، حتى ننتبه إليها، ونتأدب مع نبيه، قبل أن نقرأ الآيات التي تخص تلك الحادثة، والله عَلَّمَ يعلم أن هناك من سيأتي، وسيتهم النبي بما ليس فيه، لذلك ذكر خصائصه قبل القصة.



الآية الثانية:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ يقول: وإن لم تدفع عني - يا رب - فعلهن الذي يفعلن بي، في مراودتهن إياي على أنفسهن، أصب إليهن. يقول: أمل إليهن، وأتابعهن على ما يردن مني ويهوين»^(١).



قال إسماعيل حقي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إلى جانبهن على قضية الطبيعة، وحكم القوة الشهوية، أي ميلا اختياريا قصديا. والصبوة الميل إلى الهوى»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٦ ص ٨٨.

(٢) روح البيان ج ٤ ص ٢٥٢.

قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿أَصْبُ إِلَهَيْنَ﴾ أَمِلْ إِلَى جَانِبِهِنَّ بِطَبْعِي وَمَقْتَضَى شَهْوَتِي ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ مِنَ السُّفَهَاءِ بَارْتِكَابَ مَا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْحَكِيمَ لَا يَفْعَلُ مَا هُوَ قَبِيحٌ، أَوْ مِنَ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، فَإِنَّهُمْ جُهَالٌ^(١).



قلت: ما قاله المفسرون لا يوافق ما عليه الأنبياء من العصمة، والأنبياء في مقام النفس الكاملة، وليس لهم شهوة نفس أو طبع، وهذا الكلام ينطبق علينا وليس على قوم اصطفاهم الله ﷻ لتزكية نفوس العباد.

التفسير العرفاني:

قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «هذا القول من باب الافتقار إلى الله، وإلا، هو لا يفعل هذا أبداً. وهذا من باب تعظيم النبوة التي تحقق بها الأنبياء، فلم يركنوا إلى النبوة وعصمتها، بل يفتقروا إلى الله، ولم يركنوا إلى شرف النبوة، بل ركنوا إلى شرف الالتجاء إلى الله».



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «حاشا لسيدنا يوسف عليه السلام من أن يصبو إليهن، ويركن إلى مرادهن؛ لكمال العصمة والحفظ من الله ﷻ. وإنما قال هذا القول، حتى يُصور لنا عظمة البلوى والاختبار الشديد الذي كان فيه. فمغريات الحياة بجميع أطرافها، قُدمت له مع اللاحاح ولم يستجب. فمن هذا

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٢ ص ٥٩٣.

القول يفهم السامع حجم الإغراء والكيد الذي تعرض له سيدنا يوسف عليه السلام، لكنه استعصم، ثم هو يُعَلِّمُ الأمة. فمن أصيب بمثل هذا، فليلجأ إلى الله ويظهر الافتقار والحاجة إلى مولاه، فيكون الجواب ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ﴾ [يوسف: ٣٤]. وفي كلامه خطاب للأمة، أن كل من انقاد إلى رغباته وشهوته، وضعف أمام مغريات الحياة، فهو من الجاهلين.



الآية الثالثة:

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ
فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [٤٢]
[يوسف: ٤٢]

التفسير الأولي:

قال التستري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قوله تعالى: قال: حكى أن جبريل صلوات الله عليه دخل على يوسف في السجن، فقال له جبريل: يا طاهر ابن طاهر، إن الله تعالى أكرمني بك وبآبائك، وهو يقول لك: يا يوسف، أما استحييت مني حيث استشفعت إلى غيري، فوعزتي لألبثك بضع سنين. قال: يا جبريل، هو عني راض؟ قال: نعم. قال: إذن لا أبالي»^(١).



(١) تفسير التستري ج ١ ص ٨١.

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «عن مجاهد، قال: قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ قال: فلم يذكره حتى رأى الملك الرؤيا؛ وذلك أن يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه، وأمره بذكر الملك، وابتغاء الفرج من عنده، فلبث في السجن بضع سنين.

عن مجاهد بنحوه، غير أنه قال: ﴿فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ عقوبة لقوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(١).



قال ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «قوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ وذلك أن يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه، وأمره بذكر الملك، وابتغاء الفرج من عنده، فلبث في السجن بضع سنين»^(٢).



قال الثعلبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قيل له: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا، لأطيلن حبسك، فبكى يوسف عليه السلام، وقال: يا رب إنني رابني كثرة الطوى، فقلت كلمة، فويل لإخوتي. وحكي أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام، فلما رآه يوسف عرفه، وقال: يا أخا المنذرين، ما لي أراك بين الخاطئين؟ ثم قال له جبريل: يا طاهر الطاهرين، يقرأ عليك السلام رب العالمين، ويقول: مالك؟ أما استحييت مني؛ إذ استغثت بالآدميين؟ فوعزتي، لألبثك في السجن

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٣ ص ١٧٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ج ٧ ص ٢١٤٩، اللباب في علوم الكتاب ج ١١ ص ٥٤٢، الدر المشور في التفسير بالمأثور ج ٤ ص ٥٤٢.



بضع سنين، قال يوسف: وهو في ذلك على راض؟ قال: نعم، قال: إذا لا أبالي.
وقال كعب: قال جبريل ليوسف: إنَّ الله تعالى يقول: من خلقك؟ قال: الله، قال:
فمن حبّيك إلى أبيك؟ قال: الله، قال فمن أنيسك في البئر إذ دخلته عريان؟ قال:
الله، قال: فمن نجاك من كرب البئر؟ قال: الله، قال: فمن علّمك تأويل الرؤيا؟
قال: الله، قال: فكيف استشفعت بآدمي مثلك؟»^(١).



قلت: أكثر ما ورد أعلاه من الإسرائيليات، التي لا يصح الاستدلال بها،
أو إنّ المفسّر يعتبر الأنبياء بشراً مثلنا، ويغفلون عن ربهم. وقد فصلنا القول فيما
سبق في مقام الأنبياء، ومعرفتهم بربهم. والروايات التي ذكروها تنطبق على رجل
شغل قلبه بالخلق عن الخالق، وحاشا أن يكون هذا الوصف لسيدنا يوسف عليه السلام،
أو لأحد من الأنبياء.

التفسير العرفاني:

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول: اذكر قصتي عند ربك وهو
الملك، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكائد الشيطان،
لئلا يطلع نبي الله من السجن. والضمير في قوله: ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ
رَبِّهِ﴾ عائد على الناجي. الرد على الحديث: عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ:
«لو لم يقل -يعني: يوسف -الكلمة التي قال: ما لبث في السجن طول ما لبث.
حيث يبتغي الفرج من عند غير الله». وهذا الحديث ضعيف جداً؛ لأن سفيان بن

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن المعروف بتفسير الثعلبي ج ٥ ص ٢٢١.

وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد - هو الخوزي - أضعف منه أيضا. وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كل منهما. وهذه المرسلات ههنا لا تقبل، لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الوطن، والله أعلم^(١).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك»^(٢).



قال الطنطاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقال يوسف عليه السلام للفتى الذي اعتقد أنه سينجو منها، وهو ساقى الملك: أيها الساقى، بعد أن تخرج من السجن، وتعود إلى عملك عند سيدك الملك، اذكر حقيقة حالي عنده، وإني سجين مظلوم. ولكن الساقى بعد أن عاد إلى عمله عند الملك، لم ينفذ الوصية؛ لأن الشيطان أنساه ما قاله له يوسف، فكانت النتيجة أن لبث يوسف عليه السلام في السجن مظلوما بضع سنين»^(٣).



قال علي بن أحمد النيسابوري رحمه الله تعالى في تفسيره: «اذكر قصتي عند سيدك وهو الملك، لعله يخرجني من السجن بعد علمه ببراءتي. وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب الظاهرية المطلوبة عادة وشرعا، للنجاة، والإنقاذ، وإطلاق

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٣٩١.

(٢) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ١٩٤.

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج ٧ ص ٣٦٤.

السراح. فأنساه الشيطان تذكير الملك بقصة يوسف، لئلا يخرج نبي الله يوسف من السجن، فيدعو إلى عبادة الله، وتوحيده، ومطاردة وساوس الشيطان»^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال ابن عطية: يحتمل أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق، أو يذكره بهما. هـ. وقال الورعجي: يحتمل أن قوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عَرَّفَ له طريقتي مع الله، حتى يعرفني أني رسول الله، ويطيعني في طاعة الله، وينجو بذلك من عذابه، ويصل إلى ثوابه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وليؤخذ الله تعالى، ويتخلص من كيد الشيطان، وما معه من الإنسان. ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: فأنسى الساقى أن يذكر يوسف لربه»^(٢).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «المفسرون القائلون بأن الشيطان أنسى يوسف عليه السلام ذكر ربه، يخالفون القرآن بقولهم هذا، حيث أخبرنا القرآن أن الشيطان لا سلطة له على الأنبياء، والمرسلين، وعباد الله المخلصين. والضمير هنا يعود على الساقى الذي نجى من السجن، وما حصل هذا إلا بتقدير الله تبارك وتعالى وحكمته، كي يُبقي سيدنا يوسف عليه السلام في السجن مدة أطول، ويدعو أهل السجن إلى الإسلام، فيؤمنون به جميعاً، ولا يكون خروجه إلا بسبب قوي، يجعله بعد ذلك من خاصة الملك وعزيز مصر. والسبب هو رؤيا الملك التي عجز الكهنة عن تفسيرها».



(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ج ٢ ص ١١٠٩.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٢ ص ٥٩٨.

الآية الرابعة:

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي^{٥٣} إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي^{٥٤}﴾

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ [يوسف: ٥٣]

التفسير الأولي:

قال مقاتل في رحمه الله تعالى تفسيره: «﴿لَيَعْلَمَ﴾ سيده ﴿أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ﴾ في أهله، ولم أخالفه فيهن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] يعني لا يصلح عمل الزناة، فيخذلهم ولا يعصمهم من الزنا، فأتاه الملك - وهو جبريل - بالبرهان الذي رأى، فقال ليوسف: أين ما هممت به، ولا حين حللت سراويلك، وجلست بين رجلها؟ فلما ذكر الملك ذلك، قال عند ذلك: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ يعني قلبي من الهم لقد هممت بها، ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ يعني القلب ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ للجسد يعني بالإثم، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ يعني إلا ما عصم ربي، فلا تأمر بالسوء ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ لما هم به من المعصية ﴿رَحِيمٌ﴾ به حين عصمه»^(١).



قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وذكر أن يوسف قال هذا القول، من أجل أن يوسف لما قال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ﴾ قال ملك من الملائكة: ولا يوم هممت بها، فقال يوسف حينئذ: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي^{٥٣} إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾. وقد قيل: إن القائل ليوسف: ولا يوم هممت بها، فحللت سراويلك، هو امرأة

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٢ ص ٣٤٠.



العزير، فأجابها يوسف بهذا الجواب. وقيل: إنَّ يوسف قال ذلك ابتداء من قبل نفسه. حدثنا أبو كريب قال: حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة، فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ قلن: حاش لله، ما علمنا عليه من سوء، قالت امرأة العزيز: ﴿الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ الآية. قال يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهَا بِالْغَيْبِ﴾ قال: فقال له جبريل: ولا يوم هممت بها هممت فقال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ حدثنا ابن وكيع قال، حدثنا عمرو، عن أسباط، عن السدي: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهَا بِالْغَيْبِ﴾ قال: قاله يوسف حين جيء به، ليعلم العزيز أنه لم يخنه بالغيب في أهله، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. فقالت امرأة العزيز: يا يوسف، ولا يوم حللت سراويلك؟ فقال يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(١).



قلت: ولقد أبطلنا القول بالهمم السوء المنسوب لسيدنا يوسف عليه السلام في الآيات السابقة، وذكرنا قول المحققين من المفسرين في الآية. ويُصر هؤلاء المفسرون على نسبة الخطيئة ليوسف عليه السلام، ويستدلون على قولهم بروايات باطلة من الإسرائيليات.

التفسير العرفاني:

قال الزخشي رحمه الله تعالى في تفسيره: «ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكياً، وبحالها في الأمانة معجبا ومفتخرا، كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنما

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٦ ص ١٤٢-١٤٦.



هو بتوفيق الله، ولطفه، وعصمته، فقال: وما أبرئ نفسي من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزيها»^(١).



قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «الجواب أن الآية لا تدل البتة على شيء مما ذكره. وذلك؛ لأن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿أَنِّي لَمْ أَخْنُهَا بِالْغَيْبِ﴾ بين أن ترك الخيانة ما كان لعدم الرغبة، ولعدم ميل النفس والطبيعة؛ لأن النفس أماراة بالسوء، والطبيعة تواقاة إلى اللذات، فين هذا الكلام أن الترك ما كان لعدم الرغبة، بل لقيام الخوف من الله تعالى. أما إذا قلنا: إن هذا الكلام من بقية كلام المرأة، ففيه وجهان؛ الأول، وما أبرئ نفسي عن مراودته، ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام في قوله: ﴿هِيَ رَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ الثاني، أنها لما قالت: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهَا بِالْغَيْبِ﴾ قالت: وما أبرئ نفسي عن الخيانة مطلقا، فإني قد خنته حين قد أحلت الذنب عليه، وقلت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [يوسف: ٢٥] وأودعته السجن، كأنها أرادت الاعتذار مما كان»^(٢).



قلت: ونسبة القول إلى امرأة العزيز اختاره كثير من أئمة التفسير، حتى يُنزهوا سيدنا يوسف عليه السلام، ومنهم ابن كثير، والمراغي، والقرطبي، والطنطاوي في «الوسيط» وغيرهم كثير.



(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٤٨٠.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٨ ص ٤٧٠.



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «هذا من كلام سيدنا يوسف عليه السلام، ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي^{٥٢} إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمْتَنِي﴾ [يوسف: ٥٣] بعصمتي، لكوني نبيا، أي: لو لم يجعلني نبيا وعصمتي، لكانت نفسي أمَّارة بالسوء، فما أبرئ نفسي لذات نفسي، لأن النفس بغير عصمة وحفظ من الله أمَّارة بالسوء لطبيعتها، إلا ما رحم ربي بالحفظ للأولياء، والعصمة للأنبياء، والندم لأهل اليمين».



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «القول في الآيتين: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ^{٥٢} ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي^{٥٣} إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمْتَنِي^{٥٤} إِنَّ رَبِّي عَفَّورٌ رَحِيمٌ﴾ ^{٥٣} [يوسف: ٥٢-٥٣] هو لسيدنا يوسف عليه السلام، فلم يجب الداعي من أول مرة، حتى تظهر براءته، ثم قال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ الملك أو عزيز مصر ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ بنفسي، ولكن الله تعالى هو من برّاني، وامرأة العزيز والنسوة هم من شهدوا ببراءتي. وفيها معنى آخر ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ لأن في تبرئة النفس وتزكيتها مخالفة لآداب العبودية ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]

وفيها تشريع للأمة من بعده، فمهما وصلت أيها العبد من درجات القرب من الله ﷻ، فلا تُزكِّ نفسك، واتهمها في كل أحوالك، وأظهر الذل والافتقار بين يدي الله، واعترف أن ما قربك وحفظك، إلا بفضلته.



الآية الخامسة:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]

التفسير الأولي:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: عوقب يوسف عليه السلام ثلاث مرات لأجل همه بها، عوقب بالحبس وبقوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وعوقب بالحبس الطويل، وبقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ وعوقب بقولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ﴾^(١)».



قلت: الإمام الرازي أورد هذا القول، لكنه لم يتبناه؛ لأنه رد عليه.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾^(٧٠). فإن قيل: هل كان ذلك النداء بأمر يوسف، أو ما كان بأمره؟ فإن كان بأمره، فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله أن يتهم أقواما، وينسبهم إلى السرقة كذبا وبهتاناً. وإن كان الثاني، وهو أنه ما كان ذلك بأمره، فهلا أنكره، وهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة. قلنا: العلماء ذكروا في الجواب عنه وجوها؛ الأول، أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف، قال له: إني أريد أن أحبسك ههنا، ولا سبيل إليه إلا بهذه الحيلة. فإن رضيت بها، فالأمر لك، ففرضي بأن يقال

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ١٨ ص ٤٩١.



في حقه ذلك. وعلى هذا التقدير، لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام، فخرج عن كونه ذنباً. والثاني، أنَّ المراد إنكم لسارقون يوسف من أبيه، إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام، والمعارض لا تكون إلا كذلك. والثالث، أنَّ ذلك المؤذن، ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام، وعلى هذا التقدير يخرج عن أن يكون كذباً. الرابع، ليس في القرآن أنهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام. والأقرب إلى ظاهر الحال، أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم، لأنهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها، وما كان هناك أحد إلا هم، غلب على ظنونهم أنهم هم الذين أخذوها^(١).



قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: «فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يجعل السقاية في رحل أخيه لسرقهم وهم برآء، وهذه معصية؟ قيل عن هذه أربعة أجوبة؛ أحدها، أنها معصية فعلها الكيال، ولم يأمر بها يوسف. الثاني، أنَّ المنادي الذي كال حين فقد السقاية، ظن أنهم سرقوها، ولم يعلم بما فعله يوسف، فلم يكن عاصياً. الثالث، أنَّ النداء كان بأمر يوسف، وعنى بذلك سرقتهم ليوسف من أبيه، وذلك صدق. الرابع، أنها كانت خطيئة من قبل يوسف، فعاقبه الله عليها، بأن قال القوم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] يعنون يوسف. وذهب بعض من يقول بغوامض المعاني إلى أنَّ معنى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ أي لعاقون لأبيكم في أمر أخيك، حيث أخذتموه منه، وختتموه فيه^(٢).



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٨ ص ٤٨٦.

(٢) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٣ ص ٦٢.



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وما هو إلا بهتان، وتسريق لمن لم يسرق، وتكذيب لمن لم يكذب، وهو قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾، ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]، قلت: هو في صورة البهتان، وليس ببهتان في الحقيقة؛ لأن قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف. وقيل: كان ذلك القول من المؤذن، لا من يوسف، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ فرض لانتفاء براءتهم. وفرض التكذيب لا يكون تكديبا، على أنه لو صرح لهم بالتكذيب، كما صرح لهم بالتسريق، لكان له وجه، لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] هذا، وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وَاخْذُ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ﴾ [ص: ٤٤]، وكقول إبراهيم عليه السلام: هي أختي، لتسلم من يد الكافر. وما الشرائع كلها إلا مصالح، وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة، فجعلها سلما وذريعة إليها، فكانت حسنة جميلة، وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا»^(١).



قال صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «احتمل بنيامين ما قيل فيه من السرقة بعد ما بقي مع يوسف. ويقال: ما نسب إليه من سوء الأفعال، هان عليه في جنب ما وجد من الوصال. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ﴾ إِنَّ اللَّهَ وَكَرَّ إِذَا خَصَّ نَبِيًّا أَوْ وَلِيًّا، ألبسه صفاته بتدرج الحال، ففي كل حالة له كساه نورا

(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ٤٩٢.



من صفته. فمن جملة صفته، كيد الأزل ومكر الأبد، فعلم كيده قلب يوسف، حتى كاد برؤية كيد الله الأزلي، فعرفه الله أسرار لطيف صنائعه، وعظيم حقائق أفعاله وقدرته؛ فمعنى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ عرفناه أمور النبوة والولاية، بتأثير كشف الذات والصفات.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «هذا العمل إنما كان بأمر سيدنا يوسف عليه السلام، والأنبياء لا يفعلون شيئاً إلا بأمر ربهم، وهذا ما وضحه القرآن الكريم: ﴿كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. وهذه الطريقة هي بداية رحلة اللقاء بسيدنا يعقوب عليه السلام. وما حصل شبيهه بقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، حينما قال الله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فكل أقوال الأنبياء وأفعالهم بتعليم الله تعالى لهم. وما دام هذا الأمر وحياً، إذن لا يحق لبشر أن يعترض عليهم، ويقيس الأمر على عقله».



قلت: في قول المفسرين أعلاه تنزيه جميل لمقام النبوة، فمرة ينسبون الكلام للمؤذن وينفون علم سيدنا يوسف عليه السلام بالأمر، وتارة هو من المعارض، وأخرى يحملون الكلام على الاستفهام. وجزاهم الله خيراً على كل ما قالوه في تنزيه مقام النبوة.

الآية السادسة:

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: وقوله: ﴿مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِ﴾ يعني: من بعد أن أفسد ما بيني وبينهم، وجهل بعضنا على بعض^(١).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «قوله: ﴿مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِ﴾ أظهر لهم أمرهم بما يشبه العذر، فقال: كان الذي جرى منهم من نزغات الشيطان، ثم لم يرض بهذا، حتى قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِ﴾ يعني إن وجد الشيطان سبيلا إليهم، فقد وجد أيضا إلى حيث قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِ﴾»^(٢).



قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِ﴾ فلم يقل: «نزغ الشيطان إخواني»، بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين»^(٣).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٦ ص ٢٧٧.

(٢) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٢ ص ٢٠٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ١ ص ٤٠٥.



قلت: لم يكن للشيطان تسلط على يوسف عليه السلام، ولم يصدر من سيدنا يوسف ذنب تجاه إخوته. وسنوضح التفسير الصحيح للآية.

التفسير العرفاني:

قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: إنَّ الله تعالى مدح يوسف في هذه السورة، في ثمانية مواضع:

أولها: أنَّ إخوته لما فعلوا به ما فعلوا، صرف العداوة من إخوته إلى الشيطان، فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

الثاني: حين راودته المرأة، قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] فعرف حرمة سيده، ولم يهتك حرمة.

الثالث: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، فاختار السجن على الشهوة الحرام.

الرابع: قال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، بعد ما ظهر أن الذنب كان من غيره.

الخامس: لما اعتذر إليه إخوته، قال لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

السادس: أنه بعث القميص على يد إخوته كما أدخلوا على أبيهم الحزن في الابتداء، أراد أن يدخلوا عليه السرور، فقال: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ [يوسف: ٩٣]

السابع: لما لقي أباه، لم يذكر عنده ما لقي من الشدة، وإنما ذكر المحاسن، حيث قال: ﴿يَأْتِبْتَ هَذَا تَأْوِيلُ رَأْيِي مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رِيَّ حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

الثامن: لما تم أمره، تمنى الموت وترك الدنيا، قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي: أعطيتني من الملك، يعني: بعض الملك، وهو ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١] يعني: بعض التأويل^(١).



قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ بإيقاع الحسد، قاله ابن عباسٍ. وقيل: أَفْسَدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، أَحَالَ ذَنبَهُمْ عَلَى الشَّيْطَانِ تَكَرُّمًا مِنْهُ^(٢).



قال إسماعيل حقي رحمه الله تعالى في تفسيره: «ولقد بالغ في الإحسان، حيث نسب ذلك إلى الشيطان، يقول الفقير الأدب أن يسند الشر إلى النفس والشيطان؛ لأنها معدنه ومنشأه، وإن كان الكل بخلق الله تعالى»^(٣).



قال أبو بكر الجزائري رحمه الله تعالى في تفسيره: «ومن كرم نفس يوسف،

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٢١١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٦٧.

(٣) روح البيان ج ٤ ص ٣٢٢.

وسمو آدابه، لم يقل: قد أحسن بي إذ أخرجني من الحب، فيذكرهم بما يؤلمهم، بل قال: من السجن. ويعني بقوله: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي من أرض كنعان. ونسب الإساءة التي كانت من إخوته إلى الشيطان، تلطيفا للجو، ومبالغة في إذهاب الهم من نفس إخوته»^(١).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: الخلاصة، أن كل ما قاله وفعله سيدنا يوسف عليه السلام في هذه القصة، من بدايتها إلى نهايتها، يندرج تحت قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، فكل الأحداث بأمر الله ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]».



قلت: لو لم تكن في قصة يوسف إلا هذه الالتفاتة لكفت، ففيها من التربية الروحية لمن يريد التزكية والتحلي بمكارم الأخلاق ما يغني عن دراسة جميع كتب الأخلاق، ففي كل ما ينطقه الأنبياء العارفون برهم درس لمن يريد الاقتداء بهم، وتصرفه هذا فيه من صفاء القلب والتعلق بالله وهضم النفوس ما لا يعلمه إلا الله، ففي قوله هذا يعلمنا مكارم الأخلاق وآداب أهل الحضرة كي نقتدي بهم.



(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ج ٢ ص ٥٤٦.

سيدنا أيوب عليه السلام

سورة الأنبياء

الآية الأولى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

[الأنبياء: ٨٣]

التفسير الأولي:

قال السمرقندي رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «روي في خبر: أنَّ أيوب كان بمنزلة الملك، وهو أيوب بن برضى النبي عليه السلام، وكانت له أموال من صنوف مختلفة، وكانت له ضياع كثيرة، وكان له ثلاثمائة زوج ثيران، وغللمان يعملون له في ضياعه، وأموال السوائم من الغنم والإبل والبقر، وكان متعبدا ناسكا، منفقاً متصدقا، فحسده إبليس عدو الله، وقال: إِنَّ هذا يذهب بالدنيا والآخرة. وأراد أن يفسد عليه إحدى الدارين أو كليتهما، فسأل الله تعالى، وقال: إِنَّ عبدك أيوب يعبدك، لأنك أعطيتَه السعة في الدنيا، ولولا ذلك لم يعبدك، قال الله تعالى: أَنى أعلم منه أنه يعبدني ويشكرني، وإن لم يكن له سعة في الدنيا. فقال: يا رب، سلّطني عليه، فسَلّطه على كل شيء منه، إلا على روحه. فرجع إبليس إلى غنمه كهية النار، وضرب عليها، فأهلك جميع غنمه. فجاءت



رعاته، فأخبروه بالقصة، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، وقال: هو الذي أعطى، وهو الذي أخذ، وهو أحق به. ويقال: أنه أحرق غنمه ورعاته، فجاء إبليس على هيئة راع من رعاته، فأخبره بذلك، فقال له أيوب عليه السلام: لو كان فيك خير، لهلك مع أصحابك. ثم جاء إلى إبله وبقره، ففعل مثل ذلك، ثم جاء إلى زرع، كهية النار، فأفسد جميع زرعه، فأخبر بذلك، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، وقال: هو الذي أعطى، وهو الذي أخذ، وهو أحق به. وكان له سبعة بنين، وثلاث بنات، ويقال: سبعة بنين وسبع بنات في بيت، فجاء إبليس عليه اللعنة، فهدم البيت عليهم، فماتوا كلهم. فذكر ذلك لأيوب عليه السلام، فحمد الله عز وجل على ذلك، وأثنى عليه، ولم يجزع، وقال: هو الذي أعطى، وهو الذي أخذ. ثم جاء إلى أيوب، وكان في الصلاة. فلما سجد، نفخ في أنفه وفمه نفخة، فانتفخ أيوب عليه السلام، وخرجت به قروح، وجعل تسيل منها الصديد، وتفرق عنه أقرباؤه وأصدقاؤه، ولم يبق معه أحد إلا امرأته. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «كان اسم امرأته ما حين بنت ميثا بن يوسف بن يعقوب، ويقال: كان اسمها رحمة. فتأذى به جيرانه، وقالوا لامرأته: احمليه من ههنا، فإننا نتأذى به. فحملته حتى أخرجته إلى كناسة قوم، ووضعته عليها، وجعلت تدخل على الناس وتخدمهم، وتأخذ شيئاً، وتنفقه عليه. وكان ذلك البلاء ما شاء الله. فجاء إبليس في صورة طيب، وقال للمرأة: إني أردت أن يبرأ من علة، فمريه يشرب الخمر، ويتكلم بكلمة الكفر. فأخبرته المرأة بذلك، فقال لها: ذلك إبليس الذي أمرك بهذا، فألحت عليه، فغضب وقال: والله لئن برئت، لأضربنك مائة سوط. قالت: متى تبرأ؟ فقال عند ذلك: رب أني مسني الضر. ويقال: أنه اشتهى شيئاً يتخذ



بالسمن، فدخلت امرأته على امرأة غني من الأغنياء، وسألته ذلك، فأبت عليها. ثم نظرت إلى ذوائبها، فرأت ذوائبها مثل الحبل، فقالت: لئن دفعت إليّ ذوائبك، دفعت إليك ما تطلبين مني. فدفعت بالمقراض، وقطعت ذوائبها، ودفعتها إليها، وأخذت منها ما سألت، وجاءت به إلى أيوب عليه السلام، فقال لها: من أين لك هذا؟ فأخبرته بالقصة، فبكى أيوب عند ذلك، وقال: رب أني مسني الضر^(١).



قلت: هذه القصص من الإسرائيليات التي ملئت كتب التفسير، ولا تصح بحق الأنبياء عليهم السلام.

التفسير الأولي:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي وأذكر أيوب حين نادى ربه. وسمى أيوب لكثرة إيباه إلى الله في جميع أحواله، في السراء والضراء، والشدة والرخاء. ولم يقل: ارحمني، بل حفظ أدب الخطاب، فقال: ﴿وَأَنْتَ أَزْهَمُ الرَّحِمِينَ﴾. ومن علامات الولاية، أن يكون العبد محفوظاً عليه وقته في أوان البلاء. ويقال إخباره عنه أنه قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ لم يسلبه اسم الصبر حيث أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] لأن الغالب كان من أحواله الصبر، فنادر قالت له لم يسلب عنه الغالب من حالته. والإشارة من هذا، إلى أن الغالب من حال المؤمن المعرفة، أو الإيثار بالله، فهو الذي يستغرق جميع أوقاته،

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٤٣٥، ابن أبي حاتم ج ١٠ ص ٤٢٤٥، تفسير الطبري ج ١٨ ص ٤٨٣.



ولا يخلو منه لحظة ونادر زلاته - مع دائم إيمانه - لا يزاحم الوصف الغالب. ويقال لما لم يكن قوله: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ على وجه الاعتراض على التقدير - بل كان على وجه إظهار العجز - فلم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر. ويقال استخرج منه هذا القول، ليكون فيه متنفس للضعفاء في هذه الأمة، حتى إذا ضجوا في حال البلاء، لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر. ويقال لم يكن هذا القول منه على جهة الشكوى، وإنما كان من حيث الشكر ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ الذي تخص به أوليائك، ولولا أنك أرحم الراحمين لما خصصتني بهذا، ولكن برحمتك أهلتني لهذا»^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «إنما اشتكى إليه تلذذاً بالنجوى، لا تضرراً بالشكوى، والشكاية إليه غاية في القرب، كما أن الشكاية منه غاية في البعد. وقد تكلم الصوفية في قول أيوب عليه السلام: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ هل شكا ضرر جسمه، أو ضرر قلبه من جهة دينه؟ قال بعضهم: قيل: أنه أراد النهوض إلى الصلاة فلم يستطع، فقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ وقال الورتجي: سُئل الجنيد عن قوله: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ فقال: عَرَفَه فاقاة السؤال، ليمنّ عليه بكرم النوال»^(٢).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: أصاب سيدنا أيوب عليه السلام بلاءٌ شديدٌ في ماله، وأهله، وجسده، وصبر، حتى صار إماماً في الصبر، ولم يجزع. وإذا ما ذكرت الصابرين ينصرف الذهن إليه، بل كان راضياً متنعماً بكل ما قدره الحبيب

(١) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٢ ص ٥١٤.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٤٩٠.

عليه. ولما وصل المرض إلى لسانه، قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ فلا ضر أعظم على العارفين من عدم الذكر، وإن كان ذاكرا في قلبه، لكنه أراد أن لا ينقطع عن ذكر الله ظاهرا وباطنا».



قلت: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تصيبهم الأمراض المنفرة، لأنهم دعاء إلى الله ﷻ. وهذه هي عقيدتنا، كما قال الشيخ أحمد المرزوقي في «عقيدة العوام»:

وجائزُ في حقهم من عرضٍ بغير نقص كخفيف المرض
فالأمراض جائزة في حقهم، لكنها لا تكون منفرة، كما يتكلمون في قصة سيدنا أيوب عليه السلام.



الآية الثانية:

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ

﴾ [ص: ٤١].

التفسير الأولي:

قال يحيى بن سلام رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال الحسن: إن إبليس قال: يا رب، هل من عبيدك عبد إن سلطتني عليه امتنع مني؟ قال: نعم، عبيد أيوب.



قال: فسَلَّطه عليه ليجهد جهده، ويضله بخلاله وغروره، فامتنع منه. قال إبليس: يا رب، أنه قد امتنع مني، فسَلَّطني على ماله، فسَلَّطه على ماله، فجعل يهلك ماله صنفا صنفا، ويأتيه فيقول: يا أيوب، هلك مالك في موضع كذا وكذا، فيقول: الحمد لله، اللهم أنت أعطيتَه، وأنت أخذتَه مني، إن تبقي لي نفسي، أحمدك على بلائك. قال إبليس: يا رب، إنَّ أيوب لا يبالي بماله، فسَلَّطني على جسده، فسَلَّطه الله عليه، فمكث سبع سنين وأشهرًا في العذاب، حتى وقعت الأكلة في جسده. قال يحيى: وبلغني أنَّ الدودة كانت تقع من جسده، فيردها في مكانها، ويقول: كلي مما رزقك الله. قال الحسن: فدعا ربه ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بُنْصِبٍ وَعَذَابٍ ٤١﴾ وقال في هذه الآية: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فأوحى الله إليه أن: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢] فركض برجله ركضة، وهو لا يستطيع القيام. فإذا عين فاغتسل منها، فأذهب الله تبارك وتعالى ظاهر دائه^(١).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «أي بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البلية. وقيل: لما كان قال (أي الشيطان) لامرأته: اسجدي لي، حتى أرد عليكم ما سلبتكم. ويقال إنَّ سبب ابتلائه أنه استعان به مظلوم، فلم ينصره، فابتلى. ويقال استضاف الناس يوما، فلما جاء ابن فقير منعه من الدخول، ويقال: كان يغزو ملكا كافرا، وكان لأيوب غنم في ولايته، فداهنه لأجل غنمه في القتال»^(٢).



(١) تفسير يحيى بن سلام ج ١ ص ٣٣٣.

(٢) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٣ ص ٢٥٧.



قال ابن عطية رحمه الله تعالى في تفسيره: «وروي أنَّ السبب الذي امتحن الله أيوب من أجله هو أنه دخل على بعض الملوك، فرأى منكرا فلم يغيره. وروي أنَّ السبب كان أنه ذبح شاة، وطبخها، وأكلت عنده. وجار له جائع، لم يعطه منها شيئا. وروي أنَّ أيوب لما تناهى بلاؤه وصبره، مرَّ به رجلان ممن كان بينه وبينهما معرفة، فتقرعاه، وقالاه: لقد أذنبت ذنبا، ما أذنب أحد مثله، وفهم منهما شتاها به، فعند ذلك دعا ونادى ربه. وقوله عليه السلام: ﴿مَسَّى الشَّيْطَانُ﴾ يحتمل أن يشير إلى مسه، حين سلَّطه الله عليه حسبما ذكرنا. ويحتمل أن يريد: مسه إياه حين حملة في أول الأمر، على أن يواقع الذنب الذي من أجله كانت المحنة، إما ترك التغيير عند الملك، وإما ترك مواساة الجار. وقيل أشار إلى مسه إياه في تعرضه لأهله، وطلبه منه أن يشرك بالله، فكان أيوب يتشكى هذا الفعل، وكان أشد عليه من مرضه»^(١).



قلت: قال المحققون من المفسرين، إنَّ ما ذُكر أعلاه من الإسرائيليات التي دخلت على كتب التفسير، ولم يصح منها شيء. وكل ما قالوه مخالف لما قاله الله ﷻ في الكتاب العزيز، من أنَّ الشيطان لا سلطة له على الأنبياء، وهذا ما اعترف به الشيطان نفسه. والقارئ الحصيف لا تفوته مثل هذه الأمور.

التفسير العرفاني:

قال الرزخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «فإن قلت: لم نسبه إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ليقضى من إيتاعهم وتعذيبهم وطره. ولو قدر

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٤ ص ٥٠٦.



على ذلك، لم يدع صالحاً، إلا وقد نكبه وأهلكه. وقد تكرر في القرآن، أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟ قلت: لما كانت وسوسته إليه وطاعته له، فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من النصب والعذاب، نسبه إليه. وقد راعى الأدب في ذلك، حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله، ولا يقدر عليه إلا هو. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه، من تعظيم ما نزل به من البلاء، وبغيره على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل»^(١).



قال محمد طنطاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «ونسب ما مسه من نصب وعذاب إلى الشيطان، تأدبا منه مع ربه - عز وجل - حيث أبى أن ينسب الشر إليه - سبحانه -، وإن كان الكل من خلق الله - تعالى - . وفي هذا النداء من أيوب لربه، أسمى ألوان الأدب والإجلال، إذ اكتفى في تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك، ودون أن يقترح على خالقه - عز وجل - شيئاً معيناً، أو يطلب شيئاً معيناً»^(٢).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ لأنه بدأ يوسوس لقومي، ويشككهم في نبوتي، ويقول لهم: لو كان نبياً، لما فعل به ربه كذا وكذا. وإلا، فإن الشيطان لا يتسلط على الأنبياء والمرسلين».



(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٤ ص ٩٦.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج ١٢ ص ١٦٦.

قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «هذا من أدب الأنبياء في خطابهم مع ربهم ﷻ، وهم يعلمون علم اليقين، أنَّ الضار والنافع هو الله ﷻ، لكن لما شرع بالدعاء، نسب الشر للشيطان؛ لأنه مظهر الشر في عالم الدنيا».



قلت: انظر إلى جمال تفسير العارفين، وكيف أزالوا شبهة تسلط الشيطان على أنبياء الله ﷻ. والمتأمل في سياق الآية يرى أنَّ الله ﷻ يقول لسيدنا محمد ﷺ: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ وهو في معرض المدح لسيدنا أيوب عليه السلام، ومعلمًا لنا أن نقف به، وندعو بدعائه إذا ما أصابنا البلاء. وإلا، فهو الصابر الأواب، الذي لا يشتكي الخالق للمخلوق، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤٤)

[ص: ٤٤]





سورة الأنبياء

الآية الأولى:

﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضِّبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

التفسير الأولي:

قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى في تفسيره: «عن إسماعيل بن عبد الملك، عن سَعِيدِ بن جبير في قوله: ﴿مُغَضِّبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قال ذهب مغاضبا لربه»^(١).



قال ابن وهب رحمه الله تعالى في تفسيره: «أخبرني أشهل، عن شعبة، عن الحكم، عن مجاهد: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قال: ظن أن لن نعاقبه بذنوب»^(٢).



(١) تفسير الثوري ج ١ ص ٢٠٤.

(٢) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب ج ١ ص ١٣٩.



قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «ذهب عن قومه مغاضبا لربه، إذ كشف عنهم العذاب بعدما وعدهم به. قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن عبد الله بن أبي سلمة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: بعثه الله، يعني يونس إلى أهل قريته، فردوا عليه ما جاءهم به، وامتنعوا منه. فلما فعلوا ذلك، أوحى الله إليه: إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فأخرج من بين أظهرهم، فأعلم قومه الذي وعده الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه، فإن خرج من بين أظهركم، فهو والله كائن ما وعدكم. فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صباحها أدلج وراه القوم، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم، وفرقوا بين كل دابة وولدها، ثم عجموا إلى الله، فاستقالوه، فأقالهم، وتنظر يونس الخبر عن القرية وأهلها، حتى مر به مار، فقال: ما فعل أهل القرية؟ فقال: فعلوا أن نبهم خرج من بين أظهرهم، عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها، وعجموا إلى الله وتابوا إليه، فقبل منهم، وأخر عنهم العذاب، قال: فقال يونس عند ذلك وغضب: والله لا أرجع إليهم كذابا أبدا، وعدتهم العذاب في يوم، ثم رد عنهم، ومضى على وجهه مغاضبا. حدثنا ابن بشار، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا عوف، عن سعيد بن أبي الحسن، قال: بلغني أن يونس لما أصاب الذنب، انطلق مغاضبا لربه، واستزله الشيطان. حدثني علي، قال: حدثنا عبد الله بن صالح، قال: حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قوله: ﴿فَطَنَ﴾ **أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ** يقول: ظن أن لن يأخذه العذاب الذي أصابه. حدثني محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن

عباس: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ يقول: ظن أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاء، فيما صنع بقومه في غضبه إذ غضب عليهم، وفراره وعقوبته، أخذ النون إياه^(١).



قلت: أتمنى أن يكون هذا الكلام مدسوساً على هؤلاء الأئمة الكبار، وإلا، لا يُتصور منهم هذا الكلام. وإن قالوه، فهذا اجتهداهم، ونسأل الله أن يغفر لنا ولهم. فكيف نقول في حق النبي أنه غاضب ربه، وظن أنه لن يعاقب بالذنب، وكيف ثبت له ذنبا أصلا وهو معصوم، وغفر الله للإمام الطبري قوله: استزله الشيطان، ويروي هذه الروايات، فأى حرمة، وأى عصمة للنبوة بعد هذا الكلام؟!.

التفسير العرفاني:

قال ابن عطية رحمه الله تعالى في تفسيره: «واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فقالت فرقة: استزله إبليس، ووقع في ظنه إمكان أن لا يقدر الله عليه بمعاقبة، وهذا قول مردود. وقالت فرقة: ظن أن لن يضيق عليه في مذهبه من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [العنكبوت: ٦٢]^(٢)».



قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «احتج القائلون بجواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه؛ أن أكثر المفسرين على أنه ذهب يونس

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٨ ص ٥١١.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٤ ص ٩٢.



مغاضبا لربه، ويقال هذا قول ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، والشعبي، وسعيد بن جبير، ووهب، واختيار ابن قتيبة، ومحمد بن جرير. فإذا كان كذلك، فيلزم أن مغاضبته لله تعالى من أعظم الذنوب، ثم على تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى، بل كانت مع ذلك الملك، أو مع القوم، فهو أيضا كان محظورا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] وذلك يقتضي أن ذلك الفعل من يونس كان محظورا. وثانيها، قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ وذلك يقتضي كونه شاكا في قدرة الله تعالى. فإذا، لا بد فيه من التأويل: فظن أن لن نقدر عليه لن نضيق عليه، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَلَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [العنكبوت: ٦٢] أي يضيق: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضيق ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلْنَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضيق، ومعناه أن لن نضيق عليه. واعلم، أن على هذا التأويل تصوير الآية حجة لنا. وذلك؛ لأن يونس عليه السلام ظن أنه مخير؛ إن شاء أقام، وإن شاء خرج، وأنه تعالى لا يضيق عليه في اختياره، وكان في المعلوم أن الصلاح في تأخر خروجه. وهذا من الله تعالى بيان لما يجري مجرى العذر له من حيث خرج، لا على تعمُّد المعصية، لكن لظنه أن الأمر في خروجه موسَّع، يجوز أن يقدم ويؤخر، وكان الصلاح خلاف ذلك. وروي أنه دخل ابن عباس رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه، فقال معاوية: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة، فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصا إلا بك، فقال: وما هي؟ قال: يظن نبي الله أن لن يقدر الله عليه؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا من القدر لا من القدرة^(١).



(١) مفاتيح الغيب المعروف التفسير الكبير ج ٢٢ ص ١٩٤.

قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «أمثال هذا كثير بأهل الخصوصية، يؤدبون على أقل شيء من سوء الأدب، لشدة قربهم، ثم يُردون إلى مقامهم. ومن هذا النوع، قصة سيدنا يونس عليه السلام، حيث خرج من غير إذن خاص، فأدبه، ثم رده إلى النبوة والرسالة»^(١).



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «ظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يُضيق عليه، لما عهد من سعة رحمته ﷻ من باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ضيق عليه. وإنما أخذه الله ﷻ لكونه قصر الاتساع الإلهي على نفسه فقط، ولم ينظر ذلك في حق غيره من أمته. فلما ظن أن رحمة الله لا تنالهم، أثر ذلك ظلمة في ظاهره لعلو منصبه وصفاء قلبه، فأسكنه في ظلمة بطن الحوت ما شاء الله، لينبّهه على حالته، حين كان جنينا في بطن أمه، ومن كان يدبره فيه، وهل كان في ذلك الموطن يتصور منه أن يغضب أو يغاضب، بل كان في كنف الله ﷻ، لا يعرف سوى ربه، فردّه إلى هذه الحالة في بطن الحوت، تعليما له بالفعل لا بالقول»^(٢).



قال صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال الجنيد رحمته الله: مغاضبا على نفسه في ذهابه، فظن أن لن يؤخذ بغضبه وذهابه. وقال ذو النون: أخفى أن يخدع به العبد اللطاف، والمكرمات، ورؤية الآيات».



(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٤٩٢.

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الاكابر ج ١ ص ٢٤٢.

قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «إنَّ سيدنا يونس عليه السلام ذهب مغاضبا لقومه، لعدم إيمانهم بالله، ويستحيل أن يكون مغاضبا لربه، لأنه نبي ورسول. فترك قومَه قبل أن يأذن الله له، وهذا ما آخذه الله عليه. وهذا ليس خطأ منه؛ لأن الأنبياء لا يخطئون لعصمتهم. وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله لما أذن للصحابة أن يهاجروا، لم يهاجر حتى جاءه الاذن، وهو مقام أكمل؛ لأن الله تعالى قال له: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ فلم يغادر من مكة إلا بعد الإذن الإلهي. **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** أي نضيق عليه في اجتهاده».



قلت: وهذا الذي يليق بمقام النبوة المنزَّه عن الجهل بالله، والمنزَّه عن تسلُّط الشيطان عليه. ومن أجل ذلك، قال النبي صلى الله عليه وآله: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»^(١). ونسبَه إلى أبيه. وهذا حتى لا يتجراً أحد على مقام الأنبياء عليهم السلام.



الآية الثانية:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

[الأنبياء: ٨٧]

(١) البخاري (٣٣٩٥)، مسلم (٢٣٧٦).

التفسير الأولي:

قال يحيى بن سلام رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) يعني بخطيئته»^(١).



قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ يقول: نادى يونس بهذا القول معترفا بذنبه، تائباً من خطيئته ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ في معصيتي إياك»^(٢).



قلت: بعد أن بينّا أقوال المحققين من المفسرين في أن سيدنا يونس لم يذنب، صار القول بالمعصية والخطيئة مردوداً.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «احتجّ القائلون بجواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ والظلم من أساء الذم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) [هود: ١٨]. والجواب عليهم: لو حملناه على ما بعدها، فهي واجبة التأويل؛ لأننا لو أجريناها على ظاهرها، لوجب القول بكون النبي مستحقاً للعن، وهذا لا يقوله مسلم.

(١) تفسير يحيى بن سلام ج ١ ص ٣٣٩.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٨ ص ٥١٧.

وإذاً، وجب التأويل، فنقول: لا شك أنه كان تاركا للأفضل، مع القدرة على تحصيل الأفضل، فكان ذلك ظلماً^(١).



قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «**فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ**» في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو ظلمات بطن الحوت، والبحر، والليل. «**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**» بأنه لا إله إلا أنت «**سُبْحَانَكَ**» من أن يعجزك شيء «**إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**» لنفسي، بالمبادرة إلى المهاجرة. وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»^(٢).



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «سبحانك يا رب تفعل ما تريد، وتبسط رحمتك على من تشاء، وهذا كالاعتذار عن أمته، وقوله: «**كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**» أثر غضبي رجع عليّ. ثم لما زالت ظلمة المغاضبة، وهي ظلمة تليق بمقام الأنبياء، وانتشر النور اللائق بكمال النبوة في قلبه، استجاب الله له، فنجّاه من الغم، فقذفه الحوت، فولد مولد على الفطرة السليمة، ولم يولد أحد من بني آدم ولادتين سوى يونس عليه السلام، فخرج ضعيفا كالطفل وهو سقيم، وربّاه تعالى بورق اليقطين»^(٣).



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٢ ص ١٧٩.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٤ ص ٥٩.

(٣) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الاكابر ج ١ ص ٢٤٣.



قال صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال الجنيد في قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي من الجاهلين أنك لا تقرب بطاعتك، ولا تبعد بمعصيتك، وأن الله تعالى أراد أن يهيبَ لسيدنا يونس معراجاً، ومشاهدة في بطن الحوت، فتعلل بالأمر والنهي، والمقصود منه القربة والمشاهدة، فأراه الحق في أطباق الثرى، في ظلمات الحوت، ما أرى سيدنا محمداً ﷺ فوق العرش. فلما رأى الحق، تحير في جلاله، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ نزهت نفسك عما ظننا فيك، فأنت بخلاف الظنون، وأوهام الحدثنان ﴿كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ في وصف جلالك؛ إذ وصف لا يليق بعزة وحدانيتك، فوقع لهذا القول منه موقع سيد المرسلين، حيث قال: «لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، ولذلك قال ﷺ: «لَا تَفْضَلُونِي عَلَى أَخِي يُونُسَ». فلما رأى ما رأى، استطاب الموضع، وظن أن لن يدرك ما أدرك في الدنيا بعد، فغاب الحق عنه، فاهتم ودعا بالنجاة، فنجاه الله من وحشة بطن الحوت، بقوله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] يعني: من كان هذا حاله مع الله ﷻ ننجي به منه»^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن يعجزك شيء، أو تنزيهاً لك عما ظننتُ فيك، ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسي بخروجي عن قومي قبل أن تأذن لي، أو من الظالمين لأنفسهم بتعريضها للهلكة. وعن الحسن: ما نجاه، والله، إلا إقراره على نفسه بالظلم»^(٢).



(١) عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٢ ص ٥٢٤.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٤٩٣.

قلت: ما نزه مقام الأنبياء مثل العارفين بالله ﷻ، لأنهم عرفوه وتأدّبوا في حضرته، وعلموا وهم في حضرته، أنّ الأنبياء هم أئمة الحضرات، وعرفوا مقامهم، فنزّهوهم من الشبهات. وفي تنزيههم هذا تنزيه وأدب مع من أرسلهم ﷻ. فانظر إلى جمال عبارة العارفين بالله، كي تتذوق مما تذوقوا، وتشرب من بحار الود والوصال، ولا يكون إلا بالتزام الأدب مع أئمة الحضرة. وما أجمل قولهم: إن كان معراج سيدنا محمد ﷺ فوق سبع سموات، فمعراج سيدنا يونس في بطن الحوت، فالله تعالى لا يحده مكان، ولا يجري عليه زمان، ويتجلى لعباده وأحبابه حيث شاء، ومتى شاء. والقرب والتجلي قرب مكانة، لا قرب مكان.



سورة الصافات

الآية الثالثة:

﴿فَالنَّعْمَةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]

التفسير الأولي:

قال مجاهد رحمه الله تعالى في تفسيره: « ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يعني: مذنباً»^(١).



قال الطبري رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: «وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يقول وهو مكتسب اللوم، يقال: قد ألام الرجل، إذا أتى ما يلام عليه من الأمر، وإن لم يلم. حدثني محمد بن عمرو، قال: ثني أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعاً، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قال: مذنب»^(٢).



قلت: لم يثبت لسيدنا يونس عليه السلام ذنبٌ، وهذا ما أثبتناه في تفسير ما مضى من الآيات، وسنبين المعنى الصحيح لمعنى ﴿مُلِيمٌ﴾

(١) تفسير مجاهد ص ٥٧٠.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢١ ص ١٠٧، معاني القرآن وإعرابه الزجاج ج ٤ ص ٣١٣، الكشف والبيان عن تفسير القرآن المعروف بتفسير الثعلبي ج ٩ ص ١١٨.

التفسير العرفاني:

قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «**مُلِيمٌ**» أي مُلام على خروجه من قريته دون إذن من ربه، ولا ينبغي نسبة الذنب للأنبياء على أعمالهم. فكل هذه الأمور مكتوبة عليهم قبل خلق الخلق، وما فعلوها إلا امتثالاً لمراد الله تعالى، كي ينزل التشريع على أعمالهم، قال الله تعالى: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** [الحديد: ٢٢] فكيف نتهمهم بالذنب، وهم أكثر الناس فتوة؛ إذ تحمّلوا صولة الخطاب، وتحمّلوا صورة الذنب من أجل التشريع. وفعل سيدنا يونس عليه السلام، نتج عنه دعاء صار مفتاحَ الفرَج للمكروبين والمهمومين إلى قيام الساعة، فأنظروا إلى جميع الآيات التي قالوا عنها: **إِنَّ فِيهَا ذَنْبٌ** صدر من الأنبياء، تجد أن نتيجتها خيرٌ للبشرية جمعاء.





سورة آل عمران

الآية الأولى:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ إِنَّكُمْ خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ ۖ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]

التفسير الأولي:

قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال الكلبي: انكسرت الألواح، وصعد عامة الكلام الذي كان فيها من كلام الله تعالى إلى السماء. وقال بعضهم: هذا الكلام في ظاهره غير سديد؛ لأن الكلام صفة، والصفة لا تفارق الموصوف. فلا يجوز أن يقال: الكلام يصعد ويذهب، ولكن تأويله أن الألواح لما انكسرت، ذهب أثر المكتوب منها. وهذا إذا كان غير الأحكام. وأما الأحكام أيضاً، فلا يجوز أن تذهب عنه، وإنما أراد بذلك حجة عليهم»^(١).



(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ١ ص ٥٥٢.

قال الثعلبي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قالت الرواة: كانت التوراة سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح تكسرت، فوقع منها ستة أسباع، وبقي سبع، وكان فيها رقع موسى، وفيما بقي الهدى والرحمة»^(١).



قلت: سيدنا موسى عليه السلام من أكبر العارفين بالله ﷻ وبكلامه، ولا يتصور أنه ألقاها بإهانة وبقوة حتى تتكسر. والقول بأن عامة ما في التوراة رُفع، هذا أمر غير مسلم به.



التفسير العرفاني:

قال الطبراني رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال أبو جعفر: والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك، أن يكون سبب إلقاء موسى الألواح، كان من أجل غضبه على قومه لعبادتهم العجل؛ لأن الله جل ثناؤه بذلك أخبر في كتابه، فقال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ بِسْمَا حَلَفْتُؤُنِي مِن بَعْدِي أُعِجِّلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾»^(٢).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وألقى الألواح وطرحها لما لحقه من فرط الدهش، وشدة الضجر، عند استماعه حديث العجل؛ غضبا لله، وحمية

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن المعروف بتفسير الثعلبي ج ٤ ص ٢٨٦.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٣ ص ١٢٤.

لدينه، وكان في نفسه حديدا شديدا الغضب، وكان هارون ألين منه جانبا، ولذلك كان أحب إلى بنى إسرائيل من موسى»^(١).



قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وظاهر هذا يدل على أن شيئا منها لم ينكسر ولم يبطل، وأن الذي قيل من أن ستة أسباع التوراة رفعت إلى السماء، ليس الأمر كذلك»^(٢).



قال صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «من تحرك غيرة للحق، فإن الحق يحفظ عليه حدوده؛ لئلا تخرجه الحركة إلى شيء مذموم، كموسى عليه السلام لما ألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره؛ لما رأى قومه يعبدون العجل، فلم يعاتبه الله على ذلك، ولم يزد من الله إلا قربا»^(٣).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ أي وضعها جانبا، وبدأ يلوم أخاه على ما حدث، ولم يلحقها بقوة، ولم تتكسر، ولم يُرفع ما فيها، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فكيف يقولون تكسرت ورُفع ما فيها والله يقول: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾»^(١٥٤).

(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٢ ص ١٦١.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ١٥ ص ٣٧٤.

(٣) عرائس البيان في حقائق القرآن ج ١ ص ٤٧٧.

سورة طه

الآية الثانية:

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى

﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾﴾ [طه: ٦٦-٦٧]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: صف خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه. وخرج موسى معه أخوه يتكئ على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته، ثم قالت السحرة: ﴿يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٥-٦٦].

فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد. ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضها ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ ﴿٦٧﴾ [طه: ٦٧] وقال: والله إن كانت لعصيا في أيديهم، ولقد عادت حيات! وما تعدو عصاي هذه! أو كما حدث نفسه»^(١).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٣ ص ٢٨.

قلت: حاشا لسيدنا موسى عليه السلام أن يخاف من سحرهم، وهو يعلم به، وأن يشكك في قدرته، وهو الذي أرسله الله تعالى بالبرهان الدامغ.



التفسير العرفاني:

قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ وفي خوفه وجهان؛ أحدهما، أنه خاف أن يلتبس على الناس أمرهم، فيتوهموا أنهم فعلوا مثل فعله، وأنه من جنسه. الثاني، لما هو مركز في الطباع من الحذر. وأوجس: بمعنى أسر^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «إيجاس الخوف: إضمار شيء منه، وكذلك توجس الصوت: تسمع نبأ يسيرة منه، وكان ذلك لطبع الجبلية البشرية، وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله. وقيل: خاف أن يخالج الناس شك، فلا يتبعوه ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨] فيه تقرير لغلبته وقهره»^(٢).



قال سلطان الأولياء والصالحين الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمته الله: «إِنَّ مَا فَعَلَهُ السَّحَرَةُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَانَ حِكْمَةً وَهَنْدَسَةً، وَمَا ظَهَرَ فِي عَصَا مُوسَى عليه السلام كَانَ قُدْرَةَ الْحَقِّ تعالى، خَرَقَ عَادَةً وَمُعْجَزَةً، وَلِهَذَا قَالَ أَمِيرُ السَّحَرَةِ لَوَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ:

(١) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٣ ص ٤١٣.

(٢) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٣ ص ٧٤.

انظر إلى موسى في أي حال هو؟ فقال له: قد تغير لونه، والعصا تعمل عملها، فقال: هذا من فعل الله ﷻ لا من فعله، فإن الساحر لا يخاف من سحره، والصانع لا يخاف من صنعته، ثم آمن به، وتبعه أصحابه^(١).



قال صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «سئل ابن عطاء، ما كانت هذه الخيفة؟ قال: خاف على قومه أن يفوتهم حظهم من الله، وما خاف على نفسه. فلما وجد الحق حركة نفس موسى في رؤية قهر الجبروت، قال الله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨]

أي محفوظ بعيون رعاية جبروتنا، ومعك الآيات الكبرى، وهو لباس حفظنا، فأنت في لطفنا تسبق على القهر، وأصله: «سبقت رحمتي غضبي»^(٢).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: «الأنبياء عليهم السلام أشجع الخلق على الإطلاق، وأكمل الخلق يقينا بالله ﷻ، والخوف في هذه الآية يؤخذ على معنيين؛ الأول: تحقيق كمال بشرية الأنبياء، فيصفهم بالخوف، والمرض، والجوع، وغيرها من الأمور. وهذا الهاجس مجبولة عليه النفس البشرية، ويحصل عند رؤية الأشياء المريبة. وقد رأى سيدنا موسى عليه السلام حبالهم وعصيهم تسعى، فتحرك الهاجس، كما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قدم الطعام للضيوف،

(١) الفتح الرباني والفيض الرحمانى المجلس العاشر ص ٥٢.

(٢) عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٢ ص ٤٩٧.

ولم يأكلوا منه، فارتاب من هذا الأمر؛ لأن الضيف إذا أكل مع أهل الدار، أمنه صاحب الدار، لذلك قال الله ﷻ: ﴿فَمَأْرَأَ آيِدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]. فلما رأى أنهم لا يأكلون من طعامه، تحرك الهاجس البشري؛ لارتيابه من حالتهم.

الثاني: أنَّ سيدنا موسى ﷺ خاف على قومه أن ينخدعوا بهذه الحيلة، ولا يؤمنوا. أما حقيقة الأمر، فالأنبياء لا يخافون إلا الله ﷻ؛ لأنهم مع الله، ومن كان مع الله خافه كل شيء. ونحن نرى كيف أنَّ سيدنا موسى ﷺ واجه فرعون وجنوده، مع العلم أنه متهم عندهم، ورجع، وانتصر على السحرة، وأخذ بني إسرائيل، وخرج دون أن يكثر لفرعون وجنوده.



سورة الشعراء

الآية الثالثة:

﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ (١٤) [الشعراء: ١٤].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «عن مجاهد، قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قال: قتل النفس التي قتل منهم. عن مجاهد، قال: قتل موسى النفس. وعن قتادة، قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾ قال: قتل النفس. وقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ يقول: فأخاف أن يقتلوني قودا بالنفس التي قتلت منهم»^(١).



التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾ فأراد بالذنب قتله القبطي، لقائل أن يقول قول موسى عليه السلام: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾ هل يدل على صدور الذنب منه؟ جوابه: لا، والمراد لهم علي ذنب في زعمهم»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٣٣٩.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٤ ص ٤٢٣.

قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ أي تبعة ذنب، والمراد قتل القبطي. وإنما سماه ذنبا على زعمهم، وهذا اختصار قصته المبسوطة في مواضع ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به قبل أداء الرسالة^(١).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: «والذنب: الجرم ومخالفة الواجب في قوانينهم. وأطلق الذنب على المؤاخذة، فإن الذي لهم عليه هو حق المطالبة بدم القاتل الذي وكزه موسى، ففضى عليه، وتوعده القبط إن ظفروا به ليقتلوه، فخرج من مصر خائفا، وكان ذلك سبب توجهه إلى بلاد مدين. وسماه ذنبا بحسب ما في شرع القبط، فإنه لم يكن يومئذ شرع إلهي في أحكام قتل النفس»^(٢).



قلت: وهذا التفسير الأنزه في حق سيدنا موسى ﷺ؛ لأنه معصوم من الذنب، فلا بد أن تؤوّل الآية تأويلا يوافق العصمة.



الآية الرابعة:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۖ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠-٢١].

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٤ ص ١٣٤.

(٢) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ج ١ ص ٣٠٠٢.

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول تعالى ذكره: قال موسى لفرعون: فعلت تلك الفعلة التي فعلت، أي قتلت تلك النفس التي قتلت، إذن وأنا من الضالين. يقول: وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي بتحريم قتله علي. والعرب تضع من الضلال موضع الجهل، والجهل موضع الضلال، فتقول: قد جهل فلان الطريق، وضل الطريق، بمعنى واحد»^(١).



التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة ما يؤول إليه من القتل؛ لأنه فعل الوكزة على وجه التأديب. ومثل ذلك ربما حسن، وإن أدّى إلى القتل، فبين له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به، أو يعد منه كافراً، أو كافراً للنعمة. فأما قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ فالمراد: أني فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكاً، وكان مني في حكم السهو، فلم أستحق التخويف الذي يوجب الفرار، ومع ذلك فررت منكم عند قولكم: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ آمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٣٤٠.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٤ ص ٤٩٦.



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «والجواب على من سأل كيف خاف موسى عدة مرات، مع إنَّ الواحد من الأولياء لا يخاف أحداً إلا الله ﷻ؟. نقول: مقام الخوف أولى في حق الأنبياء من وجوه؛ إنَّ النبي الكامل يرى من نفسه الضعف، بخلاف صاحب الحال من الأولياء. ومنها، أنه يجب على الكامل الفرار من شيء يؤذي بدنه، أو يلحقه الضرر، وإن خالف ذلك أثم. ومنها، إنَّ في الخوف عدم تعطيل الأسباب، فكان من كمال موسى ﷺ فراره، ويحتمل أنَّ خوفه منهم إنما هو خوفه من الله ﷻ، وذلك محمود والله أعلم»^(١).



قلت: قوله: ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ قد يكون من المختارين من نتيجة ما وقع، وأنا لم أقصده. فيكون المعنى ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ في نظركم، أو المختار إلى أي وجهة أذهب فرارا من عقوبتكم لي، على جريمة لم أتعمد فعلها، بدليل قوله في سورة القصص: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٢٢) [القصص: ٢٢]، فقوله: ﴿عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي﴾ معناه كان مختارا إلى أي وجهة ومستقر يفر إليه.



(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الاكابر ج ١ ص ٢٤٣.

سورة النمل

الآية الخامسة:

﴿وَأَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل: ١٠-١١]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول تعالى ذكره: فناداه ربه: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ﴾ من هذه الحية، ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ يقول: إني لا يخاف عندي رسلي وأنبيائي الذين أختصهم بالنبوة، إلا من ظلم منهم، فعمل بغير الذي أذن له في العمل به. حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، قال: قوله: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ قال: لا يخيف الله الأنبياء، إلا بذنوب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه. حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنا عبد الله الفزاري، عن عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر، عن الحسن، قال: قوله: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قال: إني إنما أخفكتك لقتلك النفس، قال: وقال الحسن: كانت الأنبياء تذنوب، فتعاقب. أن قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ استثناء صحيح من قوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ منهم فأتى ذنبا، فإنه خائف لديه من عقوبته، وقد بين الحسن رحمه الله معنى قول الله لموسى ذلك، وهو قوله قال: إني إنما أخفكتك لقتلك النفس»^(١).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٤٣١.

قلت: يُصر الطبري في تفسيره على سرد الآراء التي تقول بارتكاب الأنبياء للذنوب، وهذا الأمر مردود بأقوال المحققين، من أهل التفسير والعارفين بالله لعصمة الأنبياء من ارتكاب الذنب.



التفسير العرفاني:

قال التستري رحمه الله تعالى في تفسيره: قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٠) **إِلَّا مَنْ ظَلَمَ** قال: لم يكن في الأنبياء والرسل ظالم، وإنما هذه مخاطبة لهم كناية عن قومهم، كما قال للنبي ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] والمقصود من ذلك أمته، فإنهم إذا سمعوا ما خوطب به النبي ﷺ من التحذير، كانوا أشد حذرا^(١).



قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ معناه: لكن من ظلم، وهو محمول على ما يصدر من الأنبياء، من ترك الأفضل أو الصغيرة. ويحتمل أن يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى، وهو من التعريضات اللطيفة^(٢).



(١) تفسير التستري ج ١ ص ١١٦.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٤ ٥٤٥.

قال محمد طنطاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقوله - سبحانه -: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بِعَدْوٍ فإني غفورٌ رحيمٌ﴾ (١١) استثناء منقطع مما قبله. قال ابن كثير: هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على شيء، ثم أقلع عنه، وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٨٢) [طه: ٨٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (١١٠) [النساء: ١١٠]»^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: «﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ﴾ لأنهم أحبابي، فلا أخيفهم دنيا ولا أخرى. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ استثناء منقطع؛ لأن المرسلين لا يظلمون قبل البعثة ولا بعدها. والظلم عمل المعاصي، وهم معصومون من الصغائر والكبائر، قبل البعثة وبعدها، وتكون ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ من أتباعهم».



قلت: وهذه التفسيرات تبين أن ما ذهب إليه الطبري مرجوح؛ أولاً، لعصمة الأنبياء من الظلم، وثانياً، لأن الأنبياء وكما أثبتنا مراراً في هذا الكتاب، لا يعملون شيئاً إلا بإذن الله وأمره، وهذا يرد قول الطبري: (إلا من ظلم منهم، فعمل بغير الذي إذن له في العمل به)، فكيف لرسول أن يعمل بغير الذي إذن له؟! وأما ما احتج به من قتل الرجل، فسنثبت براءته من تهمة الذنب الذي نسب له من جراء هذه الحادثة.



(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج ١٠ ص ٣٠٧.

سورة القصص

الآية السادسة:

﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ

﴿مُيِّنٌ ۙ﴾ [القصص: ١٥]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «وقوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يقول تعالى ذكره: قال موسى حين قتل القتيل: هذا القتل من تسبب الشيطان لي، بأن هيَّج غضبي حتى ضربت هذا، فهلك من ضربتي، ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ﴾ يقول: إِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لابن آدم ﴿مُضِلٌّ﴾ له عن سبيل الرشاد بتزيينه له القبيح من الأعمال، وتحسينه ذلك له ﴿مُيِّنٌ﴾ يعني أنه يبين عداوته لهم قديماً، وإضلاله إياهم»^(١).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني هو الذي حملني على هذا الفعل ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُيِّنٌ﴾ يعني: يضل الخلق ﴿مُيِّنٌ﴾ يعني ظاهر العداوة»^(٢).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٥٤١.

(٢) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٦٠١.



قال أبو الحسين الملطي العسقلاني رحمه الله تعالى: «ليس لإبليس عليهم سلطان أن يستزهم عن التوحيد إلى الشرك، خاصة بدعايته وتزيينه ووسوسته. فأما الذنوب دون الشرك فهو يستزهم، وذلك قول موسى عليه السلام حين قتل النفس ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني من تزيين الشيطان من غير كفر، كما زين لآدم عليه السلام، ولإخوة يوسف عليه السلام، وغيرهم، فأزهمهم وكانوا من أفاضل عباد الله المخلصين»^(١).



قلت: وهذا التفسير مردود لأمرين؛ الأول، سيدنا موسى عليه السلام لم يغضب، ولم يتعمد قتل الرجل. والثاني، الشيطان لا يتسلط على الأنبياء. والعجيب، أن الشيطان يُقر ويعترف أن لا سلطة له على عباد الله المخلصين، والبعض يثبت هذا الأمر.



التفسير العرفاني:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: «إذا أراد الله أمراً، أجرى أسباباً ليحصل بها مراده. ولولا أنه أراد فتنة موسى، لما قبض روح الرجل بمثل تلك الوكزة. فقد يضرب الرجل الكثير من الضرب والسياط، ثم لا يموت. فموت القبطي بوكزة إجراء لما قضاه وأراد»^(٢).

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ج ١ ص ٦٥.

(٢) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٣ ص ٥٧.

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «إنَّ قوله: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى عمل المقتول، لا إلى عمل نفسه. فقوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي عمل هذا المقتول من عمل الشيطان، المراد منه بيان كونه مخالفاً لله تعالى، مستحقاً للقتل. وهناك وجه آخر: أن يكون قوله: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى المقتول، يعني أنه من جند الشيطان وحزبه، يقال: فلان من عمل الشيطان، أي من أحزابه»^(١).



قال أبو الحسن علي السبتي رحمه الله تعالى: «فإن الأنبياء عليهم السلام إذا مسهم ضرر، نسبوه إلى الشيطان على جهة الأدب مع الحق سبحانه؛ لئلا ينسبوا له فعلاً يكره، مع علمهم أن كلا من عند الله. قال الحليل عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وقال الخضر عليه السلام: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وقال الكليم عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وقال فتاه عليه السلام: ﴿وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣] وقال نبينا ﷺ: «وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(٢).



قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى: «وسر الحكمة في إيجاد الشيطان، أن يكون مظهرها ينسب إليه سبب العصيان، ووجود الكفران، والغفلة، والنسيان. ألم تسمع قوله: ﴿وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ و﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ فكان سر إيجاداه ليمسح فيه أوساخ النسب. ولذلك قال بعض العارفين: الشيطان

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٤ ص ٥٨٥.

(٢) تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء ج ١ ص ١٢٤.

منديل هذه الدار، يمسح به وسخ المعاصي، وكل قبيح وخبيث، إِنَّ الله تعالى لو شاء ألا يعصى، لما خلق إبليس»^(١).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «ما دمنا نعتقد أَنَّ الأنبياء معصومون من الصغائر والكبائر قبل البعثة وبعدها، إذاً يجب تأويل هذه الآيات مع ما يناسب العصمة. ونسبة الذنب لسيدنا موسى وتسلط الشيطان عليه مردود، وما حصل إلا ما أَراده الله عز وجل. وكما قلنا إِنَّ الأنبياء لا يعملون عملاً إلا على وفق مراد الله عز وجل، وما حصل في هذه الحادثة كان سبباً لخروج سيدنا موسى عليه السلام من بلد فرعون، ولقاءه بسيدنا شعيب عليه السلام، والتربي على يديه، وزواجه من ابنته، إلى أن حان وقت البعثة فرجع، وكلمه الله عز وجل، وأرسله لدعوة فرعون وقومه إلى عبادة الله عز وجل. وكما قلنا في قصة سيدنا آدم وسيدنا يوسف عليهما السلام، فما كان من أكله من الشجرة، إلا سبباً للنزول والخلافة. وما كان من أمر سيدنا يوسف عليه السلام، إلا سبباً في إسلام أهل مصر، وهكذا الحال مع سيدنا موسى عليه السلام.



قلت: وبهذه الأقوال، نكون قد نزهنا سيدنا موسى عليه السلام مما نُسب إليه من الذنب وتسلط الشيطان عليه. وقد أثبتنا مراراً وتكراراً عصمة الأنبياء، ولا نريد أن نكرر الأدلة على عصمتهم في هذا الموضع، ولكن المتبع للآيات التي تحدثت عن سيدنا موسى عليه السلام في سياق هذه الآيات، وفي مواضع أخرى من القرآن، ويضيفها

(١) كتاب التنوير في إسقاط التدبير ج ١ ص ٥١.



إلى ما أثبتناه من آيات العصمة، سيتيقن أن قول من نسب الذنب والخطيئة وتسلب الشيطان على الأنبياء مرجوح ومردود، كما ادعى أبو الحسين الملقب بالعسقلاني. فيا ليت شعري ماذا يقول في قول الله ﷻ: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، فهل يقبل المسلم أن يتهم سيدنا موسى ﷺ، النبي المرسل من أولوا العزم من الرسل المعصوم، بتسلط الشيطان عليه بما دون الشرك، كما ادعى هؤلاء القوم؟!.

وإذا ما رجعنا إلى السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة، فالله ﷻ يقول قبلها بآيات: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] فهو محفوف بعناية؛ ليصنع على عيني منذ ولادته، ثم لما بلغ أشده قال الله ﷻ عنه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَاسْتَوَىٰ ءَانَيْتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] فهل نتهم الذي آتاه الله العلم والحكمة، ومن أحاطت به يد العناية الإلهية منذ ولادته بالذنب وتسلب الشيطان عليه؟!!!.



الآية السابعة:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول تعالى ذكره مخبراً عن ندم موسى على ما كان من قتله النفس التي قتلها، وتوبته إليه منه، ومسألته غفرانه من





ذلك ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتل النفس التي لم تأمرني بقتلها، فاعف عن ذنبي ذلك، واستره علي، ولا تؤاخذني به، فتعاقبني عليه. عن ابن جريج، في قوله: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي قال: بقتلي من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر، ولم يؤمر. عن أبي بكر بن عبد الله عن أصحابه ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] ثم دفنه في الرمل^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «فإن قلت: لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلماً لنفسه، واستغفر منه؟ قلت: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل، فكان ذنباً يستغفر منه. عن ابن جريج: ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر»^(٢).



قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال ابن عباس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق. فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام، ووجد موسى فرصة، وهي غفلة الناس، فعمد إلى القبطي ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: وكزه، أي: طعنه بجمع كفه. وقال قتادة: وكزه بعصا كانت معه»^(٣).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٥٤١.

(٢) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٣ ص ٣٩٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٦ ص ٢٢٥.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أما قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ فعلى نهج قول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] والمراد أحد وجهين. أما على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى، والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه، وإن لم يكن هناك ذنب قط، أو من حيث حرّم نفسه الثواب بترك المندوب. أما قوله: ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أي فاغفر لي ترك هذا المندوب. وفيه وجه آخر، وهو أن يكون المراد: ربّ إني ظلمت نفسي، حيث قتلت هذا الملعون. فإنّ فرعون لو عرف ذلك لقتلني به، ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أي: فاستره عليّ، ولا توصل خبره إلى فرعون، ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ أي ستره عن الوصول إلى فرعون. ويدل على هذا التأويل، أنه على عقبه قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] ولو كانت إعانة المؤمن ههنا سببا للمعصية، لما قال ذلك»^(١).



قلت: ومعلوم أن قتل القبطي عن غير قصد، فهو من قبيل قتل الخطأ؛ لأنّ الوكزة غالبا لا تقتل، والخطأ معفو عنه عند الله لعدم العزم والقصد.



الآية الثامنة:

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ٢٤ ص ٥٨٥.

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَأَخِي هَكْرُوثٌ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ يقول: أحسن بيانا عما يريد أن يبينه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ يقول: عوناً ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ أي يبين لهم عني ما أخاطبهم به. كما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق ﴿وَأَخِي هَكْرُوثٌ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي يبين لهم عني ما أكلهم به، فإنه يفهم ما لا يفهمون^(١).



وقال الطبري رحمه الله تعالى في موضع آخر: «يقول تعالى ذكره: قال موسى: رب إنني قتلت من قوم فرعون نفسا، فأخاف إن أتيتهم، فلم أبن عن نفسي بحجة أن يقتلون؛ لأن في لساني عقدة، ولا أبين معها ما أريد من الكلام»^(٢).



قال الزخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: «عن ابن عباس: كان في لسانه رتة لما روى من حديث الجمرة. قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَكْرُوثٌ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُيبُ﴾ [الزخرف: ٥٢] وكان في لسان الحسين بن علي رضي الله عنهما رتة، فقال رسول الله ﷺ: «ورثها من عمه موسى»^(٣).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٣ ص ٥٧٧.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٨ ص ٢٤٩.

(٣) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٣ ص ٦١.

التفسير العرفاني:

قال صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قال أبو بكر بن طاهر: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ لأنه لم يسمع خطابك ولم يخاطبك، فهو أفصح مني لسانا مع الخلق، كيف أكون فصيحاً معهم، وقد سمعت لذة كلامك؟ وكيف أخاطبهم مع مخاطبتك، إني لم أستلذ مخاطبة بعدك، ولم ألتذ بكلام غيرك»^(١).



قلت: لا تختلف مع المفسرين في سبب هذه الآية، ولكن قد يفهم القارئ أنَّ سيدنا هارون عليه السلام هو الذي تولى التبليغ، والكلام مع فرعون وأعوانه. والمتبع لآيات القرآن الكريم، يجد أنَّ سيدنا موسى عليه السلام هو من تصدر للحديث، وأن الله قد أجاب دعوة سيدنا موسى، وحلَّ له عقدة لسانه، وأعطاه الفصاحة. وسيدنا هارون عليه السلام كان عوناً له في المجادلة والمناظرة. ومن بركة دعاء سيدنا موسى عليه السلام أنَّ الله أرسل هارون معه وزيراً وعوناً، فنال الشرف الأكبر. أما الخبر الذي ذكره الزمخشري عن سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما فلم يصح، وليس له سند، فلم تكن في لسان سيدنا الحسين عليه السلام رتبة أبداً.



(١) عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٣ ص ٨٩.

القول الفصل في خبر موسى والخضر عليهما السلام

تُعتبر هذه القصة من أكثر القصص التي تناولتها أقلام المهتمين بتفسير القرآن، وأهل التصوف والدروس المستنبطة من هذه القصة في تربيتهم وسلوكهم. والعلماء استدلوا بها على فضل طلب العلم وآدابه، واختلافهم بنبوة الخضر وولايته. والاختلاف وقع نتيجة فهم الآيات القرآنية في سورة الكهف، وهي حمالة أوجه. وكلٌ يستدل بها على صحة ما ذهب إليه. وسنحاول أن نبين التفسير الأنزه لها، اعتماداً على أقوال العارفين بالله، ونوضح بعض الأمور التي تخص سيدنا الخضر عليه السلام.



الآيات القرآنية:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾
 ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ، قَالَ أَقْنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَٰذَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنَبَا أَهْلَ





فَرِيَةٍ أَسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ.
 قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ
 تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا
 وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا
 أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا
 ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
 صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ
 أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ [الكهف: ٦٥-٨٢]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: «يقول تعالى ذكره: «قال موسى للعالم: هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنَ» من العلم الذي علّمك الله ما هو رشاد إلى الحق، ودليل على هدى؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٦٧﴾ يقول تعالى ذكره: قال العالم: إنك لن تطيق الصبر معي، وذلك أني أعمل بباطن علم علّمنيّه الله، ولا علم لك إلا بظاهر من الأمور، فلا تصبر على ما ترى من الأفعال، كما ذكرنا من الخبر عن ابن عباس قبل من أنه كان رجلا يعمل على الغيب، قد علم ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾. يقول عز ذكره مخبرا عن قول العالم لموسى: «وكيف تصبر يا موسى، على ما ترى مني من الأفعال التي لا علم لك بوجوه صوابها، وتقييم معي عليها، وأنت إنما تحكم على صواب المصيب،

وخطأ المخطئ، بالظاهر الذي عندك، وبمبلغ علمك، وأفعالي تقع بغير دليل ظاهر لرأي عينك على صوابها؛ لأنها تبتدئ لأسباب تحدث آجلة غير عاجلة، لا علم لك بالحادث عنها؛ لأنها غيب، ولا تحيط بعلم الغيب خبراً.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٧٠) يقول تبارك وتعالى: قال العالم لموسى: «إِنْ اتَّبَعْتَنِي الْآنَ، فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ أَعْمَلُهُ مِمَّا تَسْتَنْكِرُهُ، فَإِنِّي قَدْ أَعْلَمْتُكَ أَنِّي أَعْمَلُ الْعَمَلَ عَلَى الْغَيْبِ الَّذِي لَا تَحِيطُ بِهِ عِلْمًا». ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ يقول: حتى أحدث أنا لك مما ترى من الأفعال التي أفعَلُها التي تستنكرها، اذكرها لك وأبين لك شأنها، وأبتدئك الخبر عنها^(١).



قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: «أعلم أَنَّ المتعلم على قسمين؛ متعلم ليس عنده شيء من العلم، ولم يمارس القيل والقال، ولم يتعود التقرير والاعتراض. ومتعلم حصل العلوم الكثيرة، ومارس الاستدلال والاعتراض، ثم أنه يريد أن يخالط إنساناً أكمل منه؛ ليلبغ درجة التمام والكمال. والتعلم في هذا القسم الثاني شاق شديد، وذلك لأنه إذا رأى شيئاً أو سمع كلاماً، فربما كان ذلك بحسب الظاهر منكراً، إلا أنه كان في الحقيقة حقاً صواباً. فهذا المتعلم لأجل أنه ألف القيل والقال، وتعود الكلام والجدال يغتر ظاهره، ولأجل عدم كماله لا يقف على سره وحقيقته. وحينئذ يقدم على النزاع، والاعتراض، والمجادلة، وذلك مما يثقل سماعه على الأستاذ الكامل المتبحر. فإذا اتفق مثل هذه الواقعة

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٨ ص ٧٠-٧١.



مرتين أو ثلاثة، حصلت النفرة التامة، والكراهة الشديدة. وهذا هو الذي أشار إليه الخضر بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) إشارة إلى أنه ألف الكلام، وتعود الإثبات والإبطال، والاستدلال والاعتراض. وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨) إشارة إلى كونه غير عالم بحقائق الأشياء كما هي»^(١).



وقال الرازي رحمه الله تعالى: «ذلك العالم كان قد آتاه الله قوة عقلية، قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور، ويطلع بها على حقائق الأشياء، فكانت مرتبة موسى عليه السلام في معرفة الشرائع والأحكام، بناء الأمر على الظواهر. وهذا العالم كانت مرتبته الوقوف على بواطن الأشياء، وحقائق الأمور، والاطلاع على أسرارها الكامنة. فبهذا الطريق ظهر أن مرتبته في العلم كانت فوق مرتبة موسى عليه السلام»^(٢).



قال إسماعيل حقي رحمه الله تعالى في تفسيره: «﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨) من طريق التعلم بالإشارة، لا بالعبرة. والغالب عليك إنما هو طريق العبارة، لا طريق الإشارة، كما أن الغالب عليّ طريق الإشارة، لا طريق العبارة»^(٣).



(١) مفاتيح الغيب المعروف التفسير الكبير ج ٢١ ص ٤٨٤.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف التفسير الكبير ج ٢١ ص ٤٨٩.

(٣) روح البيان ج ٥ ص ٢٧٢.



ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨) أي كيف تصبر على فعل يخالف مذهبك ظاهرا، ولم يطلعك الله على الحكمة في إتيانه باطنا، ومذهبك إنك تحكم بالظاهر على ما أنزل الله عليك من علم الكتاب، ومذهبي أن أحكم بالباطن على ما أمرني الله من العلم اللدني، وقد كوشفت بحقائق الأشياء ودقائق الأمور، في حكمة إجرائها^(١).

قال صدر الدين البقلي رحمه الله تعالى في تفسيره: «قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) لكونك غير مطلع على الأمور الغيبية، والحقائق المعنوية؛ لعدم تجردك، أو احتجابك بالبدن وغواشيه، فلا تطيق مرافقتي»^(٢).



قلت: بعد أن نذكر التفسير الذي لا يليق بمقام سيدنا موسى عليه السلام، سنرد على هذه الأقوال تباعا.

التفسير العرفاني:

قال الزجاج رحمه الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥) يعني به الخضر، وقيل إنما سمي الخضر؛ لأنه كان إذا صلى في مكان، اخضر ما حوله. وفيما فعله موسى - وهو من جلة الأنبياء، وقد أوتي التوراة، من طلبه العلم، والرحلة في ذلك، ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم. قوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) هذا قول الخضر

(١) روح البيان ج ٥ ص ٢٧٦.

(٢) عرائس البيان في حقائق القرآن ج ٢ ص ٤٣٢.



لْمُوسَى، ثم أعلمه العلة في ترك الصبر، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨) أي وكيف تصبر على ما ظاهره منكر، والأنبياء والصالحون لا يصبرون على ما يرونه منكراً^(١).



قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى في تفسيره: «ولما سأله صُحْبَتُهُ قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) لأنك رسول مكلف بحفظ ظواهر الشرائع، وأنا أطلعني الله تعالى على أمور خفية، لا تتمالك أن تصبر عنها؛ لمخالفة ظاهرها للشيعة. وفي صحيح البخاري: «قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ»^(٢). ثم علل عدم صبره بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨) لأنني أتولى أموراً خفية، لا خبر لك بها، وصاحب الشريعة لا يُسلم لصاحب الحقيقة العارية من الشريعة»^(٣).



قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «وما أذهله إلا سلطان الغيرة التي جعلها الله ﷻ في الرسل عليهم السلام على مقام شرع الله على أيديهم، فله أنكروا وتكرر منه عليه السلام الإنكار، مع تنبيه العبد الصالح في كل مسألة، ويأبى سلطان الغيرة إلا الاعتراض»^(٤).



(١) معاني القرآن وإعرابه ج ٢ ص ٣١١.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٤٧٧٢.

(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٢٨٩.

(٤) الفتوحات المكية ج ٤ ص ٧١٦.



قال الشيخ عبد العزيز الدباغ رحمته الله: «إنَّ الصغير قد يكون أقوى من الكبير في مشاهدة هذه الحوادث. وذلك؛ لأنَّ الكبير غائب عنها فيما هو أقوى منها، وهو مشاهدة الحق سبحانه، بخلاف الصغير، فإنه يقصد إليها؛ لأنها محل مشاهدته، وإن كانت له مشاهدة للحق سبحانه، فهي لا تكون مثل مشاهدة الكبير. وبالجملة، فالكبير يقوى في مشاهدة الحق سبحانه، ويضعف في مشاهدة الخلق. والصغير بالعكس، يقوى في مشاهدة الخلق، ويضعف في مشاهدة الحق سبحانه. وعلى هذا، يخرج ما وقع بين سيدنا الخضر وبين سيدنا موسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، مما قصه الله تعالى في كتابه العزيز من أمر السفينة، والغلام، والجدار. فإن علم ذلك إنما غاب عن سيدنا موسى عليه السلام؛ لأنه في مشاهدة ما هو أقوى منه، وهو الحق سبحانه، فعدم علم موسى عليه السلام بذلك، هو غاية الكمال.

قال: «ومثاله مع الخضر في ذلك كمثّل عبيدين للملك. أما أحدهما، فضمه الملك إلى نفسه، وجعله جليسا له، لا شغل له، إلا الوقوف بين يدي الملك، والنظر في وجهه، إذا خرج الملك خرج معه، وإذا دخل دخل معه، وإذا أكل أكل معه، وإذا شرب شرب معه، وإذا تحدث تحدث معه. والعبد الآخر، مكّنه الملك من التصرف في رعيته، فيخرج للرعية، وينفذ فيهم أمر الملك، ويتحدث معهم في أمورهم، وما يصلح أحوالهم، وربما غاب عن الملك الغيبة الطويلة؛ لتنفيذ بعض الأمور. فلا يشك أنَّ العبد الأول أقرب إلى الملك، وأعرف بأسرار ذاته من الثاني، مع أنه إذا سئل عن شيء من أمور الرعية، وما يدخل فيها وما يخرج، ولا سيما إن بعدت الرعية من مدينة الملك، فإنه لا يعرفه معرفة الثاني. وهكذا كانت حال موسى مع الله تعالى، فإنه مثل العبد الأول، وسيدنا الخضر مثل العبد الثاني، فإن

سيدنا موسى أكبر منه قدرا بلا نزاع؛ لأنه رسول الله، وكليمه، وصفه^(١).



قال الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى: «قال الله تعالى حكاية عن موسى أنه قال للخضر عليهما السلام: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مَعًا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ وفي الآية إشارة إلى أن الكبير، قد لا يعلم بعض العلوم التي تكون عند الصغير، وذلك فيما يتعلق بالكوائن، وحوادث العالم، لا في العلم بالله تعالى، فإن الأنبياء أعلم بالله من الأولياء»^(٢).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «سيدنا موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وسيدنا الخضر عليه السلام من الأولياء، ولا يصل الولي إلى مقام النبوة أبدا. وما حصل من قصة موسى والخضر عليهما السلام، أن الله عز وجل بعد أن دلنا على أهل الخصوص، من أهل حضرته من أنبيائه ورسله في القرآن الكريم، أراد أن يبين لنا أن الله عبادا من أهل الحضرة والخصوص، ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، وإنما هم من الأولياء والصالحين، وخصّهم بالعلم اللدني، والكشف الكبير، وعلمهم من لدنه علما، فذكر لنا هذه القصة التي فيها من العبر والمواعظ، ما ليس في غيرها. ففيها الحث على طلب العلم، وآداب طالب العلم، والتسليم لأهل الله فيما يعرفونه، ولا نقيس الأمور على عقولنا، ولا يلزم من تعليم سيدنا الخضر لسيدنا موسى الأفضلية والأعلمية عليه، فأين الكليم من الولي العارف؟!»

(١) الأبريز ج ١ ص ٦٩٩.

(٢) المواقف، ج ٢ ص ١٩٣، الموقف الخامس والخمسون بعد المئتين.

فأراد الله تعالى أن يُبين لنا بعض مقامات عبادته، كما حصل في قصة سيدنا سليمان عليه السلام، حينما طلب أن يُؤتى بعرش بلقيس، فهل نقول: أن الذي أتى بالعرش أفضل من سليمان؟ كلا وحاشا. فلا أعلمية للخضر على موسى عليهما السلام، كما فهم البعض. ولو كان الخضر أعلم من موسى عليه السلام، لبعثه الله ﷻ إلى فرعون وإلى بني إسرائيل لهدايتهم، فكيف يبعث الأقل علما؟! وموسى عليه السلام لم يكن يستفهم منه على ما فعل، بل كان يعترض وبقوة. فرييس الدولة، ليس له علم بمهنة الحداد والفلاح، فهل نقول: أن الفلاح أعلى رتبة من الرئيس، وإن تعلم منه بعض أمور الزراعة؟!!

وفي قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ثلاثة أمور بثلاثة أمور حدثت مع سيدنا موسى عليه السلام:

فالأول: حادثة خرق الخضر للسفينة، واعتراض موسى عليه السلام، فهي تُقابل ما حصل لموسى عليه السلام في صغره، وكأن الله ﷻ يقول له: ألم نحفظك حين ألقتك أمك في اليم، وأنت طفل رضيع، لا حول لك ولا قوة؟!.

الثاني: عندما قتل الغلام بأمر الله ﷻ لمصلحة لاحقة، واعتراض موسى عليه السلام، فذكره الله ﷻ: ألم تقتل الرجل خطأ، وكان في هذا القتل خروجك من مصر، ورجوعك إليها نبيا رسولا؟!.

الثالث: عندما أقام الجدار، واعتراض موسى عليه السلام، وقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿٧﴾ فذكره الله ﷻ: ﴿لَمْ تَسْئَلْنِي لِبَنَاتِ شَعِيبَ بْنِ مَرْيَمَ أَنْ تَأْخُذَ أَجْرًا؟﴾. فهذه ثلاثة بثلاثة.





قلت: إن سيدنا موسى أفضل وأعلى مقاما ودرجة من سيدنا الخضر عليهما السلام بالإجماع. وفيما ذكره العارفون من بيان حقيقة الأمر بالعبارة وضرب المثال، ما فيه توضيح المقال.

أما ما ذكره الطبري في أن سيدنا الخضر عليه السلام يعلم الغيب، وسيدنا موسى عليه السلام لا يعلمه مرجوح؛ لأن الأنبياء عليهم السلام قد أطلعهم الله تعالى على الغيب، ولا يلزم من قول الخضر عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨) أن سيدنا موسى لا يعلم الغيب، ولا يدل على أعلمية الخضر على موسى عليهما السلام، وإلا لقلنا بأعلمية الهدهد على سليمان، حينما قال له: ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ (٢٢) [النمل: ٢٢]. ولو كان سيدنا موسى عليه السلام لا يعلم حقيقة الأمر، لما سلم للخضر عليه السلام وعذره حينما قال له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ لأنه لا يُعقل أن يقتل الرجل شخصا، ويقول للقاضي: وما فعلته عن أمري، ويصدق القاضي، إلا إذا كان القاضي على بينة من الأمر، ولكن وظيفته تقتضي التحقيق والاعتراض على ما يراه مخالفاً في الظاهر، لكنه إذا ما أراد الحكم، فلا يحكم إلا بالحق. وهذا حال سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام.

وبهذا يتبين أن قول الإمام الرازي من أن الخضر أكمل من موسى وأعلم منه مرجوح، فلو ذهب شيخ الأزهر إلى صاحب حرفة ما ليسأله عن أمر، فهل يقول عاقل: أن صاحب الحرفة أعلم من شيخ الأزهر وأكمل؟! أم يجب أن نحدد أنه أعلم منه في هذه الحرفة فقط، ولا يقتضي الأمر أنه أفضل، وأكمل، وأعلم. فلا يليق القول بأن علم الخضر فوق مرتبة موسى عليه السلام؛ لأن سيدنا موسى عليه السلام أفضل من الخضر اتفاقاً، فإن الخضر يمثل حكم الحكم القدري، وسيدنا موسى يمثل الحكم الشرعي، وكلاهما حكم الله سبحانه تعالى.



أما قول إسماعيل حقي: أَنَّ الخضر أعلم بالإشارة لا بالعبرة، والغالب على موسى عليه السلام إنما هو طريق العبرة، لا طريق الإشارة، فمرجوح؛ لأن الأنبياء أعلم الخلق إشارة وعبرة، والقرآن الكريم تكلم معنا بالإشارة والعبرة، فالإشارة كالحروف المقطعة في بداية السور. فهم أعلم الناس بالأمرين، وما يترقى الأولياء في سماء المعرفة والتجليات، إلا بالاقتداء والاستمداد من الأنبياء عليهم السلام.

أما قول البقلي رحمه الله تعالى: قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ١٧ ﴿﴾ لكونك غير مطلع على الأمور الغيبية والحقائق المعنوية؛ لعدم تجردك، أو احتجابك بالبدن وغواشيه، فلا تطيق مرافقتي، فمردود جملة وتفصيلاً، فأين بشرية النبي المرسل من بشرية الولي، وأين رقة الحجاب لدى الكليم من رقة الحجاب لدى الخضر عليهما السلام، وحتى على رأي القائلين بنبوة الخضر، فأين تجرد موسى من تجرد الخضر عليهما السلام؟!.

الخلاصة: كان من المفترض التأدب مع مقام الكليم، وإن علم الخضر عليه السلام شيئاً، فلا يدل على عدم علم موسى عليه السلام. وإذا أردنا أن نقول بالأعلمية، فيجب أن نحدد، ولا نجعلها على إطلاقها، ولا نسلب من موسى عليه السلام علمه بالحقائق والغيبات.



مسائل تتعلق بسيدنا الخضر عليه السلام

المسألة الأولى: الخضر عليه السلام بين النبوة والولاية:

انقسم العلماء والأولياء في سيدنا الخضر عليه السلام إلى فريقين:

القول الأول: قال النووي رحمه الله تعالى في «بستان العارفين»: «أقوال العلماء في الخضر عليه السلام. واستدل القشيري وغيره بقصة الخضر مع موسى صلوات الله عليه وسلامه، قالوا: ولم يكن نبياً؛ بل كان ولياً؛ وهذا خلاف المختار. والذي عليه الأكثرون، أنه كان نبياً. وقيل: كان نبياً رسولاً. وقيل: كان ولياً. وقيل: ملكاً»^(١).

قلت: تبين مما مضى أن الإمام النووي وأكثر العلماء يقولون بنبوته، ودليلهم قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾

القول الثاني: أنه ولي، ومن العارفين الكبار، وليس نبياً ولا رسولاً، وهذا قول أكثر العارفين بالله من الأولياء والصالحين، ممن التقوا بسيدنا الخضر، وأخذوا عنه.

قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي قدس الله سره: «ولما علم الخضر أن موسى عليه السلام ليس له ذوق في المقام الذي عليه الخضر، كما أن الخضر ليس له ذوق فيما عليه موسى من العلم الذي علّمه الله، إلا أن مقام الخضر لا يعطي الاعتراض على أحد من خلق الله؛ لمشاهدة خاصة هو عليها. ومقام موسى

(١) بستان العارفين ج ١ ص ٥٤.



والرسل يعطي الاعتراض من حيث هم رسل لا غير، في كل ما يروونه خارجاً عما أرسلوا به. ودليل ما ذهبنا إليه في هذا قول الخضر لموسى عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨) ﴿فَلَوْ كَانَ الْخَضِرَ نَبِيًّا لَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾﴾ فالذي فعله لم يكن من مقام النبوة»^(١).

وقال أيضاً: «أن يكون الله قد عرّف ولياً من أوليائه، بما يُجرّيه في خلقه كالخضر، ويعلمه علوماً من لدنه، تكون العبارة عنها بهذه الصيغ التي ينطق بها الرسول ﷺ، كما قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾»^(٢).

وقال أيضاً: «قال رسول الله ﷺ فيمن أعطى الولاية من غير مسألة، أن الله يعينه عليها، وإن الله يبعث إليه ملكاً يسدده، يريد عصمته من الغلط فيما يحكم به، قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وقال عليه السلام: «إن يكن في أمتي محدثون فمنهم عمر»»^{(٣)(٤)}.

وقال أيضاً: «ومن حصّل علوم الوهب مما ليس بشرع جماعة قليلة من الأولياء، منهم الخضر على التعيين، فإنه قال: من لدنه»^(٥).



(١) الفتوحات المكية ج ١ ص ٤٨٨.

(٢) الفتوحات المكية ج ١ ص ٤٩١.

(٣) ولفظ البخاري: إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَىٰ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأَمَمِ مُحَدِّثُونَ وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. حديث رقم ٣٥٠٧.

(٤) الفتوحات المكية ج ١ ص ٥٧١.

(٥) الفتوحات المكية ج ١ ص ٦٧٥.



قال الشيخ عبد العزيز الدباغ رحمته الله: «عندما سأله تلميذه ومريده الشيخ أحمد بن المبارك: «وهل سيدنا الخضر نبي، كما ذهب إليه بعض العلماء، حتى قال الحافظ ابن حجر في شرح «البخاري»: «ينبغي اعتقاد نبوته؛ لئلا يكون غير النبي أعلم من النبي». فقال رحمته الله: «ليس بنبي، وإنما هو عبد أكرمه الله بمعرفته، وأمده بالتصرف في رعيته، وأعطاه من تمام التصرف وكمال المعرفة، ما يعطي للغوث من هذه الأمة المحمدية. وأدرك ذلك الخضر بلا شيخ ولا سلوك، بل أمده الله تعالى بذلك ابتداء. فهذه درجته، وهي لا تبلغ مبلغ النبوة ولا الرسالة، وليس في علم الخضر بما سبق في تلك الأمور دون موسى، ما يوجب أن يكون غير النبي أعلم من النبي، لما سبق أن موسى عليه السلام شغل عن ذلك بمشاهدة الحق التي لا عوض لها ولا مثيل، فلا يحتاج حينئذ إلى اعتقاد نبوته».

فقلت: والذين قالوا بنبوته استدلوا بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨٢) فقال رحمته الله: «وكل غوث وقطب وغيرهما من أصحاب التصرف، لا يفعلون شيئاً ولا يتصرفون في حادث إلا بأمر الله، وليس ذلك بنبوة ولا رسالة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك» (١).



قال الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى: «الخضر مختلف في نبوته عند الفقهاء، حتى قال الحافظ بن حجر: «ينبغي أن يكون الخضر نبياً؛ لئلا يكون غير النبي أعلم من النبي». وأما أهل طريقنا رضوان الله عليهم، فلا خلاف

(١) الأبريز ص ٦٣٩.

بينهم أنه غير نبي، وإنما هو من الأفراد الذين لهم مقام القربة، الذي بين النبوة والصدقية»^(١).



قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا

﴿١٥﴾ أي من عندنا، لا بواسطة الرسل؛ لذلك يسمونه العلم اللدني، كأنه لا حرج على الله تعالى أن يختار عبدا من عباده، وينعم عليه بعلم خاص من وراء النبوة. إذن، علينا أن نفرق بين علم وفيوضات تأتي عن طريق الرسول وتوجيهاته، وعلم وفيوضات تأتي من الله تعالى مباشرة لمن اختاره من عباده؛ لأن الرسول يأتي بأحكام ظاهرية تتعلق بالتكاليف: افعل كذا، ولا تفعل كذا، لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية، لها علل باطنة فوق العلل الظاهرية، وهذه هي التي اختص الله بها هذا العبد الصالح الخضر عليه السلام كما سماه النبي ﷺ. والدليل على ذلك، أن النبي يأتي بأحكام تحرم القتل، وتحرم إتلاف مال الغير، فأتى الخضر، وأتلف السفينة، وقتل الغلام، وقد اعترض موسى عليه السلام على هذه الأعمال؛ لأنه لا علم له بعلتها، ولو أن موسى عليه السلام علم العلة في خرق السفينة، لبادر هو إلى خرقها. إذن، فعلم موسى غير علم الخضر؛ لذلك قال له: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿١٦﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿١٧﴾ فهذا علم ليس عندك، فعلمي من كيس الولاية، وعلمك من كيس الرسل، وهما في الحقيقة لا يتعارضان، وإن كان لعلم الولاية علل باطنة، ولعلم الرسالة علل ظاهرة»^(٢).



(١) المواقف، ج ٢ ص ١٩٣، الموقف الخامس والخمسون بعد المئتين.

(٢) تفسير وخواطر القرآن الكريم ج ١٤ ص ٨٩٥٣.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: «العلماء قالوا بأن الخضر عليه السلام ولي وليس نبيا؛ لأنه قال: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وهم لا يتصورون أن الأولياء الكبار، كالوارث المحمدي والأقطاب، لا يفعلون شيئا إلا بأمر الله تعالى، وهذا ما يقتنع به العلماء، وكان من الأفضل التسليم في هذا الأمر، فالوارث المحمدي في كل زمان، لا يتصرف ولا يفعل إلا ما أمره الله به؛ لأنه في مقام خليفة الله في أرضه، وهذا ما بينه كبار الأولياء في كتبهم. ثم إن الله تعالى ذكر جميع الأنبياء في القرآن الكريم، ولم يذكر معهم الخضر عليه السلام.

لقد أمره الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام النبي المرسل المشرع أن يأخذ بالأسباب ويسير معها تشريعا للأمة، فأمره أن يذهب للقاء الخضر، وعين له علامة غير مألوفة ولا معهودة تدل على مكان لقاءه بالعبد الصالح، وهي أن يسبح السمك المشوي في البحر، وهذا سبب ظاهري. ولما التقى بالخضر، قال: السلام على العبد الصالح، فأجاب الخضر: أهلا بموسى بنى إسرائيل، مكاشفاً له باسمه؛ لأنه ولي وغير مشرع، وقد إذن الله تعالى له أن يتعامل مع الأمور بغير الالتفات إلى الأسباب الظاهرة، على عكس سيدنا موسى عليه السلام، والذي يأخذ بالأسباب أعلى درجة من الذي لا يأخذ بالأسباب».



قلت: وكثير من الأولياء قد اتقوا بالخضر عليه السلام، ولقنهم الورد، وألبسهم الخرقة، كما حصل مع سيدي محيي الدين بن عربي قدس الله سره، وسيدي عبد العزيز الدباغ قدس الله سره. وقال الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس الله سره: «إن الخضر عليه السلام بدرجة الغوث من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله». وقال بعض الأولياء: «قد



يكون الغوث من أمة سيدنا محمد ﷺ أعلى درجة من الخضر عليه السلام، وهذا لكمل الأولياء، كسيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله، قال العلامة الشيخ محمد بن يحيى الحلبي رحمه الله تعالى في كتابه «قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر» عن الشيخ عبد القادر قدس الله سره قال: «جاءني أبو العباس الخضر ليمتحنني بما امتحن به الأولياء من قبلي، فكشف الله لي عن سريره، ففتح عليّ بما خاطبته به، ثم قلت له وهو مطرق: «أَنْ يَا خَضْرُ، إِنْ كُنْتَ قُلْتَ لِمُوسَى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ١٧ ﴿فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، يَا خَضْرُ إِنْ كُنْتَ إِسْرَائِيلِي، فَأَنَا مُحَمَّدِي. فَمَا أَنَا وَأَنْتَ، وَهَذِهِ الْكُرَّةُ، وَهَذَا الْمِيدَانُ، وَهَذَا فَرْسِي مَسْرُجٌ مَلْجَمٌ، وَقَوْسِي مُوتَرٌ، وَسَيْفِي شَاهِرٌ».

وقال الخطاب خادم الشيخ عبد القادر رحمه الله: «كان الشيخ يتكلم على الناس، فخطأ في الهواء خطوات، وقال: قف واسمع كلام المحمدي، ثم رجع إلى مكانه، فقليل له في ذلك، فقال: مر أبو العباس الخضر عليه السلام، فخطوت إليه، وقلت له ما سمعتم»^(١). وهذا ما سمعناه من مشايخنا الغوث محمد الحلاب رحمه الله، والشيخ حسين الحلاب رحمه الله والشيخ حسن الحلاب رحمه الله، فهم من القائلين بولاية الخضر عليه السلام، وكثيراً ما كان يجتمع بشيخنا حضرة الشيخ محمد الحلاب رحمه الله في أيام صباه وشبابه، وكان يقضي له بعض الأمور، ويرشده في بعض الأحيان دون معرفته به. وبعد أن نال الولاية الكبرى والوراثة المحمدية، قال: علمنا أنَّ من كان يقضي لنا بعض الأمور، هو الخضر عليه السلام، وقالوا أن الخضر عليه السلام مربي الأولياء والصالحين، وما من ولي من كبار العارفين إلا والتقى بسيدنا الخضر عليه السلام وأخذ عنه وتلقى منه في بداية أمره وسيره.



(١) كتابه قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر ص ١٣.



المسألة الثانية: هل أفعال الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار بالسر والإشارة أم بالعمل الظاهر والمجهود؟

القول الأول: أنه خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار بالسر والإشارة.

قال إسماعيل حقي في تفسيره: فسواه الخضر بالإشارة بيده كما هو المروي عن النبي عليه السلام، وكان طول الجدار في السماء مائة ذراع. ومعنى قتله أشار بأصابعه الثلاث الإبهام والسبابة والوسطى، وقلع رأسه^(١).



قال عبد الرزاق رحمه الله تعالى في تفسيره: فخرجا حتى لقيّا غلاما يلعب مع الغلمان، فقال بيده هكذا، كأنه اجتبذ رأسه فقطع رأسه، فقال له: ﴿أَقْنَلْتَ نَفْسًا رَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ وقال بيده هكذا وعدله بيده^(٢).



قلت: ويحتج بعض القائلين بهذا الرأي، أنه لو خرق السفينة وقتل الغلام أمام الناس لمنعوه، ولو أقام الجدار لتتطلب وقتا لعمل ذلك.

القول الثاني: فعل الخضر عليه السلام ما فعل بالظاهر وبيده، وبذل مجهودا في ذلك.

قال ابن عجيبة قدس الله سره في تفسيره: فلما لَجَّجُوا الْبَحْرَ أَخَذَ الْخَضِرُ فَأَسَّا فَخَرَقَ السَّفِينَةَ، فقلع لوحًا أو لوحين مما يلي الماء، فحشاها موسى بثوبه،

(١) روح البيان ج ٥ ص ٢٨٢-٢٧٩.

(٢) تفسير عبد الرزاق ج ٢ ص ٣٤٠.

وقال أحرقتُها لتُغْرِقَ أهلها، فانطلقا حتَّى إذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قِيل: كان يلعب مع الغلمان فقتلَ عنقه، وقيل: ضرب رأسه بحجر، وقيل: ذبحه^(١).



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: لم يفعل الخضر عليه السلام ما فعل بالسر، وإن كان يستطيع ذلك، ولكن فعله بالظاهر وبمجهود، ومن الممكن أن يخرق السفينة من مكان معين دون أن يراه الناس، أما قتله للغلام فيستطيع أن يقتله دون أن يراه الناس في لحظة ابتعاده عن الناس، ولننظر إلى آيات القرآن ففيها الجواب الشافي لنا، قال الله عز وجل: ﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، فلو كان الأمر بالسر لعلمه سيدنا موسى عليه السلام ولا يعترض عليه ولا يحتاج إلى سؤاله. والاتباع يكون بالظاهر، ولو كان بالباطن لما تجشم عناء السفر، وأعطاه الله عز وجل علامة فقدان الحوت للقاء بالخضر عليه السلام، فالقصة من بدايتها اخذت بالأسباب الظاهرة.

ثم إن الله عز وجل قال: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ٧٧ لو كان إقامة الجدار بالسر فكيف طلب سيدنا موسى عليه السلام من الخضر عليه السلام أن يتخذ عليه أجراً؟ وما الدليل على أن الخضر عليه السلام هو الذي أقام الجدار لو طلب من الناس أجراً؟ إذن، كان العمل بالظاهر وبمجهود وأمام الناس، لذلك قال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ٧٧. وأفعال الخضر عليه السلام الثلاثة تقابل أفعال سيدنا موسى عليه السلام الظاهرة كما ذكرناها من قبل.



(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٢٩١.



سورة الكهف

الآية الأولى:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

التفسير الأولي:

قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي أنسانيه بوسوسته إليّ وشغله لقلبي^(١).



التفسير العرفاني:

قال البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره: ولعله نسي ذلك لاستغراقه في الاستبصار وانجذاب شراشره إلى جناب القدس بما عراه من مشاهدة الآيات الباهرة، وإنما نسبته إلى الشيطان هضما لنفسه^(٢).



(١) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٣ ص ٣٢٤.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٣ ص ٢٨٧.



قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدس الله سره: في الحقيقة ما أنساه إلا الاسم الإلهي الذي حكم عليه بذلك، فأضافه إلى الشيطان أدبا مع ذلك الاسم الإلهي الذي أنساه أن يُعرف موسى عليه السلام بحياة الحوت^(١).



قال ابن عجيبة قدس الله سره في تفسيره: ونسبته للشيطان هضمًا لنفسه، واستعمال الأدب في نسبة النقائص إلى الشيطان، وإن كان الكل من عند الله. وهذه الحالة، وإن كانت غريبة لا يعهد نسيانها، لكنه قد تعودَ بمشاهدة أمثالها من الخوارق مع موسى عليه السلام، وألفَهَا قبل اهتمامه بالمحافظة عليها، أو لاستغراقه وانجذابه سره إلى جناب القدس، حتى غاب عن الإخبار بها.

قلت: والظاهر أن نسيانه كان أمرًا إلهيًا قهريًا بلا سبب، وحكمته ما لقي من النصب؛ لتعظم حلاوة العلم الذي يأخذه عن الخضر عليه السلام، فإن المساق بعد التعب ألد من المساق بغير تعب، ولذلك: «حفت الجنة بالمكاره»^(٢).

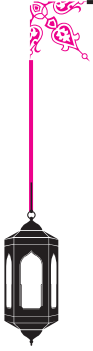


قلت: ونكرر هنا ما ذكرناه سابقا أن الشيطان لا سلطة له على الأنبياء ولا على قلوبهم، وإنما هذا من أدبهم في مخاطبة الحق، فلا ينسبون إليه شيء من التقصير أدبا معه. وهم يعلمون أن كل شيء منه وبيده وَعَلَيْهِ.



(١) لوائح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية، تأليف الشيخ عبد الوهاب الشعراي ج ١ ص ٣٢٧.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٣ ص ٢٨٦.



سيدنا داود عليه السلام

سورة الأنبياء

الآية الأولى:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]

التفسير الأولي:

قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: قول الجمهور من العلماء والمفسرين أن حكمهما كان مختلفاً أصاب فيه سليمان، وأخطأ داود. فأما حكم داود فإنه قضى لصاحب الحرث، وأما حكم سليمان فإنه رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث ليتنفع بدرّها ونسلها، ويدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليأخذ بعمارتها، فرجع داود إلى قضاء سليمان فحكم به، فقال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فجعل الحق معه وفي حكمه، ولا يمتنع وجود الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم^(١).



(١) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٣ ص ٤٥٣.



قال عمر بن سليمان العتيبي رحمه الله تعالى: الأنبياء والرسل يجتهدون في حكم ما يعرض عليهم من وقائع، ويحكمون وفق ما يبدو لهم، فهم لا يعلمون الغيب، وقد يخطئون في إصابة الحق، فمن ذلك عدم إصابة نبي الله داود في الحكم، وتوفيق الله لابنه سليمان في تلك المسألة. فعن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: « وَقَالَ كَانَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّبُّ فَذَهَبَ بِابْنٍ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا إِنَّهَا ذَهَبَ بِابْنِكَ وَقَالَتِ الْأُخْرَى إِنَّهَا ذَهَبَ بِابْنِكَ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ اتَّوْنِي بِالسَّكِينِ أَشَقُّهُ بَيْنَهُمَا فَقَالَتِ الصُّغْرَى لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى^(١) ».



قلت: أخطأ العتيبي في قوله: وقد يُخطئون في إصابة الحق، والماوردي في قوله: إن سيدنا داود عليه السلام اخطأ، وفي قوله: لا يمتنع وجود الغلط والخطأ من الأنبياء، بل يمتنع هذا في حقهم. وسنرد على القول، ونوضح التفسير الذي يليق بمقامه عليه السلام.

التفسير العرفاني:

قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: فداود وسليمان - عليهما السلام - نبيان، لكل منهما مكانته، وقد أعطاهما الله حكماً وعِلماً، ومع ذلك اختلف قولهما في هذه القضية، فما توصل إليه سليمان لا يقدر في علم داود، ولا يطعن في حكمه.

(١) الرسل والرسالات ج ١ ص ١٠٢.



وما أشبه حكم كل من داود وسليمان بمحكمة درجة أولى، ومحكمة درجة ثانية، ومحكمة النقض، ومحكمة الاستئناف، وإياك أن تظن أن محكمة الاستئناف حين ترد قضاء درجة أولى أنها تطعن فيها. فهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فجاء بحكم غير ما حكم به أبوه؛ لذلك فالقاضي الابتدائي قد يحكم في قضية، ويتم تأجيلها إلى أن يترقى إلى قاضي استئناف، فيقرأ نفس القضية لكن بنظرة أخرى، فيأتي حكمه غير الأول^(١).



قال الشيخ عبد العزيز الدباغ رحمته الله: عندما سأله تلميذه الشيخ أحمد بن المبارك عن قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا ءَايِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا قال الشيخ أحمد بن المبارك: قلت له: استدل بهذه القصة من قال إن المصيب واحد، وإن المخطئ معذور بل مأجور إذا بذل اجتهاده ووسعه. فإن داود عليه السلام حكم بإعطاء الغنم لأرباب الحرث يأخذونها قبالة حرثهم الذي أفسدوه، وسليمان عليه السلام حكم بإعطاء الغنم لرب الحرث يستغلها، وأعطى الحرث لرب الغنم يقوم عليه حتى يصلحه كما كان قبل رعي الغنم، فإذا صلح دفع الحرث لأهله ودفعوا له غنمه، فصوب الله سليمان حيث قال ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾.

واستدلوا أيضا بقصة أخرى وقعت بينهما، وهي قصة المرأتين اللتين خطف الذئب ولد الكبرى منهما، فأخذت ولد الصغرى وادعت أنه ولدها، وترافعتا إلى

(١) تفسير وخواطر القرآن الكريم ج ١٥ ص ٩٠٢.



داود عليه السلام، فقضى به للكبرى لأنها ذات الحوز، وقضى سليمان بأن يقسم الولد بينهما نصفين. فلما سمعت الصغرى بقسم الولد نصفين سلمت للكبرى، وقالت هو ولدها، وجعلت الكبرى تطلب قسمه فقضى به للصغرى، وقال للكبرى: لو كان ولدك ما طلبت قسمه.

وبقصة ثالثة وقعت بينهما، وهي أن امرأة ادعى عليها أنها مكنت كلباً من نفسها، فأمر داود برجمها حيث شهد الشهود بذلك. ثم إن سليمان وقع له مع الصبيان وهو يلعب نظير القصة، فحكم بتفريق الشهود ففرقوا، فاختلف قولهم، فرجع داود إلى تفريق الشهود. وبقصة رابعة وقعت بينهما، وهي أن امرأة وجد في فرجها ماء، فادعى أنه مني رجل وأنها زانية، فأمر داود عليه السلام برجمها، فأمر سليمان عليه السلام أن يؤخذ ذلك الماء ويطحخ، فإن عقد فهو ماء أبيض، وإلا فهو مني. فأخذه فطبخوه فوجدوه ماء بيضة، وعلموا أن المرأة مكذوب عليها. انظر ابن حجر في كتاب الأحكام.

فقال رضي الله عنه: كأنكم تقولون أخطأ داود وأصاب سليمان عليهما السلام، وهل يعتقد الفقهاء مثل هذا في الأنبياء عليهم السلام وهم صفوة الله من خليقته، وهم عنده أفضل من الملائكة ومن كل عزيز؟ فإذا جاز عليهم الخطأ وصار يصدر منهم، فأى ثقة تقع لنا بهم حيث صاروا مثلنا، فمعاذ الله أن يكون داود أخطأ.

أما توجيه القصة الأولى: فلأن داود عليه السلام حكم بصميم الحق الذي هو غرمه قيمة الحرث، وإنما أمر بدفع الغنم؛ لأنهم لم تكن عندهم عين في ذلك



الزمان، وإن كانت فهي قليلة، فكانوا يتعاملون بالغنم والمواشي لكثرتها عندهم، فلذلك أمر بدفع الغنم ولم يأمر بدفع العين. وأما سليمان عليه السلام فإنه حكم بالصلح، ورأى أن يدفع منفعة الغنم وغلتها من سمن ولبن وصوف في قيمة الحرث، حتى يرجع الحرث وهو العنب إلى الحالة الصالحة، وهذا إنما يكون مع التراضي. ولا يقال لمن حكم بصميم الحق أنه أخطأ، وإن الذي حكم بالصلح هو الذي أصاب.

وأما توجيه الحكم في القصص الباقية: فإن داود عليه السلام حكم بما يقتضيه ظاهر الحال في القصص الثلاث، وهو الواجب في الحكم؛ إذ لا يجوز للحاكم أن يحكم بغيره. وسليمان عليه السلام تحيل على الباطن حتى رده ظاهراً فحكم به حينئذ. ولا يقال في الحكم الأول أنه أخطأ وإن الثاني هو الصواب، بل كل منهما صواب، وإن كان الأول يجب نقضه عند ظهور الباطن، فنقضه لا يدل على أنه كان حين التنفيذ خطأ، فهو بمثابة عدول شهدوا شهادة زور بأمر، فأمضاه القاضي بناء على شهادتهم، فذلك هو الواجب عليه، وليس ذلك بخطأ منه. فإن تاب الشهود ورجعوا واعترفوا بالزور وجب على القاضي أن يحكم بما يقتضيه رجوعهم، ولا يلزم أن يكون حكمه الأول خطأ.

قال رضي الله عنه: وأعرف رجلاً من فاس يعني نفسه، ذهب إلى أخ له في الله من أهل البصرة يعني سيدي محمد بن عبد الكريم السابق وكان قاضياً، فجلس معه فجاء رجلان يختصمان، فقال أحدهما: إنَّ خصمي أخذ مني ياقوته تساوي مالا عظيماً عريضاً وهي عنده، فقال خصمه: إني أعطيته التفتيش في لباسي



وجميع ما عليّ وأزيد الحلف بالله ما هي عندي. فأراد القاضي أن يحكم بذلك، فقال له جليسه: لا تحكم بينهما. ثم التفت المجلس إلى الخصمين فقال: إن هذا يعني القاضي، أخونا في الله، وقد صنع لنا طعاما فنريد منك أن تحضراه، فإذا أكلنا الطعام نظر القاضي بعد ذلك في أمركما. قال: فذهبنا مع القاضي، فلما حضر الطعام جعل المجلس والقاضي يرمقان المدعى عليه حيثئذ. قال: فتنخم ومسح نخامته في سبتية كانت معه. قال: فأخذها من يده، فإذا الياقوتة خرجت مع النخامة، فأعطيناها للمدعي.

قال رضي الله عنه: فهذه حيلة في رد الباطن ظاهرا، ولو حكم أولا بالتفتيش واليمين لكان حكمه صوابا، وإن كان يعلم بطريق الكشف أنها عند المدعى عليه، فإن الله لم يكلفه بذلك، وجليسه استعمل الحيلة حتى رد الباطن ظاهرا.

فقلت: فهل القاضي كان يعلم بالكشف أنها عند المدعى عليه؟ فقال رضي الله عنه: نعم كان يعلم ذلك هو والمجلس. قال: فهذا نظير ما وقع بين هذين النبيين الكريمين في القصص الثلاث. ففي القصة الأولى حكم به داود للكبرى لأجل الحوز والحوز يقضي به، وحكم في الثانية بالرجم لأجل الشهادة، وفي الثالثة حكم به أيضا لأجل وجود العلامة. وسليمان تحيل في القصص الثلاث حتى رد الباطن ظاهرا، والله تعالى أعلم^(١).



(١) الابريز ج ١ ص ٧٩-٨٢.



قلت: لا يجوز أن نرمي سيدنا داود عليه السلام بالخطأ والله سبحانه يقول في حقه ﴿وَكَلَّا ءَايِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ويقول عنه: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، ومعلوم أن المستخلف يتجلى على خليفته بأسمائه وصفاته، ويعطيه من الصلاحيات في التصرف في المملكة ما لا يعطيه لغيره، فهو مؤتمن أمين حكيم عليم، وحاشا أن يجعل الله تعالى خليفة يحكم بهواه ويخطأ في حكمه. وكلام الماوردي والعتيبي مردود، فلا يجوز الخطأ والغلط في حق الأنبياء، فأين ذهب العصمة والحفظ من النفس والهوى والشيطان.

قال الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى في كتابه «دلالة القرآن المبين على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل العالمين» في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ويؤخذ منه أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يخطئ، وإلا لما وجب التسليم لحكمه تسليماً مطلقاً، فالآية ترد قول الذين شذّوا بتجويز الخطأ عليه. وأشار التاج السبكي في «جمع الجوامع» إلى ردّ هذا القول الشاذ بقوله: «والصواب أن اجتهاده عليه السلام لا يخطئ»^(١).



(١) موسوعة العلامة المحدث عبد الله بن الصديق الغماري ج ٩ ص ٥٣.

سورة ص

الآية الثانية:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصِمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجَاحِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۖ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۖ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ۖ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ۖ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢١-٢٥].

التفسير الأولي:

قال مقاتل رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصِمِ﴾ يعني حديث الخصم ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ وذلك أن داود قال: رب اتخذ إبراهيم خليلاً وكلمت موسى تكليماً، فوددت أنك أعطيتني من الذكر مثل ما أعطيتها، فقال له: إني ابتليتها بما لم أبتلك به، فإن شئت ابتليتك بمثل الذي ابتليتها، وأعطيتك مثل ما أعطيتها من الذكر، قال: نعم، قال: اعمل عملك. فمكث داود - عليه السلام - ما شاء الله - عز وجل -، يصوم نصف الدهر، ويقوم



نصف الليل، إذا صلى في المحراب فجاء طير حسن ملون فوق إليه فتناوله فصار إلى الكوة، فقام ليأخذه فوق الطير في بستان فأشرف داود فرأى امرأة تغتسل فتعجب من حسننها، وأبصرت المرأة ظله فنفضت شعرها فغطت جسمها، فزاده ذلك بها عجباً، ودخلت المرأة منزلها، وبعث داود غلاماً في أثرها إذا هي بتسامح امرأة أدريا بن حنان، وزوجها في الغزو في بعث البلقاء الذي بالشام، مع «نواب» بن سوريا ابن أخت داود- عليه السلام- فكتب داود إلى ابن أخته بعزيمة أن يقدم أدريا فيقاتل أهل البلقاء، ولا يرجع حتى يفتحها أو يقتل فقدمه فقتل- رحمة الله عليه-. فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود، فولدت له سليمان بن داود، فبعث الله- عز وجل- إلى داود- عليه السلام- ملكين، ليستنقذه بالتوبة، فأتوه يوم رأس المائة في المحراب وكان يوم عبادته الحرس حوله، ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ فلما رآهما داود قد تسوروا المحراب فزع داود، وقال في نفسه: لقد ضاع ملكي حين يدخل على بغير إذن.

﴿قَالُوا﴾ فقال أحدهما لداود: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ يعني ولا تجر في القضاء ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ يقول أرشدنا «إلى قصد الطريق» ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ إن هذا أخي يعني الملك الذي معه ﴿لَهُ تِسْعٌ وَسَعُونَ نَجَّةً﴾ يعني تسع وتسعون امرأة، وهكذا كن لداود. ثم قال: ﴿وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ يعني امرأة واحدة، ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ يعني أعطينها ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ يعني غلبني في المخاطبة، إن دعا كان أكثر مني ناصراً، وإن بطش كان أشد مني بطشاً، وإن تكلم كان أبين مني في المخاطبة قال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى تَجَاجِهِ﴾ يعني بأخذه التي لك من الواحدة، إلى التسع والتسعين التي له



﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ يعني الشركاء ﴿يَتَّبِعِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ليظلم بعضهم بعضا إلا استثناء، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «إلا» الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يظلمون أحدا ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يقول هم قليل فلما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك فلم يفتن لهما فأحبا يعرفاه فصعدا تجاه وجهه، «وعلم» أن الله تبارك وتعالى ابتلاه بذلك ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ إِنَّمَا فُتِنَتْهُ﴾ يقول وعلم داود أنا ابتليناه ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ يقول وقع ساجدا أربعين يوما وليلة وأنااب يعني ثم رجع من ذنبه تائبا إلى الله - عز وجل - ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ مثل قوله: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ١٥٤] يعني ركوعا فغفرنا له ذلك يعني ذنبه^(١).



التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ فهو نظير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩] وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها؛ ليكون داعيا إلى الإصغاء لها والاعتبار بها. وأقول للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال؛ أحدها: ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه. وثانيها: دلالتها على الصغيرة. وثالثها: بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة.

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها: أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٣ ص ٩٦٣، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢١ ص ١٧٤-١٧٥.



بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها، فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه. فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة.

والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه:

الأول: أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدّهم فجوراً لاستنكف منها. والرجل الحشوي الخبيث الذي يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه، وربما لعن من ينسبه إليها. وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه.

الثاني: أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين؛ إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع في زوجته.

فأما الأول: فأمر منكر قال ﷺ: «من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله»

وأما الثاني: فمنكر عظيم قال ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» وإن أوريا لم يسلم من داود لا في روحه ولا في منكوحه.

والثالث: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات المذكورة، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة في البيان.

فنقول أما الصفات الأولى: فهي أنه تعالى أمر محمداً ﷺ بأن يقتدي بـداود



في المصابرة مع المكابدة. ولو قلنا إنَّ داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى في إراقة دم امرئ مسلم لغرض شهوته، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمداً أفضل الرسل بأن يقتدي بـداود في الصبر على طاعة الله.

وأما **الصفة الثانية**: فهي أنه وصفه بكونه عبداً له، وقد بينا أنَّ المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملاً في موقف العبودية تاماً في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات. ولو قلنا إنَّ داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة، فحينئذ ما كان داود كاملاً في عبوديته لله تعالى بل كان كاملاً في طاعة الهوى والشهوة.

الصفة الثالثة: هو قوله: ذا الأيد، أي ذا القوة، ولا شك أنَّ المراد منه القوة في الدين، لأنَّ القوة في غير الدين كانت موجودة في ملوك الكفار، ولا معنى للقوة في الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات، والاجتناب عن المحظورات، وأي قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة في زوجه المسلم؟!.

الصفة الرابعة: كونه أواباً كثير الرجوع إلى الله تعالى، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغولاً بالقتل والفجور؟.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ [ص: ١٨]، أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذها وسيلة إلى القتل والفجور؟!.

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: ١٩] وقيل إنه كان محرماً عليه صيد شيء من الطير، وكيف يعقل أن يكون الطير آمناً منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه؟!.

الصفة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: ٢٠] ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا، بل المراد أنه تعالى شد ملكه بما يقوي الدين وأسباب سعادة الآخرة، والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا، ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك؟!.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علما وعملا، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى: أنا آتيناه الحكمة وفصل الخطاب مع إصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه في الروح والمنكوح، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب.

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشرة؛

الأول: قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥] وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته في طاعة الله، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: ٢٥] لائقا به.

الثاني: قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] وهذا يدل على كذب تلك القصة.

والثالث: وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه، ومؤخرتها أيضا دالة على ذلك. فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله، يقتل

ويزني ويسرق وقد جعله الله خليفة في أرضه وصوب أحكامه. وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا هاهنا. ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب.

والرابع: وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا في هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار، وحصل للذبيح من الذبح، وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب، فأوحى الله إليهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا. فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء، فأوحى الله إليه أنك ستبلى في يوم كذا فبالغ في الاحتراز ثم وقعت الواقعة، فنقول أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يتلىه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه، فالسعي في قتل النفس بغير الحق والإفراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة، ويثبت أن الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها.

والخامس: أن داود عليه السلام قال: ﴿وَأَن كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ يُبَغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي، فلو قلنا أنه كان موصوفاً بالبغي لزم أن يقال أنه حكم بعدم الإيمان على نفسه، وذلك باطل.

والسادس: حضرت في بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك، فقلت له: لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الأنبياء والرسل، ولقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ومن مدحه الله تعالى



بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ في الطعن فيه، وأيضا فبتقدير أنه ما كان نبيا فلا شك أنه كان مسلما، ولقد قال ﷺ: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير» ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شيء من هذه الدلائل إلا أنا نقول إنَّ من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقية صحيحة، فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئا من الثواب؛ لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من إلا توجب الثواب. وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة، فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها، فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أنَّ الحق ما ذهبنا إليه، وأن شرح تلك القصة محرم محذور. فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت ولم يذكر شيئا.

والسابع: أنَّ ذكر هذه القصة وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضي إشاعة الفاحشة، فوجب أن يكون محرما لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [النور: ١٩].

والثامن: لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله: «من سعى في دم مسلم ولو بخطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله» وأيضا لو فعل ذلك لكان ظلما فكان يدخل تحت قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

والتاسع: عن سعيد بن المسيب أنَّ علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين» وهو حد الفرية على الأنبياء.



والعاشر: روي أنَّ بعضهم ذكر هذه القصة على ما في كتاب الله تعالى فقال لا ينبغي أن يزداد عليها، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت، ثم أنه تعالى لم يذكرها لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام، فلا يجوز للعاقل أن يسعى في هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر، فقال عمر: «سماعي هذا الكلام أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس».

وليس في لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به في إلحاق الذنب بدادود إلا ألفاظ أربعة

أحدها: قوله: ﴿وَضَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ وثانيها: قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾. وثالثها: قوله: ﴿وَأَنَابَ﴾ ورابعها: قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ ثم نقول، وهذه الألفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكره.

وتقريره من وجوه:

الأول: أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق، وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم، إلا أنه مال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلبا لمرضاة الله، قال وكانت هذه الواقعة هي الفتنة؛ لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان، ثم أنه استغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم، وتاب عن ذلك الهم وأناب، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم.

والثاني: أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه، إلا أنه ندم على ذلك الظن، وقال: لما لم تقم دلالة ولا أمانة على أن الأمر كذلك، فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الرديء، فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَضَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] منه فغفر الله له ذلك.



الثالث: أنَّ دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله، كما قال في حق محمد ﷺ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] فداود عليه السلام استغفر لهم وأنا، أي رجع إلى الله تعالى في طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل، وقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ [ص: ٢٥] أي غفرنا له ذلك الذنب لأجل احترام داود ولتعظيمه، كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ [الفتح: ٢] أنَّ معناه أنَّ الله تعالى يغفر لك ولأجلك ما تقدم من ذنب أمتك.

الرابع: هب أنه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه، لكن لا نسلم أنَّ تلك الزلة وقعت بسبب المرأة، فلم لا يجوز أن يقال إنَّ تلك الزلة إنما حصلت لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني، فإنه لما قال: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالٍ نَجَّيَكَ إِلَيْهِ نَجَّاهُ﴾ [ص: ٢٤] فحكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة، لكون هذا الحكم مخالفاً للصواب، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة، إلا أنَّ هذا من باب ترك الأفضل والأولى فثبت بهذه البيانات أننا إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه، فإنه لا يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه.

ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه:

الأول: أنَّ الأصل في حال المسلم البعد عن المناهي، لا سيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل. والثاني: أنه أحوط. والثالث: أنه تعالى قال في أول الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَذَكَرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

﴿١٧﴾ [ص: ١٧]، فإن قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا:

﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿٤﴾ [ص: ٤] واستهزئوا به حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا عَمَلْنَا قَطَنًا قَبْلَ

يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٦﴾ [ص: ١٦] فقال تعالى في أول الآية: اصبر يا محمد على سفاهتهم

وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب، واذكر عبدنا داود، فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان

داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش

والغضب، وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية على ما ذكرناه^(١).



قال ابن عجيبة قدس الله سره وبعض أهل التفسير: لا يصح هذا في

حق الأنبياء، وما يُحكى أنه بعث أوريا إلى الغزو مرة بعد مرة، وأحب أن يُقتل

ليتزوجها، فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أبناء الناس، فضلاً عن بعض أعلام

الأنبياء. وقال علي - كرم الله وجهه -: مَنْ حَدَّثَكُمْ بِحَدِيثِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى

مَا يَرُوهُ الْقِصَاصُ جَلَدَتْهُ مِائَةٌ وَسِتِينَ، وَهُوَ حَدِّ الْفَرِيَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - يَعْنِي الْحَدَّ

مَرَّتَيْنِ - وَرُوِيَ: أَنَّ رَجُلًا حَدَّثَ بِهَا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ

أَهْلِ الْحَقِّ، فَكَذَّبَ الْمَحْدَّثَ، وَقَالَ: إِنْ كَانَتِ الْقِصَّةُ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَمَا يَنْبَغِي

أَنْ يُلْتَمَسَ خِلَافُهَا، وَلَا أَنْ يُقَالَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ، وَقَدْ سَتَرَهَا

اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ، فَمَا يَنْبَغِي إِظْهَارُهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ عُمَرُ: لَسَمَاعِي لِهَذَا الْكَلَامِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا

طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ^(٢).



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٦ ص ٣٧٧-٣٨٢.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٥ ص ١٥، معاني القرآن وإعرابه ج ٤ ص ٣٢٥.



قال الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى في المواقف: اعلم أن داود عليه السلام كان إنسانا كاملا وخليفة ظاهرا وباطنا، وما نص الله تعالى في كتابه على خلافة أحد إلا عليه في قوله: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] وآدم عليه السلام في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] والإنسان الكامل الخليفة له استعداد للظهور بجميع الأسماء الإلهية على التمام (ذاتية وصفاتية) لأنه مخلوق على الصورة، وذلك ممكن غير واقع. ولما ظهر داود عليه السلام بالأسماء التسعة والتسعين المشار إليها في قوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا» تعلقته همته بالظهور بكمال المئة، وهو الاسم الذاتي الخاص بها، غار الحق تعالى من المشاركة باسم الذات، فأرسل تعالى إلى داود ملكين في صورة رجلين، أحدهما نائب عن الحق تعالى والآخر نائب عن داود عليه السلام، فقال النائب عن الحق تعالى: ﴿خَصَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ أي عدل عن خلقه وطلب ما غير مستحقه، يريد داود فيما سمت همته إليه. ﴿فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ وهو إعطاء مستحق حقه، وليس لداود حق في الظهور بالاسم الذاتي وإن كان له استعداد لذلك..... وبعد أن سمع الادعاء بادر داود عليه السلام بقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ يريد داود نفسه، لا الملك الذي نائبه، وظن داود عليه السلام عند ذلك أن الوارد الذي ورد عليه بطلب الظهور بالاسم المكمل مئة، إنما هو فتنة واختبار من الحق تعالى له، ثم راجع علمه. فإن المثل المضروب أذهله وأقلقه، فاستغفر ربه من هذا الظن الذي صدر منه فلتة لا غير، ولذا كان التعبير بـ (فاء) فالاستغفار والانابة مفرعان عن الظن؛ إذ ليس للكامل أن يظن بربه هذا، إنما يأتي ما يأتي بإلقاء إلهي، إما بواسطة ملك أو من جهة الوجه الخاص به.



والحكمة هنا أن لا يطلب أحد من الخلفاء الكاملين بعد داود عليه السلام الظهور بالاسم الذاتي وهو المكمل مئة، فإنه إذا منعه داود وهو المنصوص على خلافته فغيره ممن لم ينص الحق على خلافته أولى بالمنع. فإياك أن تسمع لخرافات القصّاص والمؤرخين ومن قلدهم من بعض المفسرين المولعين بنقل أمثال هذا عن أهل الكتاب. فإن مقام النبوة أعلى من أن يتكلم فيه برأي أو قياس، وأعز أن يدرك لغيا نبي، فما علم العلماء من مقام النبوة الاسم إلا علم الناس من النجوم عند ظهورها في الماء، فالحذر الحذر من الخوض في النبوة والأنبياء مطلقا، فالله يعصمنا وإياكم من الزلل في القول والعمل^(١).



قال الشيخ المحدّث عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى: فتنة سيدنا داود عليه السلام فزع في حضرة مولاه، والأولى أن لا يفزع^(٢).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: فتنة سيدنا داود عليه السلام أن جعله الله ﷻ حاكما وملكا على الناس، وكان محبا لعبادة ربه، وكان يعمل يوما في صناعة الحديد ويأكل من عمل يده، ويتفرغ يوما لعبادة ربه، ويتفرغ يوما للحكم بين الناس، فكان يحتجب عن الناس يومين، يوم العمل ويوم العبادة، والله تعالى أراد أن يكون حاكما للناس حتى لا يؤجل الخصومة بين الناس، وسيدنا داود فضل هواه في عبادة ربه عن القيام بما كلفه الله ﷻ بالخلافة والحكم

(١) المواقف ج ١ ص ٢٤٧، الموقف السابع والأربعون بعد المئتين.

(٢) بدع التفاسير.



بين الناس. ففتنته أنه فضل عبادة ربه على ما أقامه الله به في الحكم بين العباد، فقال الله ﷻ لداود ﷺ: أُعْبِدْنِي بِمَا أَقَمْتُكَ فِيهِ. أما قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ لا يدل على فعل الذنب؛ لأنه لم يذنب بل فعل خلاف الأولى وهو إرادة التفرغ للعبادة، والله يريد منه ألا يؤجل القضاء بين الناس. ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] أي لا تتبع هواك في عبادتي وتحتجب عن الخصوم فيتأخر القضاء عن وقت الحاجة، وبالتالي يحتمل أن الخصمان كادوا يقتتلون، فتعجلا الدخول على داود ﷺ في محرابه يوم خلوته، فأدرك داود أن ما كان ينبغي له أن يحتجب عن الناس فيتأخر حل النزاعات والإصلاح بين الناس.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمه الله: كل ما ذكر من القصص التي فيها إساءة لسيدنا داود ﷺ من الإسرائيليات ولا يصح منها شيء، ولا يصح أن ننسبها لأحد المؤمنين فضلا أن ننسبها إلى نبي مرسل.

والحكمة من كل ما حدث في هذه الواقعة تعليم القضاة والحكام من زمن داود ﷺ إلى أن يرث الله الأرض عن طريق نبيه داود ﷺ أن الحاكم لا بد أن يستمع للطرفين قبل الحكم. وإلا فسيدنا داود ﷺ قد علمه الله الحكمة وفصل الخطاب. فخر داود ﷺ راعيا وأتاب استغفارا كي يعلمنا إذا ما حصل معنا نفس الأمر وحكمنا لشخص على الآخر دون سماع الطرف الثاني، فهذا من الذنوب ولا بد من الاستغفار منه.

وأنا ب سيدنا داود ﷺ شكر الله على ما أولاه من النعم. فخاطبه ربه قائلا:
﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ فبعد ما علمه الحكم
بطريقة عملية، جعله خليفته في أرضه وحاكماً لأهل الأرض فيما يختصمون به.



قلت: والظاهر أن الخصمين كانا من بني إسرائيل قوم سيدنا داود ﷺ وليسوا ملكين؛ وذلك لعدة أسباب، منها: إنها أساء في طريقة دخولهم على نبي مكرم، فدخلوا من غير إذن ومن غير باب، وخاطباه بطريقة لا تليق بأدب الملائكة، فقالا له **لا تشطط** والنهي عن الشطط دليل على تجويزهم وقوع ذلك منه وهو نبي معصوم وهذا من سوء الأدب مع الأنبياء، وهذا كان ديدن بني إسرائيل مع أنبيائهم، فصبر سيدنا داود عليهم، ولذلك قال الله لسيدنا محمد ﷺ قبل سوق هذه القصة ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] ثم شرع في سوق هذه الحادثة تطيباً لخاطر حبيبه ﷺ، وكون سيدنا داود ﷺ فزع منهم؛ لأنه يعلم اعتياد بني إسرائيل على قتل الأنبياء.



الآية الثالثة:

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ يقول: ولا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه، فتجور عن الحق ﴿فِيضْلَكَ﴾ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يقول: فيميل بك اتباعك هواك في قضائك على العدل والعمل بالحق عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله^(١).



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي: لا تمل إلى هوى نفسك، فتقضي بغير عدل. ويقال: لا تعمل بالجور في القضاء، ولا تتبع الهوى كما اتبعت في بتشايح، وهي امرأة أوريا، ﴿فِيضْلَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: عن طاعة الله تعالى. ويقال: يعني: الهوى يستزلك عن سبيل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: عن دين الله الإسلام ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ يعني: بما تركوا من العمل ليوم القيامة، فلم يخافوه. ويقال: بما تركوا الإيمان بيوم القيامة^(٢).



قلت: الأنبياء لا يتبعون الهوى أبدا، فهم معصومون عن اتباع الهوى والشيطان. ولا يليق اتهام الأنبياء باتباع الهوى.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢١ ص ١٨٩، مقاتل بن سليمان ج ٣ ص ٦٤٢.

(٢) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٣ ص ١٦٥.

التفسير العرفاني:

قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَى﴾ أي: هواك في عبادتي والتفرغ لذكري، فلا تجعله سببا لعدم قيامك بما أقمتك فيه، وهذا الذي يليق بعصمته عليه السلام، وما ورد في كتب التفسير من اتهامه عليه السلام من رؤيته لزوجة جاره إلى آخر القصة من الإسرائيليات القبيحة، فهو النبي عبادة ربه ولي له هوى نفس. فهو اه إرادة الإقبال على الله تعالى بالعبادة والله تعالى أراد منه الإقبال من خلال الحكم بين الناس.



قلت: رضي الله عن الشيخ يسري جبر حفظه الله على هذا التفسير الذي يليق بمقام النبوة، فمن عرف مقام الأنبياء وعرف من أرسلهم الله تعالى حقيقة التأويل الذي يتفق مع مقاماتهم. وهذا ما نقول به ونعتقده.



سيدنا سليمان عليه السلام

سورة النمل

الآية الأولى:

﴿وَنَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ وَحِثَّتِكَ مِنْ سَيِّئِ بْنِ يَقِينٍ﴾ (٢٢) [النمل: ٢٠-٢٢].

التفسير الأولي:

قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمدة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة، ابتلاء له في علمه، وتنبيهها على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به، لتحققر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفًا له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة^(١).



(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ٣ ص ٣٥٩.

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: قوله: ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ ففيه تنبيه لسليمان على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علما بما لم يحيط به، فيكون ذلك لطفا في ترك الإعجاب والإحاطة بالشيء علما أن يعلم من جميع جهاته^(١).



قال القرطبي رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: أَي عَلِمْتُ مَا لَمْ تَعْلَمْهُ مِنَ الْأَمْرِ فَكَانَ فِي هَذَا رَدُّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ تَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّغِيرَ يَقُولُ لِلْكَبِيرِ وَالْمُتَعَلِّمُ لِلْعَالِمِ: عِنْدِي مَا لَيْسَ عِنْدَكَ إِذَا تَحَقَّقَ ذَلِكَ وَتَيَقَّنَهُ^(٢).



التفسير العرفاني:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاٍ يَقِينٍ﴾ يقول: وجئتك من سبأ بخبر يقين. وهو ما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاٍ يَقِينٍ﴾ أي أدركت ملكا لم يبلغه ملكك^(٣).



-
- (١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٤ ص ٥٥٠.
 (٢) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي ج ١٣ ص ١٨٠، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٤ ص ١٨٩.
 (٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٤٤٥.



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: فإن قيل: كيف يجوز أن يقال إنَّ سليمان لم يعلم به، وكانت أرض سبأ قريبة منه، وهناك ملك لم يعلم به سليمان؟ قيل له: علم سليمان ذلك، ولكنه لم يعلم أنهم يسجدون للشمس. ويقال: أنه علم بها، ولكنه لم يعلم أنَّ ملكها قد بلغ هذا المبلغ، وعلم أنهم أهل الضلالة. والإحاطة هي العلم بالأشياء بما فيها وجهاتها، كما قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ يعني: من أرض سبأ، وهي مدينة باليمن ﴿بِنَايِقَيْنِ﴾ يعني: بخبر صدق لا شك فيه. ويقال: بخبر عجيب^(١).



قال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره: وقد بدأ كلامه بهذا التمهيد، لترغيبه في الإصغاء إلى العذر، واستمالة قلبه إلى قبوله، وليبيان خطر ما شغله، وأنه أمر جليل الشأن يجب أن يتدبر فيه، ليكون فيه الخير له ولمملكته، فهو ما كان إلا لكشف مملكة سبأ، ومعرفة أحوالها، ومعرفة من يسوس أمورها، ويدبر شئونها^(٢).



قال الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: هل يُعد قول الهدهد لسليمان ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ نقصا في سليمان عليه السلام؟ لا، إنما يعد تكريما له؛ لأن ربه عز وجل سخر له من يخدمه، وفرق بين أن تفعل أنت الشيء وبين أن يفعل لك، فحين يفعل لك، فهذه زيادة سيادة وعلو مكانة. كما أنَّ الله تعالى يعلمنا ألا نكتُم مواهب التابعين، وأن نعطي لهم الفرصة، ونفسح لهم المجال ليخرجوا

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٥٧٨.

(٢) تفسير المراغي ج ١٩ ص ١٣١.



مواهبهم، وأن يقول كل منهم ما عنده حتى لو لم نكن نعرفها؛ لأنها خدمة لي. أليس من الكرامة أن يحضر سليمان عرش بلقيس وهو في مكانه ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا إِنِّي عَلَيْكَ بِهٖ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] ونلاحظ أنَّ الهدهد لم يعرف سبأ ما هي، وهذا دليل على أنَّ سليمان عليه السلام يعرف سبأ، وما فيها من ملك، إنما لا يعرف أنه بهذه الفخامة وهذه العظمة^(١).



قلت: كلام الزمخشري والرازي رحمهما الله تعالى يصح إذا كان المعني بالكلام أحد العلماء أو العوام، أما إذا كان صاحب القصة سيدنا سليمان النبي ﷺ فلا يصح القول: « لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة »؛ لأننا نتحدث عن مقام النبوة وهو أعلى مقامات العارفين، والأنبياء لا يصيبهم الإعجاب والكبر، بل هم في حضرة الذل والافتقار لمولاهم في جميع لحظاتهم؛ لأنهم في مشاهدة دائمة.

ويرد على كلام القرطبي رحمه الله الذي قال فيه: « فَكَانَ فِي هَذَا رَدُّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ تَعَلَّمُ الْغَيْبَ، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّغِيرَ يَقُولُ لِلْكَبِيرِ وَالْمُتَعَلَّمُ لِلْعَالِمِ عِنْدِي مَا لَيْسَ عِنْدَكَ إِذَا تَحَقَّقَ ذَلِكَ وَتَيَقَّنَهُ »

أن الآية ليست دليلاً على إنكار علم الأنبياء الغيب، وليست حجة في الرد على الذين يقولون بأن الأنبياء والمرسلين يعلمون الغيب؛ لأن القائلين بعلم الأنبياء الغيب قالوا بتعليم الله تعالى لهم ولا يعلمونه بذواتهم. وكيف ننفي عنهم علم الغيب بتعليم الله لهم، والله يثبتهم في عدة آيات في القرآن الكريم، قال

(١) تفسير وخواطر القرآن الكريم للشعراوي ج ١٧ ص ١٠٧٧٠.

الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَكْفَلَهُمْ يَكْفُلْ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] وفي قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ من التكريم له ﷺ ما لا يعلمه إلا الله ﷻ فهو يخبر عن أقوام قبله بآلاف السنين، ويتكلمون بلغة غير لغته، وهو يروي قصتهم بأدق التفاصيل، حتى أنه حكى مناما جرى بين الوالد والولد فكيف علم هذا؟ علمه ربه ومولاه فقال له: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]

فأخبرنا بعلامات الساعة الصغرى والكبرى، وأحوال القيامة وأحداثها، حتى ذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [آل عمران: ٢٦] فكيف نرد هذه الآيات من تعليم الله الغيب للأنبياء حتى يبلغوا رسالاته بقصة الهدد.

ثم إن استدلال الإمام القرطبي رحمه الله بهذه الآية على جواز أن يقول الصغير للكبير والمتعلم للمعلم: «عندي ما ليس عندك» مرجوح أيضا بالنصوص الكثيرة في القرآن والسنة التي تنص على التزام الأدب مع المعلم حتى وإن كنت أعلم منه، ومن ذلك قصة سيدنا موسى مع الخضر وغيرها. فلا نستدل على إساءة الأدب من الطائر في خطابه مع سيدنا سليمان على جوازه في حق طالب العلم.



الآية الثانية:

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾

[النمل: ٤٤].

التفسير الأولي:

قال مقاتل بن سليمان رحمه الله تعالى في تفسيره: وكشفت عن ساقها فنظر إليها سليمان فإذا هي من أحسن الناس قدمين، ورأى على ساقها شعرا كثيرا فكره سليمان ذلك، فقالت: إنَّ الرمانة لا تدري ما هي حتى تذوقها، قال سليمان: ما لا يحلو في العين لا يحلو «الفم». فلما رأت الجن أنَّ سليمان رأى ساقها قالت الجن لا تكشفني عن ساقك^(١).



قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: عن محمد بن كعب القرظي، قال: قالت الجن لسليمان تزهده في بلقيس: إنَّ رجلها رجل حمار، وإنَّ أمها كانت من الجن. فأمر سليمان بالصرح، فعمل، فسجن فيه دواب البحر: الحيتان، والضفادع. فلما بصرت بالصرح قالت: ما وجد ابن داود عذابا يقتلني به إلا الغرق؟ ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ قال: فإذا أحسن الناس ساقا وقدمًا. قال: فضن سليمان بساقها عن موسى، قال: فاتخذت النورة بذلك السبب. وجائز عندي أن يكون سليمان أمر باتخاذ الصرح لينظر إلى ساقها وقدمها، ليعرف صحة ما قيل له فيها^(٢).



(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٣ ص ٣٠٩.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١٩ ص ٤٧٣.



قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: فشمرت ثيابها كشفت عن ساقها فنظر سليمان إلى ساقها وكانت شعراء، فاستشار سليمان الإنس في ذلك، فأشاروا عليه بالموسى، فقال سليمان: الموسى تخدش ساقها، فاستشار الجن فأشاروا عليه بالنورة، فأصل النورة من ذلك الوقت^(١).



قلت: وكل ما ذكر أنفا من الإسرائيليات التي ملئت كتب التفسير، ومما لا يصح نسبته للأنبياء.

التفسير العرفاني:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: أراد سليمان أن يمتحنها وأن يختبر عقلها، فأمر بتغيير عرشها، فلما رآته: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢] فاستدل بذلك على كمال عقلها، وكان ذلك أمرا ناقضا للعادة، فصار لها آية وعلامة على صحة نبوة سليمان - عليه السلام - وأسلمت: - ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾^(٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ فَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤٤) [النمل: ٤٣-٤٤] كان ذلك امتحانا آخر لها. فقد أمر سليمان الشياطين أن يصنعوا من الزجاج شبه طبق كبير صاف مضيء، ووضعوه فوق بركة بها ماء كثير عميق، يرى الماء من أسفل الزجاج ولا يميز بين الزجاج والماء، وأمرت أن تخوض تلك البركة. فصار ذلك أيضا سببا وموجبا ليقينها^(٢).

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٥٨٣.

(٢) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٣ ص ٤٠.



قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: روى أنَّ سليمان أمر قبل مقدمها ببناء قصر عظيم جعل صحنه من زجاج أبيض شفاف يجري من تحته الماء، وألقى فيه دواب البحر من سمك وغيره. فلما قدمت إليه استقبلها فيه وجلس في صدره، فحين أرادت الوصول إليه حسبته ماء فكشفت عن ساقها؛ لئلا تبتل أذيالها كما هي عادة من يخوض الماء، فقال لها سليمان: إنَّ ما تظنينه ماء ليس بالماء، بل هو صرح قد صنع من الزجاج فسترت ساقها وعجبت من ذلك، وعلمت أنَّ هذا ملك أعز من ملكها، وسُلطان أعز من سلطانها، ودعاها سليمان إلى عبادة الله وترك ما كانت عليه من عبادة الشمس دون الله، فأجابته إلى ما طلب وقالت: رب إني ظلمت نفسي بالثبات على ما كنت عليه من الكفر، وأسلمت مع سليمان لله رب كل شيء وأخلصت له العبادة^(١).



قلت: وهذا هو اللائق بسيدنا سليمان عليه السلام فالأنبياء لا شهوة ولا رغبة لهم إلا في طاعة مولاهم، وما فعله سيدنا سليمان عليه السلام هو اختبار لذكائها، وإظهار لما حباه الله ﷻ من الخصائص التي لا عدَّ لها من تسخير الجن والطير والريح وغيرها. فلما رأت بلقيس ما رأت علمت أنَّ هذا ليس من عمل البشر فأمنت برب سليمان.

أما ما ذكره مقاتل والطبري والسمرقندي فمن الأسرائليات الباطلة التي لا تصح، لأن بني إسرائيل لا يقرون بنبوة سيدنا سليمان عليه السلام ويعتبرونه ملكا، فجوزوا عليه ذلك.

وأما ما ذكره مقاتل رحمه الله من الخطاب الذي دار بين سليمان وبلقيس لا يصح نسبته للعارفين من الأولياء والصالحين، فما بالك بالأنبياء والمرسلين؟!.

(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٤ ص ٥٢٨.

سورة ص

الآية الثالثة:

﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ
بِالْعِشِيِّ الصَّغَفَتِ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي
حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ
﴿٣٣﴾ [ص: ٣٠-٣٣]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: وقوله ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّغَفَتِ الْجِيَادُ﴾ يقول تعالى ذكره: إنه تاب إلى الله من خطيئته التي أخطأها، إذ عرض عليه بالعشي الصافات فإذا من صلة أواب، حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿الصَّغَفَتِ الْجِيَادُ﴾ قال: الخيل أخرجها الشيطان لسليمان، من مرج من مروج البحر. قال: الخيل والبغال والحمير تصفن، والصفن أن تقوم على ثلاث، وترفع رجلا واحدة حتى يكون طرف الحافر على الأرض. حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: ﴿الصَّغَفَتِ﴾ الخيل، وكانت لها أجنحة. وقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالة الظاهر عليه من ذكره: فلهي عن الصلاة حتى فاتته، فقال: إني أحببت حب الخير. ويعني بقوله ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾: أي المال والخيل، أو الخير من المال^(١).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢١ ص ١٩٣.

قلت: لا نختلف مع الإمام الطبري في أنَّ سيدنا سليمان انشغل بالخييل عن ذكر ربه، ولكن لم يكن هذا الانشغال عن هوى، ولا قوله: «الخييل أخرجها الشيطان لسليمان» فهذا من الإسرائيليات الموجودة في كتب التفسير.

التفسير العرفاني:

قال الماوردي رحمه الله تعالى في تفسيره: قاله الحسن وقتادة: ولم يكن ما اشتغل عنه من الصلاة فرضاً، بل كان نفلاً؛ لأن ترك الفرض عمداً فسق، وفعل ذلك تأديباً لنفسه^(١).



قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ بمعنى أنَّ هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره، لا عن الشهوة والهوى، وهذا الوجه أظهر الوجوه^(٢).



قال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ قد يحب الإنسان شيئاً وهو يتمنى ألا يحبه، كالمريض الذي يشتهي ما يزيد مرضه، والوالد الذي يحب ولده السيء السيرة والخلق، وقد يحب شيئاً وهو يرى أنَّ من المصلحة أن يحبه، ومن الخير أن يزداد شغفه به، وتلك هي غاية المحبة، فسليمان عليه السلام يقول: إني أحب حبي لهذه الخيل، وتلك المحبة إنما حصلت

(١) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ج ٥ ص ٩١.

(٢) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٦ ص ٣٩٠.



عن ذكر ربي وأمره لا عن الشهوة والهوى. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي فجعل يمسح سوقها وأعناقها إظهارا لكرامتها لديه، إذ هي أعظم الأعوان في دفع العدوان، ولا سيما وقد بلاها وخبر أمرها وعلم قوة أسرها، وأنها خلو من الأمراض التي قد تعوقها عن عملها حين البأساء^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: أي انشغل في معاينة الخيل حتى غابت الشمس، فقال: ردوها عليّ، فذبحها ووزعها على الفقراء، فدل على أنّ كل ما يُشغلك من زينة الدنيا عن ذكر مولاك فعليك أن تتخلص منه في طاعة كصدقة وتبرع. فلما شغلته عن ذكر الله تصدق بالخيّل. وهذا ما فعله أيضا سيدنا أبو طلحة عندما كان يصلي في بستانه يبرّحاء فأعجب به، وخاف أن يشغله عن صلاته، فجعله صدقة لله ورسوله.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: الآية تدل على أنّ سيدنا سليمان انشغل بالخيّل عن ذكر الله فذبحها، وفيه حكمة عظيمة للسالكين، فيجب على السالك الذي يريد الوصول إلى حضرة مولاه أن يزيع من أمامه الدنيا الزائلة ويخرجها من قلبه، فبعد أن ضحى سيدنا سليمان بالخيّل لأجل الله عز وجل وآثر طاعة مولاه عما شغله عنه، أبدله الله خيرا مما ترك ومدحه فقال الله عز وجل: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ۝٣٧ وَآخِرِينَ مُفْرِّينَ

(١) تفسير المراغي ج ٢٣ ص ١١٨.

فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّكَابٍ ﴿٤٠﴾ [ص: ٣٦-٤٠]

فأبدله الله ﷻ بالريح عن الخيل وسخر له الشياطين، وقال: إِنَّ لِسُلَيْمَانَ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّكَابٍ؛ لأنه ضحى بها يحب من أجلنا.



الآية الرابعة:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ ﴿٣٤﴾

[ص: ٣٤]

التفسير الأولي:

قال مجاهد رحمه الله تعالى وبعض أهل التفسير: عن مجاهد: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ يقول: « شيطانا، يقال له آصفا، فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ فقال له آصف: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه سليمان خاتمه نبذه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه ومنع الله آصفا نساء سليمان فلم يقربهن، فأنكرته أم سليمان، وكان سليمان يستطعم، ويقول: لو عرفتموني أطعمتموني، أنا سليمان فيكذبونه، فأعطته امرأة يوما حوتا ينظف لها بطنها فوجد خاتمه في بطنها، فرجع إليه ملكه، ودخل آصف في البحر فارا ». عن سعيد بن المسيب، قال: « احتجب سليمان بن داود عن الناس، ثلاثة أيام، فأوحى الله عز وجل إليه يا سليمان: احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر



في أمور عبادي، ولم تنصف لي مظلوما من ظالم، وكان ملك سليمان في خاتمه، وكان إذا دخل الحمام وضعه تحت فراشه، ودخل الحمام يوما ووضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان فألقاه في البحر، وجلس في مجلسه على فراشه، وأقبل الناس نحو الشيطان، وجاء سليمان فجعل يقول للناس: أنا سليمان، أنا نبي الله فيدفعونه، فسأل في كفه أربعين يوما، ثم أتى أهل السفينة فأعطوه حوتا فشقه، فإذا هو بالخاتم، فتختم به، ثم جاء فأخذ بناصية ذلك لشيطان فعند ذلك قال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] وكان أول من أنكره نساؤه، فقال بعضهن لبعض: أتُنكرن ما ننكر^(١).



قال مقاتل رحمه الله تعالى في تفسيره: لقد ابتلينا سليمان أربعين يوما وألقينا على كرسيه يعني سريره جسدا يعني رجلا من الجن يقال له صخر بن عفير بن عمرو بن شرحبيل، ويقال إن إبليس جده، ويقال أيضا اسمه أسيد ثم أناب، يقول ثم رجع بعد أربعين يوما إلى ملكه وسلطانه، وذلك أن سليمان غزا العمالة فسيى من نسائهم، وكانت فيهم ابنة ملكهم فاتخذها لنفسه فاشتقت إلى أبيها، وكان بها من الحسن والجمال ما لا يوصف، فحزنت وهزلت وتغيرت فأنكرها سليمان أن يتخذ لها شبه أبيها، فاتخذ لها صنما على شبه أبيها، فكانت تنظر إليه في كل ساعة، فذهب عنها ما كانت تجد، فكانت تكنس ذلك البيت وترشه حتى زين لها الشيطان فعبدت ذلك الصنم بغير علم سليمان لذلك، وكانت لسليمان جارية من أوثق أهله عنده قد كان وكلها بخاتمه، وكان سليمان لا يدخل الخلاء

(١) تفسير مجاهد ج ١ ص ٥٧٤، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٢١ ص ١٩٦.



حتى يدفع خاتمه إلى تلك الجارية. وإذا أتى بعض نسائه فعل ذلك، وأن سليمان أراد ذات يوم أن يدخل الخلاء فجاء صخر وقد نزع سليمان خاتمه ليناوله الجارية، ولم يلتفت، فأخذه صخر فألقاه في البحر وجلس صخر في ملك سليمان، وذهب عن سليمان البهاء والنور فخرج يدور في قرى بني إسرائيل. فكلما أتى سليمان قوما رجموه وطرده تعظيماً لسليمان - عليه السلام - وكان سليمان إذا لبس خاتمه سجد له كل شيء يراه من الجن والشياطين وتظله الطير، وكان خرج من ملكه في ذي القعدة وعشر ذي الحجة ورجع إلى ملكه يوم النحر، وذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أربعين يوماً ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ يعني رجع إلى ملكه، وذلك أنه أتى ساحل البحر فوجد صيادا يصيد السمك فتصدق منه، فتصدق عليه بسمكة فشق بطنها فوجد الخاتم فلبسه فرجع إليه البهاء والنور، وسجد له كل من رآه، وهرب صخر فدخل البحر، فبعث في طلبه الشياطين فلم يقدرُوا عليه حتى أشارت الشياطين على سليمان أن يتخذ على ساحل البحر، كهيئة العين من الخمر، وجعلت الشياطين تشرب من ذلك الخمر ويلهون، فسمع صخر جلبتهم فخرج إليهم فقال لهم: ما هذا اللهو والطرب قالوا مات سليمان بن داود وقد استرحنا منه، فنحن نشرب ونلهو، فقال لهم وأنا أيضاً أشرب وألهو معكم، فلما شرب الخمر فسكر، أخذوه وأوثقوه وأتى به سليمان فحفر له حجراً فأدخل فيه وأطبق عليه بحجر آخر، وأذاب الرصاص فصب بين الحجريين وقذف به في البحر فهو فيه إلى اليوم. فلما رجع سليمان إلى ملكه وسلطانه قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْتَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٢٥)، فوهب الله - عز وجل - له من الملك ما لم يكن له ولا لأبيه داود - عليهما السلام (١).



(١) تفسير مقاتل بن سليمان ج ٣ ص ٦٤٣.



قال الزجاج رحمه الله تعالى: وأكثر ما جاء في التفسير أنَّ « جسدًا » ههنا شيطان، وأن سليمان أمر ألا يتزوج امرأةً إلا من بني إسرائيل، فتزوج من غيرهم امرأةً كانت تعبد غير الله، فعاقبه الله بأن سلبه ملكه وكان ملكه في خاتمه فدفعه عند دخوله الحمام إلى شيطان، وجاء في التفسير أنه يقال له صخر، فطرحه في البحر فمكث أربعين يوماً يتيه في الأرض حتى وجد الخاتم في بطن سمكة. وكان شيطان تصور في صورته وجلس مجلسه، وكان أمره ينفذ في جميع ما كان ينفذ فيه أمر سليمان، خلا نساء سليمان^(١).



قلت: من الواضح أنَّ جميع هذه الروايات من الخرافات والإسرائيليات باتفاق أهل التفسير، ولا أعلم كيف أورد هؤلاء الأئمة هذه الروايات في كتبهم.

التفسير العرفاني:

قال الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: واعلم أنَّ أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه:

الأول: أنَّ الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع. فلعل هؤلاء الذين رأهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال، ومعلوم أنَّ ذلك يبطل الدين بالكلية.

الثاني: أنَّ الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة

(١) معاني القرآن وإعرابه ج ٤ ص ٣٣٢.

لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلا أن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى.

والثالث: كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح.

الرابع: لو قلنا إنَّ سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه؟!.

فأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء:

الأول: أنَّ فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه، فسبيلنا أن نقتله، فعلم سليمان ذلك فكان يريه في السحاب. فبينما هو مشغول بمهماتِه إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله، فاستغفر ربه وأناب.

الثاني: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره، فو الذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرساناً أجمعون» فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾.

الثالث: قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، وألقينا على كرسيه منه جسدا، وذلك لشدة المرض. والعرب تقول في الضعيف أنه لحم على وضم وجسم بلا روح، ثم أناب أي رجع إلى حال الصحة، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه، ولا حاجة البتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة.

الرابع: أقول لا يبعد أيضا أن يقال أنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم أنه أزال الله عنه ذلك الخوف، وأعادته إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب^(١).



قال الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره: وروى عن النبي ﷺ: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتى بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾. وهذا ونحوه مما لا بأس به. أما ما يروى من حديث الخاتم والشياطين وعبادة الوثن في بيت سليمان، فالله أعلم بصحته، ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا: هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل. وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن: قبيح^(٢).



(١) مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ج ٢٦ ص ٣٩٣.

(٢) الكشف للزمخشري ج ٤ ص ٩٤.

قال الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ وكان سيدنا سليمان عليه السلام يستمتع بما آتاه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده، وسخر له الجن والرياح وعلمه كل اللغات، وكان صاحب الأوامر والنواهي والهيمنة، ثم وجد نفسه قاعدا على كرسية بلا حراك وبلا روح، ويقدر عليه أي واحد من الرعية، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده، وهو ما يقوله الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾. أي: أنه أفاق لنفسه، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مفاض عليه، لا أمر نابع من ذاته^(١).



قلت: وأي من هذه التفسيرات نستطيع أن نأخذ به ما دام به تنزيه النبي من الخرافات التي ذكرت بحقه.



(١) تفسير وخواطر القرآن الكريم للشعراوي ج ١٠ ص ٦١٨٤.

سيدنا زكريا عليه السلام

سورة مريم

الآية الأولى:

﴿ قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝۸ ﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝۹ ﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝۱۰ ﴾ [مريم: ۸- ۱۰]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: حدثني موسى قال حدثنا عمرو قال حدثنا أسباط، عن السدي: لما سمع النداء زكريا، لما سمع نداء الملائكة بالبشارة بيحيى - جاءه الشيطان فقال له: يا زكريا، إنَّ الصوت الذي سمعت ليس هو من الله، إنما هو من الشيطان يسخر بك ولو كان من الله أوحاه إليك كما يوحى إليك في غيره من الأمر فشك مكانه، وقال: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ذكر؟ يقول: من أين؟ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقرة. حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني حجاج عن أبي بكر، عن عكرمة قال: فأتاه الشيطان فأراد أن يكدر عليه



نعمة ربه فقال: هل تدري من ناداك؟ قال: نعم نادتني ملائكته ربي، قال: بل ذلك الشيطان وكان هذا من ربك لأخفاه إليك كما أخفيت نداءك فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ فكان قوله ما قال من ذلك، ومراجعته ربه فيها راجع فيه بقوله: ﴿أَنْ يَكُونُ لِي غَلَمٌ﴾ للوسوسة التي خالطت قلبه من الشيطان حتى خيلت إليه أن النداء الذي سمعه كان نداء من غير الملائكة، فقال: ﴿أَنْ يَكُونُ لِي غَلَمٌ﴾ مستتباً في أمره، ليتقرر عنده بآية يريها الله في ذلك أنه بشارة من الله على ألسن ملائكته، ولذلك قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾^(١).



قلت: وهذا من الإسرائيليات التي ذكرت في كتب التفسير، وفيها اتهام صريح لله ورسله بعدم قدرتهم على كشف مكائد الشيطان. وسوغوا للشيطان أن يتلاعب بالأنبياء والرسل كيف شاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



التفسير العرفاني:

قال السمرقندي رحمه الله تعالى في تفسيره: فقال زكريا عند ذلك لجبريل عليه السلام: قال رب، يقول: يا سيدي أنى يكون لي غلام، يعني: من أين يكون لي ولد؟ ويقال: إنما قال ذلك على وجه الدعاء لله تعالى، فقال: يا رب من أين يكون لي ولد؟ وكانت امرأتي عاقراً من الولد، وقد بلغت من الكبر عتياً، يقول: تحول العظم مني يابساً، ومنه يقال: قلب عات، إذا كان قاسي القلب غير لين،

(١): جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٦ ص ٣٨٢.

ويقال لكل شيء انتهى: فقد عتي. ولم يكن زكريا شاكا في بشارة الله عز وجل، ولكن أحب أن يعلم من أي وجه يكون^(١).



قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد، أمن هذه المرأة وهي عاقر أم من امرأة أخرى أتزوج بها مملوكة أستفرشها؟ فالسؤال إنما كان لتعيين من منها يكون الولد^(٢).



قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي قدس الله سره: قرينة حال جعلته أن يقول مثل هذا، حتى يقال له في الوحي كذلك الله يفعل ما يشاء، فيكون قصده إعلام الله بذلك حتى يعلم غيره أن الله يفعل ما يشاء في المعتاد أن يخرقه كما وقع^(٣).



قال إسماعيل حقي رحمه الله تعالى في تفسيره: فإن قيل: لم تعجب زكريا بقوله: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ مع أنه طلبه، قلنا: تعجب من أن يجعلها شابين ثم يرزقها الولد، أو يتركها شيخين ويلدان مع الشيخوخة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(١) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ^(٢) إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي

(١) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي ج ٢ ص ٣٦٩.

(٢) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٢ ص ٢٢٤.

(٣) الفتوحات المكية ج ٨ ص ٤٦٣.

الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠]

أي أعدنا له قوة الولادة انتهى. وفي الأسئلة المقحمة أراد من التي يكون منها هذا الولد أمن هذه المرأة وهي عاقر، أم من امرأة أخرى أتزوج بها أو مملوكة^(١).



قال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿أَنِّي﴾ استفهام مستعمل في التعجب. والتعجب مكنى به عن الشكر فهو اعتراف بأنها عطية عزيزة غير مألوفة؛ لأنه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولدا، ثم يتعجب من استجابة الله له. ويجوز أن يكون قد ظن الله يهب له ولدا من امرأة أخرى بأن يأذنه بتزوج امرأة غير عاقر^(٢).



قلت: وما ذكره الطبري مردود بنصوص الكتاب والسنة من عدم تسلط الشيطان وتلاعبه بالأنبياء وحملهم على التشكيك بالوعد الإلهي، وما ذكره أهل التحقيق من المفسرين هو الذي نقول به ونعتقد ونرجحه. فالأنبياء أئمة الحضرات الإلهية، وهم أعرف الخلق بالله، وإذا كان الشيطان يفر من سيدنا عمر رضي الله عنه وهو صحابي، فما بالك بنبي الله زكريا عليه السلام.



(١) روح البيان ج ٥ ص ٥١٥.

(٢) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ج ١ ص ٢٥٨٧.



سورة المائدة

الآية الأولى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ
إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ
عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ
وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ
وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧]

التفسير الأولي:

قال الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره: وَيُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا قَالَ لِعِيسَى:
﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَخَذَتْهُ الرُّعْدَةُ مِنْ ذَلِكَ
الْقَوْلِ حَتَّى سَمِعَ صَوْتَ عِظَامِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا يَكُونُ
لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ أَيْ أَنْ أَدَّعِيَ لِنَفْسِي مَا لَيْسَ مِنْ حَقِّهَا يَعْنِي أَنِّي مُرْتُوبٌ
وَلَسْتُ بِرَبِّ، وَعَابِدٌ وَلَسْتُ بِمَعْبُودٍ. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فَرَدَّ

ذَلِكَ إِلَى عِلْمِهِ وَقَدْ كَانَ اللَّهُ عَالِمًا بِهِ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ، وَلَكِنَّهُ سَأَلَهُ عَنْهُ تَقْرِيعًا لِمَنِ اتَّخَذَ عَيْسَى إِلَهًا^(١).



وقال في موضع آخر: حدثنا ابن حميد قال حدثنا جرير عن عطاء عن ميسرة قال: قال الله: يا عيسى، أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ فأرعدت مفاصله، وخشي أن يكون قد قال، فقال: سبحانك، إن كنت قلتَه فقد علمته^(٢).



قلت: هذا أمر سيكون يوم القيامة، فكيف قالوا أخذته الرعدة وسمع صوت عظامه، وما أدراهم أنه خشي أن يكون قاله؟.

التفسير العرفاني:

قال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث، فهذا ليس خطاب تعنيف، بل هو سؤال تشریف^(٣).



(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ٦ ص ٣٧٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ج ١١ ص ٢٣٣.

(٣) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ١ ص ٤٥٦.



قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي قدس الله سره: الباعث على الاستفهام يختلف باختلاف المستفهم، فإن كان عالماً بما استفهم عنه فالمقصود به إعلام الغير حيث ظنوا وقالوا خلاف ما هو الأمر عليه، مثل قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بحضور من نسب إليه ذلك من العابدين له من النصارى، فتبرأ عيسى بحضورهم من هذه النسبة، فيقول: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ فكان المقصود توبيخ من عبده من أمته وجعله إلهاً، فقد وقع في الصورة صورة الاستفهام، وهو في الحقيقة توبيخ^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: هذا القول في يوم القيامة، وسيقول سيدنا عيسى عليه السلام هذا القول على رؤوس الأشهاد كي يبرأ نفسه مما تُسب إليه، والله عز وجل يعلم أنَّ سيدنا عيسى عليه السلام لم يقله، ولكن فيه تكذيب لمن ادعى هذا الادعاء وإقامة الحجة عليهم، وتبرئة لسيدنا عيسى عليه السلام أن هذا الأمر وافق هوى له في نفسه على ما جبلت النفوس من حب الرياسة والتعظيم بادعائهم أنه إله أو ابن إله، فبان بقوله هذا أنه بريء من هذا كله، ولذلك لم يشفع فيهم حيث قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل الغفور الرحيم كما في حالة سيدنا إبراهيم عليه السلام حيث لم يُعبد من دون الله فشفع فيهم وقال: ﴿فَمَنْ تَعْبُدُ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

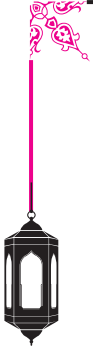


(١) الفتوحات المكية: ج ٦ ص ٢٧٧.



خاتمة: وبهذه الآية المباركة نكون قد انتهينا من الآيات القرآنية التي أُسيء تفسيرها، والتي قد يتسرب إلى ذهن قارئها شيء من الشبهة تجاه الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وبينّاها بأقوال العارفين من المفسرين والأولياء والصالحين، والذين يُنزهون رسل الحق ﷺ من شميمة الشبهات، تنزيها لمن أرسلهم، فحاشا لله ﷻ أن يرسل رسلا تحوم الشبهات حولهم من هنا وهناك، فكيف يأخذ الناس الشريعة من الرسول إذا جاز عليه الذنب واتباع الهوى والشيطان. وما كان جمع هذه الآيات وتوضيحها إلا غيراً على جناب الحق ﷻ من أن يتخذ الملحدون وأعداء الدين أخطاء الأنبياء بزعمهم إلى التجريح في الحق سبحانه وتعالى، وغيره ونصرة لساداتنا أئمة الحضرات الإلهية، أحباب الحق ﷻ وخاصته من خلقه، أهل الشهود الدائم والمخاطبة والمسامرة والمكافحة، أعرف الخلق بالله وأخشاهم لله، ومن كانوا وسيلةً لنجاة الخلق من النار. ومن الواجب على كل مسلم ألا يعتقد فيهم إلا التنزيه والعصمة، وإن فاتنا شيء لم نذكره أو أسأنا الأدب في حضرتهم فنستغفر الله ﷻ على ذلك. ولا كمال إلا لله ﷻ ولكلامه ولرسوله ﷺ.

وسنمر في الفصل التالي إلى بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تخص الأنبياء والمرسلين، والتي قد يفهم منها البعض أو ينسب الذنب والمعصية والكذب للأنبياء، وسنوضحه بما يوفقنا الله ﷻ إلى بيانه وبما يليق بمقاماتهم عند مولاهم.





الفصل الثالث

الأحاديث النبوية الشريفة



الحديث الأول

عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ، أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّهَا أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ سَمِعَ خُصُومَةً بِيَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا»^(١).

التفسير الأولي:

قال أبو بكر محمد زكريا: ما جاء في الحديث الصحيح أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ خُصُومَةً بِيَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا».

فَعَلِمَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ الْغَيْبَ، فَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَالْمَحْقَ مِنَ الْمَبْطُلِ فِي الْخَصْمِينَ، وَلِذَلِكَ حَذَّرَهَا بِهَذِهِ

(١) البخاري (٢٤٥٨)، مسلم (٧٥٨).

الكلمة الجامعة التي فيها عبرة لكل مسلم^(١).

قلت: وكعادة هؤلاء القوم يتركون جميع الأحكام التي في الحديث ولا يأخذون منه إلا ما تُخيل لهم عقولهم أنَّ فيه دليلاً على بشرية النبي ﷺ والتجاوز على مقامه.

التفسير العرفاني:

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في فتح الباري: قوله: «إنما أنا بشر»، والمراد أنه مشارك للبشر في أصل الخلقة، ولو زاد عليهم بالمزايا التي اختص بها في ذاته وصفاته. والحصر هنا مجازي؛ لأنه يختص بالعلم الباطن، ويسمى قصر قلب؛ لأن أتى به رداً على من زعم أنَّ من كان رسولا فإنه يعلم كل غيب حتى لا يخفى عليه المظلوم. قوله: «وأنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض» في رواية سفيان الثوري: «في ترك الحيل وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»، ومثله لمسلم من طريق أبي معاوية. وتقدم البحث في المراد بقوله: «ألحن في ترك الحيل» قوله: فأحسب أنه صادق هذا يؤذن أنَّ في الكلام حذفاً تقديره: وهو في الباطن كاذب. وفي رواية معمر: فأظنه صادقا. قوله: فأقضي له بذلك، في رواية أبي داود من طريق الثوري: فأقضي له عليه على نحو مما أسمع. ومثله في رواية أبي معاوية وفي رواية عبد الله بن رافع: إني إنما أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه^(٢).



(١) الشرك في القديم والحديث ج ٢ ص ٩٧٧.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١٣ ص ١٧٣.

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح صحيح مسلم: وقوله ﷺ «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»

إِنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ وَبِوَاطِنِ الْأُمُورِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُطْلِعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِ الْأَحْكَامِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ، فَيَحْكُمُ بِالْبَيِّنَةِ وَبِالْيَمِينِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الظَّاهِرِ مَعَ إِمْكَانِ كَوْنِهِ فِي الْبَاطِنِ خِلَافَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا كَلَفَ الْحُكْمَ بِالظَّاهِرِ، وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ ﷺ «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» وَفِي حَدِيثِ الْمُتَلَاعِنِينَ لَوْلَا الْإِيمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَأُطْلِعَهُ ﷺ عَلَى بَاطِنِ أَمْرِ الْخَصْمِينَ فَحُكْمَ بَيِّقِينَ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى شَهَادَةِ أَوْ يَمِينٍ، لَكِنْ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَالِاقْتِدَاءِ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ أَجْرَى لَهُ حُكْمُهُمْ فِي عَدَمِ الْإِطْلَاعِ عَلَى بَاطِنِ الْأُمُورِ؛ لِيَكُونَ حُكْمُ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ حُكْمَهُ، فَأَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ عَلَى الظَّاهِرِ الَّذِي يَسْتَوِي فِيهِ هُوَ وَغَيْرُهُ لِيَصِحَّ الْإِقْتِدَاءُ بِهِ وَتَطْيِبَ نَفُوسُ الْعِبَادِ لِلانْقِيَادِ لِلْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْبَاطِنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

ثم قال: ولعل السر في قوله: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ» امتثال قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] أي في إجراء الأحكام على الظاهر الذي يستوي فيه جميع المكلفين فأمر أن يحكم بمثل ما أمروا أن يحكموا به ليتم الاقتداء به، وتطيب نفوس العباد للانقياد إلى الأحكام الظاهرة من غير نظر إلى الباطن^(٢).



(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ج ١٢ ص ٤.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١٣ ص ١٧٥.



قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في شرحه على مسلم: وفيه أنَّ حكمه بين الخلق إنما كان على الظاهر، وإن كان باطن أمرهم بخلافه، ففُضِيَ باليمين وبالشاهدين والعفاص والوكاء حكمة من الله تعالى في ذلك؛ ليتعلم منه أتمه طريق الحكم، ويقتدى به في القضاء، ولو شاء الله لأطلع على سرائر الخصمين ومخفيات ضمائر المدعين، فيتولى الحكم بمجرد يقينه، ويقضى بقطع مغيبه دون حاجة إلى اعتراف أو بينة أو يمين أو شبهه. ولكن لما أمر الله - سبحانه - أمته باتباعه والاقتداء به في أقواله وأفعاله وكان هذا مما يخص الله تعالى - به لم يكن للأمة سبيل الاقتداء، في شيء من ذلك ولا قامت حجة بقضية من قضاياها؛ لأننا لا نعلم بما أوحى به فيه إليه، ولا ما أطلع من أمر الخصمين عليه بحكمه هو، إذ المكنون من علم الله. فأجرى الله - تعالى - أحكامه ﷺ على الظاهر الذي يستوى فيه هو وغيره من البشر؛ ليصح اقتداء أمته به في قضاياها، ويأت ما أتوا من ذلك على علم من سنته، واعتماداً على علمه؛ إذ البيان بالفصل إجلاء فيه من القول وأرفع لاحتمال اللفظ^(١).



قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي رحمه الله تعالى: قال القرطبي: قد أطلع الله نبيه ﷺ في مواطن كثيرة على بواطن كل من يتخاصم إليه فيحكم بحق ذلك، لكن لما كان ذلك من جملة معجزاته ﷺ لم يجعل الله ﷻ ذلك طريقاً عاماً ولا قاعدة كلية للأنبياء ولا لغيرهم لاستمرار العادة بأن ذلك لا يقع لهم، وإن وقع فنادر وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً^(٢).



(١) شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ لِلْقَاضِي عِيَّاضِ الْمُسَمَّى إِكْمَالُ الْمُعْلَمِ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ ج ٥ ص ٥٦١.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٣ ص ٣٩٥.

قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه في شرحه على البخاري ومسلم: «أنا بشر» أي عند قضائي بينكم في المنازعات، فأنا أقضي بالبشرية وبظاهر الأمور ليتأسى بي القضاة من بعدي، ولا أقضي بالنبوة وبالباطن حتى لا يعجز القضاة من بعدي. لذلك حذرهم وبين لهم بأنه سيقضي بينهم بالبشرية حتى يتنبهوا، فالإثم على من يأخذ حق غيره بغير حق. وحكمي أنا بالبشرية، لا يحلل حراما ولا يحرم حلالا. وذلك معناه أن قضاء القاضي لا يحل لك الحرام، إنما لرفع النزاع، والإثم على من يأخذ الحرام بغير وجه حق وإن حكم له القاضي.



قال شيخنا الشيخ حسن الحلاب رحمته الله: إنما يحكم بالبشرية؛ لأن الأنبياء أمروا أن يحكموا بالظاهر، كما حصل في قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام، وإلا فإن الله قد أطلعهم على الغيب وعلى البواطن، قال الله عز وجل: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، أي كاشفهم بما في نفوسهم من النفاق، وقال له ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].



يقول الشيخ الشعراوي في مسألة الغيب: والغيب - كما نعلم - محجوب بزمان ومكان، وغيب الزمان محجوب بالماضي أو بالمستقبل، فإن كان هناك حدث قد مضى ولم تشهده فهو غيب عنك ما لم تعلمه من كتب التاريخ، وكذلك إن كان هناك حدث سوف يأتي في المستقبل، فهو لم يقع بعد، فهو إذن محجوب



بالمستقبل. أما حجاب المكان فهو حجاب الحاضر، وعلى سبيل المثال: إن كنا الآن في القاهرة فنحن لا نعلم ما يحدث في الإسكندرية. والله سبحانه وتعالى هتك كل هذه الحجب في القرآن الكريم، فهتك الحق سبحانه حجاب الماضي في أمثلة كثيرة أخبر بها رسوله ﷺ، مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]. وأيضا يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]. فكان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله من حجب الزمن الماضي، ما لم يكن يعلمه أحد، وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [هود: ٤٩]. وكشف الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين حجاب الزمن المستقبل؛ فقال: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وهؤلاء السفهاء سمعوا الآية قبل أن يتساءلوا عن تحويل القبلة، ورغم ذلك تساءلوا عن تحويل قبلة الصلاة. وأيضا قال الحق سبحانه من أمثلة كشف حجب المستقبل: ﴿سَيُزِمُّ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]. وقد نزلت هذه الآية والمسلمون يلاقون عذابا شديدا من الكفار، حتى إن عمر بن الخطاب قال: أي جمع هذا؟ وعندما حدثت غزوة بدر قال عمر: صدقت ربي: ﴿سَيُزِمُّ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [٤٥].

وكذلك كشف الحق سبحانه وتعالى حجاب المستقبل حين قال: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [٢] فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ [٣] فِي بَضْعِ سِنِينَ

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ [الروم: ٢-٥]. أي: أن الله تبارك وتعالى
أعطى نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة، وحدد
الجانب المنتصر وهو الروم.

وكذلك أنبأ سبحانه وتعالى رسوله بما يحدث في أعماق النفس، وما يدور
في صدور الخلق، وساعة ما ينتهك حجاب النفس، كأنه يوضح لكل إنسان: إن
سرك الذاتي مفضوح عند الله، والمثال على هذا قول الحق سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ فِي
أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]. هم قالوا في أنفسهم، ولو لم يقولوا
لعارضوا ما أخبرهم به محمد ﷺ عما قالوه في أنفسهم وأعلنوا أنه كذب. ولكنهم
لم يكذبوا رسول الله فيما أبلغ على ظنهم صدق رسول الله. والمثال هو قول الحق
هنا: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُا
إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

وإن كان البعض منهم قد استهزأ قائلاً: لا داعي أن نتكلم حتى لا ينزل
فينا قرآنًا، فالحق يبلغ رسوله أن يرد عليهم: ﴿قُلِ اسْتَهْزَؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا
تَحْذَرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ (١).

(١) تفسير وخواطر القرآن الكريم ج ٩ ص ٥٢٦٢.

الحديث الثاني

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ»، فَلَمَّا قَفَى دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»^(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَأذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمَّيْ فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأْذَنْ لِي»^(٢).

التفسير الأولي:

قال محمود بن محمد المنيأوي رحمه الله تعالى: وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يُعْذَرُونَ فِي كُفْرِهِمْ بِالْفِتْرَةِ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ» فَلَمَّا قَفَى دَعَاهُ فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» اهـ. وَقَالَ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ وَاللَّفْظُ لِيَحْيَى قَالَا: حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، عَنْ يَزِيدَ يَعْنِي ابْنَ كَيْسَانَ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَأذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمَّيْ فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأْذَنْ لِي» حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ قَالَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبَكَى مَنْ حَوْلَهُ. فَقَالَ: «اسْتَأذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأذَنْتُهُ

(١) مسلم (٢٠٣)، أبو داود (٤٧١٨)، أحمد (١٢١٩٢).

(٢) مسلم (٩٧٦).

فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تَذْكُرُ الْمَوْتَ» اهـ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ
الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى عَدَمِ عُذْرِ الْمُشْرِكِينَ بِالْفِتْرَةِ^(١).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في الفتاوى: إِنَّ سُنَّتَهُ فِي عِبَادَةِ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانَ
بَعْدَ رُؤْيَا الْبَاسِ؛ فَكَيْفَ بَعْدَ الْمَوْتِ؟ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ. وَفِي صَحِيحِ
مُسْلِمٍ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ أَبِي قَالَ فِي النَّارِ فَلَمَّا قَفَى دَعَاهُ فَقَالَ إِنَّ
أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ». وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: «اسْتَأْذَنْتَ رَبِّي أَنْ أَزُورَ قَبْرَ
أُمِّي فَأَذِنَ لِي وَاسْتَأْذَنْتَهُ فِي أَنْ أَسْتَغْفَرَ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي. فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تَذْكُرُ
الْآخِرَةَ»^(٢).

التفسير العرفاني:

قال محمد السندي رحمه الله تعالى: قال السيوطي في حاشية الكتاب هذا أي
سنن ابن ماجه من محاسن الأجوبة أنه لما وجد الأعرابي في نفسه لطفه النبي ﷺ
وعدل إلى جواب عام في كل مشرك، ولم يتعرض إلى الجواب عن والده ﷺ بنفي
ولا إثبات، وقال ولم يعرف لوالده ﷺ حالة شرك مع صغر سنه جدا، فإنه توفي
وهو ابن ست عشرة سنة، وقد روي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالِدِيهِ حَتَّى آمَنَّا
بِهِ، وَالَّذِي يَقْطَعُ بِهِ أَنَّهُمَا فِي الْجَنَّةِ. وَمَنْ أَقْوَى الْحُجْجُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ الْفِتْرَةِ،
وَقَدْ أَطْبَقَ أَثْمَتُنَا الشَّافِعِيَّةُ وَالْأَشْعَرِيَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ لَا يَعْذَبُ وَيَدْخُلُ
الْجَنَّةَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال الحافظ ابن حجر في
«الإصابة» ورد من عدة طرق في حق الشيخ الهرم، ومن مات في الفترة، ومن

(١) المجموع البهية للعقيدة السلفية ج ٢ ص ٣٦٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج ٤ ص ٣٢٥.



ولد أكمه أعمى أصم، ومن ولد مجنوناً أو طراً عليه الجنون قبل أن يبلغ ونحو ذلك، أن كلاً منهم يأتي بحجة ويقول: لو عقلت أو ذكرت لآمنت فترفع لهم نار، ويقال: ادخلوها فمن دخلها كانت له بردا وسلاما، ومن امتنع أدخلها كرها. ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب وآل بيته في جملة من يدخلها طائعا^(١).



قال أحمد بن عبد الرحمن الساعاتي رحمه الله تعالى: ثم رأيت الإمام أبا عبد الله محمد بن خلف الأبى بسط الكلام على هذه المسألة في شرح مسلم عند حديث إنَّ أبي وأباك في النار، فأورد قول النووي فيه أن من مات كافرا في النار ولا تنفعه قرابة الأقربين، ثم قال: قلت انظر هذا الإطلاق، وقد قال السهيلي: ليس لنا أن نقول ذلك، فقد قال ﷺ لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧] ولعله يصح ما جاء أنه ﷺ سأل الله سبحانه فأحيا له أبويه فأمن به، وقال رسول الله ﷺ: لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات، ورسول الله ﷺ فوق هذا ولا يعجز الله سبحانه شيء. فهم أهل الفترة حقيقة وهم غير معذنين للقطع كما تقدم.

(وأما القسم الأول) فقد قال ﷺ في كل من قس وزيد أنه يبعث أمة وحده (وأما تبع ونحوه) فحكمهم حكم أهل الدين الذين دخلوا فيه ما لم يلحق أحد منهم الإسلام الناسخ لكل دين أهـ. وما أورده الأبى (المسلك الثاني) أنها لم يثبت عنهما شرك، بل كانا على الحنيفية دين جدتهما إبراهيم عليه السلام، كما كان على ذلك طائفة من العرب كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وغيرهما.

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤٧٦.



وهذا المسلك ذهب إلى طائفة منهم الإمام فخر الدين الرازي، فقال في كتابه «أسرار التنزيل» ما نصه: قيل إنَّ أزر لم يكن والد إبراهيم بل كان عمه، واحتجوا عليه بوجوه (منها) إنَّ آباء الأنبياء ما كانوا كفارا، ويدل عليه وجوه (منها) قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢١٨) ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِ﴾ (٢١٩) [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]، قيل معناه أنه كان ينقل نوره من ساجد إلى ساجد. وبهذا التقدير فالآية دالة على أنَّ جميع آباء محمد ﷺ كانوا مسلمين، وحيثُ يجب القطع بأن والد إبراهيم ما كان من الكافرين إنما ذاك عمه، وأقصى ما في الباب أن يحمل قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢١٨) ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِ﴾ (٢١٩) على وجوه أخرى، وإذا وردت الروايات بالكل ولا منافاة بينها وجب حمل الآية على الكل، ومتى صح ذلك ثبت أنَّ والد إبراهيم ما كان من عبدة الأوثان ». ثم قال: وما يدل على أنَّ آباء محمد ﷺ ما كانوا مشركين قوله عليه الصلاة والسلام: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات». وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، فوجب أن لا يكون أحد من أجداده مشركا، هذا كلام الإمام فخر الدين الرازي بحروفه.

(المسلك الثالث) أنَّ الله أحيا له أبويه حتى آمن به، وهذا المسلك مال إليه طائفة كثيرة من حفاظ المحدثين وغيرهم، منهم ابن شاهين والحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي والسهيلي والقرطبي والمحب الطبري والعلامة ناصر الدين ابن المنير وغيرهم. واستدلوا لذلك بما أخرجه ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ»، والخطيب البغدادي في «السابق واللاحق»، والدارقطني وابن عساكر كلاهما في «غرائب مالك» بسند ضعيف عن عائشة رضي الله عنها قالت: «حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع فمر بي على عقبة الحجون وهو باك حزين مغتم فنزل فمكث



عني طويلاً، ثم عاد إلى وهو فرح مبتسم فقلت له، فقال: ذهبت لقبر أُمِّي فسألت الله أن يحييها فأحيها فأمنت بي وردها الله» هذا الحديث ضعيف باتفاق المحدثين، بل قيل أنه موضوع، لكن الصواب ضعفه لا وضعه؛ وقد ألفت في بيان ذلك جزء مفرداً. وأورد السهيلي في «الروض الأنف» بسند قال إن فيه مجهولين عن عائشة أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيى أبويه فأحيهما فأمن به ثم أماتهما. (وقال السهيلي) بعد إirاده، الله قادر على كل شيء، وليس تعجز رحمته وقدرته عن شيء، ونبيه صلى الله عليه وسلم أهل أن يختص بما شاء من كرامته. (وقال القرطبي) لا تعارض بين حديث الأحياء وحديث النهي عن الاستغفار، فإن إحياءهما متأخر عن الاستغفار لهما بدليل حديث عائشة أن ذلك كان في حجة الوداع، لذلك جعله ابن شاهين ناسخاً لما ذكر من الأخبار. (وقال العلامة ناصر الدين ابن المنير) المالكي في كتاب «المقتني في شرف المصطفى»: وقع لبنينا ﷺ إحياء الموتى نظير ما وقع لعيسى بن مريم إلى أن قال وجاء في حديث أن النبي ﷺ لما منع من الاستغفار للكفار دعا الله أن يحيى له أبويه فأحيهما له فأمن به وصدقا وماتا مؤمنين. (وقال القرطبي): فضائل النبي صلى الله عليه وسلم لم تزل تتوالي ونتابع إلى حين مماته فيكون هذا مما فضله الله به وأكرمه، قال: قال وليس إحياءهما وإيمانها به يمتنع عقلاً ولا شرعاً^(١).



قال الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى في «المواقف»: اعلم أن منع الله تعالى لنبيه ﷺ من الاستغفار لأمه ليس لكونها من الأشقياء الهلكى كما توهمه

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ج ٨ ص ١٦٩-١٦٦.

بعض العلماء الحمقى، ولكن اقتضت حكمة الحكيم أن يؤخر سعي نبيه ﷺ لأمه إلى يوم القيامة بعد حصول الإيثار لها وإن كانت من قبل حكمها حكم (أصحاب الفترات).

فلقد أخرج البزار في مسنده حديثاً صححه غير واحد من الأئمة ما معناه: (إنه تعالى يحشر أصحاب الفترات والأطفال والصغار والمجانين في صعيد واحد بمعزل عن الناس، فيبعث فيهم نبياً من أفضلهم، فتمثل لهم نارياً بها هذا النبي فيقول لهم: أنا رسول الله إليكم فيقول لهم: اقتحموا هذه النار بأنفسكم، فمن أطاعني نجا ودخل الجنة، ومن عصاني هلك ودخل النار) الحديث بمعناه.

ففي هذا الحين والموقف الهائل العظيم يأذن الله تعالى لرسوله ﷺ في السعي لأمه فتستحق الثواب العملي الذي لا تنال الدرجات العلى في الجنان والمقامات الزلّفى إلا به وهو الإيثار فإنه أعظم الأعمال، ومنذ زمن طويل قال لي (وارد): يا للعجب، والدة عيسى عليه السلام اختلف فيها من الصديقية إلى النبوة، والدة محمد ﷺ يقال أنها في النار!!! اللهم قنا عثرات اللسان، وارزقنا حسن الأدب، إنك المفضل المحسان^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه في شرحه على صحيح مسلم: قال العلماء إنَّ لفظ «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» هذه الزيادة من حماد بن سلمة، أما قول النبي ﷺ كانت «إذا مررت بقبر مشرك فبشره بالنار»، ولو قلنا أن هذا من كلام النبي ﷺ ونحن نقول بنجاة والديه كما بينا مراراً وتكراراً.

(١) المواقف ج ٣ ص ١١٠، الموقف الرابع والخمسون بعد المئتين.



إذن نفهم من هذه العبارة أن المقصود بكلمة (أبي) عمه أبو لهب؛ لأن اليتيم إذا قال: أبي، يقصد عمه. فهي لفظ مشترك بين الوالد والعم، أما إذا قال: والدي، أي: الذي ولده، لأن والد النبي ﷺ مات في الفترة قبل النبوة، والله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وأبو لهب مات بعد مبعث النبي، ومات على الكفر الصريح ونزل فيه قرآن. فنحمله على أن المراد عمه أبو لهب. وأما قوله ﷺ «استأذنت ربي لأزور أُمِّي فأذن واستأذنته لأستغفر لها فلم يأذن لي» فعدم الإذن بالاستغفار لها لعدم حاجتها حيث إنها ماتت قبل الوحي وقبل التشريع.



قلت: قد فصلنا القول في نجاة والدي النبي ﷺ، بل هم من كبار العارفين بالله رضي الله عنهما في بيان التفسير الذي يليق بمقامه في الآية الأولى. وابن تيمية ومن وافقه (غفر الله لهم) ما زالوا مصرين على معارضة القرآن الذي يقول بنجاة أهل الفترة، ومعارضة النبي ﷺ وإساءة الأدب معه ومع أهل بيته، ومخالفة فهم الصحابة في تفسير قوله: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [٣١] على نجاة آبائه إلى آدم عليه السلام، ومخالفة جمهور المفسرين كما بيناه في تفسير الآية الأولى، وكما بينه الشيخ أحمد الساعاتي أعلاه، ومخالفة جمهور المحدثين الذين أخذوا بحديث إحياء الأبوين وإسلامهما. وبعد كل ذلك، فهل بقيت حجة لمن يأخذ بأقوال من خالف الله ورسوله والمسلمين؟!.

الحديث الثالث

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، سَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»^(١)

التفسير الأولي:

قال محمد عبد الوهاب رحمه الله: قال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: «لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم». وعن عمر: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»، وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو» [فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو]^(٢).



قال ابن باز رحمه الله: وقد يقع فيها ما هو أعظم من ذلك وهو الشرك الأكبر، وذلك بالغلو في رسول الله ﷺ، أو غيره من الأولياء، ودعائه والاستغاثة به وطلبه المدد، واعتقاد أنه يعلم الغيب، ونحو ذلك من الأمور الكفرية التي يتعاطاها الكثير من الناس حين احتفالهم بمولد النبي ﷺ. وقال عليه الصلاة والسلام: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»^(٣).

(١) البخاري (٣٤٤٥)، احمد (١٥٤).

(٢) كتاب التوحيد ج ١ ص ٥٧.

(٣) التحذير من البدع ج ١ ص ١٢.

التفسير العرفاني:

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في «فتح الباري»: قال بن الجوزي لا يلزم من النهي عن الشيء وقوعه؛ لأننا لا نعلم أحدا ادعى في نبينا ما ادعته النصرى في عيسى، وإنما سبب النهي فيما يظهر ما وقع في حديث معاذ بن جبل لما استأذن في السجود له فامتنع ونهاه، فكأنه خشي أن يبالغ غيره بما هو فوق ذلك، فبادر إلى النهي تأكيداً للأمر. وقال بن التين معنى قوله: «لَا تُطْرُونِي» لا تمدحوني كمدح النصرى حتى غلا بعضهم في عيسى فجعله إلهاً مع الله، وبعضهم ادعى أنه هو الله، وبعضهم ابن الله^(١).



قال الملا علي القاري رحمه الله تعالى في «مرقاة المفاتيح»: مفهومه أن إطراره من غير جنس إطرانهم جائز، والله در صاحب البردة رحمته حيث قال:

دع ما ادعته النصرى في نبينهم واحكم بما شئت مدحافيه واحتكم

وفي شرح السنة: وذلك أن النصرى أفرطوا في مدح عيسى عليه السلام وإطرائه بالباطل، وجعلوه ولداً لله تعالى، فمنعهم النبي ﷺ أن يطروه بالباطل^(٢).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه في شرحه على البخاري: أي لا تبالغوا في مدحي كما فعلت النصرى في المسيح فجعلوه إلهاً،

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١٢ ص ١٤٩.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج ٧ ص ٣٠٧١.



والغريب أن الوهابية يأخذون هذا الحديث دليلاً على عدم مدح النبي ﷺ مطلقاً، وغفلوا أن القرآن الكريم كله مدح للنبي ﷺ، ومن يقرأ القرآن ولا ينتبه إلى آيات المدح في القرآن فهو جاهل بالقرآن وبقدر النبي ﷺ. والحديث ليس فيه نهي عن مطلق الإطراء، بل عن مدح مخصوص يخرج عن حد العبودية إلى حد الألوهية كما فعل النصارى، لذلك قال الإمام البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبينهم واحكم بما شئت مدحافيه واحكم

وفي هذا البيت التزم البوصيري بما جاء بالحديث النبوي، والمسلمون والحمد لله ملتزمون بما في الحديث، ففي كل تشهد نقول: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ونعلم أنه خير خلق الله على الإطلاق، ومحل نظر الله ﷻ، وهؤلاء الأقوام لا يحتفلون بميلاد النبي ﷺ ويحتفلون بذكرى مشايخهم وملوكهم.



قال الشيخ محمد بن علوي المالكي رحمه الله تعالى مفتي الحرم المكي:

«لَا تُطْرُونِي»:

فهم بعض الناس من قوله ﷺ -: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم. النهي عن مدحه ﷺ واعتبار ذلك من الإطراء والغلو المذموم المؤدي إلى الشرك وأن كل من مدحه ﷺ ورفع عن غيره من عامة البشر وأثنى عليه ووصفه بما يميزه عن غيره فقد ابتدع في الدين وخالف سنة سيد المرسلين.

وهذا فهم سيء ويدل على قصر نظر صاحبه وذلك أن النبي ﷺ نهى أن يطرى كما أطرت النصارى ابن مريم إذ قالوا: ابن الله. ومعنى ذلك أن من أطراه

ووصفه بما وصف به النصارى نبهم فقد صار مثلهم. أما من مدحه ووصفه بما لا يخرج عن حقيقة البشرية، معتقداً أنه عبد الله ورسوله، مبتعداً عن معتقد النصارى فإنه ولا شك من أكمل الناس توحيداً.

دع ما ادعته النصارى في نبهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحكم
فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بقم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

لقد تولى الله سبحانه وتعالى بنفسه مدح نبيه المصطفى ﷺ فقال: ﴿وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وأمر بالأدب معه في الخطاب والجواب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، ونهانا أن نعامله كما يعامل بعضنا بعضاً، أو أن نناديه كما ينادي بعضنا بعضاً، فقال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وذم الذين يسوون بينه وبين غيره في المعاملة والأسلوب فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] وقد كان الصحابة الكرام يمتدحون النبي ﷺ، فهذا حسان بن ثابت يقول:

أغرّ عليه للنبوّة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم إليه اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد
نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجاً مستيراً وهادياً يلوح كما لاح الصقيل المهند
فأنذرنا ناراً وبشر جنة وعلمنا الإسلام فلله نحمد



وهذا كعب ﷺ يقول في مدحه:

وألغو عند رسول الله مأمول	أنبت أن رسول الله أوعدني
مهند من سيوف الله مسلول	إن الرسول لنور يستضاء به
بطن مكة لما أسلموا زولوا	في عصبة من قريش قال قائلهم
ضرب إذا عود السود التنايل	يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم

وفي رواية أبي بكر ابن الأنباري أنه لما وصل إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

رمى - عليه الصلاة والسلام - إليه بردة كانت عليه، وأن معاوية بذل له فيها عشرة آلاف، فقال: ما كنت لأؤثر برسول الله ﷺ أحداً، فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً فأخذها منهم.

وها هو ﷺ يمدح نفسه بنفسه قال: «أنا خير أصحاب اليمين، أنا خير السابقين، أنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر»^(١). ويقول جبريل عليه السلام: «قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم»^(٢). وعن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ أتى بالبراق ليلة أسري به فاستصعب عليه، فقال له جبريل: بمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقاً»^(٣).

(١) الطبراني في المعجم الكبير (١٢٦٠٤).

(٢) الطبراني في المعجم الأوسط (٦٢٨٥).

(٣) الترمذي (٣١٣١)، أحمد (١٢٦٧٢).





وفي حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وييدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»^(١).

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا يسوا، الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي ولواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي يطوف على ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ مثور»^(٢).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم على يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»^(٣) وفي هذه الأحاديث الكفاية^(٤).



قلت: وفي هذه التفاسير للعلماء العارفين، تبين الفهم السقيم للذين يريدون انتهاز الفرص في تكفير الأمة وتبديعها ومخالفة جمهور السلف والخلف، والتقليل من مقام صاحب المقام المحمود ﷺ.

(١) الترمذي (٣١٤٨).

(٢) الدارمي (٤٩).

(٣) الترمذي (٣٦١١).

(٤) مفاهيم يجب ان تصحح ج ١ ص ١٤١.

الحديث الرابع

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّ أَوْلَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرِ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا»^(٢).
عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(٣).

التفسير الأولي:

قال عبد بن جبرين رحمه الله:

ما حكم الصلاة في المساجد التي فيها قبور؟

الجواب: لا تصح الصلاة فيها، بل تلزم إعادتها؛ لقوله ﷺ: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»، وروى ابن أبي شيبة وعبد الرزاق في مصنفيهما، وتعقب ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كما في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٣٣٢)، و«الاختيارات» (٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (٤ / ٥٢١)، (١١ / ٢٩٠)،

(١) البخاري (٤٢٧)، مسلم (٥٢٨)، الترمذي (١٧٥٠)، النسائي (٤٠٧).

(٢) البخاري (١٣٣٠)، مسلم (٥٢٩)، النسائي (٢٠٤٧).

(٣) موطأ الإمام مالك (١٨٣).



(١٧ / ٥٠٢)، وذكر أنَّ المقصود الأكبر بالنهي عن الصلاة عند القبور هو مخافة اتخاذها أوثانا، وهي العلة التي أوقعت كثيرا من الأمم أما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه. وقد استدل على ذلك بالأحاديث التي فيها النهي عن اتخاذ القبور مساجد، كقوله ﷺ - : «إلا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك» رواه مسلم عن جندب رضي الله عنه. ولو كانت العلة هي مظنة النجاسة، لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد كما في الصحيح عن عائشة أنَّ النبي ﷺ قال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وفي «صحيح مسلم» في حديث جندب «إلا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد» إلخ. ومعلوم أنَّ أجساد الأنبياء لا تبلى كما ثبت في الحديث، فلا تنجس بها الأرض، فعلم أنَّ النهي مخافة الغلو فيها، واتخاذها أوثانا تعبد من دون الله. والله أعلم^(١).



التفسير العرفاني:

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في «فتح الباري»: وقال البيضاوي لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثانا لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك. فأما من اتخذ مسجدا في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه، لا التعظيم له ولا التوجه نحوه، فلا يدخل في ذلك الوعيد^(٢).



(١) فتاوى في التوحيد ج ١ ص ٢٣.

(٢) فتح الباري شرح بصحيح البخاري ج ١ ص ٥٢٥.



قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في «فتح الباري»: قال ابن عبد البر: الوثن الصنم. يقول: لا تجعل قبري صنما يصلى إليه، ويسجد نحوه ويعبد، فقد اشتد غضب الله على من فعل ذلك، وكان رسول الله ﷺ يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبلهم الذين صلوا في قبور أنبيائهم، واتخذوها قبلة ومسجدا، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها^(١).



قال علي القاري رحمه الله تعالى في «مرقاة المفاتيح»: وقال القاضي: كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور أنبيائهم ويجعلونها قبلة، ويتوجهون في الصلاة نحوها، فقد اتخذوها أوثانا، فلذلك لعنهم، ومنع المسلمين عن مثل ذلك، أما من اتخذ مسجدا في جوار صالح، أو صلى في مقبرة وقصد الاستظهار بروحه، أو وصول أثر ما من أثر عبادته إليه، لا للتعظيم له والتوجه نحوه، فلا حرج عليه، ألا ترى أن مرقداً إسماعيل - عليه السلام - في المسجد الحرام عند الخطيم، ثم إن ذلك المسجد أفضل مكان يتحرى المصلي لصلاته، والنهي عن الصلاة في المقابر مختص بالقبور المنبوذة، لما فيها من النجاسة، كذا ذكره الطيبي وذكر غيره أن صورة قبر إسماعيل - عليه السلام - في الحجر تحت الميزاب، وأن في الخطيم بين الحجر الأسود وزمزم قبر سبعين نبيا، وفيه أن صورة قبر إسماعيل - عليه السلام - وغيره من مدرسة فلا يصلح الاستدلال به^(٢).



(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب ج ٣ ص ٢٤٥.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج ٢ ص ٦٠٠.





قال الشيخ المحدث عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى: إنَّ معنى اتخاذ القبر مسجداً، هو السجود له. روى ابن سعد في الطبقات بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اللهم لا تجعل قبري وثناً لعن الله قوماً اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد» جملة لعن الله قوماً، بيان لمعنى جعل القبر وثناً. ومعنى الحديث: اللهم لا تجعل قبري وثناً يسجد له ويعبد كما سجد قوماً لقبور أنبيائهم. ذكر كثير من شراح الحديث: أنَّ اتخاذ القبور مساجد يحتمل معنيين: السجود لها وعبادتها، كما سبق. وبناء المساجد عليها، وهذا المعنى خطأ لا يصح، وبيان ذلك من وجوه:

الأول: أنه مجاز، والمجاز لا يجتمع مع الحقيقة في كلمة، كما تقرر في علم البيان، وهو الراجح عند جمهور الأصوليين.

الثاني: وعلى القول الضعيف بجواز اجتماعهما، فإنها يمكن ذلك إذا كان في سياق نفي، فيصح نفي الحقيقة، والمجاز معاً في كلمة، كأن يقال: ما رأيت أسداً، ويراد الحيوان المفترس والرجل الشجاع، والنفي أوسع دائرة من الإثبات. والفعل في الحديث مثبت، وهو اتخذوا، والفعل المثبت لا يعم، فلا يراد به إلا الحقيقة.

الثالث: أنَّ بناء المساجد على القبور، ثبت فيه حديث بخصوصه، وهذا يبين أنَّها معنيان مختلفان بالحقيقة والمجاز.

ثم قال الشيخ عبد الله بن الصديق رحمه الله تعالى:

بناء المساجد على القبور:

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنَّ أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما ذكرتا كنيسة رأيناها بالحبشة، فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وعلى



آله وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَنَّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» فهذا الحديث ورد في بناء المسجد على القبر، ومن ضمه إلى حديث اتخاذ القبور مساجد، وجعل معناهما واحداً فقد أخطأ ووهم وهماً كبيراً، يظهر ذلك بكلام على معنى الحديث وشرحه، فقوله «أولئك شرار الخلق».

قال الأبي: الأظهر في الإشارة أنها لمن نحت وعبد، وأن كانت لمن نحت فقط فيحتمل كونهم شرارا بتصويرهم، لحديث وعيد المصورين، فذم أولئك ليس لبنائهم المسجد ولكن لنحتهم التصاوير يؤيد هذا أن البخاري قال في الصحيح: باب الصلاة في البيعة، وقال عمر رضي الله عنه: أنا لا ندخل كنائسكم من أجل التماثيل التي فيها الصور، وكان ابن عباس يصلي في البيعة إلا بيعة فيها تماثيل، قال الحافظ: أثر عمر وصله عبد الرازق من طريق أسلم مولى عمر قال: لما قدم الشام صنع له رجل من النصارى طعاماً وكان من عظمائهم وقال: أحب أن تجيئني وتكرمني، فقال له عمر: أنا لا ندخل كنائسكم... إلخ.

وأثر ابن عباس وصله البغوي في الجعديات، وزاد: (فإن كان فيها تماثيل، خرج فصلى في المطر، أي في محل بارز للمطر)، فصح أن الذم في الحديث لنحت التّصاوير والتّماثيل، لا لبناء المسجد، لأنّه مكان للعبادة لا ذمّ يلحق فاعله.

الخلاصة: أن اتّخاذ القبر مسجداً معناه الصلاة إليه أو عليه، كما سبق بيانه، وأكده كلام ابن حجر الفقيه. وأنّ بناء المسجد على القبر، ليس في تحريمه حديثٌ صحيحٌ صريحٌ، وحديث أولئك شرار الخلق، الإشارة فيه إلى من نحت التماثيل وعبدها أو نحتها، لا إلى بناء المسجد، بل هو جائز على الأصل. والله أعلم.

إشكال:

حديث «لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» حديث صحيح، لكن فيه إشكال، لم أجد من تنبه له أو أشار إليه ولم أهتد لحله، والجواب عنه. فمن وجد جواباً صحيحاً مقنعاً فليبينه مشكوراً، مثاباً عليه عند الله تعالى، نسأله سبحانه أن يوفقنا لفهم كلام رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهماً صحيحاً، موافقاً لقواعد الشريعة، وبالله التوفيق، والإشكال المشار إليه، يتبين بوجوه:

الوجه الأول: أن اليهود لعنهم الله نسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله. قالوا: إن الله فقيراً ونحن أغنياء، وقالوا: يد الله مغلولة. وقالوا: لما خلق الله السماوات والأرض استراح يوم السبت ونسبوا إلى الله الندم. وقالوا: لما سلط عليهم بُخْتَنَصْرُ فقتل فيهم، وشردهم إلى بابل، ندم على ذلك، وشد شعر رأسه حسرة وندامة، ويعتقدون في الله أنه جسم، تعالى عن قولهم علواً كبيراً. فمن ينسب إلى الله هذه النقائص لا يتصور منه أن يتخذ قبور أنبيائه مساجد.

الوجه الثاني: أن اليهود لعنهم الله، آذوا أنبيائهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]. ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوء بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه أدر، فذهب يغتسل يوماً فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه قال: فجمع موسى عليه السلام بآثاره، يقول ثوبي حجر ثوبي، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوءة موسى وقالوا: والله ما بموسى من بأس، فقام الحجر حين



نظر، فأخذوا ثوبه فطنق بالحجر ضرباً» وللحديث طرق في صحيح البخاري وغيره. ومع هذا طعن فيه الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء، وتكلم فيه بكلام دل على جهله بقواعد علم الحديث والأصول، مع جرأته على القول بغير علم ولا تثبت.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

وجاء في أذية قومه روايات:

منها: ما رواه الحاكم وصححه عن ابن عباس في قصة قارون أنه اتفق مع بني إسرائيل أن يتهموا موسى عليه السلام أنه زنى ببغي من بغاياهم.

ومنها: ما رواه الحاكم وغيره عن ابن عباس عن علي رضي الله عنه قال: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون عليه السلام فقالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلت، كان أشد حبا لنا منك وألين، فأذوه في ذلك. فأمر الله الملائكة عليهم السلام، فحملوه فمروا به على مجالس بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته، فبرأه الله من ادعائهم بقتله.

ومنها: قولهم له: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ومنها: قولهم له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ومنها: أنهم رموه بالسحر والجنون، وقد فعلوا هذا كله وغيره مع موسى عليه السلام وهو أكبر أنبيائهم وصاحب التوراة التي فيها شريعتهم.



وآذوا داود عليه السلام، اتهموه بأنه عشق امرأة أوريا وزنى بها، وأخبرته أنها حملت منه وخاف الفضيحة، فأرسل إلى زوجها وكان في غزوة، بحجة أن يسأله عن سير القتال، وقصد أن يلم بزوجه، فتنتفي التهمة عنه، ولكن أوريا كان تقياً، لم يحب أن يتمتع بزوجه، وإخوانه في القتال، فنام على باب داود، فأرسل إلى قائد الجيش يأمره أن يجعل أوريا في الذين يحملون التابوت فلا يرجع حتى يموت أو ينتصر، فمات، وهي القصة المشار إليها في القرآن بنأ الخصم، غير أن المفسرين لطفوها فقالوا: إنه لما رأى امرأة أوريا وأعجبته طلب من زوجها أن يتنازل عنها له، والقصة مكذوبة من أصلها بجميع ما قيل فيها، كما بينته قصة داود عليه السلام.

وأنكروا نبوة سليمان عليه السلام، وقالوا: كان ملكاً حكيماً بنى ملكه على السحر، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وقالوا عن عيسى عليه السلام إنه ابن يوسف النجار، ورموا مريم عليها السلام بالزنا، قال الله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، فكيف تتفق أذيتهم للأنبياء، مع اتخاذ قبورهم مساجد؟!.

الوجه الثالث: أن اليهود لعنهم الله قتلة الأنبياء والصالحين، سجل الله عليهم ذلك في عدة آيات من القرآن الكريم، في سورة البقرة:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وفي سورة آل عمران:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢].

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

وفي سورة النساء: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥].

وفي سورة المائدة: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

وفي هذه الآيات نكتتان:

إحدهما: أَنَّ التعبير بالفعل المضارع ﴿يَقْتُلُونَ﴾ يفيد أَنَّ قتل اليهود
للأنبياء عليهم السلام يتجدد مرة بعد أخرى، ولم ينقطع في وقت من الأوقات.

والأخرى: أنه قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ
فَفَرِّقَا كَذَبْتُمْ وَفَرِّقًا نَقُتْلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]

لفظ كلما فيهما يفيد التكرار والعموم، والمعنى أن اليهود في جميع عصورهم
لا يخلوا حالهم مع أنبياءهم من أمرين: التكذيب والقتل، ولا يمكن أن يقال: مر
عليهم عصرًا لم يقتلوا فيه نبياً أو صالحاً، وينبني على هذا.

الوجه الرابع: أَنَّ قتل الأنبياء أمر عادي عند اليهود لعنهم الله، لا يرون فيه
ما ينكر ويستقبح، بل قد يفتخرون به كما في شأن عيسى عليه السلام، زعموا أنهم
قتلوه، وقالوا متبجحين مستهزين: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾
[النساء: ١٥٧].

الوجه الخامس: أنهم لإصرارهم على عادتهم الخبيثة في قتل الأنبياء، حاولوا
قتل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مرتين مع أنهم كانوا ينتظرون ظهوره،
ويستنصرون به إذا حاربوا أعدائهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا
كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]. ثبت في الصحيحين
وغيرهما أنهم سموا ذراع شاة وقدموها للنبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
وسلم، فذاق منها وأخبرته الذراع أنها مسمومة، وبقي أثرها يعاوده كل سنة حتى
قال عند انتقاله إلى الرفيق الأعلى «ما زالت أكلة خبير تعاودني حتى كان هذا أو ان



انقطع أبيري » فمات صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم شهيداً. ومرة أخرى خرج النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم إلى يهود بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من حلفائهم، فقالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، اجلس حتى تطعم وترجع بحاجتك وجلس النبي بجانب جدار من بيوتهم، فخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لم تجدوا الرجل على مثل حليه، فمن رجل يعلو البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمر بن جحاش، فقال: أنا لذلك، وصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، فأتى الخبر إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم من السماء بما أرادوا به من الغدر فقام راجعاً إلى المدينة، ومعه أبو بكر وعمر وعلي وغيرهم من الصحابة.

فتاريخ اليهود - لعنهم الله - سلسلة اعتداءات متوالية كفروا بآيات الله، وكذبوا أنبيائهم وآذوهم وقتلوهم وقتلوا صلحائهم، ونفوا نبوة سليمان، وقتلوا يحيى وزكريا، وقدموا رأس يحيى هدية لراقصة عاهرة. فكيف يمكن مع هذا أن يتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؟!.

الوجه السادس: أنه لا يعرف قبر نبي إسرائيلي أو صالح منهم في مكان معين بالتحديد، فكيف يتخذون قبورهم مساجد وهم يجهلونها؟ وقال زكرة بن عبد الله سمعت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: **« لو أعرف قبر يحيى بن زكريا لزرته »** قال ابن عبد البر إسناده ليس بالقوي، فضغفه قريب.

الوجه السابع: أن اليهود يؤمنون بآله واحد، وإن كانوا يعتقدون فيه بالتجسيم والتشبيه، وكنائسهم خالية لا قبر فيها ولا صورة، والطائفة العزيرية منهم انقرضت قبل عهد النبوة، وهم لا يعرفون قبر عزيز أيضاً.



الوجه الثامن: أنَّ القرآن العظيم ذكر أنواع المعبودات التي عبدها المشركون، من عهد نوح عليه السلام، فذكر الملائكة وعيسى وعزيراً والشيطان وفرعون والجن والشمس والقمر والشعري والكواكب ووداً وسواعاً ويغوٲ ويعوق ونسراً وعجل السامري وبعلاً واللات والعزى ومنه والتمثيل والأصنام، وجاء في كتب السيرة ذكر اساف ونائلة وهبل والنار معبودة فارس، ولم يأت في القرآن ولا كتب السيرة أنَّ قبراً عبد من دون الله أو حصل به إشراكاً كما حصل في المعبودات المذكورة.

الخلاصة

يتلخص مما مر أمور:

أحداها: أنَّ حديث لعن الله اليهود موقوف عن العمل به حتى يوجد وجه للجمع بينه وبين ما سبق من الوجوه المذكورة، لأنه لا يجوز العمل بدليل مع وجود ما يعارضه.

ثانيها: أنَّ السجود للقبور وعبادتها، شرك صريح معلوم من الدين بالضرورة، كعبادة الأوثان والأصنام.

ثالثها: أنَّ بناء المسجد على القبر غير اتخاذه مسجداً، وغير دفن الميت في مسجد مبني.

أما الأول: فقد بيناه فيما سبق بدليله.

وأما الآخر: فقال ابن سعد في الطبقات: أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري

أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، قالوا:

قال: أبو بكر أين يدفن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟ قال قائل منهم عند المنبر، وقال قائل منهم: حيث كان يصلي يوم الناس. وقال أيضاً: أخبرنا معن بن عيسى أخبرنا مالك بن أنس أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما توفي قال ناس يدفن عند المنبر. فهؤلاء الناس لم يشيروا بدفنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم عند المنبر أو حيث يؤم الناس، إلا لعلمهم بأن هذا لا يدخل في بناء مسجد على القبر، وهؤلاء كانوا صحابة.

وهنا ينتهي ما أردته من الكلام على معنى اتخاذ القبور مساجد، وفي كتاب «إتقان الصنعة في تحقيق معنى البدعة» تكلمت على الصلاة في مسجد فيه قبور وبينت صحتها، فلينظره من أراد ذلك. وبالله التوفيق^(١).



قال الإمام الشعراوي رحمه الله تعالى: نقول لمن يمنع الصلاة في المساجد التي فيها قبور الأنبياء والصالحين مستدلين بحديث النبي ﷺ «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا» ما هو القبر؟ القبر هو الذي وضعت فيه جثة الميت، وهل هذا اتخذ مسجداً؟ والمسجد النبوي الشريف فيه النبي ﷺ، وإن قيل خصوصية للنبي ﷺ قلنا لهم: وفيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ونصلي في الصُفة والقبر أماناً، ونصلي في الروضة والقبر على يسارنا، ونصلي في الروضة

(١) موسوعة العلامة المحدث عبد الله بن الصديق الغماري ج ١٤ ص ٣٨٧-٤٠٣.

والقبر على يميننا، ونصلي في المواجهة والقبر خلفنا، إذا القبرية لا دخل لها،
لذلك قال الله ﷻ: ﴿قَالَ الَّذِي غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾^(٢١)
[الكهف: ٢١]، ولم ينكرها الله ﷻ.

قال الشيخ الإمام علي جمعة حفظه الله تعالى ورعاه: الصلاة بالمسجد الذي
فيه ضريح لأحد الأنبياء - عليهم السلام - أو الصالحين صحيحة ومشروعة،
وقد تصل إلى درجة الاستحباب. ويدل على هذا الحكم عدة أدلة من القرآن
الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وفعل الصحابة، وإجماع الأمة العملي.

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبْنِوْا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾
﴿قَالَ الَّذِي غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾^(٢١) [الكهف: ٢١].

ووجه الاستدلال بالآية أنها أشارت إلى قصة أصحاب الكهف، حينما عثر
عليهم الناس فقال بعضهم: بنى عليهم بُنيانًا، وقال آخرون: لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ
مَسْجِدًا. والسياق يدل على أن الأوّل: قول المشركين، والثاني: قول الموحّدين،
والآية طرحت القولين دون استنكار. ولو كان فيهما شيء من الباطل لكان من
المناسب أن تشير إليه وتدل على بطلانه بقرينة ما، وتقريرها للقولين يدل على
إمضاء الشريعة لهما، بل إنّها طرحت قول الموحّدين بسياق يفيد المدح، وذلك
بدليل المقابلة بينه وبين قول المشركين المحفوف بالتشكيك، بينما جاء قول الموحّدين
قاطعًا ﴿لَنَتَّخِذَ﴾ نابغًا من رؤية إيمانية، فليس المطلوب عندهم مجرد البناء،
وإنّما المطلوب هو المسجد. وهذا القول يدلّ على أن أولئك الأقوام كانوا عارفين
بالله معترفين بالعبادة والصلاة.



قال الرازي في تفسيره: ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ نعبد الله فيه، ونستبقي آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد. وقال الشوكاني في «فتح القدير»: ذكر اتخاذ المسجد يُشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون، وقيل: هم أهل السلطان والملوك من القوم المذكورين، فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم، والأول أولى. وقال الزجاجي: هذا يدلّ على أنّه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور؛ لأن المساجد للمؤمنين، هذا بخصوص ما ذكر في كتاب الله فيما يخص مسألة بناء المسجد على القبر.

ومن السنة: حديث أبي بصير الذي رواه عبد الرزاق عن معمر عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم قالوا: إن أبا بصير انفلت من المشركين بعد صلح الحديبية، وذهب إلى سيف البحر، ولحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو، أنفلت من المشركين أيضا، ولحق بهم أناس من المسلمين حتى بلغوا ثلاثمائة وكان يصلي بهم أبو بصير.

وكان يقول:

الله العلي الأكبر من ينصر الله ينصر

فلما لحق به أبو جندل، كان يؤمهم، وكان لا يمر بهم غير لقريش إلا أخذوها، وقتلوا أصحابها، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم، إلا أرسل إليهم، فمن أتاك منهم فهو آمن، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي جندل وأبي بصير ليقدما عليه ومن معهم من المسلمين أن يلحقوا ببلادهم وأهلهم، فقدم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي جندل،





وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده يقرأه، فدفنه أبو جندل مكانه، وبنى على قبره مسجدًا. (ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب، وصاحب الروض الأنف، وابن سعد في الطبقات الكبرى، وصاحب السيرة الحلبية).

أما فعل الصحابة رضي الله عنهم يتضح في موقف دفن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلافهم فيه، وهو ما حكاه الإمام مالك رضي الله عنه عندما ذكر اختلاف الصحابة في مكان دفن الحبيب صلى الله عليه وسلم فقال: فقال ناس: يدفن عند المنبر، وقال آخرون: يدفن بالبقيع، فجاء أبو بكر الصديق فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه فحفر له فيه**» (الموطأ)، ووجه الاستدلال أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اقترحوا أن يدفن صلى الله عليه وسلم عند المنبر وهو داخل المسجد قطعاً، ولم ينكر عليهم أحد هذا الاقتراح، بل إن أبا بكر رضي الله عنه اعترض على هذا الاقتراح ليس لحرمة دفنه صلى الله عليه وسلم في المسجد، وإنما تطبيقاً لأمره صلى الله عليه وسلم بأن يدفن في مكان قبض روحه الشريف صلى الله عليه وسلم.

وبتأملنا إلى دفنه صلى الله عليه وسلم في ذلك المكان نجد أنه صلى الله عليه وسلم قبض في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها، وهذه الحجرة كانت متصلة بالمسجد الذي يصلي فيه المسلمون، فوضع الحجرة بالنسبة للمسجد كان - تقريباً - هو نفس وضع المساجد المتصلة بحجرة فيها ضريح لأحد الأولياء في زماننا، بأن يكون ضريحه متصل بالمسجد والناس يصلون في صحن المسجد بالخارج.



وهناك من يعترض على هذا الكلام ويقول: إن هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، والرد عليه:

أن الخصوصية في الأحكام بالنبي صلى الله عليه وسلم تحتاج إلى دليل، والأصل أن الحكم عام ما لم يرد دليل يثبت الخصوصية، ولا دليل، فبطلت الخصوصية المزعومة في هذا الموطن، ونزولاً على قول الخصم من أن هذه خصوصية للنبي صلى الله عليه وسلم - وهو باطل كما بينا - فالجواب أن هذه الحجرة دفن فيها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، ومن بعده سيدنا عمر رضي الله عنه، والحجرة متصلة بالمسجد، فهل الخصوصية انسحبت إلى أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - أم ماذا؟ والصحابة يصلون في المسجد المتصل بهذه الحجرة التي بها ثلاثة قبور، والسيدة عائشة رضي الله عنها تعيش في هذه الحجرة، وتصلي فيها صلواتها المفروضة والمندوبة، ألا يعد هذا فعل الصحابة وإجماع عملي لهم.

ومن إجماع الأمة الفعلي وإقرار علمائها لذلك، صلاة المسلمين سلفاً وخلفاً في مسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمساجد التي بها أضرحة بغير نكير، وإقرار العلماء من لدن الفقهاء السبعة بالمدينة الذين وافقوا على إدخال الحجرة الشريفة إلى المسجد النبوي، وهي بها ثلاثة قبور، ولم يعترض منهم إلا سعيد بن المسيب رضي الله عنه ولم يكن اعتراضه لأنه يرى حرمة الصلاة في المساجد التي بها قبور، وإنما اعترض؛ لأنه يريد أن تبقى حجرات النبي صلى الله عليه وسلم كما هي يطلع عليها المسلمون؛ حتى يزهدوا في الدنيا، ويعلموا كيف كان يعيش نبيهم صلى الله عليه وسلم.





اتخاذ القبر مسجداً ليس هو المسجد الذي به ضريح:

واتخاذ القبر مسجداً الذي ورد فيه النهي عن النبي صلى الله عليه وسلم ليس هو ما ذكرنا من بناء المسجد بجوار ضريح متصل به أو منفصل عنه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (أخرجه البخاري ومسلم)، وفي رواية لمسلم زاد «قبور أنبيائهم وصالحهم» (أخرجها مسلم). فعلماء الأمة لم يفهموا من هذا الحديث أن المقصود النهي عن اتصال المسجد بضريح نبي أو صالح، وإنما فسروا اتخاذ القبر مسجداً التفسير الصحيح، وهو أن يُجعل القبر نفسه مكاناً للِسجود، ويسجد الساجد لمن في القبر عبادة له، كما فعل اليهود والنصارى حيث قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. فهذا هو معنى السجود الذي استوجب اللعن، أو جعل القبر قبلة دون القبلة المشروعة كما يفعل أهل الكتاب؛ حيث يتوجهون بالصلاة إلى قبور أحبارهم ورهبانهم، فتلك الصور هي التي فهمها علماء الأمة من النهي من اتخاذ القبور مساجد.

فكان ينبغي على المسلمين أن يعرفوا الصورة المنهي عنها، لا أن ينظروا إلى ما فعله المسلمون في مساجدهم، ثم يقولون إن الحديث ورد في المسلمين، فهذا فعل الخوارج والعياذ بالله، كما قال ابن عمر رضي الله عنه: ذهبوا إلى آيات نزلت في المشركين فجعلوها في المسلمين. فليست هناك كنيسة للنصارى، ولا معبد لليهود

على هيئة مساجد المسلمين التي بها أضرحة، والتي يصبر بعضهم أن الحديث جاء في هذه الصورة.

ولكن العلماء فهموا المراد بنظر ثاقب وهو ما اتضح في شروحهم لهذه الأحاديث، فها هو الشيخ السندي يقول بشأن هذا الحديث: «ومراذه بذلك أن يحذر أمته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتخاذهم تلك القبور مساجد؛ إما بالسجود إليها تعظيماً، أو يجعلها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها، قيل: ومجرد اتخاذ مسجد في جوار صالح تبركا غير ممنوع». (حاشية السندي).

وقد نقل العلامة ابن حجر العسقلاني وغيره من شراح السنن قول البيضاوي؛ حيث قال: «قال البيضاوي: لما كانت اليهود يسجدون لقبور الأنبياء؛ تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلة، ويتوجهون في الصلاة نحوها فاتخذوها أوثاناً، لعنهم الله، ومنع المسلمين عن مثل ذلك، ونهاهم عنه. أما من اتخذ مسجداً بجوار صالح أو صلى في مقبرته وقصد به الاستظهار بروحه، ووصول أثر من آثار عبادته إليه، لا التعظيم له والتوجه فلا حرج عليه، ألا ترى أن مدفن إسماعيل في المسجد الحرام ثم الحطيم، ثم إن ذلك المسجد أفضل مكان يتحرى المصلي بصلاته، والنهي عن الصلاة في المقابر مختص بالمنوشة لما فيها من النجاسة انتهى». (فتح الباري، شرح الزرقاني، فيض القدير).

وقد نقل كذلك المباركفوري في شرحه لجامع الإمام الترمذي قول التوربشتي فقال: «قال التوربشتي هو مخرج على الوجهين؛ أحدهما: كانوا



يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لهم وقصد العبادة في ذلك، وثانيهما: أنهم كانوا يتحرون الصلاة في مدافن الأنبياء، والتوجه إلى قبورهم في حالة الصلاة والعبادة لله؛ نظراً منهم أن ذلك الصنيع أعظم موقعاً عند الله لاشتغاله على الأمرين. (تحفة الأحوذى).

ومما سبق في بيان حكم الصلاة بالمسجد الذي به ضريح يكون إذا كان القبر في مكان منغل عن المسجد، أي لا يصلى فيه، فالصلاة في المسجد الذي يجاوره صحيحة، ولا حرمة ولا كراهة فيها. أما إذا كان القبر في داخل المسجد، فإن الصلاة باطلة ومحرمة على مذهب أحمد بن حنبل، جائزة وصحيحة عند الأئمة الثلاثة، غاية الأمر أنهم قالوا: يكره أن يكون القبر أمام المصلى، لما فيه من التشبه بالصلاة إليه، والله تعالى أعلى وأعلم.



قال الشيخ يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه في شرحه على البخاري: «مسجداً»: أي موضع للسجود، فيسجدون للقبر لا للقبلة. وأمة النبي ﷺ لم تعمل هذا، إذا هذا أخبار عن اليهود والنصارى، وليس معناه أن أمته ستعمل هذا. فالمسلمون لم يسجدوا لقبر أبداً ولم يعبدوا مقبوراً. والنبي ﷺ قال «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد بعدي» ودعوة النبي ﷺ مستجابة.

والصلاة عند القبر وبجواره جائزة عند جميع المسلمين خلافاً للوهابية التي يعتبرونها شركاً. الشافعية قالوا إنها مكروه ولا يؤمر بالإعادة لما رواه البخاري: أن عمر رأى انس بن مالك يصلي عند قبر، فقال له: القبر القبر. ولم يأمره بالإعادة^(١)، فدل على صحتها.

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ١٨٦.



ونص الحديث « **بَنُوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوِّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ** » أي بنوا على قبره مسجدا وسجدوا إليه واتخذوه قبلة، والتصاوير هي التماثيل في لغة العرب ولغة قريش. ولم يفعل هذا المسلمون. ثم إن السيدة عائشة رضي الله عنها صلت بجانب قبر النبي ﷺ وقبر أبيها عشرات السنين.

وقال الشيخ الدكتور يسري جبر: والأدلة على جواز الصلاة في المساجد التي فيها قبور الأنبياء والعلماء والصالحين كثيرة:

قول الله ﷻ في قصة أصحاب الكهف: ﴿ **قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا** ﴾ [الكهف: ٢١] والذين غلبوا على أمرهم هم المؤمنون على الصحيح، لأن المسجد إنما يبينه المؤمنون، وأما الكافرون فقالوا: ﴿ **فَقَالُوا أَبْنَاؤُهُمْ بُنَيْنَا** ﴾ [الكهف: ٢١] أي متحف. والدليل من هذه الآية إقرار الله ﷻ على ما قالوا وعدم رده عليهم، فإن الله إذا حكى عن قوم ما لا يرضاه ذكر معه ما يدل على فسادهم وبطلانهم، إما قبله وإما بعده، فإن لم يمه على ذلك دل على صحته.

١ - قال النبي ﷺ في الحديث المذكور أعلاه « **فَأُولَٰئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » والقرآن والسنة تثبت أن أمة النبي ﷺ خير أمة أخرجت للناس، وإنهم عدول وهم شهداء على الناس، والله أعلم بنيه أن أمته خلفا وسلفا سيتخذون المساجد على قبور الصالحين والعلماء، وقد شد الإمام النووي الرحلة من الشام إلى مصر لزيارة قبر الإمام الشافعي رحمه الله. فدل على أن شرار الخلق هم الذين يعبدون المقبور، لا الذين يزورون الصالحين والدعاء لهم والدعاء عندهم. فالعلة مختلفة بين الخبرين.





٢- قضى الله ﷻ أن يبنى مسجداً على قبر النبي ﷺ، والنبي ﷺ أعلى قدراً من أن يكون جسده الشريف في ما هو محرم لله تعالى ملعون فاعله وهو من أشرف المساجد على الأرض.

٣- أمر النبي ﷺ أن يدفن في البناء، وهذا ما أقروه الصحابة أن يدفن في بيت عائشة مع وجود البناء، مع علمه ﷺ أن هذا يؤول إلى الدخول فيما بعد إلى مسجده الشريف، عندما تكثر أمته ويتسع مسجده، والنبي ﷺ عرضت عليه أعمال أمته إلى يوم القيامة. وبذلك رغب في زيارة قبره الشريف، فقال «من زار قبري وجبت له شفاعتي».

٤- أخبر النبي ﷺ أن قبره الشريف سيكون داخل مسجده فقال «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» وفي رواية «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي» ونحن نعلم أن المنبر والبيت لم يكن لهما هذا الفضل لمجرد أعواد المنبر وحجارة البيت وطينه، وإنما الشرف لمجاورة القبر الشريف، فالمراد هو القبر.

٥- أن جماعة من الأنبياء والمرسلين مدفونون في المسجد الحرام ما بين زمزم والمقام، وسيدنا محمد ﷺ يعرف هذا، ومعلوم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء. ولو كان وجودهم داخل الكعبة خطأً لأمر النبي ﷺ بإخراجها ودفنهم خارج الكعبة. فسيدنا إسماعيل عليه السلام مدفون في الحجر وهو دفن أمه داخل الكعبة، ولو كان هذا يؤدي للشرك لأمر النبي ﷺ بإخراجها. وابن كثير في البداية والنهاية قال: ما بين زمزم والمقام مدفون سبعون نبياً. فلما لم يفعل هذا النبي ﷺ دل



على أنه ليس محرماً لذاته، وإنما لعله عبادتها والتي بانتفائها ينتفي حكمها. وإذا علمت أن أفضل مساجد الأرض هي مسجدا مكة والمدينة اللذان هما الحرمين الشريفان، وقد شاء الله ﷻ وقدر أن في كل منهما قبوراً متعددة، ففي حرم المدينة قبر النبي ﷺ وصاحبيه وقبر رابع سيدفن فيه سيدنا عيسى ﷺ فاعلم أن الدفن في المسجد أو بناء الجامع على القبر من أفضل الأعمال تأسيا بالحرمين الشريفين. فكل مسجد ليس فيه قبر فهو ناقص الفضل قليل البركة عديم الأسوة بأفضل المساجد وأشرفها.

٦- بنى الصحابة مسجدا على القبر في حياته ﷺ كما قال ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة أبي بصير، ورواه عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن ابن شهاب في قصة صلح الحديبية في آخرها، أنه اجتمع مع أبي بصير في جدة البحر (جوار مدينة جدة حالياً) أبو جندل وبعض المستضعفين وأناس من بني غفار وطوائف من العرب، حتى بلغوا ثلاثمائة وهم مسلمون، فأقاموا هناك وقطعوا الطريق على قريش في تجارتهم إلى الشام. فأرسل إليهم النبي ﷺ يدعوهم القدوم إلى المدينة وفي تلك الآونة كان أبو بصير ﷺ يحتضر، فمات ودفنه أبو جندل مكانه وصلى عليه وبنى على قبره مسجداً. وهذه القصة أوردها ابن حجر العسقلاني وهو من حفاظ الأمة لا يورد في كتابه فتح الباري إلا ما كان مقبولا عند الأمة. ولا شك أن النبي ﷺ اطلع على عملهم من بناء المسجد على القبر ولم يمنعه، ولو غاب عنه لأخبره الوحي، فلما لم يأمر بهدمه دل ذلك على جوازه.





قلت: وفي هذه الأقوال والأدلة الكافية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أما فتوى بن جبرين ففيها من الخطورة ما عجز الشيطان أن يقوم به، فقد حكم بقوله المذكور في التفسير الأولي ببطلان صلاة مليارات المسلمين من زمان النبي ﷺ إلى أن تقوم الساعة، فمنذ أن دُفن النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، والسيدة عائشة تصلي فيه والصحابة والتابعون والأمة إلى يومنا هذا يصلون فيه، وابن جبرين يقول ببطلانها.

أما المسجد الحرام ففيه إسماعيل عليه السلام وأمه رضي الله عنها، والنبي ﷺ صلى فيه ومن بعده الأمة إلى أن يرث الله الأرض من عليها، وابن جبرين بفتواه حكم ببطلان صلاتهم.

وفي جميع الدول الإسلامية أقام المسلمون المساجد على قبور العلماء والأولياء كجامع الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان والشافعي والأوزاعي والجامع الاموي والأزهر الشريف وغيرها في كل البلدان الإسلامية، وجماهير علماء الأمة من السلف والخلف يصلون فيها، وحكم ببطلان صلاة الناس في هذه الجوامع، وكل هذا نتيجة الفهم الخاطئ للدين الإسلامي وما جاء فيه، فانتبه أخي المسلم إلى مثل هؤلاء العلماء ومثل هذه الفتاوى واعرف خطرهما.

وهذه الفتوى تخالف ما كان عليه السلف الصالح من الصلاة في المسجد النبوي الشريف وزيارة القبر الشريف والتبرك به، فلقد روى الإمام الذهبي في معجم الشيوخ الكبير ما نصه: « وَقَدْ سُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ مَسِّ الْقَبْرِ النَّبَوِيِّ وَتَقْيِيلِهِ، فَلَمْ يَرِ بِذَلِكَ بَأْسًا، رَوَاهُ عَنْهُ وَلَدُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ. فَإِنْ قِيلَ: فَهَلَا فَعَلَ



ذَلِكَ الصَّحَابَةُ؟ قِيلَ: لَأَنَّهُمْ عَايَنُوهُ حَيًّا وَتَمَلَّوْا بِهِ وَقَبَّلُوا يَدَهُ وَكَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَاقْتَسَمُوا شَعْرَهُ الْمُطَهَّرَ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، وَكَانَ إِذَا تَنَخَّمَ لَا تَكَادُ نُخَامَتُهُ تَقَعُ إِلَّا فِي يَدِ رَجُلٍ فَيَدْلُكُ بِهَا وَجْهَهُ، وَنَحْنُ فَلَمَّا لَمْ يَصِحْ لَنَا مِثْلُ هَذَا النَّصِيبِ الْأَوْفَرِ تَرَامَيْنَا عَلَى قَبْرِهِ بِالْإِتْرَامِ وَالتَّبَجِيلِ وَالِاسْتِلامِ وَالتَّقْبِيلِ، أَلَا تَرَى كَيْفَ فَعَلَ ثَابِتُ الْبُنَانِيِّ؟ كَانَ يَقْبَلُ يَدَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَيَضَعُهَا عَلَى وَجْهِهِ وَيَقُولُ: يَدُ مَسَّتْ يَدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا يُحَرِّكُهَا مِنَ الْمُسْلِمِ إِلَّا فَرَطُ حُبِّهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ هُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُحِبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَشَدَّ مِنْ حُبِّهِ لِنَفْسِهِ، وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَمِنْ أَمْوَالِهِ، وَمِنْ الْجَنَّةِ وَحُورِهَا، بَلْ خَلَقَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّونَ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّ أَنْفُسِهِمْ.

حَكَى لَنَا جُنْدَارٌ، أَنَّهُ كَانَ بِجَبَلِ الْبِقَاعِ فَسَمِعَ رَجُلًا سَبَّ أَبَا بَكْرٍ فَسَلَّ سَيْفَهُ، وَضَرَبَ عُنُقَهُ، وَلَوْ كَانَ سَمِعَهُ يَسُبُّهُ، أَوْ يَسُبُّ أَبَاهُ لَمَا اسْتَبَاحَ دَمَهُ، أَلَا تَرَى الصَّحَابَةَ فِي فَرَطِ حُبِّهِمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: أَلَا نَسْجُدُ لَكَ؟ فَقَالَ: «لَا» فَلَوْ أَدْنَى هُمْ لَسَجَدُوا لَهُ سَجُودَ إِجْلَالٍ وَتَوْقِيرٍ^(١).



(١) معجم الشيوخ الكبير ج ١ ص ٧٣.

الحديث الخامس

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(١).

التفسير الأولي:

قال ابن تيمية رحمه الله في فتاويه: وأما إذا كان قصده بالسفر زيارة قبر النبي دون الصلاة في مسجده، فهذه المسألة فيها خلاف، فالذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أن هذا غير مشروع ولا مأمور به، لقوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»^(٢).

وقال في موضع آخر:

في رجل نوى زيارة قبر نبي من الأنبياء مثل نبينا محمد ﷺ وغيره، فهل يجوز له في سفره أن يقصر الصلاة؟ وهل هذه الزيارة شرعية أم لا؟ وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من حج ولم يزرني فقد جفاني، ومن زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي»، وقد روي عنه أنه قال «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مواضع: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا».

(١) البخاري (١١٨٩)، مسلم (١٣٩٧)، أبو داود (٢٠٣٣)، الترمذي (٣٢٦)، النسائي (٧٠٠)، ابن ماجه (١٤٠٩).

(٢) الفتاوى الكبرى ج ٥ ص ١٤٨.



الجواب: الحمد لله رب العالمين. أما من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين فهل يجوز له قصر الصلاة؟ على قولين معروفين: أحدهما: وهو قول متقدمي العلماء الذين لا يجوزون القصر في سفر المعصية كأبي عبد الله بن بطة وأبي الوفا بن عقيل، وطوائف كبيرة من العلماء المتقدمين أنه لا يجوز القصر في مثل هذا السفر، لأنه سفر منهي عنه، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد أن السفر المنهي عنه في الشريعة لا يقصر فيه^(١).



قال عبد بن جبرين: حكم قصد زيارة قبر النبي ﷺ

س ١١: بعض الناس يذهب إلى المدينة لقصد زيارة القبر النبوي، فما حكم هذا العمل؟

الجواب: لا يجوز هذا القصد، وإنما يجوز السفر إلى المدينة لقصد الصلاة في المسجد النبوي، فهو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، والصلاة فيه بألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام. القبر النبوي، فقد ورد النهي عن اتخاذه عيداً، أي: تكرار زيارته كما يتكرر العيد، فقال ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا علي حيث كنتم، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، وقال ﷺ: - «ما من مسلم يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»؛ فيعم ذلك المسلم من قريب أو بعيد^(٢).



(١) الفتاوى الكبرى ج ٥ ص ٢٨٧.

(٢) فتاوى في التوحيد ج ١ ص ٢٣.



قال عبد الرحمن بن حماد آل عمر رحمه الله تعالى: لم يشرع النبي ﷺ السفر لزيارة القبور مطلقاً؛ سواء كانت قبور أنبياء أو صالحين أو غيرهم. فلو كان شد الرحل لقصد قبر النبي ﷺ أو غيره جائزاً لبينه النبي ﷺ، وزيارة المدينة ليست للقبر؛ وإنما هي للمسجد؛ فمن نوى بزيارته القبر لا المسجد فقد خالف قول الرسول ﷺ ورغب عن سنته. والقول بشرعية شد الرحال لزيارة قبره ﷺ يفضي إلى اتخاذه عيداً ويوقع في المحذور الذي خالفه الرسول ﷺ من الغلو والإطراء؛ كما قد وقع الكثير من الناس في ذلك بسبب اعتقادهم شرعية شد الرحال لزيارة قبره عليه السلام^(١).



التفسير العرفاني:

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في فتح الباري: واختلف في شد الرحال إلى غيرها كالذهاب إلى زيارة الصالحين أحياء وأمواتا وإلى المواضع الفاضلة لقصد التبرك بها والصلاة فيها: فقال الشيخ أبو محمد الجويني: يحرم شد الرحال إلى غيرها عملاً بظاهر هذا الحديث، وأشار القاضي حسين إلى اختياره وبه قال عياض وطائفة، ويدل عليه ما رواه أصحاب السنن من إنكار بصرة الغفاري على أبي هريرة خروجه إلى الطور، وقال له: لو أدركتك قبل أن تخرج ما خرجت واستدل بهذا الحديث، فدل على أنه يرى حمل الحديث على عمومته ووافق أبو هريرة.

والصحيح عند إمام الحرمين وغيره من الشافعية أنه لا يحرم، وأجابوا

(١) الإرشاد إلى توحيد رب العباد ج ١ ص ١١١.



عن الحديث بأجوبة، منها؛ أنَّ المراد أنَّ الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى هذه المساجد بخلاف غيرها فإنه جائز، وقد وقع في رواية لأحمد سيأتي ذكرها بلفظ لا ينبغي للمطي أن تعمل وهو لفظ ظاهر في غير التحريم. ومنها أنَّ النهي مخصوص بمن نذر على نفسه الصلاة في مسجد من سائر المساجد غير الثلاثة، فإنه لا يجب الوفاء به، قاله بن بطال. وقال الخطابي: اللفظ لفظ الخبر، ومعناه الإيجاب فيما ينذر الإنسان من الصلاة في البقاع التي يتبرك بها، أي لا يلزم الوفاء بشيء من ذلك غير هذه المساجد الثلاثة. ومنها أنَّ المراد حكم المساجد فقط، وأنه لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد للصلاة فيه غير هذه الثلاثة. وأما قصد غير المساجد لزيارة صالح أو قريب أو صاحب أو طلب علم أو تجارة أو نزهة فلا يدخل في النهي، ويؤيده ما روى أحمد من طريق شهر بن حوشب، قال: سمعت أبا سعيد وذكرته عنده الصلاة في الطور، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ينبغي للمصلي أن يشد رحاله إلى مسجد تبتغي فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي. قال الكرماني: وقع في هذه المسألة في عصرنا في البلاد الشامية مناظرات كثيرة، وصنف فيها رسائل من الطرفين.



قلت: يشير إلى ما رد به الشيخ تقي الدين السبكي وغيره على الشيخ تقي الدين بن تيمية، وما انتصر به الحافظ شمس الدين بن عبد الهادي وغيره لابن تيمية وهي مشهورة في بلادنا، والحاصل إنهم ألزموا بن تيمية بتحريم شد الرحل إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكرنا صورة ذلك. وفي شرح ذلك من الطرفين طول وهي من أبشع المسائل المنقولة عن بن تيمية، ومن جملة ما



استدل به على دفع ما ادعاه غيره من الإجماع على مشروعية زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ما نقل عن مالك أنه كره أن يقول: زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أجاب عنه المحققون من أصحابه بأنه كره اللفظ أدبا لا أصل الزيارة، فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذي الجلال، وأن مشروعيتهما محل إجماع بلا نزاع، والله الهادي إلى الصواب.

قال بعض المحققين: قوله: «إلا إلى ثلاثة مساجد» المستثنى منه محذوف، فإما أن يقدر عاما فيصير: لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلا إلى الثلاثة، أو أخص من ذلك لا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها، فتعين الثاني. والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة، وهو لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة، فيبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين والله أعلم.



وقال السبكي الكبير رحمه الله تعالى: ليس في الأرض بقعة لها فضل لذاتها حتى تشد الرحال إليها غير البلاد الثلاثة. ومرادي بالفضل ما شهد الشرع باعتباره، ورتب عليه حكما شرعيا، وأما غيرها من البلاد فلا تشد إليها لذاتها، بل لزيارة أو جهاد أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات. قال: وقد التبس ذلك على بعضهم فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن في غير الثلاثة داخل في المنع، وهو خطأ؛ لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه. فمعنى الحديث: لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأماكن لأجل ذلك المكان

إلا إلى الثلاثة المذكورة. وشد الرحال إلى زيارة أو طلب علم ليس إلى المكان، بل إلى من في ذلك المكان والله أعلم^(١).



قال ابن بطال رحمه الله تعالى في شرحه على البخاري: إنما هو عند العلماء فيمن نذر على نفسه الصلاة في مسجد من سائر المساجد غير الثلاثة المذكورة، قال مالك: من نذر صلاة في مسجد لا يصل إليه إلا براحلة، فإنه يصل في بلده، إلا أن ينذر ذلك في مسجد مكة أو المدينة أو بيت المقدس، فعليه السير إليها. وقال المؤلف: وأما من أراد الصلاة في مساجد الصالحين والتبرك بها متطوعاً بذلك، فمباح له قصدها، ولا يتوجه إليه النهي في هذا الحديث^(٢).



قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرحه على مسلم: وقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا يحرم شد الرحال إلى غيرها وهو غلط^(٣).



قال علي القاري رحمه الله تعالى في مرقاة المفاتيح: وفي شرح مسلم للنووي قال أبو محمد: يحرم شد الرحل إلى غير الثلاثة وهو غلط، وفي الإحياء: ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال به على المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصالحين، وما تبين في أن الأمر كذلك، بل الزيارة مأمور بها لخبر: «كنت نهيتكم

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ٣ ص ٦٤-٦٦.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج ٣ ص ١٧٨.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ج ٩ ص ١٦٧.

عن زيارة القبور إلا فزورها». والحديث إنما ورد نهياً عن الشد لغير الثلاثة من المساجد لتمامها، بل لا بلد إلا وفيها مسجد، فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر. وأما المشاهد فلا تساوي بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله، ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحل لقبور الأنبياء كإبراهيم وموسى ويحيى، والمنع من ذلك في غاية الإحالة، وإذا جوز ذلك لقبور الأنبياء والأولياء في معنائهم، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة، كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد^(١).



قال السندي رحمه الله تعالى في حاشيته على ابن ماجه: «لا تشد الرحال» نفي بمعنى النهي أو نهى وشد الرحال كناية عن السفر، والمعنى: لا ينبغي شد الرحال في السفر بين المساجد إلا إلى ثلاثة مساجد، وأما السفر للعلم وزيارة العلماء والصلحاء وللتجارة ونحو ذلك فغير داخل في حيز المنع، وكذا زيارة المساجد الأخرى كزيارة مسجد قباء لأهل المدينة غير داخل في حيز النهي. والله أعلم^(٢).



قلت: والآن سنورد بحثاً كاملاً متكاملًا للشيخ محمد بن علوي المالكي إمام الحرم المكي، وفيه الأدلة الكاملة التامة لكل طالب حق. أما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فلا يتبع الحق ولا يراه، وإن كان مثل شمس الظهيرة.



(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج ٢ ص ٥٨٩.

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤٣٠.

قال الشيخ محمد بن علوي رحمه الله تعالى المالكي:

يُخطئ كثير من الناس في فهم حديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

فيستدلون به على تحريم شد الرحل لزيارة النبي ﷺ، ويعتبرون أنَّ السفر بذلك سفر معصية. وهذا الاستدلال مردود، لأنه مبني على فهم باطل، فالحديث كما سترى في باب، والاستدلال في باب آخر، وبيان ذلك هو: أنَّ قوله ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، جاء على الأسلوب المعروف عند اللغويين بأسلوب الاستثناء، وهذا يقتضي وجود مستثنى ومستثنى منه، فالمستثنى هو ما كان بعد إلا، والمستثنى منه هو ما كان قبلها، ولا بد من الأمرين، إما وجوداً أو تقديرًا، وهذا مقرر ومعروف في أبسط كتب النحو.

وإذا نظرنا إلى هذا الحديث وجدنا أنه قد جاء فيه التصريح بذكر المستثنى وهو قوله: «إلى ثلاثة مساجد» وهو ما بعد «إلا» ولم يأت ذكر المستثنى منه وهو ما قبل «إلا»، فلا بد إذن من تقديره. فإن فرضنا أنَّ المستثنى منه (قبر) كان اللفظ المنسوب لرسول الله ﷺ لا تشد الرحال إلى قبر إلا إلى ثلاثة مساجد. وهذا السياق ظاهر في عدم الانتظام وغير لائق بالبلاغة النبوية، فالمستثنى غير داخل ضمن المستثنى منه، والأصل أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، ولا يطمئن قلب عالم يتخرج من نسبة كلام للمصطفى ﷺ لم يقله إلى نسبة هذه اللفظة (قبر) وهي لا تتفق مع الأصل في الاستثناء إلى رسول الله ﷺ، فلا تصلح أن تكون هي المستثنى منه، فلنفرض أنها لفظ (مكان) فيكون السياق المنسوب لرسول الله ﷺ



على هذا الفرض، لا تشد الرحال إلى مكان إلا إلى ثلاثة مساجد، ومعنى هذا: ألا تسافر إلى تجارة أو علم أو خير، وهذا ضرب من الهوس ظاهر البطلان.

فالحديث اشتمل على ذكر المستثنى وليس فيه ذكر المستثنى منه، ولذلك فلا بد من تقديره باتفاق أهل اللغة، وتقديره لا يحتمل إلا ثلاثة وجوه لا رابع لها:

الوجه الأول: أن يكون تقديره بلفظ (قبر) فيكون اللفظ المقدر: لا تشد الرحال إلى قبر إلا إلى ثلاثة مساجد. وهذا التقدير مبني على رأي من يستدل بالحديث على منع السفر للزيارة، وأنت ترى أنه تقدير بارد ممجوج لا يستسيغه من عنده أدنى إمام بالعربية، وهو لا تليق نسبته إلى أفصح من نطق بالضاد صلوات الله وسلامه عليه، فحاشا أن يرضى بمثل هذا الأسلوب الساقط.

الوجه الثاني: أن يكون تقدير المستثنى منه في الحديث بلفظ عام وهو لفظ (مكان)، وهذا باطل كما تقدم بلا خلاف.

الوجه الثالث: أن يكون تقدير المستثنى منه في الحديث بلفظ (مسجد) فيكون سياق الحديث بلفظ: لا تشد الرحال إلى مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد. فنرى أن الكلام قد انتظم وجرى على الأسلوب اللغوي الفصيح، واختفى التهافت الواضح في الصورتين المتقدمتين وأشرقت فيه روح النبوة. ويطمئن القلب التقي إلى نسبته لرسول الله ﷺ هذا بفرض أنه لا توجد رواية أخرى مصرحة بالمستثنى منه. فإذا وجدت هذه الرواية فلا يحل لمن له دين أن يعدل عنها إلى محض فرض لا يستند إلى فصيح اللغة. وقد وجدنا بحمد الله في السنة النبوية من طريق الروايات المعتمدة ما فيه التصريح بالمستثنى منه، فمنها: ما أخرجه الإمام أحمد من شهر بن حوشب قال: سمعت أبا سعيد وذكرته عنده الصلاة والسلام في الطور فقال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للمطي أن يشد رحاله إلى مسجد تبتغي فيه الصلاة



غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي^(١). وفي لفظ آخر: «لا ينبغي للمطي أن تشد رحاله إلى مسجد يتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»^(٢). ومنها ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنا خاتم الأنبياء ومسجدي خاتم مساجد الأنبياء أحق المساجد أن يزار وتشد إليه الرواحل: المسجد الحرام ومسجدي، صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام»^(٣).

وكثير من العلماء يذكرونها في كتب المناسك على أنها من المستحبات، ويؤيد هذا أحاديث كثيرة، نذكر جملة منها:

عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من زار قبري وجبت له شفاعتي».

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءني زائراً لا يعلم له حاجة إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شافعاً يوم القيامة»^(٤).

عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من حج فزار قبري في مماتي كان كمن زارني في حياتي»^(٥).

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: قال الحافظ ابن حجر: وشهر حسن الحديث وإن كان فيه بعض ضعف. (فتح الباري ج ٣ ص ٦٥).

(٢) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: قال الحافظ الهيثمي: وفيه شهر، فيه كلام وحديثه حسن. (مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣).

(٣) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: رواه البزار. (مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣).

(٤) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه مسلمة بن سالم وهو ضعيف. (كذا في المجمع ج ٤ ص ٢).

(٥) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه حفص بن أبي داود القاري وثقه... أحمد، وضعفه جماعة من الأئمة.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي» قال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والأوسط

الحاصل أنَّ أحاديث الزيارة لها طرق كثيرة يقوي بعضها بعضاً، كما نقله المناوي عن الحافظ الذهبي في فيض القدير^(١)، خصوصاً وإن بعض العلماء صحَّحها أو نقل تصحيحها كالسبكي، وابن السكن، والعراقي، والقاضي عياض في الشفا، والملا علي قاري شارحه والخفاجي كذلك في نسيم الرياض^(٢)، وكلهم من حفاظ الحديث وأئمة المعتمدين، ويكفي أنَّ الأئمة الأربعة رضي الله عنهم وغيرهم من فحول العلماء وأركان الدين قالوا بمشروعية زيارة النبي ﷺ كما نقله عنهم أصحابهم في كتب فقهم المعتمدة، وهذا كاف منهم في تصحيح أحاديث الزيارة وقبولها؛ لأن الحديث الضعيف يتأيد بالعمل والفتوى، كما هو معروف من قواعد الأصوليين والمحدثين.



الإمام مالك رحمه الله تعالى والزيارة:

الإمام مالك هو من أشد الناس تعظيماً للجناب النبوي، وهو الذي كان لا يمشي في المدينة المنورة متنعلاً ولا راكباً، ولا يقضي فيها حاجته، احتراماً وتعظيماً وتكريماً لتراب المدينة الذي مشى عليه رسول الله ﷺ. وها هو يخاطب أمير المؤمنين المهدي لما جاء إلى المدينة في هذا الموضوع ويقول له: إنك تدخل

(١) فتح القدير شرح الجامع الصغير (ج ٦ ص ١٤٠).

(٢) نسيم الرياض (ج ٣ ص ٥١١).



الآن المدينة، فتمر بقوم عن يمينك ويسارك وهم أولاد المهاجرين والأنصار فسلم عليهم، فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة، ولا خير من المدينة. فقال له: ومن أين قلت ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: لأنه لا يعرف قبر نبي اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ، ومن قبر محمد عندهم فينبغي أن يعلم فضلهم^(١). ومن شدة تعظيمه للمدينة أنه كره أن يقال: زرنا قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكأنه أراد أن يقول القائل زرنا النبي ﷺ مباشرة دون لفظ القبر؛ لأن القبر مهجور بدليل قوله ﷺ: «صلوا في بيوتكم ولا تجعلوها قبوراً».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: أنه إنما كره اللفظ أدباً لا أصل الزيارة، فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذي الجلال، وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع^(٢).



وقال الإمام الحافظ ابن عبد البر رحمه الله تعالى: إنما كره مالك أن يقال: طواف الزيارة وزرنا قبر النبي ﷺ لاستعمال الناس ذلك بعضهم لبعض، أي فيما بينهم، فكره تسوية النبي ﷺ مع الناس أي عمومهم بهذا اللفظ، وأحب أن يخص بأن يقال: سلمنا على النبي ﷺ.



(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: كذا في المدارك للقاضي عياض.

(٢) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٣ ص ٦٦.



استحباب زيارة النبي ﷺ عند الحنابلة وغيرهم:

زيارة النبي ﷺ مشروعة، وقد ذكرها كثير من علماء الأمة وأئمة السلف، وتخصيص الحنابلة بالذكر المقصود منه رد فرية من زعم أن أئمة الحنابلة لا يقولون بذلك، فاقضى الأمر تخصيصهم بالذكر لرد هذه الفرية، وإلا فإن كتب فقه المذاهب الإسلامية جميعها مشحونة ومملوءة بهذه المسألة، فانظر إن شئت كتب الفقه الحنفي، وانظر إن شئت كتب الفقه المالكي، وكتب الفقه الشافعي والحنبلي، وكتب الفقه الزيدي والإباضي والجعفري، فإنك تجدهم قد عقدوا باباً مخصوصاً في الزيارة بعد أبواب المناسك.

كلام أئمة السلف في مشروعية زيارة سيدنا رسول الله ﷺ وشد الرحل إلى قبره:

١ - القاضي عياض رحمه الله تعالى:

نذكر هنا كلام القاضي عياض في مشروعية الزيارة النبوية عند السلف، في شرحه للحديث الذي رواه مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرُزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرُزُ الْحَيَّةُ إِلَى جَحْرِهَا».. قال القاضي عياض: وقوله ﷺ: «وَهُوَ يَأْرُزُ إِلَى الْمَدِينَةِ» معناه: أَنَّ الْإِيمَانَ أَوَّلًا وَآخِرًا بِهَذِهِ الصِّفَةِ، لِأَنَّهُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ كَانَ كُلُّ مَنْ خَلَصَ إِيْمَانَهُ وَصَحَّ إِسْلَامُهُ أَتَى الْمَدِينَةَ؛ إِمَّا مَهَاجِرًا مُسْتَوْتُنًا وَإِمَّا مُتَشَوِّقًا إِلَى رُؤْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَتَعَلِّمًا مِنْهُ وَمُتَقَرِّبًا. ثُمَّ بَعْدَهُ هَكَذَا فِي زَمَنِ الْخُلَفَاءِ كَذَلِكَ، وَلَأَخْذُ سِيرَةِ الْعَدْلِ مِنْهُمْ وَالْإِقْتِدَاءُ بِجُمْهُورِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِيهَا، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ



العلماء الذين كانوا سرج الوقت وأئمة الهدى لأخذ السنن المنتشرة بها عنهم، فكان كل ثابت الإيمان منشرح الصدر به يرحل إليها، ثم بعد ذلك في كل وقت إلى زماننا لزيارة قبر النبي ﷺ والتبرك بمشاهدته وآثار أصحابه الكرام، فلا يأتيها إلا مؤمن^(١).



٢ - الإمام النووي رحمه الله تعالى:

عقد الإمام الحافظ شرف الدين النووي صاحب شرح صحيح مسلم في كتابه المعروف في المناسك المسمى بالإيضاح، عقد فصلاً خاصاً عن الزيارة النبوية، قال فيه: إذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة فليتوجهوا إلى مدينة رسول الله ﷺ لزيارة تربته ﷺ، فإنها من أهم القربات وأنجح المساعي^(٢).



٣ - الإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى:

قال الحافظ ابن حجر الهيتمي في حاشيته على الإيضاح للنووي معلقاً على قوله: وقد روى البزار والدارقطني بإسنادهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي». قال: رواه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه، وصححه جماعة كعبد الحق والتقي السبكي، ولا ينافي

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: هذا كلام القاضي عياض، والله أعلم بالصواب اهـ. شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٧٧.

(٢) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: وانظر كلامه أيضاً في شرح صحيح مسلم عند الكلام على حديث لا تشدد... الرحال (ج ٩ ص ١٠٦).



ذلك قول الذهبي: طرقها كلها لينة، يقوي بعضها بعضاً. ورواه الدارقطني أيضاً والطبراني وابن السبكي وصحّحه بلفظ: «من جاءني زائراً لا تحمله حاجة إلا زيارتي كان حقاً عليّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة». وفي رواية: «كان له حقاً على الله عز وجل أن أكون له شفيعاً يوم القيامة».

والمراد بقوله: لا تحمله حاجة إلا زيارتي، اجتناب قصد ما لا تعلق له بالزيارة. أما ما يتعلق بها من نحو قصد الاعتكاف في المسجد النبوي، وكثرة العبادة فيه، وزيارة الصحابة وغير ذلك مما يندب للزائر فعله، فلا يضر قصده في حصول الشفاعة له، فقد قال أصحابنا وغيرهم: يسن أن ينوي مع التقرب بالزيارة التقرب بشد الرحل للمسجد النبوي والصلاة فيه كما ذكره المصنف.

ثم الحديث يشمل زيارته ﷺ حياً وميتاً، ويشمل الذكر والأنثى الآتي من قرب أو بعد، فيستدل به على فضيلة شد الرحال لذلك، وندب السفر للزيارة إذ للوسائل حكم المقاصد. وقد أخرج أبو داود بسند صحيح: «ما من أحد يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي، حتى أرى عليه السلام».

فتأمل هذه الفضيلة العظيمة وهي رده ﷺ على المسلم عليه إذ هو ﷺ حي في قبره كسائر الأنبياء لما ورد مرفوعاً: الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون. ومعنى رد روحه الشريفة رد القوة النطقية في ذلك الحين للرد عليه. اهـ^(١).



(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: (من الإيضاح ص ٤٨٨)

٤ - الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى:

قال ابن حجر في شرحه على البخاري عند قوله: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد». قوله: «إلا إلى ثلاثة مساجد» المستثنى منه محذوف، فيما أن يقدر عاماً فيصير: لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلا لثلاثة. أو أخص من ذلك، لا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها، فتعين الثاني. والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة وهو: لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة، فيبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين، والله أعلم.

وقال السبكي الكبير: وقد التبس ذلك على بعضهم، فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن في غير الثلاثة داخل في المنع، وهو خطأ؛ لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه، فمعنى الحديث: لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلا إلى الثلاثة المذكورة، وشد الرحال إلى زيارة أو طلب علم ليس إلى المكان بل إلى من في ذلك المكان، والله أعلم اهـ^(١).



٥ - الإمام الشيخ الكرمانى رحمه الله تعالى شارح البخاري:

قال الشيخ الكرمانى في شرحه على البخاري عند قوله: «إلا إلى ثلاثة مساجد»: والاستثناء مفرغ، فإن قلت: فتقدير الكلام (لا تشد الرحال إلى موضع أو مكان) فيلزم إلا يجوز السفر إلى مكان غير المستثنى، حتى لا يجوز السفر لزيارة

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: (فتح الباري ج ٣ ص ٦٦).

إبراهيم الخليل عليه السلام ونحوه، لأن المستثنى منه في المفرغ لابد أن يقدر أعم العام.

قلت: المراد بأعم العام ما يناسب المستثنى نوعاً ووصفاً، كما إذا قلت: ما رأيت إلا زيداً، كان تقديره: ما رأيت رجلاً أو أحداً إلا زيداً، لا ما رأيت شيئاً أو حيواناً إلا زيداً، فههنا تقديره: لا تشد إلى مسجد إلا إلى ثلاثة، وقد وقع في هذه المسألة في عصرنا مناظرات كثيرة في البلاد الشامية، وصنف فيها رسائل من الطرفين لسنا الآن لبيانها. اهـ. شرح الكرمانى (ج ٧ ص ١٢).



٦ - الشيخ الإمام بدر الدين العيني رحمه الله تعالى:

قال الشيخ العيني في شرح البخاري: وحكى الرافي عن القاضي ابن كج أنه قال: إذا نذر أن يزور قبر النبي ﷺ فعندي أنه يلزمه الوفاء وجهاً واحداً، قال: ولو نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان عندي. وقال القاضي عياض، وأبو محمد الجويني من الشافعية: أنه يحرم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة لمقتضى النهي. وقال النووي: وهو غلط، والصحيح عند أصحابنا وهو الذي اختاره إمام الحرمين والمحققون أنه لا يحرم ولا يكره. وقال الخطابي: لا تشد لفظه خبر ومعناه الإيجاب فيما نذره الإنسان من الصلاة في البقاع التي يتبرك بها... أي لا يلزم الوفاء بشيء من ذلك حتى يشد الرحل له ويقطع المسافة إليه غير هذه الثلاثة التي هي مساجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فأما إذا نذر الصلاة في غيرها من البقاع فإن له الخيار في أن يأتيها أو يصليها في موضعه ولا يرحل إليها.

وقال شيخنا زين الدين: من أحسن محامل هذا الحديث أن المراد منه حكم المساجد فقط، وأنه لا يشد الرحل إلى مسجد من المساجد غير هذه الثلاثة. فأما قصد غير المساجد من الرحلة في طلب العلم، وفي التجارة والتنزه، وزيارة الصالحين والمشاهد، وزيارة الإخوان ونحو ذلك فليس داخلاً في النهي. وقد ورد ذلك مصرحاً به في بعض طرق الحديث في مسند أحمد: حدثنا هاشم حدثنا عبد الحميد حدثني شهر سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه وذكر عند صلاة في الطور، فقال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للمصلي أن يشد رحاله إلى مسجد يبتغي فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»^(١).



٧- الشيخ أبو محمد ابن قدامة رحمه الله تعالى إمام الحنابلة صاحب كتاب المغني: قال الشيخ أبو محمد موفق الدين عبد الله ابن قدامة: ويستحب زيارة قبر النبي ﷺ لما روى الدارقطني بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي». وفي رواية: «من زار قبري وجبت له شفاعتي». رواه باللفظ الأول سعيد حدثنا حفص بن سليمان عن ليث عن مجاهد عن ابن عمر، وقال أحمد في رواية عبد الله عن يزيد بن قسيط عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من أحد يسلم عليّ عند قبري إلا رد الله عليّ روحي حتى أردد عليه السلام».

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: وإسناده حسن، وشهر بن حوشب وثقه جماعة من الأئمة اهـ. (عمدة القاري ج ٧ ص ٢٥٤).



وإذا حج الذي لم يحج قط يعني من غير طريق الشام لا يأخذ على طريق المدينة لأني أخاف أن يحدث به حدث، فينبغي أن يقصد مكة من أقصد الطرق ولا يتشاغل بغيره، ويروى عن العتبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله! سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وقد جئتكَ مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشد يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	فطاب من طيبن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، فحملتني عيني فممت فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي، الحق الأعرابي، فبشره أن الله قد غفر له. اهـ^(١).



٨- الشيخ أبو الفرج بن قدامة رحمه الله تعالى إمام الحنابلة وصاحب الشرح الكبير:

قال الشيخ شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن قدامة الحنبلي في كتابه الشرح الكبير:

مسألة: فإذا فرغ من الحج استحب زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه رضي الله عنهما.

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: (المغني لابن قدامة ج ٣ ص ٥٥٦).

ومن الحنفية: صاحب الاختيار في شرح المختار له، عقد لها فصلاً وعدها من أفضل المندوبات المستحبات.

وأما المالكية: فقد حكى القاضي عياض منهم الإجماع على ذلك، وفي كتاب تهذيب المطالب لعبد الحق الصقلي عن الشيخ أبي عمران المالكي أن زيارة قبر النبي ﷺ واجبة، قال عبد الحق: يعني من السنن الواجبة، وفي كلام العبد المالكي في شرح الرسالة: أن المشي إلى المدينة لزيارة قبر الرسول ﷺ أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس، وأكثر عبارات الفقهاء أصحاب المذاهب تقتضي السفر للزيارة لأنهم استحبوا للحاج بعد الفراغ من الحج الزيارة، ومن ضرورتها: السفر، وأما نفس الزيارة فالأدلة عليها كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]. ولا شك أنه ﷺ حي، وأن أعمال أمتة معروضة عليه، ثم ذكر الشيخ جملة من أحاديث الزيارة^(١).



٩- الإمام الشيخ محمد بن علان الصديقي الشافعي رحمه الله تعالى شارح

الاذكار:

قال معلقاً على قول النووي: [فإن زيارته أفضل القربات وأنجح المساعي]: وكيف لا، وقد وعد الزائر بوجوب شفاعته ﷺ، وهي لا تجب إلا لأهل الإيـمان، ففي ذلك التبشير بالموت على الإيـمان مع ما ينضم إلى ذلك بسماعه ﷺ سلام الزائر

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: من كتاب «الصلوات والبشر في الصلاة على خير البشر» تأليف شيخ الإسلام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ص ١٤٧).

من غير واسطة. أخرج أبو الشيخ: «من صلى عليَّ عند قبري سمعته، ومن صلى عليَّ بعيداً أعلمته». قال الحافظ: وينظر في سنده، وأخرج أبو داود وغيره عن أبي هريرة عنه عليه السلام أنه قال: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام»..

إنَّ بعض الناس أصلحهم الله وهداهم إلى الصراط المستقيم ينظر إلى القبر النبوي المكرم من الزاوية القبورية فقط، ولهذا فإنه لا غرابة في كل ما يقع في ذهنه من تصورات فاسدة، ولا غرابة في كل ما يقع في قلبه من ظنون سيئة بالمسلمين والزائرين للنبي عليه السلام والقاصدين إليه والداعين عند قبره، فتراه يقول: لا تشد الرحال إلى قبره عليه السلام، ولا يجوز الدعاء عند قبره، بل قد يصل به العنت إلى أن يقول: إنَّ الدعاء عند قبره شرك أو كفر، وإن استقبل القبر بدعة أو ضلال، وإن إكثار الوقوف والتردد على القبر شرك أو بدعة، أو أن من قال: إنَّ القبر أفضل البقاع وبما فيها الكعبة فقد أشرك أو ضل. وهذا التكفير والتضليل هكذا بالكيل الجزاف دون تبصر أو تعقل مخالف لما عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

ونحن حينما نتكلم عن القبر أو عن زيارة القبر أو عن تفضيل القبر أو شد الرحال إلى القبر أو دعاء الله وسؤاله أمام القبر، فإن المقصود الذي لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان إنما هو ساكن القبر وصاحبه، ألا وهو سيد المرسلين والآخرين وأفضل مخلوقات الله أجمعين، النبي الأعظم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وما هي قيمة القبر بدونه، بل ما هي قيمة المسجد بدونه، بل ما هي قيمة المدينة المنورة بدونه، بل ما هي قيمة المسلمين كلهم بدونه، فإنهم لولاه

ولولا رسالته والإيمان به ومحبته والإقرار بالشهادة التي لا تصح إلا به ما كانوا ولا قاموا ولا فازوا ولا نجوا.

ومن هنا فإن ابن عقيل الحنبلي رحمه الله تعالى لما سئل عن المفاضلة بين الحجرة والكعبة فقال: إن أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل، وإن أردت وهو ﷺ فيها فلا والله لا العرش وحملته، ولا جنة عدن، ولا الأفلاك الدائرة، لأن بالحجرة جسداً لو وزن بالكونين لرجح^(١). هذا هو المقصود بالقبر وتفضيله وزيارته وشد الرحال إليه.

ومن هنا أيضاً قال العلماء: أنه لا ينبغي أن يقول: زرت القبر وإنما زرت النبي - ﷺ، وهذا ما قرره العلماء في تفسير قول الإمام مالك رحمه الله: أكره للرجل أن يقول: زرنا قبر النبي ﷺ، وذلك لأنه إنما يزور من يسمعه ويراه ويحس به ويعرفه ويرد عليه، فالقضية ليست قضية قبر، بل هي أكبر من ذلك. وأجل وأرفع من أن ينظر إليها من الزاوية القبورية. فإذا نظرنا إلى القبر فقط دون النظر إلى من فيه وجدنا الأرواح الطاهرة التي تحف به من كل جانب ووجدنا جسراً ملائكياً متصلاً ممتداً من الملائكة الأعلى إلى قبر محمد ﷺ مواكب متصلة لا تنقطع أعدادها وأمدادها، لا يحصيها إلا الحق جل جلاله.

روى الدارمي في سننه: حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن نبيه بن وهب: أن كعباً دخل على عائشة فذكروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال كعب: ما من يوم يطلع

(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: (بدائع الفوائد لابن القيم).

إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بقبر النبي ﷺ يضربون بأجنحتهم ويصلون على رسول الله ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه^(١).



قلت: وروى هذا الأثر أيضاً الحافظ إسماعيل القاضي بسنده وهو جيد في المتابعات والشواهد والمناقب وفضائل الأعمال. وإذا نظرنا ما حول القبر من الروضة التي هي قطعة من الجنة والمنبر الذي نال الشرف الأعلى بالحبيب ﷺ وسيكون يوم القيامة على حوضه العظيم، وإلى الجذع الذي حن إليه حنين الثكلي، وسيكون يوم القيامة في جنة الخلد وسط أشجارها، وقد قيل: أنه دفن في موضعه بالمسجد، فلا أظن أن عاقلاً حريصاً على الخير يتوقف عن الدعاء في هذه المواضع^(٢).



(١) قال الشيخ محمد بن علوي المالكي: (سنن الدارمي ج ١ ص ٤٤).

(٢) مفاهيم يجب ان تصحح ص ١٩١ - ٢١٤.



الحديث السادس

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنِ الْأَعْرَجِ الْمُزَنِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «أَنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١).

قلت: استدل من يقول بجواز الذنب على الأنبياء بهذا الحديث، وسنين معناه كما وضحه العلماء العارفون.

التفسير العرفاني:

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمته الله: كان صلى الله عليه وسلم يُنقل من حالة إلى أخرى، ويُسار به في منازل القرب وميادين الغيب، ويُغَيَّر عليه خلع الأنوار، فَتَبَيَّنُ الحالة الأولى عند ثانيها ظلمة ونقصاناً وتقصيراً في حفظ الحدود، فيلقن الاستغفار لأنه أحسن حال العبد^(٢).



قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: «أَنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ». قال عياض: المراد بالغيث فترات عن الذكر الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمر ما عد ذلك ذنباً فاستغفر عنه. وقيل هو شيء يعتري القلب مما يقع من حديث النفس، وقيل هو السكينة التي تغطي قلبه، والاستغفار لإظهار العبودية لله والشكر لما أولاه. وقيل هي حالة خشية وإعظام والاستغفار شكرها، ومن ثم قال المحاسبي خوف المتقربين خوف إجلال وإعظام.

(١) مسلم (٢٧٠٢)، أبو داود (١٥١٥)، أحمد (١٧٨٤٨).

(٢) فتوح الغيب لشيخ الإسلام الشيخ عبد القادر الجيلاني، المقالة السابعة.





وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمه الله تعالى: لا يعتقد أنَّ الغين في حالة نقص بل هو كمال أو تنمة كمال، ثم مثل ذلك بجفن العين حين يسبل ليدفع القذى عن العين مثلاً، فإنه يمنع العين من الرؤية فهو من هذه الحثيثة نقص، وفي الحقيقة هو كمال. هذا محصل كلامه بعبارة طويلة. قال فهكذا بصيرة النبي ﷺ متعرضة للأغيرة الثائرة من أنفاس الأغيار، فدعت الحاجة إلى الستر على حدقة بصيرته صيانة لها ووقاية عن ذلك انتهى.

وقد استشكل وقوع الاستغفار من النبي ﷺ وهو معصوم والاستغفار يستدعي وقوع معصية، وأجيب بعدة أجوبة، منها: ما تقدم في تفسير الغين. ومنها قول بن الجوزي هفوات الطباع البشرية لا يسلم منها أحد والأنبياء، وإن عصموا من الكبائر فلم يعصموا من الصغائر. كذا قال وهو مفرع على خلاف المختار. والراجح عصمتهم من الصغائر أيضاً، غير ذلك مما يحجبه عن الاشتغال بذكر الله والتضرع إليه ومشاهدته ومراقبته، فيرى ذلك ذنباً بالنسبة إلى المقام العلي، وهو الحضور في حظيرة القدس. ومنها أنَّ استغفاره تشريع لأمتة أو من ذنوب الأمة، فهو كالشفاعة لهم.



وقال الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء: كان ﷺ دائماً الترقى، فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها فاستغفر من الحالة السابقة. وهذا مفرع على أنَّ العدد المذكور في استغفاره كان مفرقا بحسب تعدد الأحوال، وظاهر ألفاظ الحديث يخالف ذلك. وقال الشيخ السهروردي: لما كان روح النبي ﷺ لم يزل في الترقى إلى



مقامات القرب يستتبع القلب، والقلب يستتبع النفس. ولا ريب أنَّ حركة الروح والقلب أسرع من نهضة النفس، فكانت خطا النفس تقصر عن مداهما في العروج فاقتضت الحكمة إبطاء حركة القلب؛ لئلا تنقطع علاقة النفس عنه، فيبقى العباد محرومين، فكان ﷺ يفرع إلى الاستغفار لقصور النفس عن شاو ترقى القلب. والله أعلم^(١).



قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: الاستغفار منه ﷺ مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ليس لمغفرة الذنوب، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والتسليمات معصومون من الكبيرة والصغيرة على الأصح، ولكن لا يخفى أنه لا بد للنبي من معايشرة الأمة لتبليغ الأحكام وفيصلة خصوماتهم وتعليم آدابهم، ففي هذه الحالات لا بد له من مناسبة بينه وبين الخلق، وهذا الاشتغال بالخلق يصرفه عن المشاهدة التامة في الجملة؛ لأنه نقص له بل هو غاية مقاصده، ولكن يحصل به الفتور في الحالة السابقة، فيلتجئ إلى الله تعالى بالاستغفار لطلب الحالة السابقة، وهو المعبر عنه بالغين في قوله ﷺ: «أنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة»^(٢).



قال الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى في المواقف: الغين يطلق على الرين، وعلى ما يغشى القلب من الشهوات، وعلى التغطية. وهذا هو المعنى المراد

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١١ ص ١٠١.

(٢) شرح سنن ابن ماجه ج ١ ص ٢٧٠.



هاهنا، أخبر ﷺ أن أنوار القرب الموجبة للفناء بالمشاهدة و(المحق) كانت تغطي قلبه الشريف تغطية لا تئمة ومناسبة بمقام النبوة، بحيث لا يخل بأقل القليل مما يطلبه الحق أو الخلق. والمراد بالقلب هنا العقل، فإنه المدبر للملكة الإنسانية، وبه يكون القيام بحقوق الخلق والحق. فإذا غطى عليه لم يبق هنالك شعور بغير، لا من نفسه ولا من غيره، ولا إدراك لرسالة ولا لمرسل إليه.... فإذا رجع ﷺ من هذه التغطية الموجبة بعدم شهود العبودية يستغفر الله تعالى، أي يطلب منه الستر والحيلولة عن ذلك.... وهي الوقت الذي قال فيه ﷺ «**لي وقت مع الله تعالى لا يسعني فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب**» يعني لا يتسع معرفتي رسول ولا ملك. وفي رواية «**لا يسعني غير ربي**»^(١).



قال محمد علي الصديقي الشافعي رحمه الله تعالى: الشأن «**لَيَعَانُ**» بضم التحتية وبالمعجمة آخره نون «**عَلَى قَلْبِي**» هي غيون أنوار لا غيون أغيار، وتجليات ربانية وترقيات أحمدية، فإذا ارتقى للمقام الأعلى رأى ما كان فيه قبل من المقام العالي أيضا^(٢).



قلت: يجب على المسلم إذا ما سمع حديثا فيه شبهة الذنب أو المعصية على رسول الله ﷺ أن لا يفسر على هواه، لذلك قال الإمام علي عليه السلام: **إِذَا حُدِّثْتُمْ عَنْ**

(١) المواقف ج ١ ص ٢٤٦، الموقف السادس والعشرون بعد المئة.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج ٨ ص ٧١٥.

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا فَظَنُوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَهْيَأُ وَأَهْدَى وَأَتَقَى ^(١) أي ما يتفق مع هيئته لقوله ﷺ «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي، وَسَاقٍ يَسْقِينِي» ^(٢)، و(أهدى) فهو ﷺ الهادي المهدي وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]، و(أتقى) وهو الذي يقول عن نفسه «إِنَّ أَتَقَاكُمْ وَأَعَلَمَكُم بِاللهِ أَنَا» ^(٣)، وقوله ﷺ «قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتَقَاكُمْ لله وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبْرُكُكُمْ» ^(٤).

ونُضيف إلى ذلك أَنَّ سيدي أبا الحسن الشاذلي قدس الله سره قال: قد استشكل عندي هذا الحديث فرأيت النبي ﷺ في الرؤيا، وقال لي: يا مبارك، غين أنوار لا غين أغيار.

ويمكن أن نوجه الحديث لمعنى آخر: وهو أنه يُغان على قلبه الشريف ذنوب أمته فيستغفر لهم، لكونه شافعا فيهم ﷺ.



(١) الأملالي في آثار الصحابة للحافظ الصنعاني ج ١ ص ١٥، الأسماء والصفات للبيهقي ج ٢ ص ٧٢.

(٢) البخاري (١٩٦٣).

(٣) البخاري (٢٠).

(٤) البخاري (٧٣٦٧).

الحديث السابع

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، يَا أُمَّ الرَّبِيعِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللَّهِ لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلَانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا»^(١).

التفسير الأولي:

قال محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: قوله للأبعد والأقرب: «لا أغني عنك من الله شيئاً» حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً». فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم، تبين له التوحيد وغربة الدين^(٢).



قال سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، سلوني من مالي ما شئتم». فبين ﷺ أنه لا ينجيهم من عذاب الله، ولا يدخلهم الجنة، ولا يقربهم إلى الله، وإنما الذي يقرب إلى الله، ويدخل الجنة، وينجي من النار، هو طاعة الله^(٣).



(١) البخاري (٣٥٢٧)، مسلم (٢٠٥)، الترمذي (٢٣١٠)، النسائي (٣٦٤٦)، أحمد (٨٤٠٢).

(٢) كتاب التوحيد ج ١ ص ٤٧.

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ج ١ ص ٢١٦.

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى: دعا قرابته عليه السلام وجعل ينادي إلي أن قال: «يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً» إلى هذا الحد التي هي بضعة منه والتي يريبه ما رابه، يقول لها: «لا أغني عنك من الله شيئاً» فهذا دليل على أن من سواها من باب أولى. ففيه ضلال هؤلاء الذين يدعون الرسول عليه السلام تجدهم في المسجد النبوي عند الدعاء يتجهون إلى القبر، ويصمدون أمام القبر كصمودهم أمام الله في الصلاة أو أشد.



التفسير العرفاني:

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: هذا كان قبل أن يعلمه الله تعالى بأنه يشفع فيمن أراد، وتقبل شفاعته حتى يدخل قوما الجنة بغير حساب، ويرفع درجات قوم آخرين ويخرج من النار من دخلها بذنوبه، أو كان المقام مقام التخويف والتحذير، أو أنه أراد المبالغة في الحض على العمل ويكون في قوله: «لا أغني شيئاً» إضمار إلا إن أذن الله لي بالشفاعة^(١).



قال أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي رحمه الله تعالى: قال النبي عليه السلام: «يا بني عبد المطلب يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من الله عز وجل لا أملك لكم من الله شيئاً، يا أم الزبير عمة النبي صلى الله عليه وسلم، يا فاطمة بنت محمد اشتروا أنفسكم لا أملك لكم من الله شيئاً، سلاني من مالي»، وورد عن أبي سعيد الخدري

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٨ ص ٥٠٢.

قال: سمعت النبي ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون إنَّ رسول الله ﷺ لا تنفع قومه بلى والله إنَّ رحمي موصولة في الدنيا والآخرة وإني أيها الناس فرطكم على الحوض، فإذا جئتم قال رجل: يا رسول الله أنا فلان بن فلان وقال أخوه أنا فلان ابن فلان قال لهم: أما النسب فقد عرفته ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقري»^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه في شروحاته على الكتب الستة: أي لا أملك لكم من الله شيئاً إن لم تؤمنوا بدعوتي، وإن أمتهم تنتفعون بنسبي. فالؤمن ينتفع بنسبه للمؤمن، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، والنبي ﷺ قال «كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي» وقال الله ﷻ في حق الكافر ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].



قلت: وما ذهب إليه المسيؤون للمقام النبوي الشريف مرجوح وباطل كما بينه علماء السلف والخلف. فمحمد عبد الوهاب يدعي أنَّ الدين أصبح غريباً وهو جماعته أهل الدين فقط، ويفسر الحديث ويكفر الناس على هواه، أما سليمان بن عبد الله بن محمد عبد الوهاب فيدعي أنَّ النبي ﷺ لا يدخل أحداً الجنة ولا يخرج أحداً من النار، ولا يدخلون إلا بطاعتهم، وهو بهذا يخالف صريح القرآن

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ج ١٩ ص ٢٥٦.



والسنة التي أثبتت أحاديث الشفاعة، وأن النبي ﷺ سيخرج الناس من النار بإذن ربه، ثم يقول إنَّ الذي يدخل الإنسان الجنة عمله وطاعته وهو يحسب أنه بهذا موحد، ونسي وقد يكون جهل أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله وطاعته، إنها برحمة الله ﷻ ومنه وفضله.

أما ابن عثيمين الذي يقول (ففيه ضلال هؤلاء الذين يدعون الرسول ﷺ تخدمهم في المسجد النبوي عند الدعاء يتجهون إلى القبر، ويصمدون أمام القبر كصمودهم أمام الله في الصلاة أو اشد) فإنه يحكم بضلال من يلتزم الأدب في حضرة رسول الله ﷺ حيا وميتا. والله ﷻ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ١-٤]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] هذا قول الله ﷻ، وابن عثيمين يضل من يلتزم بكلام الله ﷻ ويلتزم الأدب مع النبي ﷺ.

وقد أورد القاضي عياض أن أبا جعفر أمير المؤمنين ناظر مالكا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قوماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢]،



ومدح قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]. وذم قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] وإن حرمة كحرمة حياً. فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعوا أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى؟ بل استقبله واستشفع به، فيشفعك الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وقال مالك وقد سئل عن أيوب السخيتاني: ما حدثكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه: وقال: وحج حجتين، فكنت أرمقه ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه. فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي ﷺ كتب عنه.

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه، وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقليل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم علي ما ترون، ولقد كنت أرى محمد ابن المنكدر، وكان سيد القراء لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه. ولقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق، وكان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر. وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة. قد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صامتاً، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل.



ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نرف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبَةً لرسول الله ﷺ. ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع. ولقد رأيت الزهري وكان من أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه. وروي عن قتادة أنه كان إذا سمع الحديث أخذ العويل والزويل.

ولما كثر على مالك الناس قيل له: لو جعلت مستملياً يسمعهم؟ فقال: قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، وحرمة حياً وميتاً سواء.

وكان ابن سيرين ربما يضحك، فإذا ذكر عنده حديث النبي ﷺ خضع. وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث النبي ﷺ أمرهم بالسكوت، و قال: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ويتأول أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله^(١).



وقال القشيري رحمه الله تعالى في تفسيره: أمرهم بحفظ حرمة ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته، وألاً ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالم.

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص ٢٧٢-٢٧٤.

وأنه إذا كان بخلقه يُلاينهم فينبغي إلا يتبسّطوا معه مجاسرين، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم به من تخلفه عن حدودهم زائدين^(١).



وقال الشيخ شهاب الدين محمود الألوسي رحمه الله تعالى: وتعهّدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم، وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها.

ومن هنا قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بعد نزول الآية كما أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله، لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله تعالى. وفي رواية أنه قال: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار أو أخوا السرار حتى ألقى الله تعالى.

وكان عمر رضي الله تعالى عنه كما في صحيح البخاري وغيره عن ابن الزبير إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه. وقيل: معنى ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢]، الخ ولا تخاطبوه باسمه وكنيته، كما يخاطب بعضكم بعضاً، وخاطبوه بالنبي والرسول^(٢).



قال الشيخ محمد بن علوي المالكي مفتي الحرم المكي رحمه الله تعالى: ذكر العلماء رضي الله عنهم: أنه يستحب لمن زار النبي ﷺ أن يقف للدعاء، فيسأل

(١) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري ج ٧ ص ٢٩٠.

(٢) روح المعاني ج ٢٦ ص ١٣٥.

الله تعالى ما يشاء من الخير والفضل، ولا يلزمه أن يتوجه إلى القبلة، ولا يكون في وقوفه ذلك مبتدعاً أو ضالاً أو مشركاً، وقد نص العلماء على هذا الأمر، بل قد ذهب بعضهم إلى القول بالاستحباب^(١).



وبعد كل هذه الأدلة يتضح أن قول ابن عثيمين قول مرجوح ومردود.



(١) مفاهيم يجب ان تصحح ص ٢١٤.

الحديث الثامن

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرَلًا»، ثُمَّ قَالَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٠٤) [الأنبياء: ١٠٤] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ثُمَّ قَالَ: «إِلَّا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ، إِلَّا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِّكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٧) [المائدة: ١١٧] فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ» (١).

التفسير الأولي:

قال ابن باز رحمه الله: والرسول ﷺ قد انقطع عنه الوحي بعد وفاته، وهو في حياته لا يعلم الغيب فكيف بعد وفاته؟! لقول الله سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يُذَادُ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي فَيُقَالُ لِي إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِّكَ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٧) (٢)».

(١) البخاري (٤٦٢٥)، مسلم (٢٢٩٥)، الترمذي (٢٤٢٣)، النسائي (٢٠٨٧)، ابن ماجه (٣٠٥٧).

(٢) التحذير من البدع ص ٦١.

التفسير العرفاني:

قال المباركفوري رحمه الله تعالى: قَالَ الْقَاضِي يُرِيدُ بِهِمْ مَنْ ارْتَدَّ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا فِي أَيَّامِهِ، كَأَصْحَابِ مُسَيْلَمَةَ وَالْأَسْوَدِ وَأَصْرَاهِمَ، فَإِنْ أَصْحَابَهُ وَإِنْ شَاعَ عُرْفًا فَيَمَنْ يُلَازِمُهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ شَاعَ اسْتِعْمَالُهُ لُغَةً فِي كُلِّ مَنْ تَبِعَهُ أَوْ أَدْرَكَ حَضْرَتَهُ وَوَفَدَ عَلَيْهِ وَلَوْ مَرَّةً. وَقِيلَ أَرَادَ بِالْإِزْتِدَادِ إِسَاءَةَ السَّيِّرَةِ وَالرُّجُوعَ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَصِدْقِ النِّيَّةِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا انْتَهَى^(١).



قال شهاب الدين الألوسي رحمه الله تعالى في تفسيره: إنه عليه الصلاة والسلام يعلم بطاعات ما تقع بعده من أمته لكن لا يعلم أعيان الطائعين والعاصين، وبهذا يجمع بين الحديث المذكور وحديث عرض الأعمال عليه ﷺ كل أسبوع أو أكثر أو أقل، وقيل: يجمع بأنه عليه الصلاة والسلام يعلم الأعيان أيضا إلا أنه نسي، فقال: أصيحابي ولتعظيم قبح ما أحدثوا قيل له: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. وقيل: يعرض ما عدا الكفر، وهو كما ترى. وأما زعم أن التحمل على من بعده إلى يوم القيامة لما أنه حي بروحه وجسده يسير حيث شاء في أقطار الأرض والملكوت فمبني على ما علمت حاله ولعل في هذين الخبرين ما يأباه، كما لا يخفى على المتدبر. وأشار بعض السادة الصوفية إلى أن الله تعالى قد أطلع عليه ﷺ على أعمال العباد فنظر إليها، ولذلك سُمي عليه الصلاة والسلام شاهدا. قال مولانا جلال الدين الرومي قدس سره العزيز في مثنويه: (در نظر بودش مقامات العباد زان

(١) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ج ٩ ص ٦.

سبب نامش خدا شاهد نهاد فتأمل ولا تغفل) المراد شاهدا على جميع الأمم يوم القيامة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة ودعوهم إلى الله تعالى وشهادته بذلك لما علمه من كتابه المجيد^(١).



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه في شرحه على الكتب الستة: قوله «لا تدري ما أحدثوا بعدك» وهذا استفهام تقريرى، أي: ألا تدري ما أحدثوا بعدك، لأنى قد عرضت عليك أعمالهم، وقد علمت أنهم ارتدوا من بعدك. وهذا الحديث لا يدل على أن النبي ﷺ لا يدري ما تفعل أمته بعده. بل يدري لقوله: ﷺ «حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُحَدِّثُونَ وَنُحَدِّثُ لَكُمْ، وَوَفَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُعَرِّضُ عَلَيَّ أَعْمَالَكُمْ، فَمَا رَأَيْتُ مِنْ خَيْرٍ حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ شَرٍّ اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ لَكُمْ»^(٢)، خلافا لما ادعاه ابن تيمية ومن وافقه أن هذا الحديث يدل على عدم علم النبي ﷺ لما يحدث لأمرته بعد وفاته؛ لأن النبي ﷺ سُبُحَتْ شَهِيداً على الأمم. ومقام الشهادة يقتضي إعلامه بكل ما يحدث. ولا يشهد إلا إذا كان عالماً بما حدث. بل أنه كان يتكلم عن الأمم السابقة، وأن الله ﷻ أطلععه على الأمم السابقة أيضاً. والوهابية يسيئون الأدب مع النبي ﷺ ويشبّون له الجهل، وحاشاه.



قلت: وما ذكره هؤلاء الأكابر هو ما يليق بالجناب العالى ﷺ. واستدلال ابن باز بأيتين قد أجبنا عنها في الآيات القرآنية التي تخص سيدنا محمد ﷺ.



(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج ٢٢ ص ٤٥.

(٢) مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار (١٩٢٥).



الحديث التاسع

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا الصَّلَحَ» قَالَ: فَخَرَجَ شَيْصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «مَا لِنَخْلِكُمْ؟» قَالُوا: قُلْتَ كَذًا وَكَذًا، قَالَ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^(١).

التفسير الأولي:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في الفتاوي: كذلك ظن النبي كما قال في تأبير النخل: إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله فإني لن أكذب على الله. ومثل هذا لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئا، فيكون الأمر بخلاف ما ظنوه، وروى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ مر بقوم يلحقون: فقال لو لم تفعلوا هذا لصلح قال: فخرج شيصا فمر بهم، فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت: كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم) وروي أيضا عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة ابن عبيد الله قال: مررت مع رسول الله ﷺ يقوم على رؤوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء، فقال: يلحقونه يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح، فقال رسول الله ﷺ: ما أظن يغني ذلك شيئا فأخبروا بذلك فتركوه. فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه؛ فإنني ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن أكذب على الله.

(١) مسلم (٢٣٦٣).



والذي عليه جمهور أهل الحديث والفقهاء أنه يجوز عليهم الخطأ في الاجتهاد؛ لكن لا يقرون عليه، وإذا كان في الأمر والنهي فكيف في الخبر^(١).



قال أبو عبد الله الحقوي غفر الله له: إِنَّ مَا يَخْتَصُّ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ - عَنْ سَائِرِ النَّاسِ فِي حَيَاتِهِ أَصْلًا هُوَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ وَلَيْسَ أُمُورُ الدُّنْيَا^(٢).



التفسير العرفاني:

قال الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس الله سره: جوابا على سؤال مريده الشيخ أحمد بن المبارك القائل: فسألته رضي الله عنه عن حديث تأبير النخل الذي في صحيح مسلم حيث مر عليهم وهم يؤبرون النخل، فقال عليه الصلاة والسلام:

«مَا هَذَا؟ فَقَالُوا بِهَذَا تَصْلُحُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَتْ. فَلَمْ يُؤَبِّرُوهَا فَجَاءَتْ شَيْصًا غَيْرَ صَالِحَةٍ، فَلَمَّا رَأَاهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: مَا بَالُ التَّمْرِ هَكَذَا؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ لَنَا كَذَا وَكَذَا فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِدُنْيَاكُمْ».

فقال رضي الله عنه: قوله ﷺ «لو لم تفعلوا لصلح» كلام حق وقول صدق، وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين بأنه تعالى هو الفاعل

(١) مجموع الفتاوى ج ١٥ ص ١٨٦.

(٢) التوضيح الرشيد في شرح التوحيد المذيل بالتنفيذ لشبهات العنيد ج ١ ص ٢٧٩.



بالإطلاق. وذلك الجزم مبني على مشاهدة سريان فعله تعالى في سائر الممكنات مباشرة بلا واسطة ولا سبب، بحيث أنه لا تسكن ذرة، ولا تتحرك شعرة، ولا يخفق قلب، ولا يضرب عرق، ولا تطرف عين، ولا يومئ حاجب، إلا وهو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة. وهذا أمر يشاهده النبي ﷺ كما يشاهد غيره سائر المحسوسات، ولا يغيب ذلك عن نظره لا في اليقظة ولا في المنام، لأنه ﷺ لا ينام قلبه الذي فيه هذه المشاهدة. ولا شك أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب من نظره، ويرقى عن الإيثار بالغيب إلى الشهود والعيان، فعنده في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، مشاهدة دائمة لا تغيب، ويقين يناسب هذه المشاهدة، وهو أن يجزم بمعنى الآية جزماً لا يخطر معه بالبال نسبة الفعل إلى غيره تعالى، ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة. ولا شك أن الجزم الذي يكون على هذه الصفة تحرق به العوائد وتنفل به الأشياء، وهو سر الله تعالى الذي لا يبقى معه سبب ولا واسطة، فصاحب هذا المقام إذا أشار إلى سقوط الأسباب، ونسبة الفعل إلى رب الأرباب، كان قوله حقاً وكلامه صدقاً. وأما صاحب الإيثار والغيب فليس عنده في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٦]، مشاهدة، بل إنما يشاهد نسبة الأفعال إلى من ظهرت على يده، ولا يجذبه إلى معنى الآية ونسبة الفعل إليه تعالى إلا الإيثار الذي وهبه الله تعالى له. فعنده جاذبان؛ أحدهما من ربه وهو الإيثار الذي يجذبه إلى الحق، وثانيهما من طبعه وهو مشاهدة الفعل من الغير الذي يجذبه إلى الباطل. فهو بين هذين الأمرين دائماً، لكن تارة يقوى الجاذب الإيثار فتجده يستحضر معنى الآية السابقة ساعة وساعتين، وتارة يقوى الجاذب الطبيعي فتجده يغفل عن معناه اليوم واليومين.



وفي أوقات الغفلة ينتفي اليقين الخارق للعادة، فلهذا لم يقع ما أشار إليه النبي ﷺ، لأن الصحابة رضي الله عنهم فاتهم اليقين الخارق الذي اشتمل عليه باطنه صلى الله عليه وسلم، وبحسبه خرج كلامه الحق وقوله الصدق. ولما علم صلى الله عليه وسلم العلة في عدم وقوع ما ذكر، وعلم أن زوال تلك العلة ليس في طوقهم رضي الله عنهم أبقاهم على حالتهم، وقال: «أنتم أعلم بديناكم».

قلت: فانظر وفقك الله، هل سمعت مثل هذا الجواب أو رأيته مسطورا في كتاب، مع إشكال الحديث على الفحول من علماء الأصول وغيرهم مثل جمال الدين بن الحاجب، وسيف الدين الآمدي، وصفي الدين الهندي، وأبي حامد الغزالي، رحمهم الله تعالى^(١).



قال الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى في المواقف: ليس المراد من هذا أنه ﷺ يريد منهم ترك (الأسباب العادية) التي أجرى الحق تعالى عادته في مخلوقاته؛ إذ الرسل عليهم السلام والعارفون إنما يأمرون برفع حكم الأسباب لا برفع عينها، بل يأمرون بإثبات عينها، من حيث إن الأسباب وضعها وأثبتها الحكيم العليم بما يجري ويشته سبحانه. فمن طلب رفع العوائد الجارية والأسباب العادية فقد أساء الأدب وجهل، وكيف يدعي معرفة الله والوصول به والصحة له من يطلب رفع العوائد؟ ومعروفه وصاحبه الحق تعالى، وهو الذي وضعها، ومن شروط الصحة الموافقة، فمن طلب رفع ذلك فهو منازع وليس بواصل ولا

(١) الابريز ص ٢٤٣.



صاحب، بل هو إلى العناد أقرب، فالذي يثبت العادات والأسباب على وجهها لا ينقض التوحيد وهو العارف بالله لأنه يشهد الحق تعالى فيها، إذ كل شيء من الأشياء هو تجلي من تجلياته تعالى، وإنما المراد: أنه ﷺ أراد أن ينبههم على باطن الحقيقة ونفس الأمر، وهو أن هذه الأسباب العادية والصورة المشهودة لا تأثير في شيء مما جرت العادة أن يوجد عندها، وإنما الحق تعالى هو الفاعل لذلك، فهو المؤثر بوجهه الخاص الذي له تعالى في كل مخلوق لأنه تعالى له في كل مخلوق حتى الذرة وجه خاص لا يشاركه غيره فيه، وبه يكون التأثير.

وإنما ستر تعالى فعله بصور مخلوقاته رحمة بخلقه، وتقديسا لجناحه، فمراده ﷺ بقوله: لو لم تفعلوا لصلحت، أن يكونوا مشاهدين للحق الفاعل الحقيقي عند ملابسة الأسباب، معتمدين عليه لا على الأسباب، لا أن مراده ﷺ منهم ترك الأسباب. إذ لا بد من الأسباب وجودا، والغيبة عنها شهودا.

وقوله ﷺ لما طلعت النخل شيصا «أنتم أعرف بدنياكم» كلام خرج منه ﷺ مخرج الإعراض عنهم، حيث فهموا مراده بقوله: «لو لم تفعلوا لصلحت» وحملوه على ترك التأبير وليس هو المراد، وإنما المراد أنه تعالى يفعل الأشياء عند الأسباب وعند عدم الأسباب، وهو التوحيد الحقيقي.

ولا يفهم من قوله «أنتم أعرف بدنياكم» أنه ﷺ جاهل بأمور الدنيا - حاشاه من ذلك -، فإنه ﷺ كغيره من سائر الأنبياء عالمون بأمور الدنيا والدين، وما أرسلهم تعالى إلا ليعلموا الناس مصالح معاشهم ومعادهم، ويرشداهم إلى ما جهلوه من ذلك، فأظهر لهم ﷺ التقرير على عاداتهم حيث فاتهم فهم مراده وما

فهموا إلا ترك السبب جملة واحدة وليس هو المراد. وقد تكلم إمام العارفين محيي الدين، وصاحب الإبريز، على هذا الحديث غير ما أُلقي إليّ والكل صواب إن شاء الله (١).



قال الشيخ الإمام علي جمعة حفظه الله تعالى ورعاه: أراد النبي ﷺ أن يخليهم عن الاعتماد على الأسباب، ففهموا منه ترك الأسباب، وهو يريد أن يخرج من قلوبهم الاعتماد على الأسباب وليس ترك الأسباب، وهناك فارق بين الاثنين، وهو لما خرج إلى أحد خالف بين درعين، ولبس خوذته ﷺ، وقال «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير، تغدوا خماصاً وتروح بطاناً» فالطير مع كمال توكلهم على الله لكنهم يذهبون ويرجعون ولا يمكنون في أوكارهم، وإلا ما رزقوا. فالنبي ﷺ يريد أن يحررهم عن السبب ففهموا أن يتركوه، فلما لم ينتج النخل في العام القادم، قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» فتركهم على ما هم عليه، إلا أنه علمهم عدم الاعتماد على الأسباب في أحاديث أخرى.



قال الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني حفظه الله تعالى ورعاه: الأسباب لا تغني عن قدر الله شيئاً، فالأسباب تعبدية وقدر الله نافذ، وهو ﷺ يكلمهم من باب الحقيقة وهو الباب الذي يغترف منه النبي ﷺ، والفلاح في زمنه يعمل من باب الأسباب ولا تناقض، فالأسباب للتعبد والحقيقة للتحقق، والله فاعل

(١) المواقف ج ١ ص ٩٠، الموقف الرابع والاربعون.



في السبب وبدون سبب كما خلقنا من عدم. والنبى علّم الناس الشريعة وهي الأخذ بالأسباب، وعلّم الناس الحقيقة التي تدلك على أنه لا فاعل إلا الله، وأنه ﷻ الخالق بسبب وبغير سبب. ومعنى قوله: «لو لم تفعلوا الصلح» أي لو لم تفعلوا وكنتم من أهل التوكل والتجريد لصلح، لكن مقامكم من أهل الأخذ بالأسباب فأنتم أعلم بأمور دنياكم.

وفي قصة إسلام سيدنا سلمان الفارسي ﷺ ومكاتبته مع اليهودي خير دليل على كلام النبي ﷺ، فلما أراد سلمان ﷺ أن يشتري نفسه من اليهودي بعقد المكاتبه، فاتفق معه على أن يزرع له ثلاثمائة نخلة ويبقى يرعاها حتى تثمر، ومعلوم أن النخل لا يُثمر في أقل من سبع سنين، فجاء سلمان إلى النبي ﷺ وأخبره بالأمر، فقال له النبي ﷺ: حضّر الفسائل وغدا آتيك، فذهب النبي ﷺ وسيدنا عمر ﷺ، وأخذ النبي ﷺ يغرس الفسائل، فغرسها جميعها إلا ثلاث فسائل غرسها سيدنا عمر ﷺ، وبعد عام واحد أثمرت جميع الفسائل إلا التي زرعها عمر ﷺ، فجاء سيدنا سلمان ﷺ وأخبر النبي ﷺ بذلك فقال له: غدا آتيك، فذهب النبي ﷺ وقلع الفسائل الثلاث وزرعها بيده، فأثمرت في العام القادم. وأثمر النخل من غير تأبير ولا رعاية.

فُتحمل القصة الأولى على من كان على قدر توكل النبي ﷺ لا يحتاج للتأبير، فكل يعمل على مقامه. فهناك عباد يتعاملون مع الله بلا سبب وسيدنا محمد ﷺ إمامهم، وعباد يتعاملون مع الله بالأسباب، وهو علّمهم ذلك أيضا؛ لأنه مقامهم. وبهذا بين النبي ﷺ لنا أن الناس نوعان: نوع يحتاج إلى الأسباب وعليهم أن لا يتركوها تعبدا، وأن لا يعتمدوا عليها قلبا. ونوع آخر يتعاملون مع الله ﷻ بلا سبب، وهم قلة، ومنهم الأنبياء وبعض الأولياء.



ولذلك قال أحمد بن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى في الحكم: (إرادتك التجريد مع إقامة الله لك بالأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله لك بالتجريد نزول عن المهمة العلية). فأحاديث النبي ﷺ فيها بحار من العلم لكل المقامات فخذ ما شئت منها، واحذر أن تفسر الحديث بما فيه إساءة لمقام النبوة، فهناك من تجرأ على النبي ﷺ وتكلم بغير علم.



قلت: المتبع لفتاوي ابن تيمية رحمه الله ومن تبعه يجده وكأنه يبحث بجهد ومثابرة عن الأحاديث والآيات المتشابهة، والتي من خلالها يثبت بشرية النبي المعتادة، وعدم علمه بأمور الدنيا، والتقليل من مقامه العالي، والتحذير من مدحه ومن زيارته ومن التوسل إلى الله بجاهه، لكنَّ الله سخرَ لهذه الأمة علماء ربانيين ردوا عليه من زمانه إلى زماننا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكما ترى في قوله أعلاه يسرد الأدلة على جواز الخطأ على الأنبياء. ونسي أن هؤلاء رسل ملك الملوك الذين هم أعلم من الملائكة، وعلمهم ما لم يعلم الملائكة، وأسجد لهم الملائكة المقربين، والقائل في حق نبيه ﷺ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، والنبي ﷺ يقول: «أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، - قال أحسبه في المنام - فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائ الأعلی؟» قال: «قلت: لا»، قال: «فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي» أو قال: في نحري، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملائ الأعلی؟ قلت: نعم، في الكفارات، والكفارات المكث في المساجد بعد الصلاة، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره، ومن



فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، وقال: يا محمد، إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون، قال: والدرجات إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام^(١). وفي رواية «فعلت ما بين المشرق والمغرب»^(٢)، وفي رواية: «فتجلى لي كل شيء وعرفت»^(٣)، فيتأمل في قوله: «فعلت ما في السموات والأرض»، وفي قوله: «فعلت ما بين المشرق والمغرب» وفي قوله: «فتجلى لي كل شيء وعرفت».

وما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فصلى الغداة، ثم جلس، حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جلس مكانه حتى صلى الأولى والعصر والمغرب، كل ذلك لا يتكلم، حتى صلى العشاء الآخرة، ثم قام إلى أهله، فقال الناس لأبي بكر: ألا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شأنه؟ صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط، قال: فسأله، فقال: «نعم عرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا، وأمر الآخرة، فجمع الأولون والآخرين بصعيد واحد، ففزع الناس بذلك، حتى انطلقوا إلى آدم عليه السلام، والعرق يكاد يلجمهم، فقالوا: يا آدم، أنت أبو البشر، وأنت اصطفاك الله عز وجل، اشفع لنا إلى ربك، قال: قد لقيت مثل الذي لقيتم، انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم، إلى نوح: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، قال:

(١) سنن الترمذي (٣٢٣٣).

(٢) سنن الترمذي (٣٢٣٤).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٥).



فينطلقون إلى نوح عليه السلام، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فأنت اصطفاك الله، واستجاب لك في دعائك، ولم يدع على الأرض من الكافرين ديارا، فيقول: ليس ذاكم عندي، انطلقوا إلى إبراهيم عليه السلام، فإن الله عز وجل اتخذ خليلا، فيطلقون إلى إبراهيم، فيقول: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى موسى عليه السلام، فإن الله عز وجل كلمه تكليما، فيقول موسى عليه السلام: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى عيسى ابن مريم، فإنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، فيقول عيسى عليه السلام: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم، فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، انطلقوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فيشفع لكم إلى ربكم عز وجل.

قال: فينطلق، فيأتي جبريل عليه السلام ربه، فيقول الله عز وجل: ائذن له، وبشره بالجنة، قال: فينطلق به جبريل فيخر ساجدا قدر جمعة، ويقول الله عز وجل: ارفع رأسك يا محمد، وقل يسمع، واشفع تشفع، قال: فيرفع رأسه، فإذا نظر إلى ربه عز وجل، خر ساجدا قدر جمعة أخرى، فيقول الله عز وجل: ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع، قال: فيذهب ليقع ساجدا، فيأخذ جبريل عليه السلام بضبعيه فيفتح الله عز وجل عليه من الدعاء شيئا لم يفتحه على بشر قط، فيقول: أي رب، خلقتني سيد ولد آدم، ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض الأنبياء، قال: فيجيء النبي ومعه العصاة، والنبي ومعه الخمسة والستة، والنبي ليس معه أحد، ثم يقال: ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا، قال: فإذا فعلت الشهداء ذلك، قال: يقول الله عز وجل: أنا أرحم الراحمين، أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئا، قال: فيدخلون الجنة.



قال: ثم يقول الله عز وجل: انظروا في النار: هل تلقون من أحد عمل خيرا قط؟ قال: فيجدون في النار رجلا، فيقول له: هل عملت خيرا قط؟ فيقول: لا، غير أني كنت أسامح الناس في البيع، فيقول الله عز وجل: أسمحوا لعبدي كإسماحه إلى عبيدي. ثم يخرجون من النار رجلا فيقول له: هل عملت خيرا قط؟ فيقول: لا، غير أني قد أمرت ولدي: إذا مت فأحرقوني بالنار، ثم اطحنوني، حتى إذا كنت مثل الكحل، فاذهبوا بي إلى البحر، فاذروني في الريح، فوالله لا يقدر علي رب العالمين أبدا، فقال الله عز وجل له: لم فعلت ذلك؟ قال: من مخافتك، قال: فيقول الله عز وجل: انظر إلى ملك أعظم ملك، فإن لك مثله وعشرة أمثاله، قال: فيقول: لم تسخر بي وأنت الملك؟ قال: وذاك الذي ضحكت منه من الضحى^(١).

أما الصحابة فهذا سيدنا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه يقول: لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما. وكفى بهذه الأدلة برهاننا على دمع أقوالهم المسيئة لمقام النبي صلى الله عليه وسلم ومن أرسله.



(١) الإمام أحمد (١٥).

الحديث العاشر: «حديث الشفاعة»

الرواية الأولى:

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا مَعْبُدُ بْنُ هِلَالٍ الْعَنْزِيُّ، قَالَ: اجْتَمَعْنَا نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بَنَاتُ الْبُنَائِيِّ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، إِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ فَوَافَقْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَى، فَاسْتَاذَنَا، فَأَذِنَ لَنَا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقُلْنَا لِبَنَاتِهِ: لَا تَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ أَوَّلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ هَؤُلَاءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ جَاءُوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَاسْتَاذَنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤَذِّنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مُحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَآخِرُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلْ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ آخِرُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ



كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُوذُ
فَأُحْدِثُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أُخْرِجُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ
لَكَ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ
مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ،
فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ « فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ
وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا
عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَنَا فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرِ
مِثْلَ مَا حَدَّثْنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هِيَ فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ، فَأَنْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ،
فَقَالَ: هِيَ، فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً
فَلَا أَدْرِي أَنَسِي أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا، قُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ فَحَدَّثْنَا فَضَحِكَ، وَقَالَ: خُلِقَ
الْإِنْسَانُ عَجُولًا مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ، قَالَ:
« ثُمَّ أَعُوذُ الرَّابِعَةَ فَأُحْدِثُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أُخْرِجُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ
رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبَرِيَّائِي وَعَظَمَتِي لَا أُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

الرواية الثانية:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجْمَعُ اللَّهُ
النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ
آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقْتَ اللَّهَ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ

(١) البخاري (٧٥١٠)، مسلم (١٩٣).



فَسَجِدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا. فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، وَيَقُولُ: ائْتُوا نُوحًا، أُولَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا عِيسَى فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَاذُنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ. سَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَارْفَعْ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُثُ لِي حَدًّا، ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقْعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ، أَوِ الرَّابِعَةِ، حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ» وَكَانَ قِتَادَةً، يَقُولُ عِنْدَ هَذَا: «أَيَّ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ»^(١).

الرواية الثالثة:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يُحْبَسُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُهْمُّوا بِذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فِيرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، لَتَشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، قَالَ: وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ: أَكَلَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَقَدْ نُهِيَ عَنْهَا، وَلَكِنْ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ نَبِيِّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ: سُؤَالَهُ رَبَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلَكِنْ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، قَالَ: فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ

(١) البخاري (٦٥٦٥)، مسلم (١٩٣).



هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ كَذَبْنَنَ، وَلَكِنْ ائْتُوا مُوسَى: عَبْدًا آتَاهُ اللَّهُ التَّوْرَةَ، وَكَلَّمَهُ، وَقَرَّبَهُ نَحِيًّا، قَالَ: فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ النَّبِيُّ أَصَابَ قَتْلَهُ النَّفْسَ، وَلَكِنْ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَرُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ، قَالَ: فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنْ ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَبْدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَاسْتَادَنْ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ فَيُؤَذِّنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي، فَيَقُولُ: ارْزُقْ مُحَمَّدٌ، وَقُلْ يُسْمِعْ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَتْنِي عَلَى رَبِّي بِشَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمْنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُثُ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، - قَالَ قَتَادَةُ: وَسَمِعْتُهُ أَيْضًا يَقُولُ: فَأَخْرُجُ فَأَخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - ثُمَّ أَعُودُ الثَّانِيَةَ: فَاسْتَادَنْ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤَذِّنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي، ثُمَّ يَقُولُ: ارْزُقْ مُحَمَّدٌ، وَقُلْ يُسْمِعْ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَتْنِي عَلَى رَبِّي بِشَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمْنِيهِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُثُ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، - قَالَ قَتَادَةُ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَأَخْرُجُ فَأَخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ: فَاسْتَادَنْ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤَذِّنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي، ثُمَّ يَقُولُ: ارْزُقْ مُحَمَّدٌ، وَقُلْ يُسْمِعْ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَتْنِي عَلَى رَبِّي بِشَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمْنِيهِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُثُ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، - قَالَ قَتَادَةُ وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَأَخْرُجُ فَأَخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - حَتَّى مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (٧٩) [الإسراء: ٧٩]، قَالَ: «وَهَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وَعَدَهُ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (١).

التفسير الأولي:

استدل من يقول بجواز الذنب على الأنبياء سواء الصغيرة أو الكبيرة بهذا الحديث، وقالوا هذا حديث صريح يقول بذنوب الأنبياء ولا حاجة لتأويله.

التفسير العرفاني:

قال شرف الدين الطيبي رحمه الله تعالى: قال الشيخ محيي الدين رحمه الله: والحكمة في أن الله تعالى ألهمهم سؤال آدم ومن بعده صلوات الله تعالى وسلامه عليهم في الابتداء، ولم يلهموا سؤال نبينا ﷺ إظهاراً لفضيلة نبينا ﷺ، فإنهم لو سألوه ابتداء لكان يحتمل أن غيره يقدر على هذا. فأما إذا سألوه غيره من رسل الله تعالى وأصفياه فامتنعوا، ثم سألوه فأجاب وحصل غرضهم فهو النهاية في ارتفاع المنزلة كمال القرب، وفيه تفضيله على جميع المخلوقين من الرسل والآدميين والملائكة^(١).



قلت: أوردنا في بحثنا هذا ثلاث روايات، واحدة منها لا يوجد فيها لفظ الخطيئة، والثانية مع لفظ الخطيئة دون ذكر نوعها، والثالثة مع ذكر نوع الذنب، وجميع هذه الروايات في كتب الصحاح. لكن العجيب أن الذين اعتادوا على إساءة الأدب مع الأنبياء وجوّزوا وقوعهم في الذنب، نراهم في أغلب كتبهم ومحاضراتهم إذا أرادوا أن يذكروا حديث الشفاعة فقليل ما يذكرون الرواية التي ليس فيها لفظ الخطيئة ونوع الذنب، ويركّزون على التي ذكر فيها الخطيئة ونوعها.

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ج ١١ ص ٣١٥٨.



وليتهم حين ذكروا تلك الروايات يَبْنُوا للناس العقيدة الصحيحة في عصمة الأنبياء وعدم وقوعهم في الذنب، ويتأدبوا مع من أرسلهم الله ﷺ لهداية الناس. بل لم نسمع أحدا منهم يذكر رواية الإمام أحمد الصحيحة والتي من تأمل فيها يجد الكثير من خصائص رسول الله ﷺ وفضائله وفواضله، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فصلى الغداة، ثم جلس، حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جلس مكانه حتى صلى الأولى والعصر والمغرب، كل ذلك لا يتكلم، حتى صلى العشاء الآخرة، ثم قام إلى أهله، فقال الناس لأبي بكر: ألا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شأنه؟ صنع اليوم شيئا لم يصنعه قط، قال: فسأله، فقال:

«نعم عرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا، وأمر الآخرة، فجمع الأولون والآخرين بصعيد واحد، ففطع الناس بذلك، حتى انطلقوا إلى آدم عليه السلام، والعرق يكاد يلجمهم، فقالوا: يا آدم، أنت أبو البشر، وأنت اصطفاك الله عز وجل، اشفع لنا إلى ربك، قال: قد لقيت مثل الذي لقيتم، انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم، إلى نوح: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، قال: فينطلقون إلى نوح عليه السلام، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فأنت اصطفاك الله، واستجاب لك في دعائك، ولم يدع على الأرض من الكافرين ديارا، فيقول: ليس ذاكم عندي، انطلقوا إلى إبراهيم عليه السلام، فإن الله عز وجل اتخذ خليلا، فينطلقون إلى إبراهيم، فيقول: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى موسى عليه السلام، فإن الله عز وجل كلمه تكليما، فيقول موسى عليه

السلام: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى عيسى ابن مريم، فإنه يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، فيقول عيسى عليه السلام: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم، فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، انطلقوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فيشفع لكم إلى ربكم عز وجل.

قال: فينطلق، فيأتي جبريل عليه السلام ربه، فيقول الله عز وجل: ائذن له، وبشره بالجنة، قال: فينطلق به جبريل فيخر ساجدا قدر جمعة، ويقول الله عز وجل: ارفع رأسك يا محمد، وقل يسمع، واشفع تشفع، قال: فيرفع رأسه، فإذا نظر إلى ربه عز وجل، خر ساجدا قدر جمعة أخرى، فيقول الله عز وجل: ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع، قال: فيذهب ليقع ساجدا، فيأخذ جبريل عليه السلام بضبعيه فيفتح الله عز وجل عليه من الدعاء شيئا لم يفتحه على بشر قط، فيقول: أي رب، خلقتني سيد ولد آدم، ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض الأنبياء، قال: فيجيء النبي ومعه العصاة، والنبي ومعه الخمسة والستة، والنبي ليس معه أحد، ثم يقال: ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا، قال: فإذا فعلت الشهداء ذلك، قال: يقول الله عز وجل: أنا أرحم الراحمين، أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئا، قال: فيدخلون الجنة.

قال: ثم يقول الله عز وجل: انظروا في النار: هل تلقون من أحد عمل خيرا قط؟ قال: فيجدون في النار رجلا، فيقول له: هل عملت خيرا قط؟ فيقول: لا، غير أنني كنت أسامح الناس في البيع، فيقول الله عز وجل: أسامحوا لعبدي كأسامحه إلى عبيدي.



ثم يخرجون من النار رجلاً فيقول له: هل عملت خيراً قط؟ فيقول: لا، غير
أني قد أمرت ولدي: إذا مت فأحرقوني بالنار، ثم اطحنوني، حتى إذا كنت مثل
الكحل، فاذهبوا بي إلى البحر، فاذروني في الريح، فوالله لا يقدر علي رب العالمين
أبداً، فقال الله عز وجل له: لم فعلت ذلك؟ قال: من مخافتك، قال: فيقول الله عز
وجل: انظر إلى ملك أعظم ملك، فإن لك مثله وعشرة أمثاله، قال: فيقول: لم
تسخر بي وأنت الملك؟ قال: وذاك الذي ضحكت منه من الضحى^(١)، ففي هذه
الرواية لم يذكر لفظ (الخطيئة).

وبما أن الروایتين صحيحتان فسُئِلَ معنى الخطيئة، وكيف أُضيفت للنبي
ﷺ في هذا المقام، ونزّه مقام النبوة عن ارتكاب الصغيرة والكبيرة.

الخطيئة لغة: قال ابن منظور: وقال الأموي: المخطئ: من أراد الصواب،
فصار إلى غيره، والخاطئ: من تعمد لما لا ينبغي، وتقول: لأن تخطئ في العلم
أيسر من أن تخطئ في الدين. ويقال: قد خطئت إذا أثمت، فأنا أخطأ وأنا خاطئ؛
قال المنذري: سمعت أبا الهيثم يقول: خطئت: لما صنعه عمداً، وهو الذنب،
وأخطأت: لما صنعه خطأً، غير عمد^(٢).

وقال الفارابي: والخطء: الذنب، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ خِطَاءً
كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١] أي إثمها، والخاطئ: من تعمد لما لا ينبغي^(٣). وقال الحريري:
الْخُطِيئَةُ تقع على الصَّغِيرَةِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا وَعَلَى

(١) الإمام أحمد (١٥).

(٢) لسان العرب ج ١ ص ٦٧.

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ج ١ ص ٤٧.

سَائِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ السَّلَامُ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢)
 [الشعراء: ٨٢]، وَيَقَعُ عَلَى الْكَبِيرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ
 بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) [البقرة: ٨٠].

وفي الاصطلاح:

قال ابن فورك: الخطيئة: الزوال عن الاستقامة المؤدية إلى البغية^(١). وقال
 الزجاج: ويقع عليها اسم الإثم أو اسم الخطيئة^(٢). وقال الراغب الأصفهاني:
 والخطيئة أكثر ما يقال فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه، بل يكون مقصوداً إلى
 سببه كمن يرمي صيداً، فأصاب سهمه إنساناً^(٣).

وقال الزمخشري: وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال: سبحانه الله: إلا
 أراك ذا حلية وما تدري ما الخطيئة، انظر في المصحف فكل آية نهى فيها الله عنها
 وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة المحيطة^(٤). وقال أبو حيان
 التوحيدي: الخطيئة: فعيلة من الخطأ، والخطأ: العدول عن القصد، يقال خطئ
 الشيء: أصابه بغير قصد، وأخطأ: إذا تعمد^(٥).

إذاً الخطيئة ما بين الخطأ المتعمد والغير متعمد والإثم والذنب، وكل هذا
 ممنوع في الأنبياء للعصمة، وإذا ما أضافها النبي ﷺ لنفسه في الحديث، فهذا

(١) تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون ج ١ ص ٢٣١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ج ٢ ص ١٠٣.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ج ١ ص ٢٤٣.

(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ج ١ ص ١٥٨.

(٥) البحر المحيط في التفسير ج ١ ص ٣٥١.



لا يُسوغ لنا أن نرميه بها، فهو يضيفها إلى نفسه نسبة إلى كمال حاله في مقامات المشاهدة، وإظهارا للذل والافتقار إلى مولاه، ورؤية حسناتهم سيئات أمام مولاهم، فلا يجوز لنا أن نستشهد بأحاديث استغفار الأنبياء من الذنوب والخطايا ونسبة الظلم إلى أنفسهم على جواز الذنب عليهم.

أما حديث الشفاعة فالتفصيل فيه كالتالي:

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يعلمون علم اليقين أن مقام الشفاعة في ذلك الموقف ليس لأحد منهم، وهو لسيدنا محمد ﷺ. والأنبياء جُبلوا على الرحمة بالعباد، وجبر الخواطر، والإحسان لمن أساء إليهم، ولا يردون سائلا سألهم أو مستجيرا استجار بهم حتى وإن كان كافرا قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَّهُ﴾ [التوبة: ٦]، وأكثر المواقف شدة على المخلوقات هو موقف الحشر، فيذهب الناس إلى الأنبياء الذين أرسلهم الله ﷻ لهدايتهم ودلالتهم على الحق ﷻ. فيستجيرون بهم ويطلبون منهم الشفاعة لبدء الحساب. وكما قلنا فالأنبياء أكرم الناس وأجودهم، ومن شيمة الكريم ألا يرد من استجار به لحاجة، وإن لم يستطع فيعتذر له بلطف حتى وإن نسب النقص لنفسه في عدم القدرة على نجدة من استجار به، وإن وجد من يقضي حاجته أرسله إليه. وهذا ما حدث مع الأنبياء عندما استجار الناس بهم، فلم يتردوهم ويعنفوهم، ولم يقولوا لهم أنتم كذبتُمونا وحاربتُمونا فاذهبوا فلا نشفع لكم. وإن قالوها لصدقوا فيما قالوا ولا عتاب عليهم. ولكن خُلِقهم العظيم وما جُبلوا عليه من الرحمة التي أودعها الله في قلوبهم منعهم من ذلك. فسيدنا آدم ﷺ اعتذر بأكله من الشجرة، وقد وضحنا حقيقة الأكل في الآيات



التي تحدثت عن سيدنا آدم عليه السلام وبيننا أنه لا ذنب ولا معصية في حقه. ثم لم يتركهم مُعلقين بعد الاعتذار، بل أرسلهم إلى سيدنا نوح عليه السلام، ونوح عليه السلام فعل كما فعل سيدنا آدم عليه السلام واعتذر متعللاً بسؤاله ربه ﷻ أن يُنجي ولده. وبعد الاعتذار لم يتركهم حائرين بل أرسلهم إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، وما كان من سيدنا إبراهيم عليه السلام إلا الاعتذار بنسبة الكذب إليه وحاشاه، وأرشدهم إلى موسى عليه السلام، فاعتذر سيدنا موسى عليه السلام بقتل القبطي وأرسلهم إلى عيسى عليه السلام، فلما وصلوا إلى عيسى أرشدهم إلى صاحب المقام المحمود واللواء المعقود سيدنا محمد ﷺ فيقول أنا لها أنا لها.

وهذا الخلق العظيم من الأنبياء والمرسلين هو أحد الفوائد المهمة والكثيرة الموجودة في هذا الحديث، والتي يجب أن يتصف بها المسلم ويتخلق بها. فما أخبرنا من بعثه الله ليتمم مكارم الاخلاق ﷺ إلا لنقتدي بهم عليهم السلام في هذه الحياة الدنيا. والله أعلم.

وكل ما ورد في الحديث من خطايا الأنبياء وضحناها وذكرنا فيها أقوال العارفين بالله وأهل التحقيق من المفسرين في تفسيرنا للآيات القرآنية التي تخصهم فلا حاجة للإعادة هنا.



الحديث الحادي عشر

عَنْ أَزْهَرَ بْنِ سَعِيدٍ الْحَرَاذِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا كَبْشَةَ الْأَتَمَارِيَّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا فِي أَصْحَابِهِ فَدَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ وَقَدْ اغْتَسَلَ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كَانَ شَيْءٌ قَالَ: «أَجَلٌ، مَرَّتْ بِي فُلَانَةٌ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِي شَهْوَةُ النِّسَاءِ، فَأَتَيْتُ بَعْضَ أَزْوَاجِي فَأَصَبْتُهَا، فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا، فَإِنَّهُ مِنْ أَمَائِلِ أَعْمَالِكُمْ إِيْتَانُ الْحَالَالِ»^(١).

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً، فَأَتَى امْرَأَتَهُ زَيْنَبَ، وَهِيَ تَمْعَسُ مَنِيَّةً لَهَا، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»^(٢).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ، فَأَتَى سَوْدَةَ وَهِيَ تَصْنَعُ طَبِيبًا، وَعِنْدَهَا نِسَاءٌ فَأَخْلَيْنَهُ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ رَأَى امْرَأَةً تُعْجِبُهُ فَلْيَقُمْ إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا»^(٣).

اختلفت الروايات لهذا الحديث وكله تشير إلى أنه ﷺ نظر إلى امرأة فوقعت شهوة النساء في قلبه، أو أعجبته، فأتى أهله، وحاشاه ﷺ فيما نسب إليه.

ولقد تتبعت شراح هذه الأحاديث، فمنهم من قال هذا من صفات النفس

(١) مسند الإمام أحمد (١٨٠٢٧).

(٢) صحيح مسلم (١٤٠٣)، وأبو داود (٢٢٥١)، الترمذي (١١٥٨).

(٣) ابن ماجه (٢٢١٦).

البشرية والطبيعة الإنسانية، ومنهم من ارتفع في تنزيهه قليلا فقال هو من باب التعليم لأمته؛ لأنه المشرع والمبين للأحكام.

قال الإمام النووي رحمه الله: «قَالَ الْعُلَمَاءُ إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا بَيَانًا لَهُمْ وَإِرْشَادًا لِمَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ فَعَلَّمَهُمْ بِفِعْلِهِ وَقَوْلِهِ وَفِيهِ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِطَلَبِ الرَّجُلِ أَمْرَاتِهِ إِلَى الْوُقَاعِ فِي النَّهَارِ وَغَيْرِهِ وَإِنْ كَانَتْ مُشْتَغَلَةً بِمَا يُمْكِنُ تَرْكُهُ لِأَنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَتْ عَلَى الرَّجُلِ شَهْوَةٌ يَتَضَرَّرُ بِالتَّأْخِيرِ فِي بَدَنِهِ أَوْ فِي قَلْبِهِ وَبَصَرِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ»^(١).

قال شهاب الدين بن رسلان الرملي رحمه الله: «وصفه ﷺ لدواء ذلك الداء المحرك للشهوة للنساء يطفئها بالجماع وإراقة ما تحرك من الماء، إذ هو - صلى الله عليه وسلم - طيب أمته ومرشدهم إلى مصالح أمورهم»^(٢).

قلت: حاشا لله أن نطعن في صحيح مسلم أو في الأحاديث الصحيحة، لكن مقام رسول الله ﷺ أعلى وأعظم من أن يتهم بدخول الشهوة في قلبه جراء النظر إلى امرأة، والحديث وإن كان صحيحا فلا يعمل به ولا يقبل إذا كان يعارض صريح القرآن الكريم، والأحاديث المذكورة تعارض صريح القرآن والسنة ومقتضى العصمة.

وَيَرِدُ عَلَى قَوْلِ الْقَائِلِينَ أَنَّهُ ﷺ الْمَشْرَعُ لِأَمْتِهِ، وَقَالَ مَا قَالَ تَشْرِيعًا وَتَعْلِيمًا لِأَمْتِهِ، بَأَنَّهُ ﷺ قَدْ بَيَّنَّ هَذَا فِي عِدَّةِ رَوَايَاتٍ دُونَ ذِكْرِ قِصَّةِ نَظَرِهِ لِلْمَرْأَةِ وَوُقُوعِ الشَّهْوَةِ فِي قَلْبِهِ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، قَالَ: قَالَ جَابِرٌ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا أَحَدُكُمْ أَحْبَبَتْهُ الْمَرْأَةُ، فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ، فَلْيَعْمِدْ إِلَى أَمْرَاتِهِ فَلْيُؤَاقِعْهَا،

(١) شرح النووي على مسلم ج ٩ ص ١٧٩.

(٢) شرح سنن أبي داود ج ٩ ص ٤٩١.



فَإِنْ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»^(١). عن جابر رضي الله عنه أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، إِذَا أَحَدُكُمْ أَعْجَبَتْهُ الْمَرْأَةُ فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ فَلْيَعْمِدْ إِلَى أَمْرَاتِهِ فَلْيُؤَاقِعْهَا، فَإِنْ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»^(٢)**. فكفى بهذه الأحاديث تشريعا ونصحا وإرشادا للأمم دون أن نقول أن فلانة أعجبتة ووقعت في قلبه فأتى أهله، وحاشاه من كل ذلك.

وسنقف على بعض النقاط في هذه الأحاديث تبين مخالفتها لما جاء في الكتاب والسنة ومقتضى العصمة:

١ - قوله في رواية أحمد (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا فِي أَصْحَابِهِ فَدَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ وَقَدْ اغْتَسَلَ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كَانَ شَيْءٌ قَالَ: «أَجَلٌ، مَرَّتْ بِي فَلَانَةٌ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِي شَهْوَةُ النِّسَاءِ») وفي الحديث دلالة على أنه ﷺ كان جالسا بين أصحابه وقام واغتسل ورجع، مما يعني أنه رأى المرأة قبل هذا المجلس، وضل يفكر بها، والشهوة تجول في قلبه حتى قام مسرعا فأتى أهله واغتسل ورجع، فهل يعتقد بهذا مؤمن بالله ورسوله؟!!!!. لذلك نقول:

أ - معلوم أن الشهوة تدخل القلب بوسوسة الشيطان الرجيم، وهذا منزله عنه رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] فهل تسلط الشيطان على أكمل من تحقق بالعبودية ووسوس له حتى ينظر إلى المرأة بشهوة؟ وقوله تعالى ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] فالشيطان يبرأ ساحة العارفين بالله من قدرته على إغوائهم ونحن نتهم الرسول بالنظر بشهوة.

(١) مسلم (١٤٠٣).

(٢) مصابيح السنة (٢٣٠٥).



ولقد روى الحاكم في المستدرک عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النَّظَرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلٌّ وَعَزٌّ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»^(١).

ب- النبي ﷺ صاحب النفس الكاملة بإجماع الأمة، وحاشا لصاحب النفس الكاملة أن ينظر إلى امرأة فتقع شهوة النساء في قلبه، وهذا الفعل إنما يقع من صاحب النفس الأمارة أو الملهمة أو اللوامة، ولنا في قصة سيدنا يوسف عليه السلام عبرة، حيث لم يلتفت ولم يشتهي النساء رغم مراودتهم إياه، وبشتى الطرق والوسائل، لأنه النبي المعصوم، فكيف نجوز على من هو أكمل وأفضل من يوسف عليه السلام هذا الفعل؟ وهو الذي عُرف عنه أنه ما نظر إلى امرأة بشهوة حتى قبل بعثته، فكان أعف الخلق وأشرف الخلق.

ج- عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ «إِنَّمَا أَنَا مِنْكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ»^(٢). فهل إذا مرت البنت من أمام أبيها وقعت في قلبه الشهوة؟!.

د- هذا القول فيه طعن في أطهر وأنقى وأكمل قلب خلقه الله تعالى، قلب الإنسان الكامل الذي ما حوى سوى مولاه، القلب الذي تحمل نزول القرآن الذي لم تتحمله الجبال، القلب الذي قال له عنه «ما وسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن»^(٣). والمقصود به قلبه ﷺ فهو الذي وسع تجليات الحق عز وجل بجميع أسمائه وصفاته، فهل تدخل الشهوة على القلب بمجرد النظر إلى امرأة مرت من أمامه؟!.

(١) الحاكم في المستدرک (٧٩٥٦).

(٢) أبو داود (٨).

(٣) العجلوني في كشف الخفاء (١٨٨٤).

هـ- عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا حُبُّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١). وانتبه لقوله ﷺ (حُبِّ) ولم يقل (أحببت) أي هو ليس له التفات وحب لغير مولاه، وإنما حبب الله تعالى إليه النساء ليتزوج ويعلم الناس أحكام الزواج وتخرج منه الذرية الصالحة من آل البيت الطاهرين، ولكي تقتدي به الأمة، فتزوج وتتكاثر، ثم إنه لم يقل (وحُببت إِلَيَّ الصلاة) بل جعلت قرة عينه؛ لأنها ساعة الوصال مع الحبيب، وساعة دخول الحضرات، وساعة القرب من رب البريات. فهل من أمره الله تعالى بالزواج وحبب إليه هذا الأمر تشريعاً للأمة له شهوة في غير نسائه ﷺ؟!.

و- في القول المنسوب للصحابة الكرام رضي الله عنهم «يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كَانَ شَيْءٌ» إساءة واضحة لخير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، فهل هذا هو خلق الصحابة مع رسول الله ﷺ؟!، وهل هذا حياء الذين كانوا يجلسون كأن على رؤوسهم الطير في حضرته؟!، والله إن طالب العلم والسالك ليستحي أن يسأل شيخه عن شيء كهذا، فكيف نجوز هذا على خيرة الخلق بعد الأنبياء والمرسلين?!.

ز- في قوله «فَأَتَى امْرَأَتَهُ زَيْنَبَ، وَهِيَ تَمْعَسُ مِئِنَّةً لَهَا، فَقَضَى حَاجَتَهُ»، وقوله «فَأَتَى سَوْدَةَ وَهِيَ تَصْنَعُ طَيْبًا، وَعِنْدَهَا نِسَاءٌ فَأَخْلَيْنَهُ فَقَضَى حَاجَتَهُ» إساءة واضحة لرسول الله ﷺ حيث يصورنه بالرجل الذي غلبته الشهوة فلم يتحمل أن يكمل مجلسه مع أصحابه، بل والأدهى من ذلك دخل على زوجته فلم يمهلهما حتى تنتهي من عملها، وفي رواية أمر النساء فأخلين المجلس حتى يقضي حاجته، فأبي تشبيه أقبح من هذا، بل يقولون أنه ﷺ صرح باسم زوجته التي قضى حاجته معها، فهل في هذا تشريع كما يدعون?!.

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٣٤٥٤).



الحديث الأول

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَوْلُهُ: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [٨٨] ﴿الْصَّافَاتِ: ٨٩﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ٦٣]. وَقَالَ: بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةٌ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةَ قَالَ: يَا سَارَةُ: لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبْنِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلَهَا بِيَدِهِ فَأَخَذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ، فَدَعَتْ اللَّهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأَخَذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ، فَدَعَتْ اللَّهَ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخَذَمَهَا هَاجِرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ: مَهْيَا، قَالَتْ: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ، أَوْ الْفَاجِرِ، فِي نَحْرِهِ، وَأَخَذَمَ هَاجِرَ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ^(١).

(١) البخاري (٣٣٥٨)، مسلم (٢٣٧١)، الترمذي (٣١٦٦)، أحمد (٩٢٤١).

الحديث الثاني

نحن أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤَمِّنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

هذان الحديثان قد تمت الإجابة عنها، وبيان التفسير الذي يليق بمقام إبراهيم عليه السلام، وتم الرد بشكل مفصل على من أساء لسيدنا إبراهيم عليه السلام واتهمه بالشك والكذب، في الآيات القرآنية التي تخص سيدنا إبراهيم عليه السلام. وإتماما للفائدة فسنذكر هنا شرح الحديث لكبار علماء الأمة وحفاظها.

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في فتح الباري: قاله على طريق الاحتجاج على قومه، تنبيهها على أن الذي يتغير لا يصلح للربوبية، وهذا قول الأكثر. إنه قال توبيخا لقومه أو تهكما بهم وهو المعتمد، ولهذا لم يعد ذلك في الكذبات. وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً، لكنه إذا حقق لم يكن كذباً لأنه من باب المعارض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض. فقلوه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] يحتمل أن يكون أراد إني سقيم أي سأسقم، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيراً. ويحتمل أنه أراد إني سقيم بما قدر علي من الموت، أو سقيم الحجة على الخروج معكم. وحكى النووي عن بعضهم أنه كان تأخذه الحمى في ذلك الوقت، وهو بعيد؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن كذباً، لا تصريحاً ولا تعريضاً.

وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، قال القرطبي: هذا قاله تمهيداً للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة، وقطعا لقومه في قولهم: إنها تضر



وتنفع. وهذا الاستدلال يتجاوز فيه في الشرط المتصل، ولهذا أردف قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ بقوله: ﴿فَشَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. قال بن قتيبة معناه: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا، فالحاصل أنه مشترط بقوله: ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب.

وقوله: **هذه أختي** يعتذر عنه بأن مراده أنها أخته في الإسلام كما سيأتي وازحاحا. قال بن عقيل: دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقا به ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه. وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام.

وفي رواية هشام بن حسان أنه قال لها: إِنَّ هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، وإنك أختي في الإسلام. وفي رواية مسلم: فقام إبراهيم إلى الصلاة. فلما دخلت عليه أي على الملك لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة.

وفي رواية الأعرج المذكورة ولفظه: فقالت اللهم إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر. فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. في رواية مسلم: فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي ففعلت، قال فأرسل ثم تناولها الثانية فقبضت أشد من القبضة الأولى، فدعا بعض حجبته ودعا الذي جاء بها ولم أقف على اسمه. قوله: إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتني بشيطان. في رواية الأعرج: ما أرسلتم إليّ إلا شيطانا، أرجعوها إلى إبراهيم.



وفي الحديث مشروعية أخوة الإسلام وإباحة المعارض والرخصة في الانقياد للظالم والغاصب، وقبول صلة الملك الظالم، وقبول هدية المشرك، وإجابة الدعاء بإخلاص النية، وكفاية الرب لمن أخلص في الدعاء بعمله الصالح. وسيأتي نظيره في قصة أصحاب الغار. وفيه ابتلاء الصالحين لرفع درجاتهم، ويقال إن الله كشف لإبراهيم حتى رأى حال الملك مع سارة معانية، وإنه لم يصل منها إلى شيء، ذكر ذلك في التيجان، ولفظه: فأمر بإدخال إبراهيم وسارة عليه ثم نحى إبراهيم إلى خارج القصر وقام إلى سارة، فجعل الله القصر لإبراهيم كالقارورة الصافية فصار يراها ويسمع كلامهما^(١).



قال ابن حجر رحمه الله تعالى في شرح الحديث الثاني: معناه إذا لم نشك نحن فإبراهيم أولى أن لا يشك، أي: لو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أنه لم يشك، وإنما قال ذلك تواضعاً منه أو من قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم، وهو كقوله في حديث أنس عند مسلم: أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا خير البرية، قال: ذاك إبراهيم. وقيل إن سبب هذا الحديث أن الآية لما نزلت قال بعض الناس شك إبراهيم ولم يشك نبينا فبلغه ذلك فقال: نحن أحق بالشك من إبراهيم، وأراد ما جرت به العادة في المخاطبة لمن أراد أن يدفع عن آخر شيئاً، قال: مهما أردت أن تقوله لفلان فقله لي، ومقصوده لا تقل ذلك. وقيل أراد بقوله: نحن أمته الذين يجوز عليهم

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٦ ص ٣٩١-٣٩٤.

الشك، وإخراجه هو منه بدلالة العصمة. وقيل معناه هذا الذي ترون أنه شك أنا أولى به؛ لأنه ليس بشك، إنما هو طلب لمزيد البيان. وحكى بعض علماء العربية أن أفعل ربما جاءت لنفي المعنى عن الشيئين، نحو قوله تعالى: ﴿أَهْمَّ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ﴾ [الدخان: ٣٧].

أي لا خير في الفريقين ونحو قول القائل: الشيطان خير من فلان، أي لا خير فيهما. فعلى هذا فمعنى قوله: (نحن أحق بالشك من إبراهيم) لا شك عندنا جميعاً^(١).

تم بحمد الله

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٦ ص ٤١٢.

المراجع

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز، سيدي أحمد بن مبارك اللمطي السجلماسي (ت ١١٥٦هـ)، ط ١، ١٤٣١هـ.
- (٣) الأحاد والمثاني، أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (ت ٢٨٧هـ)، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية، الرياض، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- (٤) أحكام القرآن، لقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشيلي المالكي (ت ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- (٥) الإرشاد إلى توحيد رب العباد، جمع وتأليف: عبد الرحمن بن حماد آل عمر.
- (٦) الأسماء والصفات للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجَردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقل بن هادي الوادعي، مكتبة السوادى، جدة - المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- (٧) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- (٨) إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- (٩) أفضل الصلوات على سيد السادات، القاضي يوسف بن إسماعيل النبهاني.



- (١٠) الأملاني في آثار الصحابة للحافظ الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت ٢١١هـ)، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة.
- (١١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.
- (١٢) أوضح التفاسير، محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (ت ١٤٠٢هـ)، المطبعة المصرية ومكتبتها، ط ٦، رمضان ١٣٨٣ هـ - فبراير ١٩٦٤ م.
- (١٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط ٥، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- (١٤) بحر العلوم المعروف بتفسير السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت ٣٧٣هـ).
- (١٥) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ.
- (١٦) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (ت ١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ط ١، ١٤١٩ هـ.
- (١٧) بدع التفاسير، الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري، دار الرشد الحديثة.
- (١٨) البعث والنشور للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخشروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ، تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

(١٩) بهجة الاسرار ومعدن الأنوار في مناقب الباز الاشهب الشيخ عبد القار الجيلاني، علي بن يوسف الشطنوفي، تحقيق: جمال الدين فالح الكيلاني.

(٢٠) التحذير من البدع، عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ت ١٤٢٠هـ)، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط ١، ١٤١٢هـ.

(٢١) التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م.

(٢٢) تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ٣، ٢٠١١.

(٢٣) التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ.

(٢٤) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليهِ شرح الصدور في تحريم رفع القبور، محمد بن إسماعيل الصنعاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر، مطبعة سفير، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٤هـ.

(٢٥) تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري، عبد الرحمن بن ناصر البراك، تحقيق: عبد الرحمن بن صالح السديس، طبعت التعليقات بحاشية (فتح الباري)، مطبعة دار طيبة.

(٢٦) تفسير ابن برّجان (تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم)، المؤلف: الإمام العارف بالله عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد ابن برّجان اللخمي الإشبيلي (ت ٥٣٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.



(٢٧) تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون - آخر سورة السجدة، محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (ت ٤٠٦هـ)، دراسة وتحقيق: علاء عبد القادر بندويش (ماجستير)، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م.

(٢٨) تفسير التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التستري (ت ٢٨٣هـ)، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣هـ.

(٢٩) تفسير الثوري، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي (ت ١٦١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.

(٣٠) التفسير الحديث، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١، ١٣٨٣هـ.

(٣١) تفسير الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ج ١، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

(٣٢) تفسير الفاتحة والبقرة، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٣هـ.

(٣٣) تفسير القرآن العزيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإليبري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (ت ٣٩٩هـ)، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة، مصر، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.

(٣٤) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، (ت: ٣٢٧هـ) المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩هـ.

(٣٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

(٣٦) تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ.

(٣٧) تفسير القرآن الكريم، محمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني الإدريسي الحسني (ت ١٤١٩هـ)،

(٣٨) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (ت ١٩٧هـ)، تحقيق: ميكولوش موراني، دار الغرب الإسلامي، ج ١، ط ١، ٢٠٠٣ م.

(٣٩) تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية.

(٤٠) التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون، تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصلين العظيمين - الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة - على فهم الصحابة والتابعين. تفسير منهجي فقهي شامل معاصر، الأستاذ الدكتور مأمون حموش، المدقق اللغوي: أحمد راتب حموش، الناشر: (المؤلف)، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م.

(٤١) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦ م.

(٤٢) التفسير المظهري، المظهري، محمد ثناء الله، تحقيق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، باكستان، ط ١، ١٤١٢هـ.

(٤٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ٢، ١٤١٨هـ.



(٤٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧-١٩٩٨.

(٤٥) تفسير جزء عمّ، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١هـ)، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٣هـ.

(٤٦) تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت ٢١١هـ)، دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، ط ١، ١٤١٩هـ.

(٤٧) تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (ت ١٠٤هـ)، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط ١، ١٤١٠هـ.

(٤٨) تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت ١٥٠هـ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ.

(٤٩) تفسير وخواطر القرآن الكريم للشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (ت ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم.

(٥٠) تفسير يحيى بن سلام، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (ت ٢٠٠هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتورة هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٥١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، أبو الحسين المَلْطِي العسقلاني (ت ٣٧٧هـ)، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر.

(٥٢) تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (مرتباً بالآيات والسور)، أبو الحسن علي ابن أحمد السبتي الأموي المعروف بـ «ابن خير» (ت ٦١٤هـ)، جمع وترتيب: العاجز الفقير: عبد الرحمن القماش (من علماء الأزهر الشريف).

(٥٣) تهذيب الخصائص النبوية الكبرى، للحافظ جلال الدين السيوطي، هذبه: الشيخ عبدالله التليدي، دار البشائر الإسلامية.

(٥٤) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.

(٥٥) التوضيح الرشيد في شرح التوحيد المذيل بالتفنيد لشبهات العنيد، أبو عبد الله خلدون بن محمود بن نغوي الحقوي.

(٥٦) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٣٣هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

(٥٧) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٣٣هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق، ط ١، ١٤٢٣هـ.

(٥٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٥٩) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري (ت ١٤١٤هـ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٦٠) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري، أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، ت: ٣١٠هـ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٦١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد

زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط ١، ١٤٢٢ هـ.

(٦٢) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١ هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

(٦٣) جلاء القلوب من الاصداء الكونية في بيان احاطته بالعلوم الكونية، العالم الرباني سيدي محمد بن ادريس الكتاني، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٦ هـ.

(٦٤) جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١ هـ)، تحقيق: مختار إبراهيم الهائج، عبد الحميد محمد ندا، حسن عيسى عبد الظاهر، الأزهر الشريف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط ٢، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(٦٥) الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان، جمع: أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي الناشر: مكتبة ابن عباس، مصر، ط ١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(٦٦) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥ هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

(٦٧) حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (ت ١١٣٨ هـ)، دار الجيل، بيروت.

(٦٨) حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (ت ١١٣٨ هـ)، دار الجيل، بيروت، بدون طبعة.

(٦٩) الحاوي للفتاوي، الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر.

(٧٠) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٧١) الدر المشثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت.

(٧٢) درة الغواص في أوهام الخواص، القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري (ت ٥١٦هـ)، تحقيق: عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

(٧٣) درر الغواص على فتاوي سيدي علي الخواص، أبي المواهب عبد الوهاب الشعرائي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ.

(٧٤) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُو جردى الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

(٧٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (ت ١٠٥٧هـ)، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٣٥هـ.

(٧٦) رحمة الرحمن في تفسير وإشارات القرآن من كلام الشيخ الأكبر، محمود محمود غراب، دار النشر: ذوي القربى.

(٧٧) الرسل والرسالات، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١٠، ١٤١٠هـ.

(٧٨) روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٧٩) روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (ت ١١٢٧هـ)، دار الفكر، بيروت.

(٨٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.

(٨١) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.

(٨٢) زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي.

(٨٣) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي، أبو عبد الله مصطفى بن العدوي.

(٨٤) سنن ابن ماجه، ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

(٨٥) سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

(٨٦) سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

(٨٧) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٣٩٥هـ.

(٨٨) سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (ت ٣٨٥هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

(٨٩) السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

(٩٠) السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (ت ١٠٤٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٧هـ.

(٩١) السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت ٢١٣هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة. (٩٢) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي (ت ١١٢٢هـ)، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

(٩٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هندراوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض.

(٩٤) شرح العقيدة السفارينية، الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١هـ)، دار الوطن للنشر، الرياض، ط ١، ١٤٢٦هـ.

(٩٥) شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (ت ٧٩٢هـ)، تحقيق: جماعة من العلماء، تخرّيج: ناصر الدين الألباني، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي)، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.



(٩٦) شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١ هـ)، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢١ هـ.

(٩٧) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١ هـ)، دار الوطن للنشر، الرياض، ط ١، ١٤٢٦ هـ.

(٩٨) شرح سنن ابن ماجه،

(٩٩) شرح صحيح البخارى لابن بطلال، ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت ٤٤٩ هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط ٢، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

(١٠٠) شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ لِلْقَاضِي عِيَاضِ الْمُسَمَّى إِكْمَالُ الْمَعْلَمِ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى السبتي، أبو الفضل (ت ٥٤٤ هـ)، تحقيق: الدكتور يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

(١٠١) الشرك في القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، أصل هذا الكتاب: رسالة علمية نال بها الباحث درجة الماجستير بتقدير ممتاز من شعبة العقيدة بالجامعة الإسلامية، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد بن عطية الغامدي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

(١٠٢) الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرى البغدادي (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط ٢، ١٤٢٠ هـ.

(١٠٣) شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجَردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريره أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومبيي - الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومبيي بالهند، ط ١، ١٤٢٣ هـ.



(١٠٤) كشف الخفاء ومزيل الإلباس، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت ١١٦٢هـ)، المكتبة العصرية، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هندawi، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(١٠٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، أبو الفضل (ت ٥٤٤هـ)، دار الفيحاء، عمان، ط ٢، ١٤٠٧هـ.

(١٠٦) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(١٠٧) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

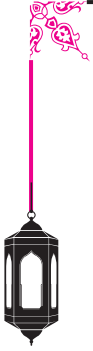
(١٠٨) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(١٠٩) الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٢، ١٤٠٨هـ.

(١١٠) عرائس البيان في حقائق القرآن، أبو محمد صدر الدين روزبهان ابن أبي نصر البقلي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٩هـ.

(١١١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت ٨٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ.

(١١٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.





(١١٣) فتاوى في التوحيد، عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم بن فهد بن حمد بن جبرين (ت ١٤٣٠هـ)، إعداد وتقديم: حمد بن إبراهيم الحريقي، دار الوطن للنشر، ط ١، ١٤١٨هـ.

(١١٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(١١٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، مكتب تحقيق دار الحرمين - القاهرة،

(١١٦) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي (ت ١٣٧٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط ٢.

(١١٧) الفتح الرباني والفيض الرحمان، سيدي عبد القادر الجيلاني، دار الكتاب العربي، ١٩٨٠م.

(١١٨) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ.

(١١٩) الفتوحات المكية، الشيخ الإمام محي الدين محمد بن علي الحاتمي الطائفي، المكتبة الشاملة المعدلة.

(١٢٠) الفتوحات المكية، للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي المعروف بابن عربي (ت ٦٨٣هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة ٢٠١١.

(١٢١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت ٤٥٦هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(١٢٢) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، مكتبة ابن تيمية، الكويت، ط٣، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(١٢٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، الشيخ العلامة المحدث محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي، دار الحديث في القاهرة، ٢٠١٠م.

(١٢٤) قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر، العلامة محمد بن يحيى التاذني الحلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٣، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

(١٢٥) كتاب التنوير في إسقاط التدبير، الإمام ابن عطاء الله السكندري.

(١٢٦) كتاب التنوير في إسقاط التدبير، الإمام ابن عطاء الله السكندري، ط٣، ١٤٣٤هـ.

(١٢٧) كتاب التوحيد (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (ت ١٢٠٦هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد وغيره، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ج ١، ط ٢.

(١٢٨) كتاب التوحيد، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (ت ١٢٠٦هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد وغيره، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(١٢٩) كتاب المواقف، عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدين الإيجي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجليل، لبنان، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(١٣٠) الكتاب: شرح سنن ابن ماجه، مجموع من ٣ شروح، «مصباح الزجاجة» للسيوطي (ت ٩١١هـ)، «إنجاح الحاجة» لمحمد عبد الغني المجددي الحنفي (ت ١٢٩٦هـ)، «ما يليق من حل اللغات وشرح المشكلات» لفخر الحسن بن عبد الرحمن الحنفي الكنكوهي (١٣١٥هـ).

(١٣١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جارا لله (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

(١٣٢) كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان، الإمام عبد الوهاب الشعراني، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ.

(١٣٣) الكشف والبيان عن تفسير القرآن المعروف بتفسير الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(١٣٤) الكَنْزُ الْمُطْلَسُ، الشيخ السيّد: محمد الشريف الحسني.

(١٣٥) لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت ٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

(١٣٦) اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت ٧٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(١٣٧) لتسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

(١٣٨) لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

(١٣٩) لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣.

(١٤٠) لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية، الشيخ عبد الوهاب الشعراني، دار ناشرون، ط٣، ٢٠١١.



(١٤١) المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنسائي)، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(١٤٢) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

(١٤٣) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، عبد الرؤوف محمد عثمان، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد إدارة الطبع والترجمة، الرياض، ط ١، ١٤١٤هـ.

(١٤٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.

(١٤٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل المعروف بتفسير النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت ٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.

(١٤٦) مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت ١٠١٤هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(١٤٧) مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت ١٠١٤هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(١٤٨) المستدرک على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.





(١٤٩) مسند ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي وأحمد بن فريد المزيدي الناشر: دار الوطن، الرياض، ط ١، ١٩٩٧م.

(١٥٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ.

(١٥١) مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت ٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقوق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وادل بن سعد (حقوق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقوق الجزء ١٨)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ١.

(١٥٢) مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: نبيل هاشم الغمري، دار البشائر، بيروت، ط ١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

(١٥٣) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١٥٤) معالم التنزيل في تفسير القرآن المعروف بتفسير البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

(١٥٥) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(١٥٦) معجم الشيوخ الكبير للذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايّاز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: الدكتور محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.



(١٥٧) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢.

(١٥٨) مفاتيح الغيب المعروف التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

(١٥٩) مفاهيم يجب أن تصحح، محمد بن علوي المالكي، دار جوامع الكلم.

(١٦٠) المنح المكية في شرح الهمزية، الإمام شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الهيتي الشافعي، دار المنهاج، ط ٣، ١٤٣٢ هـ.

(١٦١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢ هـ.

(١٦٢) المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، الأمير عبد القادر الجزائري (ت ١٣٠٠هـ)، تحقيق: الدكتور بكر علاء الدين، دار نينوى للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ١٤٣٤ هـ.

(١٦٣) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (ت ٩٢٣هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.

(١٦٤) موسوعة العلامة المحدث المتقن سيدي الشريف عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني، قدم لها: الشريف الدكتور عبد المنعم بن عبد العزيز الغماري، ط ٢، ١٤٣٨ هـ.

(١٦٥) نحو تأسيس عصر ديني جديد، محمد عثمان الخشت، القاهرة، نيو بوك للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٧ م.

(١٦٦) النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٦٧) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري (ت ١٣٤٥هـ)، دار الفيحاء، دمشق، ط ٢، ١٤٢٥ هـ.

(١٦٨) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد أحمد الحاج، دار القلم - دار الشامية، جدة - السعودية، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(١٦٩) الهداية إلى بلوغ الغاية، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

(١٧٠) هدى القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الاكوان، الشيخ المحدث عبد الله سراج الدين، مكتبة دار الفلاح، ط ١، ١٤١١هـ.

(١٧١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(١٧٢) الوفا بأحوال المصطفى، الإمام عبد الرحمن بن الجوزي، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٦هـ.

(١٧٣) اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر، الإمام أبي المواهب عبد الوهاب الشعراني، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٢٨هـ.



فهرس المحتويات

الإهداء	٥
مقدمة فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور علي جمعة	٧
مقدمة أ.د. يسري رشدي السيد جبر الحسني	٩
مقدمة الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم	١٢
مقدمة المؤلف	١٣
خطة الكتاب	٢١
بشارة	٢٣
الفصل الأول: عصمة الأنبياء	٢٥
عصمة الأنبياء	٢٧
اختلاف العلماء في عصمة النبي من الصغائر غير المستبحة:	٢٩
الأدلة على عصمتهم واصطفائهم من القرآن الكريم:	٤٣
الأدلة على عصمتهم من السنة المشرفة	٤٧
الأدلة العقلية على عصمتهم	٤٧
تنبيهات إضافية	٤٩
الفصل الثاني: الآيات القرآنية	٥٣
سيدنا محمد ﷺ	٥٥
سورة البقرة	٥٥
الآية الأولى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩]	٥٥
الرد على القائلين بعدم نجاه والدي النبي ﷺ:	٥٩



- الآية الثانية: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠] ٧٠
- الآية الثالثة: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] ٧٥
- الآية الرابعة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ٧٨
- سورة آل عمران ٨٣
- الآية الخامسة: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ٨٣
- سورة النساء ٩٦
- الآية السادسة: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩] ٩٦
- الآية السابعة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٧] ٩٨
- سورة المائدة ١٠٧
- الآية الثامنة: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] ١٠٧
- الآية التاسعة: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ١٠٩
- سورة الأنعام ١١٤
- الآية العاشرة: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤] ١١٤
- الآية الحادية عشرة: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥] ١١٦
- الآية الثانية عشرة: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٠] ١١٩
- الآية الثالثة عشرة: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٢] ١٢٨
- الآية الرابعة عشرة: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَكُمْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٦] ١٣٣
- سورة الأعراف ١٣٦
- الآية الخامسة عشرة: ﴿كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ٢] ١٣٦
- الآية السادسة عشرة: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨] ١٣٩
- الآية السابعة عشرة: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ١٥١



- سورة الأنفال..... ١٥٥
- الآية الثامنة عشرة: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ [الأنفال: ٦٧]..... ١٥٥
- سورة التوبة..... ١٦١
- الآية التاسعة عشرة: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]..... ١٦١
- الآية العشرون: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]..... ١٧٠
- الآية الحادية والعشرون: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِمَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]..... ١٧٧
- سورة هود..... ١٨٠
- الآية الثانية والعشرون: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ [هود: ١٢]..... ١٨٠
- الآية الثالثة والعشرون: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩]..... ١٨٥
- الآية الرابعة والعشرون: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ [هود: ١٠٩]..... ١٨٨
- سورة يوسف..... ١٩٢
- الآية الخامسة والعشرون: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]..... ١٩٢
- سورة الإسراء..... ١٩٨
- الآية السادسة والعشرون: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩]..... ١٩٨
- الآية السابعة والعشرون: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥]..... ١٩٩
- سورة الكهف..... ٢٠٤
- الآية الثامنة والعشرون: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]..... ٢٠٤
- سورة الحج..... ٢١١
- الآية التاسعة والعشرون: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الحج: ٥٢]..... ٢١١
- سورة الشعراء..... ٢٢٣
- الآية الثلاثون: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]..... ٢٢٣



- سورة القصص..... ٢٢٦
- الآية الحادية والثلاثون: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]..... ٢٢٦
- القسم الأول: الرد على تكفيرهم للأمة..... ٢٢٩
- الرد على من كفر زوار القبور..... ٢٣٢
- جواز التوسل إلى الله بجاه الأنبياء عند زيارة قبورهم..... ٢٣٤
- ١ - التوسل بقبر النبي ﷺ بإرشاد السيدة عائشة رضي الله عنها..... ٢٣٤
- السيدة عائشة وموقفها من قبر النبي ﷺ..... ٢٣٥
- ٢ - التوسل بقبر النبي ﷺ في خلافة عمر رضي الله عنه..... ٢٣٦
- ٣ - توسل المسلمين به يوم القيامة:..... ٢٣٧
- ٤ - التوسل به في المرض والشدائد:..... ٢٣٧
- ٥ - التوسل بغير النبي ﷺ:..... ٢٣٧
- ٦ - قصة العتبي في التوسل:..... ٢٣٨
- القسم الثاني في تفسير هذه الآية القول في أبي طالب عليه السلام..... ٢٤٤
- المفسرون القائلون بنجاة أبي طالب في تفسير هذه الآية..... ٢٤٥
- سورة الأحزاب..... ٢٤٩
- الآية الثانية والثلاثون: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]..... ٢٤٩
- الآية الثالثة والثلاثون: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]... ٢٥٢
- سورة ص..... ٢٦٨
- الآية الرابعة والثلاثون: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩]..... ٢٦٨
- سورة الزمر..... ٢٧٧
- الآية الخامسة والثلاثون: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الزمر: ٦٦]..... ٢٧٧



- سورة الشورى ٢٨٠
- الآية السادسة والثلاثون: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. ٢٨٠
- النور المحمدي أول المخلوقات ٢٨٨
- إثبات النبوة في طور الروحانية ٣٠٣
- طُور الشهادة وشهوده ﷺ على الأكوان في جميع الأزمان ٣١٠
- طُور البشرية المحمدية ٣١٦
- إثبات نبوته ﷺ منذ ولادته ٣١٧
- سورة الأحقاف ٣٢٢
- الآية السابعة والثلاثون: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]. ٣٢٢
- سورة غافر / سورة محمد ٣٢٧
- الآية الثامنة والثلاثون: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥]. ٣٢٧
- سورة الفتح ٣٣٢
- الآية التاسعة والثلاثون: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ﴾ [الفتح: ٢]. ٣٣٢
- سورة التحريم ٣٤٠
- الآية الأربعون: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]. ٣٤٠
- سورة المدثر ٣٤٦
- الآية الحادية والأربعون: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]. ٣٤٦
- سورة الإنسان ٣٥٠
- الآية الثانية والأربعون: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤]. ٣٥٠
- سورة عبس ٣٥٢
- الآية الثالثة والأربعون: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١-١٠]. ٣٥٢



- سورة الضحى ٣٥٨
- الآية الرابعة والأربعون: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ﴿٧﴾ [الضحى: ٧] ٣٥٨
- سورة الشرح ٣٦٣
- الآية الخامسة والأربعون: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ ﴿٢﴾ [الشرح: ١-٣] ٣٦٣
- سيدنا آدم عليه السلام ٣٧٢
- سورة البقرة ٣٧٢
- الآية الأولى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] ٣٧٢
- سورة الأعراف ٣٨٦
- الآية الثانية: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمَا صَالِحًا﴾ [الأعراف: ١٩٠] ٣٨٦
- سورة طه ٣٩٤
- الآية الثالثة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾ [طه: ١١٥] ٣٩٤
- الآية الرابعة: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] ٣٩٨
- سيدنا نوح عليه السلام ٤٠٥
- سورة هود ٤٠٥
- الآية الأولى: ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] ٤٠٥
- الآية الثانية: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ [هود: ٤٦] ٤٠٩
- سورة نوح ٤١٤
- الآية الثالثة: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ٤١٤
- سيدنا لوط عليه السلام ٤١٦
- سورة هود ٤١٦
- الآية الأولى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رَبِّي شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] ٤١٦



- ٤١٩..... سيدنا إبراهيم عليه السلام
- ٤١٩..... سورة البقرة
- ٤١٩..... الآية الأولى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠].
- ٤٢٦..... سورة الأنعام
- ٤٢٦..... الآية الثانية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٨].
- ٤٣٦..... سورة الأنبياء
- ٤٣٦..... الآية الثالثة: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣].
- ٤٤٤..... سورة الشعراء
- ٤٤٤..... الآية الرابعة: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].
- ٤٤٨..... سورة الصافات
- ٤٤٨..... الآية الخامسة: ﴿فَنظَرَنَّا فِي النَّجْمِ﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩].
- ٤٥٤..... سورة التوبة وسورة الشعراء
- ٤٥٤..... الآية السادسة: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [التوبة: ١١٤].
- ٤٦٣..... سيدنا يعقوب عليه السلام
- ٤٦٣..... سورة يوسف
- ٤٦٣..... الآية الأولى: ﴿إِذْ قَالَ لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَمَا مَتَّ﴾ [يوسف: ٨].
- ٤٦٦..... الآية الثانية: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٣].
- ٤٧١..... الآية الثالثة: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٨٤].
- ٤٧٤..... الآية الرابعة: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥].
- ٤٧٨..... سيدنا يوسف عليه السلام
- ٤٧٨..... سورة يوسف



- الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَءَاهُ بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]. ٤٧٨
- الآية الثانية: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]. ٤٩٢.....
- الآية الثالثة: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ [يوسف: ٤٢]. ٤٩٤.....
- الآية الرابعة: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. ٤٩٩.....
- الآية الخامسة: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف: ٧٠]. ٥٠٣.....
- الآية السادسة: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. ٥٠٧.....
- سيدنا أيوب عليه السلام** ٥١١.....
- سورة الأنبياء ٥١١.....
- الآية الأولى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. ٥١١.....
- الآية الثانية: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ [ص: ٤١]. ٥١٥.....
- سيدنا يونس عليه السلام** ٥٢٠.....
- سورة الأنبياء ٥٢٠.....
- الآية الأولى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. ٥٢٠.....
- الآية الثانية: ﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. ٥٢٥.....
- سورة الصافات ٥٣٠.....
- الآية الثالثة: ﴿فَالنِّقْمَةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]. ٥٣٠.....
- سيدنا موسى عليه السلام** ٥٣٢.....
- سورة آل عمران ٥٣٢.....
- الآية الأولى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠]. ٥٣٢.....
- سورة طه ٥٣٥.....
- الآية الثانية: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقَوْتُ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ [طه: ٦٦-٦٧]. ٥٣٥.....



- سورة الشعراء ٥٣٩
- الآية الثالثة: ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤] ٥٣٩
- الآية الرابعة: ﴿قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا أَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠-٢١] ٥٤٠
- سورة النمل ٥٤٣
- الآية الخامسة: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠-١١] ٥٤٣
- سورة القصص ٥٤٦
- الآية السادسة: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] ٥٤٦
- الآية السابعة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] ٥٥٠
- الآية الثامنة: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] ٥٥٢
- القول الفصل في خبر موسى والخضر عليهما السلام ٥٥٥
- الآيات القرآنية: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: ٦٥-٨٢] ٥٥٥
- مسائل تتعلق بسيدنا الخضر عليه السلام ٥٦٦
- المسألة الأولى: الخضر عليه السلام بين النبوة والولاية: ٥٦٦
- المسألة الثانية: هل أفعال الخضر عليه السلام بالسر والإشارة أم بالعمل الظاهر والمجهود؟ ٥٧٢
- سيدنا يوشع عليه السلام ٥٧٤
- سورة الكهف ٥٧٤
- الآية الأولى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣] ٥٧٤
- سيدنا داود عليه السلام ٥٧٦
- سورة الأنبياء ٥٧٦
- الآية الأولى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩] ٥٧٦
- سورة ص ٥٨٣



الآية الثانية: ﴿وَهَلْ أُنْتُكَ نَبُؤُا الْحَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْحَرَابَ ۖ﴾ [ص: ٢١-٢٥] .. ٥٨٣

الآية الثالثة: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ۖ﴾ [ص: ٢٦] ٥٩٧

سيدنا سليمان عليه السلام ٦٠٠

سورة النمل ٦٠٠

الآية الأولى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ۖ﴾ [النمل: ٢٠-٢٢] .. ٦٠٠

الآية الثانية: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ﴾ [النمل: ٤٤] ٦٠٥

سورة ص ٦٠٨

الآية الثالثة: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نَّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۖ﴾ [ص: ٣٠-٣٣] .. ٦٠٨

الآية الرابعة: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ ۖ﴾ [ص: ٣٤] ٦١١

سيدنا زكريا عليه السلام ٦١٨

سورة مريم ٦١٨

الآية الأولى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ ۖ﴾ [مريم: ٨-١٠] ٦١٨

سيدنا عيسى عليه السلام ٦٢٢

سورة المائدة ٦٢٢

الآية الأولى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧] ٦٢٢

الفصل الثالث: الأحاديث النبوية الشريفة ٦٢٧

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ٦٢٩

الحديث الأول: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْحَصَمُ...» ٦٢٩

الحديث الثاني: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» ٦٣٦

الحديث الثالث: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ...» ٦٤٣

الحديث الرابع: «إِنَّ أَوْلَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَتَلَتْ...» ٦٤٩



- بناء المساجد على القبور..... ٦٥٢
- اتخاذ القبر مسجدًا ليس هو المسجد الذي به ضريح ٦٦٦
- الحديث الخامس: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ.....» ٦٧٤
- بحث الشيخ محمد بن علوي رحمه الله تعالى المالكي في حديث شد الرحال .. ٦٨١
- الإمام مالك رحمه الله تعالى والزيارة:..... ٦٨٤
- استحباب زيارة النبي ﷺ عند الحنابلة وغيرهم: ٦٨٦
- كلام أئمة السلف في مشروعية زيارة سيدنا رسول الله ﷺ:..... ٦٨٦
- الحديث السادس: «أَنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي.....» ٦٩٧
- الحديث السابع: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ...» ٧٠٢
- الحديث الثامن: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةَ عُرَاةٍ...» ٧١٠
- الحديث التاسع: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»..... ٧١٣
- الحديث العاشر: «حديث الشفاعة»..... ٧٢٤
- الحديث الحادي عشر: «أَجَلٌ، مَرَّتْ بِي فُلَانَةٌ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِي شَهْوَةٌ النَّسَاءِ...» ٧٣٥
- سيدنا إبراهيم عليه السلام..... ٧٤٠
- الحديث الأول: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ.....» ٧٤٠
- الحديث الثاني: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»..... ٧٤١
- فهرس المحتويات ٧٦٥

تم بحمد الله

